

مُستعدُّون للمُجاوَبة

كيف تقدِّم إيمانك بعقلٍ ودقَّة

وليم لين كريغ

"في هذه الصفحات، ستتعلَّمُ أقوى الحُجج الداعمة للإيمان المسيحيّ، وليس هذا فقط، بل ستجدُ أيضًا الكيفيَّة التي تردُّ بها على أشهر الاعتراضات على تلك الحُجج، وستكتشفُ أنَّ هذا الكتابَ حقيقيٌّ بقوَّة، وشخصيٌّ على نحوٍ مَرِح، وعمليٌّ باتّساقٍ، كما أنَّه مُقنعٌ جدًّا في عرضه للقضيَّة ودعمه للإيمان المسيحيّ".

لي ستروبل (Lee Strobel)،
متشكّكٌ سابق، ومؤلّف مسيحيٌّ مشهور

"يمكن أن يُقالَ إنَّ وليَم لين كريغ هو أحدُ أفضل الفلاسفة المسيحيّين في عصرنا، وقد وضعتْه معرفتُه ومهارتُه الرفيعة ليكون متحدّثًا ومحاضرًا على منابر كثيرة في جميع القارَّات، حيث ينخرطُ في مناظَرات وحوارات مع أبرزِ المُتشكّكين في العالم".

رافي زكارياس (Ravi Zacharias)،
مؤسّس "خدمات رافي زكارياس الدوليَّة" (RZIM)

"لا يوجد ما يكفي من الكلام لوَصفِ الأثر الذي لا يزال وليَم لين كريغ يتركُه في ما يختصُّ بالكرازة بالمسيح. هو باختصارٍ أفضلُ وأكفأُ مَن دافعَ عن الإيمان المسيحيّ على مدار نصف القرن الماضي. فضلًا عن ذلك، فهو سفيرٌ متميّز للسيّد المسيح، قادرٌ على أَسْرِ القلوب، وهو مُناظِرٌ لا مثيلَ له، ورجلٌ يحمل قلبَ كارز. لقد عرفتُه عن قربٍ ويسعُني القَول إنَّه يحيا حياةً مستقيمةً متَّسقةً يعيش فيها ما يؤمنُ به. لا أعرف مُفكّرًا استطاعَ في جيلنا أن يَصِلَ بالبحث المسيحيّ إلى أعلى مستوياته أفضل من كريغ. هو شخصٌ لا يتكرَّر، وأنا أشكر الله من أجل حياته وأعماله".

جاي. پي. مورلاند (J. P. Moreland)
أستاذ الفلسفة في كلّيَّة لاهوت تالبوت (Talbot School of Theology)



مُستعدُّون للمُجاوَبة





مُستعدُّون للمُجاوَبة

كيف تقدِّم إيمانك بعقلٍ ودقَّة

وليم لين كريغ

ترجمة:

د. سامح فكري حنَّا   ماجد زاخر صبحي



ophir



الإهداء

إلى جميع المجاوبين

Originally published in English under the title: **On Guard.**

David C Cook, 4050 Lee Vance View, Colorado Springs, Colorado 80918, USA.

مُستعدُّون للمُجاوَبة

الطبعة العربية الأولى ٢٠١٧م

أوفير للطباعة والنشر

ص.ب. ٣٠٦٢، عمّان ١١١٨١، الأردن

هاتف: ٣٣٨١ ٤٦٣ ٦ ٩٦٢+

فاكس: ٣٣٨٥ ٤٦٣ ٦ ٩٦٢+

Email: info@ophir.com.jo

www.ophir.com.jo



رقم الإيداع: ٢٠١٧/١٠/٥٤٠٥

ISBN: 978-90-5950-231-4

قائمة المحتويات



تقديم الطبعة العربيَّة

ما تعريفُ الدفاعيَّات؟ وما مدى حاجتنا إليها، نحن المسيحيِّين في العالم العربي؟

الدفاعيَّات هي فرع من العلوم اللاهوتيَّة المسيحيَّة يهتمُّ بالتحدِّيات الفكريَّة التي يواجهها الإيمان المسيحيُّ.

في خريف عام ٢٠١٠م، دُعيتُ لأحد المؤتمرات المهتمَّة بالدفاعيَّات. استمعتُ في ذلك المؤتمر إلى عددٍ كبيرٍ من المدافعين عن الإيمان المسيحيِّ من شتَّى بقاع الأرض. تكلَّم أولئك عن التحدِّيات المعاصرة، العلميَّة والفلسفيَّة، التي يُثيرها مفكِّرون مختلفون، ويحسبونها عائقًا أمام قبول الحقِّ المسيحيِّ. وقبل نهاية المؤتمر، طُلِبَ إليَّ دون سابق اتِّفاق أن أقول كلمةً بوصفي المتكلِّمَ الوحيدَ الحاضرَ من العالم العربيّ. قلتُ للحضور يومها: "بعد الاستماع لكم وأنتم تمثِّلون شتَّى بقاع الأرض، شعرتُ بأنَّنا في العالم العربيِّ نعيش على كوكبٍ آخر، وننتمي إلى حضارة أخرى. فالتحدِّي الذي تواجهونه يختلف اختلافًا كبيرًا عن الذي نواجهه نحن؛ فأنتم مشتَبِكون طَوال الوقت مع أناس لديهم أسئلة وشكوك، بينما نصارع نحن طَوالَ الوقت مع أناس لديهم إجاباتٌ ويقينيَّات، إلَّا أنَّها للأسف إجابات خاطئة ويقينيَّات زائفة".

شعرتُ يومها بأنَّنا نحتاج في العالم العربي إلى شيءٍ ما قادرٍ على استفزاز العقل ليَخرُجَ من سُباته كي يتساءل ويتشكَّك.

وبعد بضعة أسابيع من هذا المؤتمر، دخل العالم العربيُّ في مرحلة صعبة من الثورات الشعبيَّة الضخمة، والتغيُّرات السياسيَّة الكبرى، والحروب الأهليَّة الدَّموية. فكانت تلك مرحلةً مؤلمةً لم يخرج منها حتَّى تاريخ كتابة هذه السطور. وقد غابت كلُّ أوجه الاستقرار من الشعوب العربيَّة، وغابَ

معها أيضًا الاستقرار الفكريُّ المُرضي الذي أصابَ العقول بالتيبُّس، وأصاب المجتمعات بالركود والإفلاس الروحيِّ والفكريِّ والأخلاقيّ.

وفي سياقٍ متَّصل، أقول إنَّنا تعلَّمنا في الفلسفة أنَّه يلزمُ كلَّ اعتقادٍ بنيةٌ ما تجعلُه مقبولًا. ويمكنني وصفها ببنية الاستساغة العقلية لهذا المعتقد أو ذاك (Plausibility Structure). وتتكوَّنُ هذه البنية من تراكيبَ اجتماعيَّةٍ وسياسيَّةٍ واقتصاديَّةٍ وغيرها. وما يحدث في العالم العربيِّ أدَّى إلى تفكيك هذه البنى، ممَّا جعل المعتقدات تهتزُّ بشدَّة إذ فقدت بنيتها التحتيَّة. وعندما تهتزُّ المعتقدات تفقد العقول استقرارها، وتخرج من سباتها وتطرح أسئلتها. وهذا الوضع يجعلُ الدفاعيَّات المسيحيَّة ضرورةً حتميَّة.

فلنعترفْ أنَّ الكنيسةَ في العالم العربيِّ لم تكن مهتمَّةً بالدِّفاعيات في الماضي، وذلك لعدم بروز الحاجة إليها من جانب، ولأنَّ الكنيسةَ تحملُ ثقافةَ مجتمعها بسلبيَّاته وإيجابيَّاته من جانب آخر. أمَّا اليوم، وأمام تيَّارٍ فكريٍّ عاصف يجتاح منطقتنا يتحدَّى من جهة الحقِّ المسيحيِّ، بينما يخلقُ من جهةٍ أُخرى فرصًا غير مسبوقة لتقديم الإنجيل، فإنَّ الكنيسة لم تعُدْ تملك رفاهية عدم الاهتمام بالدفاعيَّات، بل عليها أن تعمل كلَّ ما في وسعها لتلتحمَ بمجتمعها، فتنظرَ إلى ما تطرحه العقول من أسئلة، وتدرِّب نفسها، بِرجالها ونسائها، وشيوخها وشبابها، على التعامل الجيِّد مع أسئلةِ الناس من حولها وشكوكهم أيضًا.

ومن الجدير بالذكر هنا أنَّ الدفاعيَّات لا تخلِّصُ النفوس؛ فما يخلِّصهم هو حقُّ الإنجيل، وعملُ الروح القدس فيهم. لكنْ كثيرًا ما تكون هناك أحجارٌ تحتاج لأنْ تُرفَع من طريق الباحث عن الحقيقة ليَصِلَ إليها، وهذا هو عمل المدافعين. وتعريفي الخاصُّ للدفاعيَّات هو أنَّها تقديم محاجَّةٍ أمينة بحسب الكتاب المقدَّس، تكون سليمة منطقيًّا، وواعية ثقافيًّا أمام التحدِّيات المعاصرة للإيمان المسيحيّ، وتهدف إلى جَسْرِ الهوَّة، ورفع العقبات من طريق أيِّ باحث عن الحقيقة. وعليه فعمل المدافع لا ينفصل عن عمل الكارز، ولا يُغني عنه.

وفي هذا الصدد أشعر بالشُّكرِ لله لأنَّ التاريخ المسيحيَّ لم يخلُ في كلِّ عصوره من مدافعين عظماء عن الإيمان المسيحيِّ القويم، بدءًا من جاستن مارتير في القرن الثاني للميلاد وُصولًا إلى اليوم. ولا يستطيع أحد اليوم من كلِّ المهتمِّين بالدفاعيَّات أن ينكرَ أنَّ وليم لين كريغ، هو العلَّامة الأهمُّ، والرمز الكبير لعلم الدفاعيَّات المسيحيَّة في عصرنا الحاليّ، بل إنِّي أومنُ بأنَّ إسهاماته الفلسفيَّة واللاهوتيَّة في هذا المجال ستظلُّ كنزًا وإرثًا للأجيال اللاحقة.

وكم فعلَتْ أُوفير حسنًا إذ ترجمت هذا الكتاب الذي يُعدُّ أحدَ أبسَطِ وأسهَلِ ما كتبه كريغ، ليكونَ أفضلَ ما يبدأ به كلُّ مؤمن بالمسيح يتوق إلى فهم أفضل لإيمانه. وليكونَ أداةً جيِّدةً يستخدمها كلُّ مَن يرغبُ في مساعدة الباحثين عن الحقيقة.

د. ماهر صموئيل،

مصر



الفصل الأوَّل

ما الدفاعيَّات؟

"مُستَعِدِّينَ دائمًا لمُجاوَبَةِ كلِّ مَن يَسأُلُكُم عن سببِ الرَّجاءِ الذي فيكُم" (١بطرس ٣: ١٥).

أعلِّمُ في أحد الصفوف في الكنيسة منهاجًا بعُنوان "المدافِعون" (Defenders)، وذلك لمجموعة تضمُّ نحو مئةِ شخصٍ من خلفيَّاتٍ مختلفة تتراوح ما بين طلَّاب المدارس الثانويَّة وكِبار السنّ، وذلك في كنيستنا المحلِّيَّة في مدينة أطلانطا (Atlanta). ويشغلنا في هذا الصفّ أمران: ما الذي يُعلِّمه الكتاب المقدَّس (التعليم المسيحيّ) والكيفية التي يمكن بها أن ندافعَ عن هذا التعليم، ونجاوبَ عن الأسئلة المطروحة حوله (الدفاعيَّات المسيحيَّة). وأحيانًا يَلتبِسُ الأمر على الأشخاص الذين لا يحضرون معنا، فيعجزون عن استيعاب ما نفعل. في أحد الأيَّام جاءتني سيِّدةٌ محترمةٌ من الجنوب بعد أن عَلِمَتْ أنّي أُعلِّم الدفاعيَّات المسيحيَّة لتقول لي بنبرةٍ ساخطة: "لن أُقدِّم بتاتًا دفاعًا واعتذارًا عن إيماني!".

دفاعيَّات Apologetics

تُشتَقُّ كلمةُ "Apologetics" الإنكليزيَّة من الكلمة اليونانيَّة "أبولوجيا" (Apologia) التي تعني "الدفاع" بالمعنى الذي نستخدمه في المحاكم. فمهمَّة الدفاعيَّات المسيحيَّة إذًا هي تقديم الحُجَّة على صحَّة الإيمان المسيحيِّ وصِدقه.

المقصود بالدفاعيَّات

السبب وراء سوء الفهم الذي حدث لهذه السيِّدة واضح؛ فكلمة "دفاعيَّات" (بالإنكليزيَّة Apologetics) تُشبه في مَسمَعِها كلمة "يعتذر" (بالإنكليزيَّة* [Apologize]). لكنَّ الدفاعيَّات لا تُعلِّمنا كيف نقدِّم "اعتذارًا" للآخرين عن

* تحمل الكلمة أيضًا دلالة "الاعتذار" التي قد لا نجدها بوضوح في كلمة "دفاع" (المترجم).

مسيحيَّتنا، بل هي تُشتَقُّ كلمةُ "Apologetics" الإنكليزيَّة من الكلمة اليونانيَّة "أبولوجيا" (Apologia) التي تعني "الدفاع"[†] بالمعنى الذي نستخدمه في المحاكم. فمهمَّة الدفاعيَّات المسيحيَّة إذًا هي تقديم الحُجَّة[‡] على صحَّة الإيمان المسيحيِّ وصِدقه.

يوصينا الكتاب المقدَّس بأن تكون هذه الحُجَّة جاهزةً لأن نُقدِّمها لكلِّ مَن يُريد أن يعرفَ الأسبابَ التي تجعلنا نؤمن بما نؤمن به. وكما يتعلَّم المتبارزون كيف يتجنَّبون الضرباتِ من الخصم ويوجِّهون الهجمات، فعلينا نحن أيضًا أن نكونَ "مُستعدِّين" دائمًا. يقول الكتاب في ١بطرس ٣: ١٥ "كونوا مُستعدِّين دائمًا للمُجاوَبة [أي لتقديم الحُجَّة الدِّفاعيَّة] لكلِّ مَن يسألكم عن سبب الرجاء الذي فيكم بوداعةٍ واحترام" (الترجمة التفسيريَّة للمؤلِّف).[§]

ناقش

لماذا يُعدُّ الاحترام والوداعة شرطَين جوهريَّين للحديث مع غير المسيحيِّين بما نؤمن به؟ هل رأيتَ مؤمنًا بالمسيح يفعل ذلك دون التحَلِّي بالاحترام والوداعة؟ ما الذي حدث في هذا الموقف؟

فلنُلاحِظْ هنا التوجُّهَ القلبيَّ الذي يجب أن نكونَ عليه عند تقديمنا هذه الحُجَّة الدفاعيَّة: يجب أن نكونَ على حالٍ من الوداعة والاحترام لِمَن نقدِّم لهم الحقّ. وحيث إنَّ الدفاعيَّات ليست أن نتعلَّم تقديم الاعتذار عن إيماننا، فهي لا تعني أيضًا أن نجعل الآخرين يأسَفون لكَوننا مسيحيِّين. في وُسعنا أن نُقدِّمَ دفاعًا عن الإيمان المسيحي دون أن نتَّخذَ موقفًا دفاعيًّا؛ كما أنَّنا نقدرُ أن نقدِّم حُججَنا التي تبرهنُ على صِدقِ المسيحيَّة بعيدًا عن الجَدَل.

ناقش

كيف تشعرُ عادةً عندما يتحدَّى شخصٌ ما معتقداتك المسيحيَّة أو يسخر منها؟

---

† يمكن التعبير عن كلمة "دفاعيَّات" (Apologia) على أنَّها مرافعة منطقيَّة تقدَّم للدفاع عن قضيَّة معيَّنة. وقد كان هذا المفهوم شائعًا في العالم الرومانيِّ القديم، حيث كان من أشهر الكتب في اليونان القديمة- وهي الحضارة التي استندت إليها الحضارة الرومانيَّة- كان كتاب "مرافعة سقراط" *(The Apology of Socrates)* لمؤلِّفه أفلاطون (الناشر).

‡ الحجَّة (وهي لفظ سيتكرَّر استخدامه في هذا الكتاب) مصطلح فلسفيٌّ يعني "ما يُرادُ به إثبات أمر أو نقضه. ومن هذا الوجه تكون الحُجَّة مرادفة للاستدلال (أي إيجاد الدليل)...ويقول ابن سينا: «جرت العادة أن يُسمَّى الشيء الموصِلُ إلى التصديق حُجَّة»" (عن المعجم الفلسفيِّ للدكتور مراد وهبة، مطبوعات دار قباء، ٢٠٠٧، ص ٢٦٦- المترجم).

§ استخدمتْ ترجمة "كتاب الحياة" في تفسيرها لكلمة "خوف" الواردة في نهاية الآية، والتي تتَّفق مع القراءة التي أوردَها المؤلِّف للآية نفسها (المترجم).

عندما أتحدَّثُ في هذا الكتاب بالحُجج المبرهِنة على صحَّة الإيمان المسيحيّ، فمن الضروريّ أن نفهم أنَّ القصد ليس هنا الاختصام والتورُّط في مهاترات؛ فلا حاجة بتاتًا إلى ذلك في حديثنا بشأن إيماننا مع غير المسيحيِّين، إذ إنَّ مُحصِّلة ذلك ليست سوى إغضاب الناس وتنفيرهم بعيدًا عنَّا. والحُجَّةُ بالمعنى الفلسفيّ، كما سأُوضِح لاحقًا في هذا الفصل، ليست نِزاعًا ولا تراشُقًا عصبيًّا بالكلمات؛ بل هي سلسلةُ من التصريحات الفكريَّة¶ التي تؤدِّي إلى خلاصة ما، ليس إلَّا.

المفارقةُ هنا أنَّه كلَّما كانت الحجج التي تملكها في دفاعك عن إيمانك قويَّة، صرتَ أقلَّ ميلًا إلى الاختصام أو الإحباط من أحد. وهذا ما ألحظُه في نفسي: كلَّما زادت حُجَجي قوَّةً واتِّساقًا، قَلَّت الفرص التي أصيرُ فيها حِجاجِيًّا، مُجادلًا. وكلَّما كانت حُجَجي جيِّدة، صرتُ أقلَّ ميلًا إلى اتِّخاذ مواقف دفاعيَّة في تناوُل إيماني. وإنْ كانت لديك أسبابٌ قويَّة لما تؤمن به، وامتلكْتَ الإجاباتِ الصحيحةَ عن تساؤلات غير المؤمنين واعتراضاتهم، صار لك أن تستغنيَ عن الغضب في حديثك، وستجدُ عندها نفسَك هادئًا وواثقًا عندما تتعرَّض للهجوم؛ لأنَّك تعرف أنَّ لديك الإجابات عمَّا يُطرَح عليك.

كثيرًا ما أدخل طرفًا في مناظراتٍ فكريَّة تُنظَّم في الجامعات حول مواضيع من قبيل "هل الله موجود؟" أو "المسيحيَّة في مقابل الإلحاد". وأحيانًا يتقدَّم بعض الطلبة الموجودين ضمن جمهور الحاضرين في أثناء فِقرةِ الأسئلة ليُهاجموني شخصيًّا، أو يصبُّوا عليَّ جام إساءاتهم. وهنا أجدُ ردَّ الفعل الصادر منِّي ليس الغضب، بل الشعور بالأسف تُجاه هؤلاء الطلبة لما أصابَهم من التباسٍ شديد. إنْ كانت لديك أسبابٌ قويَّةٌ لما تؤمن به، فبدلَ الغضب ستشعر بتَعاطُفٍ حقيقيٍّ وأصيل نحوَ غير المؤمن؛ لأنَّه غالبًا ما يكون ضحيَّةَ

¶ التصريحات الفكريَّة هي جُملٌ تعبِّر عن رأي أو حكم معيَّن. فمثلًا هذا تصريح: "لا أحبُّ اللون البرتقاليّ"، ويعبِّر القائل فيه عن رأيه في اللون البرتقاليّ. وهذا أيضًا تصريح: "الكون ابتدأ بالوجود"، في هذا المثَل، لا يعبِّر التصريح عن رأي، بل عن حقيقة تتعلَّق بالكون وطبيعته (الناشر).

ضَلالات. تُبنى الدفاعيَّات على أساس صحيح عندما نُقدِّمُ الحقَّ ونحن "صادقين في المحبَّة" (أفسس ٤: ١٥).**

هل الدفاعيّات متوافقةٌ مع الكتاب المقدَّس؟

يظنُّ بعضُ الأشخاص أنَّ الدفاعيَّات ليست أمرًا بحسب الكتاب المقدَّس؛ وحُجَّة هؤلاء أنَّنا يجب أن نكتفيَ فقط بتقديم الإنجيل، تاركين الروح القدس يقوم بعمله! لكنَّ اعتقادي أنَّ يسوع المسيح والرُّسُل يقدِّمون لنا نموذجًا يؤكِّدُ قيمة الدفاعيَّات. لقد استخدم يسوع المعجزات والنبوَّات التي تمَّمها ليُبرهنَ على صحَّة ما يقول (لوقا ٢٤: ٢٥-٢٧؛ يوحنَّا ١٤: ١١). وماذا عن الرُّسل؟ لقد استخدموا أيضًا في حواراتهم مع اليهود النبوَّات التي تمَّت، ومعجزات يسوع، ولا سيَّما قيامته، ليُبرهنوا على أنَّه المسيَّا†† المنتظَر. تأمَّل مثلًا عِظةَ بطرس في يوم الخمسين التي يسجِّلها لنا الأصحاح الثاني من سفر الأعمال. في العدد ٢٢ يُشير بطرس إلى معجزات يسوع، وفي الأعداد من ٢٥ إلى ٣١ يتحدَّث بشأن النبوَّات التي تمَّت في يسوع. كذلك في عدد ٣٢ يتحدَّث بشأن قيامة السيِّد المسيح. باستخدام كلِّ هذه الحُجج سعى الرُّسُل لأن يُظهِروا صدق المسيحيَّة لأنسبائهم من اليهود.

أمَّا في حواراتهم مع غير اليهود، فقد سعى الرسل إلى إظهار وجود الله بأعماله في الطبيعة (أعمال ١٤: ١٧). يقول بولس في رومية أصحاح ١ إنَّ الطبيعة وحدَها كافيةٌ لأن يَعرف البشر بها أنَّ الله موجود (رومية ١: ٢٠). كذلك لجأ بولس في حواراته وكتاباته إلى شهادة شهود العِيان عن قيامة يسوع ليضيفَ برهانًا آخر إلى صدق المسيحيَّة (١كورنثوس ١٥: ٣-٨).

ناقش

ما الحجج التي استخدمَها بولس في أعمال ١٧: ٢٢-٣١ ليُقنعَ غير اليهود بصِدقِ الإنجيل؟ ما أوجه الشبه والاختلاف ما بين حُجج بولس وحُجج بطرس في حديثه إلى اليهود في أعمال ٢: ١٤-٢٩؟ ما الذي تتعلَّمه من هذين المثالَين عن دَور الدفاعيَّات في الكرازة بالإنجيل؟

** "نعلن الحقَّ في المحبَّة" بحسب الترجمة العربيَّة المشتركة (المترجم).

†† أي المسيح المنتظَر الذي تنبَّأ عنه أنبياء العهد القديم (الناشر).

وهكذا يتبيَّن لنا أنَّ يسوع والرسل على السواء لم يتردَّدوا في استخدام البراهين للتَّدليل على صحَّة ما أعلنوه. ولا يعني هذا أنَّهم لم يتَّكلوا على الروح القدس ليأتي بالناس إلى الله، بل وثقوا بالروح القدس، واتَّكلوا عليه ليستخدمَ حُجَجَهم وبراهينَهم في الإتيان بالناس إلى الله.

ما أهمِّيّة الدفاعيّات؟

هناك أهمِّيَّة بالغة في أن يتدرَّبَ المسيحيُّون على الدفاعيَّات. لماذا؟ إليك ثلاثةَ أسباب:

١. **تشكيل الثقافة.** سمعنا جميعًا بما يُسمَّى بالحرب الثقافيَّة التي يتعرَّض لها المجتمع الأميركيّ. ربَّما لا يروقُ بعضَ الأشخاص هذا "المجاز العسكريّ"، لكنَّ حقيقة الأمر أنَّ هناك صراعًا هائلًا يشتعل الآن للنَّيل من روح أميركا. وهذا الصراع ليس سياسيًّا فقط، بل له أيضًا أبعاد دينيَّة وروحيَّة. ويسعى العَلمانيُّون جاهدين إلى استبعاد الدِّين من المجال العامّ. فضلًا عن جهود مَن يُسَمَّون بالملحدين الجدد (New Atheists)‡‡ من أمثال سام هاريس (Sam Harris) وريتشارد دوكينز (Richard Dawkins) والراحل كريستوفر هيتشنز (Christopher Hitchens) الذين يبغون القضاء على الاعتقاد الدينيِّ كلِّه.

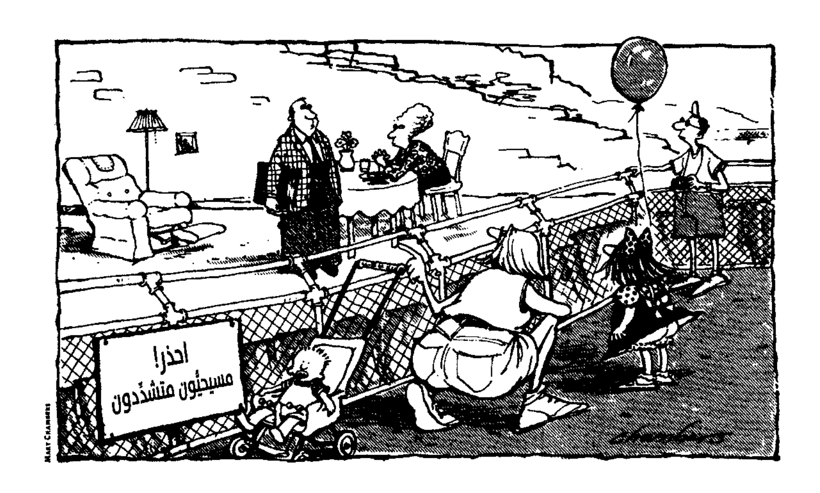
لقد صارَ المجتمع الأميركيُّ بالفعل مجتمَعًا ما بعد المسيحيَّة.§§ ما زال الإيمانُ بإلهٍ لا ملامح له هو العُرف السائد، وإنْ صارَ الإيمان بيسوع المسيح خارجًا عمَّا هو مألوف ومقبول في الميدان العامّ. ما عدد الأفلام التي تُنتجها هوليوود وتُصوِّر فيها المسيحيِّين بصورةٍ إيجابيَّة؟ على النقيض من ذلك، ما عدد المرَّات التي يُصَوَّر فيها المسيحيُّون بوصفهم أشخاصًا مُتزمِّتين وسطحيِّين

---

‡‡ الملحدون الجدد هم جماعة من الكتَّاب في العالم الناطق بالإنكليزيَّة. خطابهم خشنٌ وهجوميٌ إلى حدٍّ بعيد، ويرَون أنَّ الأديان مخطئةٌ في ما تعتقده، ويشدِّدونَ على ضرورة التخلُّص منها لأنَّها مؤذية للبشريَّة (الناشر).

§§ يشيرُ المعنى إلى تحوُّل المسيحيَّة إلى مجرَّد إرثٍ ينتمي إلى الماضي، ولا علاقة له بالحاضر ولا يؤثِّر فيه (المترجم).

في تفكيرهم، ومُنافقين بصورةٍ مذمومةٍ في سلوكهم؟ ما التصوُّر العامُّ عن المسيحيِّين الكِتابيِّين المتشدِّدين في ثقافتنا المعاصرة؟



يبيِّنُ هذا الرسمُ الكاريكاتيريُّ لنا التصوُّر العامَّ عن المسيحيِّين لدي النخبة المثقَّفة في المجتمع الأميركيِّ اليوم: هُم كائنات عجيبة وموضوع لفرجة البشر الطبيعيِّين. لكنْ لاحظ أنَّهم أيضًا كائناتٌ خطيرة، فيجب عدم السماح لهم بتولِّي المناصب ذات التأثير في المجتمع، بل ربَّما يجب أن يُفرَض عليهم الحَظْر.

لماذا تُمثِّل هذه الاعتبارات الثقافية أهمِّيَّةً لنا؟ لمَ لا يكتفي المسيحيُّون باتِّباع يسوع المسيح اتِّباعًا أمينًا ليسوع، وفي الوقت ذاته يَغُضُّون الطَّرْفَ عمَّا يدورُ حولَهم في الثقافة التي يعيشون فيها؟ لماذا لا نكتفي بتقديم الإنجيل لعالمٍ يُحتَضَرُ في عتمَتِه؟

الإجابة هي أنَّ خبرَ الإنجيل لا يُقدَّم أو يُسمع بمعزل عن السياق الموجود فيه. دائمًا ما يستقبل الناس الإنجيل على خلفيَّة الثقافة التي وُلدوا ونشأوا فيها. لذا فإنَّ الشخص الذي شَبَّ في ثقافةٍ مُتعاطفةٍ مع الإيمان المسيحيِّ سيكون مُنفَتِحًا على خبر الإنجيل، وهو ما يفتقر إليه الشخص الذي نشأ في ثقافةٍ عَلمانيَّة. وللشَّخص المتأصِّل في تكوينه العَلمانيِّ سيَستَوي لديه الكلام

عن الجنّيّات والعفاريت مع الكلام عن يسوع المسيح! والكلام عن المسيح عنده لا يقل عبثًا عن الكلام عن هذه الخرافات.

إن أردتَ أن تعرفَ تأثير الثقافة في تفكيرك، تخيَّل ما ستفكِّر فيه إنِ اقتربَ منك في المطار أو في أحد المباني التجاريَّة شخص هندوسيٌّ مُتديِّن من طائفة "هير كريشنا" (Hare Krishna)¶¶ برأسه الحليق وردائه ذي اللون الزعفرانيِّ وقدَّم لك وردة ومعها دعوة لأن تصيرَ أحدَ أتباع كريشنا. الاحتمال الأكبر أنَّ هذه الدعوة ستبدو لكَ أمرًا غريبًا وعجيبًا وربَّما مثيرًا للضَّحك. لكن فَكِّر في ردِّ الفعل المختلف الذي سيبدرُ من شخص يعيش في دلهي الهنديَّة لو اقترب منه هذا الهندوسيُّ المتديِّن نفسه. لأنَّ هذا الشخص الذي يعيش في الهند نشأ في ثقافة هندوسيَّة، فالاحتمال الأكبر هنا أنَّه سيأخذُ هذه الدعوة على مَحمَل الجِدّ.

إنِ استمرَّت أميركا في انزلاقها إلى العَلمانيَّة، فإنَّ ما ينتظرنا غدًا هو ما نراه بوُضوح اليومَ في أوروبا. لقد بلغَتِ العَلمانيَّة في أوروبا الغربية حدًّا صار فيه من الصعب أن ينالَ خبرُ الإنجيل فرصتَه في أن يُقدَّم بصورةٍ مُنصِفة. ومُحصِّلة ذلك هو خدمة هائلة من جانب المُرسلين لسنواتٍ طويلة لا تؤدِّي في النهاية إلَّا إلى قبولِ أعدادٍ قليلة للسيِّد المسيح. ولأنِّي عشتُ في أوروبا مدَّةَ ثلاثة عشر عامًا في أربع دول مُختلفة، فشهادتي الشخصيَّة تؤكِّد مدى الصعوبة التي تواجه الناس حتَّى يتجاوَبوا مع رسالة السيِّد المسيح. وعندما كنتُ أذهب للحديث في جامعات أوروبا، غالبًا ما كان ردُّ الفعل العامُّ لدى الطلَّاب الحَيرة والارتباك؛ فالمسيحيَّة عندهم لا تصلح إلَّا للعجائز والأطفال، وهنا كان السؤال الذي طرحوه على أنفسهم: إنْ كان الأمر كذلك، فما الذي يفعله هنا رجلٌ يحمل شهادتي دكتوراه من جامعات أوروبا؟ وما معنى أن يُقدِّم دفاعًا عن الإيمان المسيحيِّ بحُجَجٍ لا نستطيع الردَّ عليها؟

¶¶ تؤمن الهندوسيَّة بتعدُّد الآلهة. وكريشنا هو أحد الآلهة الكبرى فيها (الناشر).

العَلمانيّة (Secularism)

العَلمانيّةُ هي رؤية إلى العالم لا تسمح بوُجود كلِّ ما هو فائقٌ للطبيعة: لا معجزات أو إعلان إلهيٌّ أو حتّى وجود لله.

في إحدى المرّات عندما كنتُ أتحدث في إحدى جامعات السويد، وسألني أحد الطلاب في أثناء فقرة الأسئلة التي أعقبت محاضرتي هذا السؤال: "ما الذي تفعله هنا؟" بعدما أصابَتْني الدّهشة أجبتُ قائلًا: "حسنًا! لقد تلقَّيتُ دعوةً من قسم الدراسات الدينيَّة لإلقاء هذه المحاضرة". فجاء ردُّ الطالب: "ليس هذا ما قصدته. ألا تفهم مدى غرابة ما تفعله؟ أنا أودُّ أن أعرف ما دفعَكَ للإقدام على ذلك". ظنّي أنَّ هذا الشابَّ لم يرَ فيلسوفًا مسيحيًّا من قبل. وفي واقع الأمر أخبرني أحد الفلاسفة السويديّين البارزين أنّه لا يوجد فيلسوفٌ مسيحيٌّ واحدٌ في أيٍّ من جامعات السويد. وكان سؤال هذا الطالب فرصةً لي للمشاركة بقصّة اختباري مع المسيح، والكيفيّة التي تعرَّفت بها إليه.

تضربُ النزعةُ الشكوكيَّة*** جذورَها العميقة في جامعات أوروبا بصورةٍ بالغة. فبينما كنتُ أتحدَّث بموضوع وجود الله في جامعة پورتو (Porto) البرتغاليَّة، اتَّصل الطلَّاب هاتفيًّا (كما عرفتُ لاحقًا) بالمعهد العالي للفلسفة بجامعة لوڤان (Louvain) البلجيكيَّة للتحقُّق من أنّي لست مُدَّعِيًا! لقد ظنُّوا أنّي أستاذٌ مزيَّف؛ لأنَّهم لم يروا فيَّ ما يتناسب مع الصورة النمطيَّة التي كوَّنتها أذهانهم عن المسيحيّ.

ناقش

هل قابلتَ يومًا شخصًا رفضَ المسيحيَّة بوصفها خرافةً من الخرافات؟ وإنْ كانَ ذلك قد حدث، فمتى؟ وكيف كان ردُّك على ذلك؟

إنْ كان علينا أن نُقدِّم بشارة الإنجيل للعقول المفكِّرة (رجالًا ونساءً) بوصفها خِيارًا صالحًا وصحيحًا من الناحية الفكريَّة، فالضرورة موضوعة علينا، نحن المسيحيّين، أن نسعى إلى تشكيل الثقافة الأميركيَّة††† على النحو الذي

*** ما يقصده الكاتب بالنزعة الشكوكيَّة هو الميل غير المبرَّر إلى التشكيك في ما يتعلَّق بوجود الله أو بوجود أيَّة معرفة صحيحة عنه (الناشر).

††† لا يخفى على القارئ الفطن مدى التشابه ما بين الحالة الأميركيَّة والحالة العربيَّة من جهة التحدّيات الفكريَّة التي تواجهها بشارة الإنجيل في اللحظة الحاضرة؛ ففضلًا عن التحدّيات الفكريَّة التي يواجهها المسيحيُّ العربيُّ من جانب أصحاب الأديان الأخرى التي تؤمن بوجود الله- ومع ذلك تجد صعوبة فكريَّة في قبول أُسس الإيمان المسيحيّ- يجد المسيحيُّ العربيُّ نفسَه الآن في مواجهة موجة عاتية من التيَّارات الإلحاديَّة التي طرحَتْ على المسيحيّ العربيّ أسئلةً جديدةً ومختلفةً عمَّا اعتادَ مواجهتَه من أصحاب الأديان الأخرى، وهو ما يستلزم من=

يتعذَّر معه وصم المسيحيَّة بالخرافة ورفضها على هذا الأساس. وهنا تأتي أهمِّيَّة الدفاعيَّات المسيحيَّة؛ فإنْ أمكنَ تدريب المسيحيِّين على تقديم الأدلَّة المتماسِكة على ما يعتقدونه، والإجابة عن أسئلة غير المؤمنين واعتراضاتهم. فالمحصِّلة النهائيَّة هي التغيير التدريجيُّ في بصيرة المسيحيِّين وإدراكهم، ممَّا يؤدِّي إلى تغيُّر النظرة العامَّة إلى المسيحيِّين، فيُنظَر إليهم لا على أنَّهم أشخاصٌ متعصِّبون أو مُهَرِّجون تحرِّكهم العواطف، بل بوصفهم ناسًا مُفكِّرين يُؤخَذون على مَحمَل الجِدّ؛ وعند هذه اللحظة فقط تصيرُ بشارة الإنجيل خِيارًا حقيقيًّا يمكن أن يقبلَه الناس.

لا أقصد هنا أنَّ الناس سيصيرون مؤمنين بالمسيح بسبب الحُجج والأدلَّة التي سنقدِّمها لهم، بل ما أقوله هو أنَّ تلك الحُجج والأدلَّة ستُساعد على خَلقِ ثقافة يُنظَر فيها إلى الإيمان المسيحيِّ بوصفه أمرًا معقولًا، كما تساعد على إيجاد المُناخ الفكريِّ الذي ينفتح فيه الناس على بشارة الإنجيل. لذا فالتَّدريب على الدفاعيَّات هو وسيلة حيويَّة- ضمن وسائل أخرى- لأن نكونَ ملحًا ونورًا في الثقافة الأميركيَّة اليوم.

٢. **تشديدُ المؤمنين.** للدفاعيَّات فوائدُ هائلة في حياتنا نحن المؤمنين بالمسيح، وأكتفي بالإشارة إلى ثلاث منها.

أوَّلًا: معرفتك بالأسباب التي تجعلك تؤمن بما تؤمنُ به، ستجعلك أكثر ثقةً بنفسك عندما تشارك إيمانك مع الآخرين. أختبر ذلك شخصيًّا في كلِّ مرَّة أكون فيها طرفًا في مُناظرة عامَّة مع پروفيسور غير مسيحيّ. فمع أنَّ هؤلاء الأساتذة يحوزون علمًا واسعًا في مجالات تخصُّصاتهم، فإنَّهم يفتقرون عمومًا

=المسيحيّ العربيّ تكوينًا فكريًّا وروحيًّا من نوعٍ مختلف. وقد يكونُ الفارق الوحيد ما بين الحالتَين الأميركيَّة والعربيَّة هو توافر رجال من قبيل وليَم لين كريغ وجاي. پي. مورلاند (J. P. Moreland) ورافي زاكارياس (Ravi Zacharias) وآخرين للمجاوَبة عن أسئلة هذا التيَّار، في الوقت الذي لا يكاد يوجد ما يكفي من المسيحيِّين العرب القادرين على الاشتباك الإيجابيّ مع أسئلة هذا التيَّار، والإجابة عنها باللغة التي يفهمها. من هنا جاءت أهمِّيَّة ترجمة هذا الكتاب (المترجم).

إلى أيَّة فكرة عن الأدلة المتوافرة بشأن الإيمان المسيحيّ. وغالبًا ما تتفوّقُ في هذه المناظرات الرؤية المسيحيَّة على الرؤية غير المسيحيَّة تفوُّقًا كبيرًا إلى الحدِّ الذي جعلَ الطلبة الحاضرين من غير المسيحيِّين يشتكون بأنَّ نتيجةَ المناظرة كانت مُعَدَّة سلفًا بحيث تبدو الرؤية غير المسيحيَّة بهذا السوء! والحقيقة هي أنَّنا نحاول دائمًا أن نأتيَ بأفضل المدافعين عن هذا الرؤية، والذين غالبًا ما يُختارون من جانب المُنادين بالفكر الإلحاديِّ في الجامعة التي تستضيف المُناظرة.‡‡‡

على النقيض من ذلك يخرج الطلبة المسيحيُّون من هذه المناظرات برؤوسٍ مرفوعة، فخورين بمسيحيَّتهم. قال لي أحد الطلبة الكنديِّين عقبَ إحدى تلك المناظرات: "أتطلَّع بشوقٍ إلى اللحظة التي أشارك فيها الآخرين إيماني بالمسيح!" أمَّا الأشخاص الذين لا يملكون التدريب على الدفاعيَّات، فهُم غالبًا ما يخشَون مشاركةَ إيمانهم أو الإعلان عن شخص المسيح، وذلك خشية أن يَطرَحَ عليهم أحَدُهم سؤالًا صعبًا. لكنَّك إنْ عرفتَ الإجابات، فلن تخشى دُخولَ عرين الأسد، بل إنَّك ستجد متعةً وأنتَ تفعل ذلك، إذ سيجعلُ منك التدريب على الدفاعيَّات شاهدًا للسيِّد المسيح على نحوٍ لا يعرف فيه الجُبنُ أو الخوف مكانًا في قلبكَ.

ثانيًا: ليسَتِ العواطف قادرة إلَّا على حَملِك مسافةً معيَّنة، لكنَّك تحتاجُ بعدها إلى ما يحملك إلى ما هو أعمق. عندما أتحدَّث في الكنائس بطول البلاد وعرضها، كثيرًا ما ألتقي آباءً وأمَّهاتٍ يقولون لي: "كُنَّا نتمنَّى لو أنَّك كنتَ هنا قبل عامَين أو ثلاثة! كان لدى ابننا أسئلةٌ عن الإيمان لم يستطع أحد الإجابة عنها، وهو الآن بعيدٌ عن الله". في الواقع تتوالى الأخبار عن مسيحيِّين يهجرون إيمانهم؛ فقد أخبرني مؤخَّرًا خادم مسيحيٌّ في جامعة ستانفورد بأنَّ ٤٠٪ من الشباب المسيحيّ في المرحلة الثانويَّة

ناقش

من وجهة نظرك، ما الذي يجعل العديد من الطلبة يهجرون إيمانهم في المرحلة الثانويَّة وما بعدها؟ مَن المسؤول عن ذلك؟ وما الأسباب التي أدَّت إلى ذلك؟

‡‡‡ في الجامعات الأميركيَّة، هناك تنظيمات طلَّابيَّة غايتها المناداة بالمسيحيَّة وتنظيمات أخرى غايتها المناداة بالإلحاد. تلك التنظيمات الطلابيَّة هي التي تنظِّم المناظرات المذكورة (الناشر).

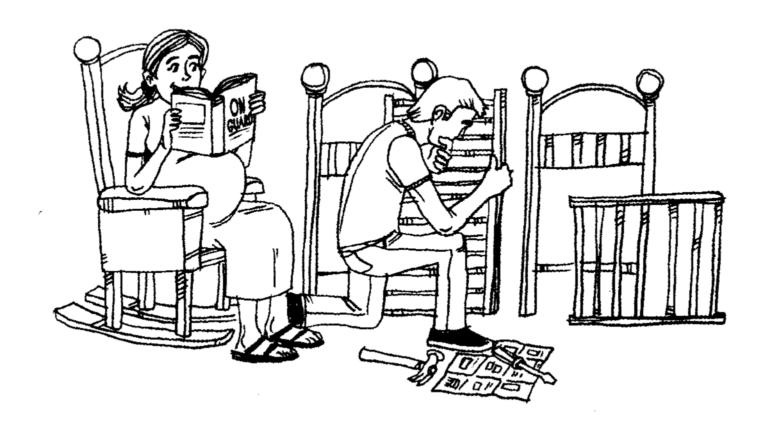
الذين كانوا قد انتظموا في اجتماعات الشباب داخل الكنائس سيتخلَّون تمامًا عن أيِّ ارتباط بالكنيسة بعد انتهائهم من المرحلة الثانويَّة. تخَيَّل ٤٠٪! والأمر هنا لا يتعلَّق بتركِ إيمانَهم عندما انتقلوا إلى بيئة فكريَّة معادية للفكر المسيحيّ في الجامعة[§§§]؛ بل ترك العديد منهم إيمانهم عندما كانوا لا يزالون في اجتماعات الشباب، وإن بدا أنَّهم كانوا مداوِمين على الأداء الزائف للممارساتِ المسيحيَّة حتَّى اللحظة التي خرجوا فيها من دائرة سلطة الأهل.

اعتقادي أنَّ الكنيسة خذلت هؤلاء الشباب ولا تزال تفعل ذلك. فبدلَ أن نمدَّهم بالتَّدريب اللازم للدِّفاع عن الحقِّ المسيحيّ، ركَّزنا اهتمامنا على فرص التسبيح العاطفيَّة، وتلبية الاحتياجات الملموسة، وتقديم الترفيه لهم. لا عجبَ إذًا عندما يصيرون بدخولهم الجامعة صيدًا سهلًا لكلِّ أستاذٍ يصوِّبُ سهامَه العقلانيَّة إلى إيمانهم. يتعرَّضُ الطلبة في المرحلتَين الثانويَّة والجامعيَّة للهجمات الفكريَّة الصادرة عن الفلسفات غير المسيحيَّة بأنواعها، يدعمها شيوع النزعتَين الشكوكيَّة والنسبيَّة. وأمام ذلك كلِّه، علينا أن نُعِدَّ شبابَنا لهذه المعركة. كيف نجرؤ على إرسالهم دون سلاح إلى منطقة معارك فكريَّة؟ على الأهل أن يفعلوا ما هو أكثر من مجرَّد اصطحاب أطفالهم إلى الكنيسة وقراءة قصص الكتاب المقدَّس لهم؛ فعليهم أيضًا أن يتدرَّبوا هم أنفسُهم على الدفاعيَّات ليتمكَّنوا من أن يشرَحوا لأطفالهم منذ نعومة أظفارهم ما يؤمنون به، وسبب إيمانهم بذلك، على أن يزداد هذا الشرح عمقًا في مراحلَ لاحقةٍ. بأمانةٍ شديدة أجدني غير قادرٍ على فهم الأزواج المسيحيِّين الذين يخاطرون بإنجاب أطفال في هذا العالم وهذا الزمان دون أن يتلقَّوا تدريبًا على الدفاعيَّات ضمن ما يتلقَّونه من تدريب على كيفيَّة ممارسة والديَّتهم.

النزعة النسبيَّة (Relativism)

تتبنَّى النزعة النسبيَّة وجهة النظر القائلة إنَّ الأمورَ نسبيَّةٌ وليست مُطلقة. معنى ذلك أنَّ أيَّة قضيَّةٍ محلَّ نقاش (حقيقة ما أو قيمة أخلاقيَّة أو خاصيَّة ما) لا يمكن النظر فيها إلَّا في نسبتها إلى شيءٍ آخر. أن تكونَ غنيًّا مثلًا هو أمرٌ نسبيّ. ولدى معظم الأميركيِّين، قد لا تكون غنيًّا، لكنَّك أحد أثرى الأثرياء لبعض الأفارقة! على النقيض من ذلك هناك بعض الحقائق التي لا تخضع للتَّفكير النسبيّ، فمثلًا عدم فوز فريق الكَبز (The Cubs) بكأس الأبطال للبايسبول الأميركيِّ عام ٢٠٠٩م ليس أمرًا نسبيًّا. لأنَّ عدم فوزهم بهذا الكأس في هذا العام هو أمرٌ حقيقيٌّ مُطلَق. وهناك العديد اليوم ممَّن يعتقدون أنَّ المبادئ الأخلاقيَّة والمعتقدات الدينيَّة هي حقائق نسبيَّة بامتياز. وكما يقول هؤلاء، فإنَّ ما هو حقيقيٌّ عندك، ليس كذلك عندي.

[§§§] يتلقَّى الطلَّاب المسيحيُّون في بعض الجامعات الأميركيَّة، بسبب إيمانهم، الكثير من الانتقاد والسخرية من أساتذة في الجامعات، أو من زملائهم الطلبة. ويستند هذا الانتقاد إلى فكرة أنَّ الإيمان المسيحيَّ هو موقف فكريٌّ ضعيف وبدائيّ. وعند مواجَهةِ هذا الكمِّ الرهيبِ من الانتقاد والسُّخرية، يستسلم الكثير منهم أمامه، ويتركون إيمانهم، لا سيَّما أنَّ أيمانهم لم يُبنَ على أساساتٍ فكريَّة متينة (الناشر).



دون شكّ، لن تضمنَ الدفاعيّات أن تتمسّك أنت أو أولادك بالإيمان. فهناك العديد من العوامل التي يجب أن تُوضَعَ في الحسبان هنا. تعرضُ بعض المواقع الإلحاديّة ذات التأثير الكبير نماذج لمؤمنين سابقين كانوا قد تدرَّبوا على الدفاعيّات، ومع ذلك هجروا إيمانَهم. ولكن عندما تتأمَّل في الحجج التي يقدِّمونها بوصفها أسبابًا وراء تركهم المسيحيَّة، تجدها في الغالب حججًا مُشوَّشة أو واهية. رأيتُ مؤخَّرًا على أحد هذه المواقع شخصًا يقدِّم قائمة من الكتب التي أقنعَتْه أنَّ المسيحية خاوية بلا مضمون- وأعقب سرده لهذه القائمة بتعبيره عن أمنيته بأن يقرأ هذه الكتب في يوم من الأيَّام! المفارقة الساخرة هنا أنَّ بعضًا من هؤلاء يصلُ بهم الأمر إلى تبنِّي وجهات نظر أكثر تطرُّفًا، وتحتاج إلى قدرٍ أكبرَ من السذاجة لتصديقها- من قبيل أنَّ يسوع شخصيَّة غير حقيقيَّة- إذا ما قورنت بالآراء المُحافظة التي تبنَّاها هؤلاء في ما مضى.

ورغمَ أنَّ الدفاعيَّات لا تضمن التمسُّك بالإيمان، فإنَّها تساعد كثيرًا على ذلك. ألتقي كثيرًا في أسفاري العديد ممَّن استعادوا إيمانهم بعد أن كانوا قابَ قوسَين أو أدنى من التخلِّي عنه بالكامل، وذلك بسبب كتابٍ قرأوه عن الدفاعيَّات، أو مشاهدتهم مناظرةً تدور حول القضايا محلِّ اهتمام الدفاعيَّات. تشرَّفتُ مؤخَّرًا بالحديث في جامعة برينستون (Princeton) بالحُجج الخاصَّة

بوجود الله. وبعد المحاضرة اقتربَ منِّي شابٌّ أرادَ الحديث معي؛ وقال لي وهو يحاول أن يغالبَ دموعَه إنَّه كان قبل عامَين تقريبًا في صراعٍ مرير مع الشكوك، وكان على وشك التخلّي عن إيمانه. وحكى لي أنَّ أحدهم أعطاه تسجيلًا فيلميًّا لإحدى مناظراتي، ثمَّ قال لي الشابّ: "لقد أنقذَتْني هذه المناظرة من ضياع إيماني. أنا عاجزٌ عن تقديم الشكر اللائق بكَ".

وكان ردِّي: "إنَّ الله هو مَن أنقذَكَ من الضياع".

فأجاب قائلًا: "أجل! لكنَّه استخدمَكَ أنتَ. أنا شاكرٌ جدًّا لكَ". وبعد أن عبَّرت له عن سعادتي البالغة من أجله سألته عن خُططه المستقبليَّة، فقال لي: "أنا سأتخرَّج هذا العام، وأنوي الالتحاق بكلِّيَّة اللاهوت لأكون راعيًا". شكرًا لله على الانتصار الذي حقَّقه في حياة هذا الشابّ. عندما تجوز في أوقاتٍ عصيبة ويبدو الله بعيدًا عن مُتناول العواطف والحواسّ، فإنَّ مهمَّة الدفاعيَّات هي تذكيرك بأنَّ إيمانَنا لا يقومُ على العواطف، بل يتأسَّسُ على الحقّ، ومن ثَمَّ عليكَ التمسُّك به.

ناقش

كيف يمكن أن تساعدَك الدفاعيَّات؟

ثالثًا وأخيرًا، ستُضيفُ دراسةُ الدفاعيَّات إلى تكوينك الشخصيِّ وتمنحك عمقًا شخصيًّا. تتَّسمُ الثقافة الأميركيَّة بالسَّطحيَّة الشديدة على نحوٍ مُفزِع؛ وذلك بهَوَسِها الكامل بنُجوم المجتمع، فضلًا عن الترفيه والرياضة، والانغماس الشديد في إشباع ما تتوق إليه النفس. إنَّ دراسة الدفاعيَّات ستأخذك بعيدًا عن ذلك كلِّه لتَشتَبكَ مع أكثر أسئلة الحياة عُمقًا، بما في ذلك الأسئلة المتعلِّقة بوجود الله وطبيعته، وأصل الكون، ومصدر القِيَم الأخلاقيَّة، ومعضلة الألم والمعاناة...إلخ. وكلَّما داومْتَ على الاجتهاد في التفكير في هذه الأسئلة العميقة، تغيَّرت شخصيَّتك تغيُّرًا ملحوظًا.

دراستك للدِّفاعيات ستجعل منكَ شخصًا أنضَجَ وأكثرَ تأمُّلًا وتبصُّرًا في الأفكار؛ كما ستتعلَّم كيف تفكِّر تفكيرًا منطقيًّا، وكيف تُحلِّلُ ما يقولُه

سي. أس. لِويس (C. S. Lewis): مُرسَلٌ من الله إلى المتشكّكين

ترك سي. أس. لِويس (١٨٩٨- ١٩٦٣م) المسيحيَّة في صباه لأسبابٍ شخصيَّة وفكريَّة. إلَّا أنَّه عندما عمل أستاذًا للأدب الإنكليزيِّ في جامعة أكسفورد في أواخر العشرينيَّات وأوائل الثلاثينيَّات من عمره، تعرَّفَ إلى أصدقاء وكُتَّاب قدَّموا إليه من الحُجَج ما أقنعَه أوَّلًا بوُجود الله، ثمَّ بالمسيحيَّة. وعندما صار لِويس مؤمنًا بالمسيح، استخدمَ مواهبه الأدبيَّة والفكريَّة في شرح الرؤية المسيحيَّة إلى العالم والدِّفاع عنها، وصار بسبب كتاباته- التي وُزِّعَ منها أكثر من ١٠٠ مليون نسخة حول العالم- واحدًا من أكثر المدافعين عن الإيمان المسيحيِّ تأثيرًا في جيله.

الآخرون. وبدلَ أن تقولَ دون فهم "هذا ما أشعر به إزاء هذه القضيَّة، وشُعوري هو رأيي، لا أكثر ولا أقلّ"، ستتمكَّنُ من قول: "هذا ما أفكِّرُ فيه إزاء هذه القضيَّة، وإليك أسبابي...". وبوصفك مؤمنًا بالمسيح، سيكون لك تقدير أكبر للحقائق المسيحيَّة حول الله والعالم، وسترى أنَّ هذه الحقائق جميعها تتَّسقُ معًا لتُكوِّنَ رؤيةً مسيحيَّةً إلى العالم.

الإتيان بغير المؤمنين إلى المسيح. سيتَّفقُ معي كثيرون في ما قلتُه بشأن دَور الدِّفاعيات في تشديد المؤمنين، ولكنَّهم ينكرون في الوقت نفسه دَورَها في الإتيان بغير المؤمنين إلى المسيح. وهؤلاء يقولون لك: "لا أحد يأتي إلى المسيح بالحُجَج الفكريَّة!"

ظنِّي أنَّ مَن يُفكِّرون كذلك هم- إلى حدٍّ ما- ضحايا تَوَقُّعاتهم غير الصحيحة. عندما ندرك أنَّ فئةً قليلةً جدًّا من الذين يَسمَعون بشارةَ الإنجيل يتَجاوَبون معها تجاوُبًا إيجابيًّا ويَضَعون ثقتَهم في شخص المسيح، فعلينا ألَّا نُدهَشَ إذا عَرَفنا أنَّ معظم الناس يرفضون الاقتناع بما نقدِّمه من حجج وأدلَّة. ومن ثَمَّ من الطبيعيِّ أن نتوقَّعَ أنَّ غالبيَّة غير المؤمنين سيظلُّون غير مقتنعين بما نقدِّمه من حججٍ دفاعيَّة، بالقدر نفسه الذي لن يتأثَّروا فيه بأيِّ وَعظٍ عن الصليب.

لكنَّ عليكَ أن تتذكَّر أنَّه لا يمكن لأيٍّ منَّا أن يتحقَّقَ تمامًا من التأثير التراكميِّ الذي تُحدِثُه مثل هذه الحُجَج الدفاعيَّة؛ فهي مثل البذرة التي تُزرَع، ثمَّ تُروى مرَّةً بعد الأخرى بأشكالٍ لا يمكن أن نتصوَّرَها. كذلك يجب ألَّا نتوقَّع أن يستَسلمَ غير المؤمن بسهولة عندما يستمع إلى حُجَّتنا الدفاعيَّة؛ فالطبيعيُّ أن يَرُدَّ الهجوم، فما يراهنُ عليه كبيرٌ عنده. ولكنَّنا بالصبر نزرعُ ونروي على رجاءِ أن تنموَ البذرة بمرور الزمن وتأتي أُكُلَها.

وربَّما تتساءل هنا: لماذا تهتمُّ إذًا بتلك الفئة القليلة من البشر التي تُجدي معها الدفاعيَّات وتنتجُ أثرًا؟ السبب الأوَّل أنَّ لكلِّ إنسانٍ قيمتَه في نظر الله، وأنَّ السيِّدَ المسيحَ مات لأجله. مثل الشخص المُرسَل الذي يتثقَّل بالدَّعوة

للذَّهاب إلى جماعةٍ غامضةٍ من الناس لا يعرف عنها شيئًا، كذلك المؤمن بالمسيح الذي يقدِّمُ الحُجَج الدفاعيَّة عن إيمانه، هو أيضًا يتثقَّل بالوُصول إلى تلك الفئة القليلة التي ستتجاوبُ مع حججه وأدلَّته المنطقيَّة.

السبب الثاني هو أنَّ هذه الفئة من الناس رغم عددها الصغير نسبيًّا، فهي تملكُ تأثيرًا هائلًا. مِثالي على ذلك هو سي. أس. لِويس الذي كانَ واحدًا من تلك الفئة من الناس. ولكَ أن تتأمَّل هنا التأثيرَ الذي لا يزالُ يُحدِثُه تَحوُّلُ شخصٍ واحدٍ بحجم هذا الرجل وقامته إلى الإيمان بالمسيح! من واقع خبرتي الشخصيَّة، فإنَّ أكثر الناس تجاوُبًا مع ما أقدِّمه من حُججٍ دفاعيَّة غالبًا ما يكونون من المهندسين أو المحامين أو العاملين في القطاع الطِّبِّيّ. وهؤلاء الناس هم أكثر الفئات تشكيلًا لثقافتنا والتأثير فيها اليوم. لذا، فالوصول إلى هذه الفئة المحدودة سيُسهمُ حتمًا في مضاعَفة الحصاد لملكوت الله.

على أيَّة حال، فإنَّ الفكرةَ التي تعتقدُ بعدم تأثير الدفاعيَّات في الكرازة هي فكرةٌ غير صحيحة. ذكر لي الكاتب المسيحيُّ لي ستروبل (Lee Strobel) مؤخَّرًا أنَّه صارَ الآن غير قادر على حَصْرِ عددِ الناس الذين قبلوا السيِّد المسيح بسبب كتابَيه "**الحجَّة عن المسيح**" *(The Case for Christ)*، و"**الحجَّة عن الإيمان**" *(The Case for Faith)*. كذلك الحال مع خبرتي الشخصيَّة التي تؤكِّد أنَّ للدفاعيَّات تأثيرَها في الكرازة؛ فنحن في حالةِ سعادةٍ متواصلة بكلِّ الأشخاص الذين نراهم وهم يقدِّمون حياتهم للمسيح بواسطة تقديم الإنجيل جنبًا إلى جنب مع الدفاعيَّات.

بعد انتهائي من محاضراتي حول الحُجج المنطقيَّة الدالَّة على وجود الله، أو الأدلَّة على قيامة يسوع المسيح، أختم حديثي أحيانًا بصلاةٍ أشجِّعُ بها الحاضرين على تقديم حياتهم للمسيح. وبعد فحص بطاقات الرأي التي يملأها الحاضرون بعد المحاضرة، أجد كلمات تشير إلى استجابة بعضهم هذه الدعوة. وعندما قدَّمتُ مؤخَّرًا مجموعةً من المحاضرات في جامعات وسط إلينوي (Illinois)، كنَّا

غاية في السعادة عندما اكتشفنا أنَّ كلَّ مرَّةٍ نقدِّم فيها مثل هذه المحاضرات في أيٍّ من هذه الجامعات، كان الطلبة يتجاوبون معها ويقرِّرون تسليم حياتهم للمسيح. لقد رأيتُ طلبةً يُسلِّمون حياتهم للمسيح بمجرَّد سماعهم للحُجَّة الكونيَّة (Cosmological Argument) التي سأشرحها لاحقًا في هذا الكتاب.

كما كانت سعادتي بالغةً أيضًا وأنا أسمعُ قصصَ الأشخاص الذين جذبَهم شخصُ المسيح بقراءة نصٍّ كتبتُه مرتبطٍ بالدِّفاعيَّات. منذ هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠١م، كان لي شرف الدخول في مناظراتٍ مع مختصِّين في الدفاعيَّات الإسلاميَّة، وذلك في العديد من الجامعات في كندا والولايات المتَّحدة. ومؤخَّرًا تلقَّيتُ مكالمةً في صبيحة يوم سبت، وكان على الطرف الآخر صوتٌ يحملُ لكنةً أجنبيَّة. وبعد أن ألقى التحيَّة، عرَّف بنفسه وبلده (الذي يقع في منطقة وسط العالم)، استرسل في حديثه معي ليُخبرني بأنَّه كان قد تخلَّى عن إيمانه سرًّا وصار ملحدًا. والآن بعد أن قرأ العديدَ من كتب الدفاعيَّات المسيحيَّة التي ابتاعها عبر الإنترنت، استعادَ إيمانَه بالله، وكان في طريقه إلى تسليم حياته للمسيح.

وكان هذا الشخص قد تأثَّرَ بالأدلَّة على قيامة يسوع، وهاتفَني لأنَّه كان بحاجة إلى ردودٍ على عددٍ من الأسئلة التي كانَ يحتفظ بها. تحادَثْنا مدَّة ساعة، وشعرتُ بأنَّه آمن فعلًا من قلبه، لكنَّه كان حَذِرًا وأرادَ التيقُّنَ أوَّلًا من توافُرِ كلِّ الأدلَّة لديه قبل أن يُقدِمَ على الخطوةِ الأخيرة إقدامًا واعيًا. وأخذ الرجلُ يشرحُ لي قائلًا: "أنت دون شكٍّ تفهمُ أنِّي لا أستطيع أن أُطلِعَكَ على اسمي الحقيقيّ. في بلدي يتحتَّم عليَّ أن أعيشَ حياةً مزدوَجةً، وإلَّا كان مصيري القتل". عند هذه اللحظة صَلَّيتُ معه طالبًا من الله أن يستمرَّ في إرشاده وقيادته إلى الحقّ، ثمَّ ودَّعته. لكَ أن تتخيَّلَ ما أحملُه في قلبي من شكرٍ لله على استخدامه لهذه الكتب، وكذلك استخدامه للإنترنت، في حياة هذا الرجل!
إنَّ قصصًا كهذه يمكن أن تتضاعف، كما أنَّ هناك بالتأكيد الكثير غيرها التي لا نعرف عن معظمها.

عندما تُستخدم الدفاعيَّات بصورةٍ مُقنِعةٍ وتُقدَّم بحكمةٍ مع رسالة الإنجيل، مدعومةً بشهادةٍ شخصيَّة، فالرُّوح القدس يجدُ مسرَّته في استخدام هذه كلِّها ليأتيَ بالنُّفوس إلى الله.

كيف يمكنك أن تجنيَ الفائدة القصوى من هذا الكتاب؟

القصد من هذا الكتاب أن يكونَ دليلًا تدريبيًّا يؤهِّلك لتتميم الوصيَّة في ١بطرس ٣: ١٥. لذا فهذا الكتاب للدراسة وليس فقط للقراءة. ستجدُ في هذا الكتاب العديد من الحُجَج التي صغتُها في خطواتٍ يسهلُ تذكُّرها. وعند نقاشي كلَّ حُجَّةٍ سأقدِّم سببًا (أو مجموعةً من الأسباب) التي تجعلني أعتقد أنَّ كلَّ مقدِّمةٍ من مقدِّماتِ حُجَّتي صحيحة. وسأُتبِعُ ذلك بمناقشة الاعتراضاتِ المعتادة على كلِّ مقدِّمة من مقدِّمات الحُجَّة، وكيفيَّة الردِّ عليها. وسيُمكنكَ بهذا الشكل أن تستعدَّ مُسبَّقًا للتعامل مع أيٍّ من الأسئلة المحتملة التي يمكن أن تُطرَح عليك لدى مشاركتِكَ الآخرين بإيمانك.

المقدِّمة

الخطوات التي تتضمَّنها أيَّة حُجَّةٍ وتؤدِّي إلى نتيجةٍ ما تُسمَّى مُقَدِّماتِ الحُجَّة.

مثلًا، لنفترضْ أنَّ أمامَنا الحُجَّةَ التالية:

١. كلُّ البشر مائتون.

٢. سقراط واحدٌ من البشر.

٣. إذًا، سقراط مائت.

هذا ما نُسمِّيه حُجَّةً صحيحةً منطقيًّا. وصحَّة هذه الحُجَّة هي من صحَّة مقدِّمتَيها الأولَيَين اللتين تؤدِّيان أيضًا إلى صحَّة النتيجة النهَّائية.

يعبِّرُ المنطق (Logic) عن عقل الله (يوحنَّا ١: ١)؛ لأنَّه يشرحُ لنا الكيفيَّة التي يُفكِّر بها كائنٌ تتجاوزُ عقلانيَّته كلَّ تصوُّر. ويَضُمُّ المنطقُ تسعَ قواعدَ أساسيَّة. وإنِ اتَّبعتَ قواعدَ المنطق، فإنَّها تضمنُ لك الوصول إلى نتائجَ صحيحةٍ إنْ كانت مقدِّماتُ حُجَّتك صحيحة. وهنا نستطيعُ القول إنَّ صحَّةَ النتيجة وصدقيَّتها تستندان منطقيًّا إلى مقدِّمات الحُجَّة.

السؤال المطروح علينا إذًا هو: هل المقدِّمتان ١ و٢ في الحُجَّة السابقة صحيحتان؟ عند إثباتنا للمقدِّمة الأولى في وُسعنا أن نقدِّمَ أدلَّة علميَّة وطبِّيَّةً على حقيقة أنَّ كلَّ البشر مائتون. ولكي نُثبتَ الخطوة الثانية يمكنُنا أن نستخدمَ الأدلَّة التاريخيَّة التي تثبتُ أنَّ سقراط كان إنسانًا حقيقيًّا. وفي أثناء قيامنا بذلك، علينا أن نُفكِّر في أيِّ اعتراض يمكن أن يوَجَّه إلى المقدِّمتَين ١ و٢ ونجد الإجابات عنه. مثلًا، قد ينفي أحدهم صحة المقدِّمة ٢؛ لأنَّه يعتقد أنَّ سقراط مجرَّدُ شخصيَّةٍ أسطوريَّة وليس إنسانًا حقيقيًّا. وهنا علينا أن نُثبتَ أنَّ الأدلَّة المتاحة تُظهِرُ لنا خطأَ هذا الاعتقاد.

إذا خضعتَ لقواعدِ المنطق وكانت مقدِّماتك صحيحة، فحتمًا ستكون النتيجة التي وصلتَ إليها صحيحةً أيضًا.

إنَّ في وُسع أيِّ شخصٍ مُتشكِّك أن يُنكِرَ أيَّة نتيجة، فقط بِنَفْيِ واحدةٍ من المقدِّمات التي بنَيتَ عليها نتيجتَك. وهنا ليس في وُسعكَ أن تفرضَ على أحدٍ قبولَ نتيجةٍ ما إنْ كانَ راضيًا بِرَفْضِ إحدى المقدِّمات، ودفع ثمن هذا الرفض. كلُّ ما عليكَ فعله في هذه الحالة هو أن توجِّهَ انتباهَ هذا الشخص إلى الثمن الباهظ الذي سيتكلَّفه برفضه مثل هذه النتيجة، وذلك بتقديمِ الأدلَّة الدامغة على صحَّة المُقَدِّمات التي طرحتَها.

مثلًا، الشخص الذي ينفي المقدِّمة رقم ٢ في الحُجَّة السابقة إنَّما يفعل ذلك بسبب تبنِّيه نزعةً شكوكيَّةً تاريخيَّةً تحسبُها الأغلبيَّة الساحقة من المؤرِّخين المُحترفين أمرًا لا مسوِّغَ له. لذا، في وُسع هذا الشخص أن ينفيَ هذه المقدِّمة إنْ أراد، ولكنَّه سيدفعُ حينها الثمن بأن يجعلَ من نفسه يبدو كأنَّه فقدَ صوابَه. مثل هذا الشخص لا يستطيع بحالٍ من الأحوال أن يحكُمَ بعدم العقلانيَّة على مَن يقبلُ فعلًا بصحَّة المقدِّمة رقم ٢.

وهكذا، عندما نعرضُ الحُججَ الدفاعيَّة للوصول إلى نتيجةٍ ما، فكلُّ ما نرجوه هو أن نلفتَ الانتباه، قدر الإمكان، إلى الثمن الباهظ الذي سيتكلَّفه

المرءُ بإنكاره النتيجة. وهنا كلُّ رغبتنا هي مساعدة غير المؤمن أن يرى التكلفةَ الفكريَّة التي سيتكبَّدُها عند مقاومته النتيجة التي نعرضُها أمامه. حتَّى لو أرادَ أن يدفعَ هو هذه التكلفة، فعلى الأقلِّ سيستطيع أن يرى لماذا نحن غير مُضطرِّين إلى دَفْعِها، وبهذا يتوقَّف عن السخرية من المؤمنين بالمسيح بُحجَّة أنَّهم غير عقلانيِّين، أو لا يملكون أسبابًا قويَّة لما يؤمنون به. وإنْ كان هذا الشخص غير راغبٍ في دَفْعِ هذا الثمن، فقد يُغيِّر من طريقةِ تفكيره ويقبل النتيجة التي نسعى إلى التَّدليل عليها.

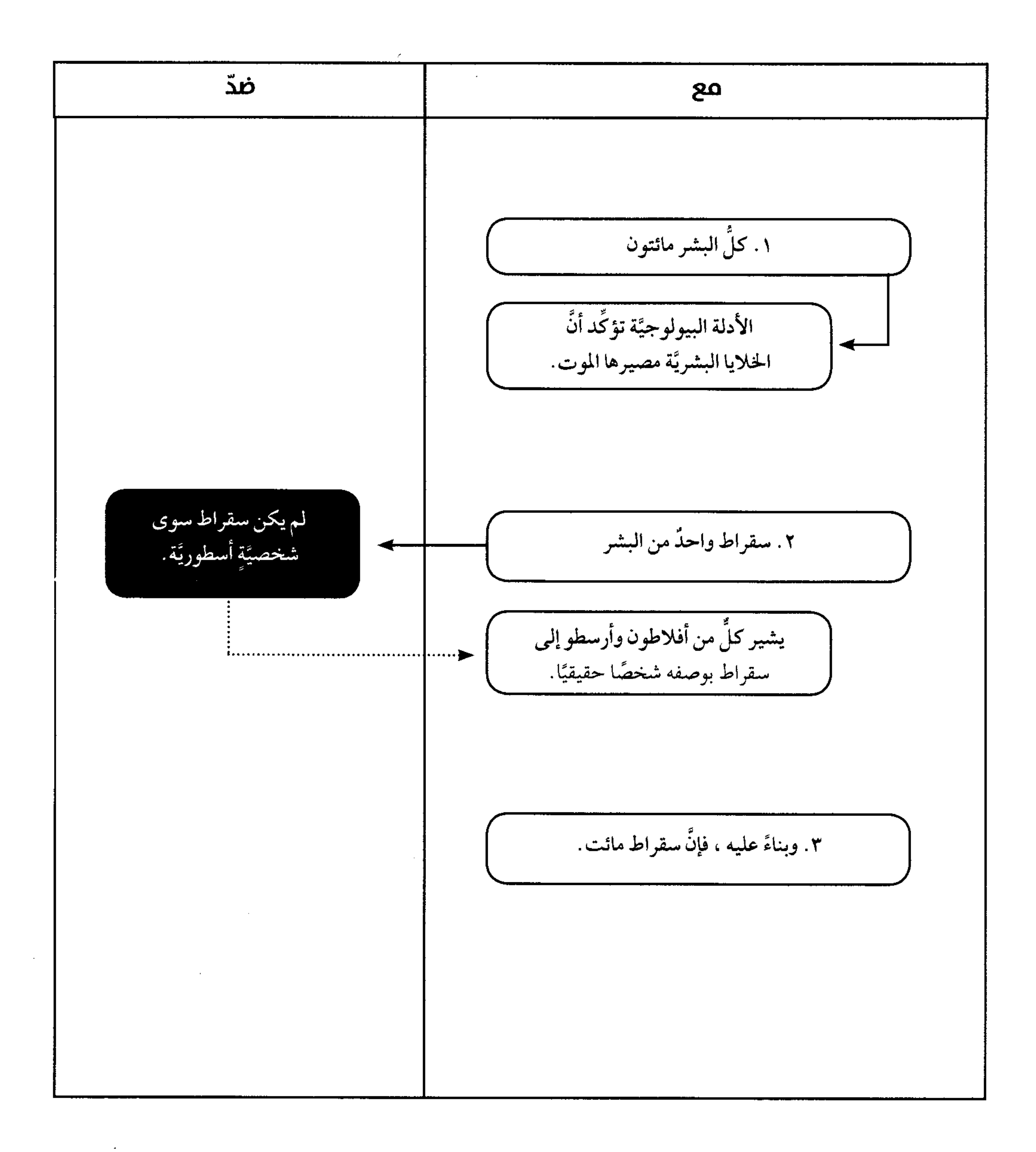
حاولتُ في تقديمي للحُجج والأدلَّة في هذا الكتاب أن أكونَ بسيطًا (أي أن أجعَلَ الأفكارَ سهلةَ الفهم) دونَ أن أكون تبسيطيًّا (أي أن أجعلَ الأفكار سطحيَّة، فتظهرُ أسهل للفهم، لكنَّ متانتَها الفكريَّة تقلّ). كذلك سأقدِّم أقوى الاعتراضات على الحُجَج التي أعرضها، مع ردودي على تلك الاعتراضات. ربَّما تجدُ المادَّةَ المقدَّمةَ في هذا الكتاب جديدةً أو صعبة عليك؛ لذا أشجِّعك أن تقرأ الكتابَ في أجزاء صغيرة يسهلُ هضمها. وربَّما من المفيد أيضًا أن تكونَ عضوًا في مجموعةٍ صغيرةٍ يمكنكَ فيها أن تناقش الحُجج. أرجو ألَّا تقلقَ إنْ وجدتَ نفسك مُختلفًا معي في بعض الأفكار؛ فالقصد هنا أن أساعدَك على التفكير بنفسك.

في نهاية معظم فصول الكتاب ستجدُ خريطة أو موجزًا للحجَّة المتعلِّقة بالقضيَّة المطروحة في الفصل. ولأشرحْ لكَ هنا كيف تستخدم خريطة الحُجَّة. تأخذ الخريطةُ شكلًا ديناميكيًّا، وتقدِّمُ حُجَّتي الأساسيَّة في العمود الأوَّل تحتَ عنوان "مع"، وفي الجهة المقابلة ستجد عمودًا بعنوان "ضدّ" أعرضُ فيه كلَّ الاعتراضات التي قد تثار من جانب المُعارضِين للحجَّة الأساسيَّة. أمَّا الأسهم التي تنطلق من كلا العمودَين باتِّجاه العمود الآخر فتشير إلى الردود التي يمكن أن تُقدَّم من كلا فريقَي "مع" أو "ضدّ". ستساعدك هذه الخرائط على رؤية الصورة الكبرى للقضايا المطروحة في الفصول.

انظرْ مثلًا في خريطة الحُجَّة الموجودة تاليًا:

في العمود الأوَّل من الخريطة نجدُ المقدِّمة الأولى للحُجَّة: "كلُّ البشر مائتون". وإذا تتبَّعنا السهم سنجدُ الدليلَ على صحَّة هذه المقدِّمة، وهنا لا يوجدُ أيُّ اعتراض على هذه المقدِّمة، وهكذا تظلُّ الخانةُ تحت عمود "ضدّ" خالية. وبعد ذلك تحت عمود "مع" ستجد المقدَّمة الثانية: "سقراط واحدٌ من البشر". وهنا لدى المُتشكك ردٌّ على ذلك، لذا ستجد تحت عمود "ضدّ" الاعتراض القائل إنَّ "سقراط مجرَّد شخصيَّة أسطوريَّة". وإذا تتبَّعنا السَّهم، سنجدُ الردَّ على هذا الاعتراض الذي يشرح بوضوح الأدلَّة التاريخيَّة على وجود سقراط بوصفه إنسانًا حقيقيًّا. لاحظ هنا أنَّ الخريطةَ تقدِّمُ خلاصةً موجَزةً جدًّا للأفكار، لذا فإنَّ قراءة خرائط الحُجج لا تُعَدُّ بديلًا عن دراسة الحُجج ذاتها كما يعرضُ لها الكتاب. وتساعدُك خرائطُ الحُجج فقط على رؤية الصورة الكبرى للقضيَّة محلِّ النقاش.

نموذج لخريطة الحُجَّة



هل ترغبُ في الدفاع عن إيمانك على نحوٍ يتَّسم بالذَّكاء؟ هل تحبُّ أن تكونَ في متناولك مجموعةٌ من الحُجَج التي يمكن أن تشارك بها شخصًا يظنُّ أنَّه ليستْ لدى المؤمنين بالمسيح أسبابٌ قويَّةٌ لما يؤمنون به؟ هل مللتَ من الشعور بالخوف والجزع من غير المؤمنين؟

إنْ كانت إجاباتك "نعم" عن الأسئلة السابقة، فواصِلْ قراءةَ هذا الكتاب الذي يُسعدُني أنَّك اخترتَه، كما أسعد بكَ كونكَ مستعدًّا للمجاوبة عن سبب الرجاء الذي فيك.

الفصل الثاني

ما أهمِّيَّة أن يكونَ الله موجودًا؟

"ثمَّ التفتُّ أنا إلى كلِّ أعمالي التي عمِلَتْها يداي، وإلى التعب الذي تعبتُه في عَملِه، فإذا الكُلُّ باطلٌ وقبضُ الريح، ولا منفعة تحت الشمس" (جامعة ٢: ١١).

كنتُ وزوجتي جان (Jan) نعيش في بلجيكا إبَّان انهيار الاتِّحاد السوفييتيِّ وسقوط الستار الحديديّ. وكان أمرًا مُثيرًا جدًّا أن أذهبَ لأُحاضِرَ في جامعات أوروبا في الوقت الذي كانت فيه هذه الأحداث التاريخيَّة التي غيَّرت العالم تحدُثُ أمامَ أعيُننا. وفي رحلةٍ لي إلى سانت بطرسبرغ (المعروفة سابقًا بِاسْم لينينغراد) بعد هذه الأحداث مباشرةً، زرتُ عالِمَ الكونيَّات (Cosmologist) الروسيَّ المشهور أندري غرِب (Andrei Grib). وبينما نحن نتجوَّلُ في متحف الإرميتاج (The Hermitage) ونتطلَّع في الكنوز الرائعة التي خلَّفها ماضي روسيا القيصريَّة، سألت أندري عن التحوُّل الهائل إلى الله الذي حدث في روسيا في أعقاب سقوط الاشتراكيَّة، فجاءني ردُّه بلكنَتِه الروسيَّة الواضحة: "حسنًا، في علم الرياضيَّات هناك ما يُسمَّى «البرهان بالضدّ». بإمكانك أن تُبرهنَ على صحَّة فكرةٍ ما بإثبات أنَّ ضدَّها غير صحيح. ونحن الروس كنَّا قد جرَّبْنا مدَّة سبعين عامًا الإلحادَ الماركسيَّ ولم يُفلحْ معنا. وهنا اعتقَدَ الجميعُ أنَّ «النقيض» لا بدَّ أن يكونَ صحيحًا!".

جزءٌ من التحدِّي الذي يعترضنا عندما نحاول أن نجعلَ الأميركيِّين يفكِّرون في الله هو أنَّهم اعتادوا فكرةَ الله إلى الحدِّ الذي جعلَهم يحسبونَه

واحدةً من البديهيّات. وهم بذلك لا يفكّرون في النتائج المترتّبة على عدم وجود الله، وهو ما جعلهم يتصوّرون أنّ وجودَ الله لا يصنع فرقًا في حياتهم، ومن ثَمَّ لا يَهُمُّ إنْ كان الله موجودًا أم لا.

لذا، فقبل أن نقدِّمَ إلى الناس الأدلَّة على وجود الله، ربَّما نحتاج لأن نساعدهم أن يرَوا أهمِّيَّة هذا الأمر في الأساس، وإلَّا فإنَّهم لن يُعيرونا انتباههم. وعندما نبيِّن لهؤلاء النتائجَ المترتِّبة على الإلحاد، ففي وُسعنا أن نساعدَهم أن يرَوا أنَّ قضيَّةَ وُجودِ الله ليست مجرَّد فكرةٍ تُضافُ إلى قائمة أفكار أخرى اعتدناها وألِفْناها، بل هي قضيَّةٌ تمثِّلُ الجوهرَ الذي يقوم عليه معنى الحياة ذاته. لذا فهي قضيَّة محوريَّة لكلٍّ منَّا.

مفهوم "البرهان بالضدِّ" الذي استخدمه البروفيسور غرِب يُسمَّى باللاتينيَّة "reductio ad absurdum"، ويُسمَّى أيضًا في مصطلحات الفلسفة ببُرهان الخُلف.* هذا المصطلح مناسب جدًّا في سياق تناوُلِنا للإلحاد. العديد من الفلاسفة- أمثال جان پول سارتر (Jean-Paul Sartre) وألبير كامو (Albert Camus)- قدَّموا حُجَجَهم على أنَّ الله غير موجود، ومن ثَمَّ فالحياة عبثيَّة بناءً على ذلك. والواضح أنَّ سارتر وكامو كلَيهما لم يُفكِّرا في هذا الطرح بوصفه برهانًا على نقيضه أو ضدِّه، وهو أنَّ الله موجود. إنَّما كلُّ ما فعله هؤلاء الفلاسفةُ هو بلوغهم إلى نتيجة مفادها أنَّ الحياةَ عبثيَّةٌ. غير أنَّ تحليلهم للوجود الإنسانيِّ في غياب الله يُرينا النتائج المُرعبة التي يؤدِّي إليها الإلحاد.

إنَّ فكرة عبثيَّة الحياة في غياب الله لا تُثبت أنَّ الله موجود، بل تُبيِّن لنا أنَّ السؤال حول وجود الله هو السؤال الأهمُّ الذي يمكن أن يشغل بال أيِّ شخص. إنَّ كلَّ مَن يستوعبُ فعلًا تبعات الإلحاد ونتائجه، لا يمكن أن يُديرَ ظهره لقضيَّة وجود الله، غير مكترثٍ بأهمِّيَّتها.

البرهانُ بالضدِّ أو البرهان بالخُلف (Reduction to absurdity) هو شكلٌ من أشكال الحُجج الفلسفيَّة التي تدلِّلُ على صحَّة مقولةٍ (أو فكرةٍ ما) بإظهار عدم صحَّة أو عبثيَّة المقولة (أو الفكرة) النقيضة.

المعنى مرتبط بالأهمِّيَّة، أي الأمرُ الذي يجعل أيَّ شيءٍ مُهمًّا. والقيمة مرتبطة بالخير والشرّ، بما هو صحيح وما هو خاطئ. أمَّا الغرض فهو الهدفُ أو السببُ وراء وجود شيء ما.

* "برهان الخُلف" هو البُرهان الذي يُقصد منه إثبات صحَّة قضيَّة ما بإثبات كذب نقيضها. انظر مادَّةَ "برهان" في المعجم الفلسفيِّ للدكتور مراد وهبة، والمعجم الفلسفيّ للدكتور جميل صليبا الصادر عن دار الكتاب اللبنانيّ (المترجم).

عندما أستخدم كلمة الله في هذا السياق، فأنا أقصد هنا الله خالقَ هذا الكون، كُلِّيَّ القدرة وكاملَ الصلاح الذي يمنحنا الحياة الأبديَّة. إنْ لم يكن مثل هذا الإله موجودًا، فالحياة إذًا عبث؛ أي أنَّه لا يوجَدُ معنًى نهائيٌّ لها أو قيمةٌ أو غرض في غياب هذا الإله.

رُغمَ أنَّ هناك ارتباطًا وثيقًا ما بين هذه المفاهيم الثلاثة- المعنى والقيمة والغرض- فهي مفاهيمُ متمايزة. المعنى مرتبط بالأهمِّيَّة، أي ما يجعل أيَّ شيء مهمًّا. والقيمة مرتبطة بالخير والشر، بما هو صحيح وما هو خاطئ. أمَّا الغرض فهو الهدف أو السبب وراء وجود شيء ما.

فكرتي الأساسيَّة هنا هو أنَّه إنْ كان الله غير موجود، فالمعنى والقيمة والغرض ليست سوى أوهام من صنع البشر. هي جميعًا مجرَّد أفكار تسكنُ رؤوسَنا. وإنْ كان الإلحاد صحيحًا، فالحياة فعلًا، وبصورةٍ موضوعيَّة، خالية من المعنى، ومُفرَغة من القيمة وبلا غرض. هذا رغمًا من كلِّ تصوُّراتنا الذاتيَّة التي ترى نقيضَ ذلك.

هذه الفكرة جديرة بإلقاء الضوء عليها؛ لأنَّه كثيرًا ما يُساءُ فهمها. قد يُظنُّ أنَّ ما أقصده هنا هو أنَّ الملحدين يعيشون حياةً بائسة، وبلا معنى، أو أنَّهم يفتقرون إلى القِيَم الشخصيَّة، ويعيشون حياةً لاأخلاقيَّة، أو بلا هدفٍ أو غرض. لكنِّي لا أقصدُ هذا؛ ففكرتي هي أنَّ كلَّ ما نؤمن به عن المعنى والقيمة والغرض ليس سوى أوهامٍ ذاتيَّةٍ إذا أخذنا أسس الإلحاد على مَحمَل الجِدِّ. إنْ كان الله غير موجود، فالنتيجة الحتميَّة لذلك هي أنَّ حياتَنا بلا معنى أو قيمة أو غرض، بغضِّ النظر عن توهُّمِنا بحقيقة هذه الأمور، وتمسُّكنا بها.

الموضوعيُّ في مقابل الذاتيّ

يكون الشيء موضوعيًّا إنْ كان حقيقيًّا وفعليًّا بغضِّ النظر عن رأينا فيه. كون جزيء الماء يتألَّف من ذرَّة أكسجين وذرَّتي هيدروجين هو حقيقة موضوعيَّة.

ويكون الشيء ذاتيًّا إنْ كانت حقيقتُه متوقِّفةً فقط على وجهة نظرنا فيه. أن تقولَ مثلًا إنَّ "للفانيلا مذاقًا أفضل من الشوكولاته" فأنت هنا تعبِّر عن وجهة نظر ذاتيَّة. يمكنك استيعاب هذَين المصطلحَين ببساطة إذا تذكَّرتَ أنَّ ما هو "موضوعيٌّ" مرتبط بالموضوع الموجود فعليًّا، وأنَّ ما هو "ذاتيٌّ" متعلِّق بالذَّات أو الشخص الذي تتوقَّف حقيقةُ شيء ما على وجهة نظره فيه.

عبثيَّة الحياة في غياب الله

إنْ كان الله غير موجود، فقد حُكِمَ على الإنسانِ والكَونِ بالفَناء. الموت مسألة حتميَّةٌ للإنسان، حالُه حالُ الكائنات الحيَّة الأخرى. وفي غياب أيِّ رجاء في

قال الإنسانُ للكون

قصيدة لستيفن كرين (Stephen Crane)

"قال الإنسانُ للكون: «سيِّدي، أنا موجود». فجاء ردُّ الكون: «هذه الحقيقة لا تجعَلُني مُلزَمًا أمامكَ بشيء»".

الخلود، فإنَّ حياة الإنسان تنتهي حتمًا عند القبر. وليست حياةُ الإنسان سوى ومضةٍ من نور في سوادٍ لانهائيّ- ومضةٍ تَظهَر لحظةً، وترتعش، ثمَّ تخبو إلى الأبد.

لذا، فإنَّ على كلٍّ منَّا أن يواجه ما أسماه اللاهوتيُّ پول تيليك (Paul Tillich) "تهديد العدم". رغم أنِّي أعلم الآن أنِّي موجود وحيٌّ، فأنا أعلمُ أيضًا أنِّي سأتوقَّف يومًا ما عن الوجود، وسيُغيِّبُني الموت. مجرَّد التفكير في هذه النهاية هو باعثٌ على الحَيرةِ، ومصدرٌ للتهديد. مجرَّد التفكير في أنَّ هذا الشخص الذي هو "أنا" سيتوقَّف يومًا عن الوجود ويلاشيه العدم.

ما زالت تلك اللحظة التي أخبرني فيها أبي بأنِّي سأموت يومًا ما ماثلةً أمامي بوضوح. لم تخطُرِ الفكرةُ ببالي قبل ذلك في سنواتِ طفولتي، لكنَّ خوفًا ملأني عندما طرحها عليَّ، واعتَراني حزنٌ شديدٌ لا يُحتمل. ورُغم أنَّه حاوَلَ أن يُطمئِنَني مِرارًا أنَّه ما زال أمامي الكثير من الوقت قبل أن يحدث ذلك، فإنَّ ذلك لم يُجدِ نفعًا أمام الحقيقة ذاتها. الحقيقة التي لا يمكن إنكارها أنِّي- عاجلًا أو آجلًا- في طريقي إلى الموت. هذه الفكرة اجتاحتني تمامًا وقتها.

ومثل بقيَّة الناس، اعتدتُ قبولَ هذه الحقيقة في النهاية؛ فجميعنا نتعلَّم التعايُشَ مع ما هو محتومٌ. لكنَّ بصيرةَ الطفل ظلَّتْ صادقة؛ إذ لا فرق يُذكَر ما بين عدَّة ساعات أو عدَّة سنوات تفصل بينك وبين الموت- على حدِّ تعبير سارتر- إذا فقدْتَ الأبديَّة.

كذلك الحال مع الكون الذي ينتظر هو أيضًا الفَناء. يخبرنا العلماء بأنَّ الكَونَ يتمدَّد، والمجرَّات تكبرُ ويتزايد ابتعادها إحداها عن الأخرى. وبينما تفعل ذلك، تزداد برودتها بسبب استنفاد طاقتها. وفي النهاية ستحترق كلُّ النجوم، وتتحوَّل مادَّةُ الكون إلى نجوم مَيْتة وثقوب سوداء. سيخبو الضَّوء، وتتلاشى الحرارة ، وتنعدم الحياة؛ ولن يبقى سوى جثثِ النجوم والمجرَّات الميْتة التي ستظلُّ تتمدَّدُ لتصيرَ عتمةً لانهائيَّة في قلبِ الصمتِ الباردِ الذي سيَلُفُّ أطلالَ الكَون.

ليست هذه الصورة من وحي كتب الخيال العلميّ، بل هذه النهاية ستحدث فعلًا ما لم يتدخَّلِ الله. ليست حياةُ الإنسان الفرد فقط هي التي في طريقها إلى الفناء، بل الجنس البشريُّ كلُّه، بمنجزه الحضاريّ الإنسانيّ، محكومٌ عليه بالفَناء. فمثل المساجين المحكوم عليهم بالموت، نحن في انتظار تنفيذ حكم الإعدام الذي لا يمكن تجنُّبه. لا فرار من التنفيذ ولا رجاء لنا.

وما دلالةُ ذلك كلِّه؟ يعني هذا فقط أنَّ الحياة نفسَها صارت عبثيَّة، كما يعني أنَّ الحياةَ التي نعيشها تفتقر إلى المعنى النهائيّ والقيمة والغرض. فلنتأمَّلِ الآن في هذه الأفكار كلٌّ على حِدة.

غياب المعنى النهائيّ

إن كان الموت يُغيِّب المرء من الوجود، فما المعنى النهائيُّ إذًا الذي تكتسبه حياته؟ إن كانت هذه هي الحال، فهل هناك فرق إن لم يولد أصلًا؟ المؤكَّد أنَّ حياةَ المرء قد تكون مهمَّة ضمن علاقتها بأحداث أخرى معيَّنة، لكنْ ما الدلالة النهائيَّة لأيٍّ من تلك الأحداث؟ إنْ كان كلُّ شيء محكوم عليه بالفناء، فما أهمِّيَّة أن يكون لك تأثير في أيِّ شيء؟ في ختام الأمر لن تكونَ لذلك أهمِّيَّةٌ تُذكَر.

ناقش

هل شعرتَ يومًا بعتمة اليأس مصحوبة بإحساسك أنَّ الحياةَ بلا معنى؟ كيف تعاملْتَ مع هذه الحالة؟

وَفقًا لهذه الرؤية، فإنَّ أهمِّيَّة وجود البشر لا تتجاوز أهمِّيَّة وجود سربِ بعوضٍ أو قطيع أبقارٍ؛ لأنَّ نهايةَ الجميع واحدة. والعمليَّة الكونيَّة نفسُها التي أخرجَتْهم إلى الوجود هي ذاتها التي ستبتلعُهم جميعًا إلى العدم. وهكذا فإنَّ إسهامات العالِم لتقدُّم المعرفة الإنسانيَّة، وبحوث الطبيب بغَرض تخفيف الألم والمعاناة، وجهود الدبلوماسيّ لضمان إحلالِ السِّلم في العالم، وتضحيات أصحاب القلوب الطيِّبة في كلِّ مكان لتحسين أوضاع الجنس البشريّ- هذه جميعها بلا فائدة تُرجى. تلك هي الحالة المرعبة التي يعيشها الإنسان الحديث: ما دام هذا الإنسان ينتهي إلى عدم، فهو في ذاته عدمٌ إذًا.

غير أنَّ من المهمّ إذًا أن يدركَ الإنسان أنَّه يحتاج إلى ما هو أكثر من الخلود ليكونَ لحياته معنى. ديمومة الوجود لا تجعل منه وجودًا ذا معنى. فلو قُدِّرَ للإنسان والكون أن يوجَدا إلى الأبد، ولكن في غياب الله، فإنَّ وجودَهما لن يتضمَّنَ معنًى نهائيًّا واضحًا. قرأتُ مرَّة إحدى قصص الخيال العلميّ عن رائد فضاء تُرِكَ في الفضاء الخارجيّ على صخرةٍ هائلةٍ مهجورة. ولم يكن معه فوق هذه الصخرة سوى قارورتَين: واحدة فيها سُمّ، والأخرى فيها شرابٌ سحريٌّ يمكن أن يمنحَه الحياة إلى الأبد. وأمام هذه المحنة قرَّرَ الرجلُ أن يتجرَّعَ السُّمّ، لكنَّ ما أصابه حقًّا بالذُّعرِ والهلعِ هو اكتشافه أنَّه تناوَلَ من القارورة الخطأ، التي تمنحه الخلود. ولم يكن لذلك إلَّا معنى واحدًا: أن يعيشَ لعنةَ الوجود إلى الأبد، ويحيا حياةً لا تنتهي بلا معنى.



ستُشبِهُ حياتُنا هذه الصورةَ كثيرًا، لو لم يكن الله موجودًا. قد تمتَدُّ هذه الحياة إلى الأبد، ومع ذلك ستَظلُّ مُفرَغةً من المعنى تمامًا، وسنبقى في انتظار الإجابة عن سؤال: "وماذا بعد؟" لذا، ليس الخلود هو كلُّ ما يحتاج إليه الإنسان لتحملَ حياتُه معنًى نهائيًّا، بل يحتاج الإنسانُ إلى اللهِ والخلود معًا. وإنْ كان الله غير موجود، ضاع معنى الخلود للإنسان.

إنْ غاب الله إذًا، صارت الحياة بلا معنى، وبات الإنسان والكون مُفرَغين من أيِّ معنى نهائيّ.

غياب القيمة النهائيَّة

إنْ كانت الحياة تنتهي عند القبر، فلا فرق إذًا بين أن تحيا حياتَك مثلما عاش ستالين (Stalin)، أو مثلما عاشَتِ الأمُّ تيريزا (Mother Teresa). وإنْ لم تكُنْ هناك علاقةٌ ما بين مصيرك وسلوكك، فيَسَعُكَ أن تحيا كما تريد. وكما قال الكاتب الروسيُّ فيودور دوستويفسكي (Fyodor Dostoyevsky) ذات مرَّة: "إنْ لم يكن هناكَ خلود، فكلُّ الأشياء مسموحٌ بها".

ناقش

اذكُرْ أسماءَ الشخصيَّات التي رأيتها في أفلامٍ وكانوا مثالًا لعبثيَّة الحياة. كيف تجسِّد هذه الشخصيَّات فكرة عبثيَّة الحياة؟

إنَّ الأشخاصَ الذين مارسوا عمليَّات التعذيب نيابةً عن الدولة في السجون السوڤييتيَّة فهموا ذلك جيِّدًا. يقدِّمُ القسُّ الرومانيُّ ريتشارد ويرمبراند (Richard Wurmbrand) – الذي كان قد تعرَّضَ للتعذيب– شهادته عن ذلك قائلًا:

> "من الصعب تصوُّرُ وحشيَّة أولئك الذين لا يؤمنون بوجود الثواب والعقاب. فالأمرُ عند هؤلاء هو أنْ لا سببَ يجعلُ الإنسانَ يتمسَّك بإنسانيَّته، ولا حاجزَ يعوق الإنسانَ عن الهبوط إلى جُبِّ الشرِّ الكامن فيه. لقد كان الذين مارسوا التعذيب من الشيوعيِّين يقولون في مناسباتٍ كثيرة: «لا وجود لله، ولا للحياة الأخرى، ولا عقاب عن الشرّ؛ ففي وُسعِنا أن نفعل ما نشاء». لقد سمعتُ واحدًا من المعَذِّبينَ يقول: «أشكر الله الذي لا أومن به أنِّي عشتُ حتَّى اللحظة التي استطعتُ فيها التعبير عن كلِّ الشرِّ الذي أُضمِره في قلبي». وقد عبَّر هذا الشخص عن شرِّه بوحشيَّةٍ لا يمكن تصوُّرها في تعذيبه الشديد للسجناء".[1]

"إنْ لم يكن هناكَ خلود، فكلُّ الأشياء مسموحٌ بها".
فيودور دوستويفسكي

لا أهمّيَّة تُذكَرُ للكيفيَّة التي ستحيا بها حياتك، ما دامَ الموتُ هو النهاية. ما الذي يمكن أن تقولَه لشخصٍ على قناعة أنَّنا يمكن أن نحيا كما يحلو لنا دون دافعٍ يحرِّكنا سوى الاهتمام تمامًا بذواتنا؟

قد يقول البعض إنَّ مصلحتَنا الشخصيَّة توجِبُ علينا أن نتبنَّى أسلوبَ حياة أخلاقيًّا؛ ففي هذا الأسلوب منفعة متبادلة تجعلني أساعدك عندما تساعدني. لكنَّ الواضح أنَّ ذلك لا يحدث على أرض الواقع؛ فالكثير من المواقف التي نعرفها تدلُّنا على أنَّ المصلحة الشخصيَّة كثيرًا ما تتجاوزُ الأخلاقيَّات. فضلًا عن ذلك، فإنْ كنتَ شخصًا يتمتَّع بما يكفي من السلطة- كما هي الحال مع الدكتاتور الفيليِّبينيِّ الأسبق فرديناند ماركوس (Ferdinand Marcos)، أو رئيس هاييتي الأسبق فرانسوا (بابا دوك) دوڤالبير (Francois [Papa Doc] Duvalier) أو حتَّى الرئيس الأميركيِّ دونالد ترامب (Donald Trump)- ففي وُسعِكَ أن تغضَّ الطَّرْفَ عمَّا يمليه عليكَ ضميرك، لتحيا وَفقًا لما ترغبُ فيه.

يُلَخِّصُ المؤرِّخ ستيوارت سي. إيستون (Stuart C. Easton) ذلك بقوله: "لا يوجد سببٌ موضوعيٌّ يجعل الإنسان يتصرَّف بصورةٍ أخلاقيَّة إلَّا «الفائدة المباشرة» التي يجنيها التصرُّف الأخلاقيُّ في حياته الاجتماعيَّة أو «الشعور الإيجابيّ» الذي يمنحه إيَّاه هذا التصرُّف. ليس ثمَّة سببٌ موضوعيٌّ يدفع الإنسان لأن يفعل أيَّ شيء سوى اللذَّةِ التي يجلبها هذا الفعل".[٢]

لكنَّ المشكلة تزداد تعقيدًا؛ لأنَّه إن كان الله غير موجود- بغضِّ النظر عن مسألة الخلود- فيعني هذا عدم توافُرِ معيارٍ موضوعيٍّ نميِّز به ما بين والصواب والخطأ. كلُّ ما نملكه لا يتجاوز- على حدِّ تعبير سارتر- "حقيقة الوجود العارية من أيَّة قيمة". وفي هذه الحال، تصيرُ القيم الأخلاقيَّة إمَّا مُجرَّد تعبير عن الذَّوقِ الشخصيِّ، وإمَّا نتاجًا غير مقصود وغير موجَّه للتطوُّر البيولوجيِّ أو التشكيل الاجتماعيِّ للأفراد.

نخلص من ذلك كلّه إلى أنّه ليس في البشر ما يجعلهم مميَّزين، بحسب وجهة النظر الإلحاديَّة. البشر، وَفقًا لهذه النظرة، ليسوا إلّا ما أنتجته الطبيعة بالصدفة وعلى نحوٍ غير مقصود ولا موجَّه، وهُم نشأوا وتطوَّروا حديثًا فوق ذرَّة التراب المتناهية في الصغر المعروفة بِاسْم الأرض، والتي تسبح بلا قصد في فضاء بلا عقلٍ. والمصيرُ المحتوم لهؤلاء البشر هو الفناء فرادى وجماعات في غضون زمن قصير نسبيًّا. إنَّ تقدير ريتشارد دوكينز لقيمة الإنسان قد يبعث على الاكتئاب، لكن السؤال المطروح هنا: ما الخطأ الذي يقع فيه دوكينز عندما يقول- انطلاقًا من خلفيَّته الإلحاديَّة- "لا يوجد في الأصل تصميم أو غرض، شرٌّ أو خير، لا يوجد شيء سوى اللّامبالاة التي لا تؤدِّي إلى أيِّ شيء...نحن لسنا سوى ماكيناتِ الهدفُ من وجودها هو الحفاظ على ديمومة المادَّة الوراثيَّة (DNA)...هذا هو الغرض الوحيد من وجود كلِّ الكائنات الحيَّة"؟[٣]

ناقش

كيف ستعيش لو كان اعتقادك أنَّ البشر ليسوا سوى ماكيناتٍ الهدفُ منها هو الحفاظ على ديمومة المادَّة الوراثيَّة؟

في عالمٍ يغيب عنه الله، مَن الذي يملك الحقَّ في أن يقرِّر أنَّ القِيَمَ التي يتبنّاها "فلان" صحيحةٌ، والتي يتبنّاها آخر خاطئة؟ لا يمكن في هذه الحال أن يكونَ لمعايير الصحَّة والخطأ أيُّ وجودٍ موضوعيّ، ولن يبقى لنا إلّا تقديراتنا الذاتيَّة المشروطة بشخصيَّاتنا وتكويننا الثقافيّ. أرجوك، فَكِّر قليلًا في ما يمكن أن يعنيه ذلك! معنى ذلك أنّه سيستحيل إدانة الشرِّ الكامن في الحرب والقهر والجريمة. كما لن يمكننا أن نُثني على الخير المرتبط بالكرم والمحبَّة والتضحية بالنَّفس. وهنا يتساوى أخلاقيًّا فعل القتل بفعل المحبَّة. أساس ذلك كلِّه هو التصوُّر الإلحاديُّ عن كونٍ بلا إله، وبلا خيرٍ أو شرّ- كَونٍ ليست فيه إلّا حقيقةُ الوجود العارية من أيَّة قيمة، ومن ثَمَّ يغيب عنه مَن يمكن أن يقول لنا إنَّ فلانًا على حقٍّ وآخر على خطأ.

ليس ثمَّة غرضٌ نهائيّ

إنْ كان الموتُ ينتظرنا فاتحًا أحضانه في نهاية رحلتنا هنا، فما الغرض من الحياة إذًا؟ هل الحياة بلا قيمة ولا سبب يحرِّكها؟ وماذا عن الكَون نفسه؟ هل هو موجودٌ دون غاية؟ إنْ كان مصير الكَونِ قبرًا باردًا في ثنايا الفضاء الخارجيّ، فالإجابة عن السؤال إذًا هي: أجل! لا غاية من وجود الكَون. هو كونٌ بلا قصدٍ ولا غاية، وستَظلُّ بقاياه تتمدَّد بصورة لانهائيَّة إلى أبدِ الآبدين.

وماذا عن الإنسان؟ هل هناك غايةٌ نهائيَّة من وجود الجنس البشريّ؟ أم أنَّه سيتلاشى يومًا ما، ويضيع في غياهب النسيان في كونٍ لا يأبه بأحد؟ تصوَّر الكاتب الإنكليزيُّ إتش. جي. ويلز (H. G. Wells) هذا الاحتمال المُتخيَّل في روايته "**آلة الزمن**" *(Time Machine)* التي يصوِّر فيها شخصًا يسافر عبر الزمن إلى المستقبل البعيد ليكشفَ عن مصير الإنسان. وكلُّ ما يجده هذا المسافر في نهاية الرحلة هو كرةٌ أرضيَّة مَيتة، وبضع طحالب تطوف حول شمس عملاقة ملتهبة. والأصوات الوحيدة التي يمكن سماعها هي عصف الريح وهدير أمواج البحر. وهنا يكتب ويلز قائلًا: "عدا هذه الأصوات الخالية من الحياة، كان العالم صامتًا. صامتًا؟ من الصعب وصفُ درجة الصمت والسكون في تلك اللحظة. كلُّ أصوات البشر، وثغاء الخراف، وتغريد الطيور، وطنين الحشرات، والضوضاء التي في خلفيَّة حياتنا- كلُّ هذه الأصوات قد ذوت وتلاشت".[٤] وبعد هذا الاكتشاف يعودُ المسافر في الرواية عبر الزمن إلى زمانه.

لكنَّ السؤال الآن: إلامَ يعودُ هذا المسافر؟ إنَّه يعود إلى لحظة سابقة في المسار نفسه الذي يفتقر إلى غاية، والذي يتحرَّك حتمًا في اتِّجاه الغياب والنسيان. عندما قرأتُ كتاب ويلز وكنتُ وقتها غير مسيحيّ، قلتُ لنفسي: "لا، لا! لا يمكن أن تكونَ النهاية على هذا النحو!" لكنْ إنْ كان الله غير موجود، فالنتيجة المنطقيَّة أن تكونَ النهاية على هذا النحو، شئنا أم أبينا. هذا هو واقع الكون دون الله: لا رجاء ولا غاية.

ما ينطبق على البشريَّة إجمالًا ينطبق أيضًا على كلِّ فردٍ منَّا على حدة: نحن جميعًا موجودون هنا بلا غاية. إنْ كان الله غير موجود، فحياتك لا تختلف كثيرًا من حيثُ قيمتها وجودتها عن حياة الحيوان.

قصيدة أوزيماندياس (Ozymandias)

للشاعر الإنكليزيّ پيرسي بيش شيلي (Percy Bysshe Shelley)

التَقيتُ رَحَّالةً من بلادٍ غابرةٍ
قال لي: ساقان هائلان من الحجر، بلا جذع
ينتصبان في الصحراء، وعلى مقربةٍ منهما في الرمال
يتبدَّى وجهٌ مُتَهَشِّم، نصفه غائصٌ في الرمال، جهامته
وشفاهُه المُتبرِّمة، وسُخريَتُه البادية من نظرته الباردة الآمرة
تتكلَّمُ جميعًا عن ذلك النحَّات الذي التقط تلك الانفعالات
التي ظلَّتْ باقيةً بعده مطبوعةً على تلك الحجارة الميتة،
كما تخبرنا بشأن تلك اليد التي صاغت هذه العواطف
والقلب الذي أطعمها.

أمَّا قاعدة التمثال فقد كُتِبت عليها هذه الكلمات:
"أنا أوزيماندياس، ملكُ الملوك:
تَطلَّع إلى أعمالي، أيُّها الجبار، وابتئس
لا شيءَ بقي حول أطلال هذا الخراب
الهائل سوى حبَّاتِ الرمال العارية والمترامية الأطراف
التي تستلقي وحيدةً لتبلغ الأُفق".

وكما قال كاتب سفر الجامعة قديمًا: "لأنَّ ما يَحدُثُ لبَني البَشَرِ يَحدُثُ للبَهيمَةِ، وحادِثَةٌ واحِدَةٌ لهُمْ. موتُ هذا كموتِ ذاكَ، ونَسَمَةٌ واحِدَةٌ للكُلِّ. فليس للإنسانِ مَزيَّةٌ علَى البَهيمَةِ، لأنَّ كِلَيهِما باطِلٌ. يَذهَبُ كِلاهُما إلَى مَكانٍ واحِدٍ. كانَ كِلاهُما مِنَ التُّرابِ، وإلَى التُّرابِ يَعودُ كِلاهُما" (جامعة ٣: ١٩-٢٠).

في هذا السِّفر القديم- الذي يمكن أن يُعدَّ نصًّا ضمنَ الأدبيَّات الوجوديَّة، أكثر منه سفرًا من أسفار الكتاب المقدَّس- يُرينا الكاتبُ عدم وجود جدوى من اللذَّة، وبُطلان الثروة، وعدم نفع الشهرة السياسيَّة أو الحصول على مكانة كريمة في حياة هي في ذاتها ستنتهي حتمًا بالموت. وكيف يحكم كاتب هذا

"... فليس للإنسانِ مَزيَّةٌ علَى البَهيمَةِ، لأنَّ كِلَيهما باطِلٌ. يَذهَبُ كِلاهُما إلَى مَكانٍ واحِدٍ. كانَ كِلاهُما مِنَ التُّرابِ، وإلَى التُّرابِ يَعودُ كِلاهُما".

(جامعة ٣: ١٩-٢٠)

السفر على هذه الحياة؟ ها هو حكمه: "باطل الأباطيل! الكلُّ باطل" (جامعة ١ : ٢). إنْ كانت الحياة تنتهي عند القبر، فليس ثمَّة هدفٌ نهائيٌّ نحيا لأجله.

لكنْ حتَّى لو لم تنتهِ الحياة بالموت، فالحياة دون الله هي دون غرض. ودون الله، يصيرُ الإنسان والكون كلاهُما مجرَّدَ موجودات من صنع الصدفة، دُفع بها إلى الوجود دون سبب. ودون الله، يغدو الكونُ مجرَّد نتاجٍ لصدفة كونيَّة- لانفجارٍ وقعَ بالصدفة، ومن ثَمَّ يفقد أيَّ سببٍ لوجوده. أمَّا الإنسان فلا يصيرُ في غياب الله سوى مجرَّدِ كيانٍ غريبٍ عشوائيٍّ أنتجَتْه الطبيعة بواسطة المادَّة والزمن والصدفة. إنْ كانَ الله غير موجود، فأنتَ مجرَّد سِقطٍ ألقَتْ به الطبيعةُ إلى وجودٍ بلا غاية ليحيا حياةً بلا غاية.

لذا إنْ كان الله غير موجود، فيعني هذا أنَّ الإنسانَ والكونَ موجودان بلا غاية- والموتُ هو نهاية كلِّ شيء- وأنَّهما مجرَّد نتاج عشوائيٍّ من منتجات الصدفة. خلاصة القول هي إنَّ غيابَ الله يعني فقط حياةً لا يُحرِّكها أيُّ قصدٍ أو عِلة بتاتًا.

أرجو أن تبدأ في استيعاب خطورة البدائل المطروحة أمامك. إنْ كان الله موجودًا، فثمَّة رجاءٌ للإنسان. ولكنْ إنْ كان الله غير موجود؛ فاليأس هو نصيبُنا الأوحَد. وقد أحسَنَ أحدُ الكُتَّاب في تلخيصه لتلك البدائل بالقول: "إنْ كان الله ميتًا، فكذلك الإنسان أيضًا".

إنكار الحقائق

لا يدرك معظم الناس، للأسف، هذه الحقيقة. لذلك يواصلون حياتَهم كما لو أنَّ شيئًا لم يحدث. ويُذكِّرني هذا بالقصَّة التي حكاها الفيلسوف المُلحد الذي عاشَ في القرن التاسع عشر، فردريك نيتشه، عن رجلٍ مجنونٍ ذهب في ساعات النهار الأولى إلى السوق مُمسكًا بسِراج وهو يصرخ قائلًا: "أبحثُ عن الله! أبحثُ عن الله!". ولأنَّ كثيرين ممَّن كانوا حوله لم يكونوا مؤمنين بالله،

فقد أصابَهم كلام الرجل بنوبةِ ضحكٍ شديدة، وعندها سألوه بسخرية: "وهل تاهَ الله؟ أم أنَّه مُختبئ؟ أو ربَّما هاجرَ أو خرجَ في رحلة!" وهكذا واصل هؤلاء صراخهم وضحكهم. وعندها وقف الرجل في المنتصف واخترقهم جميعًا بنظراته ليستكمل نيتشه القصَّة بقَوله:

> "«أين ذهب الله؟»- جاءت صرخة الرجل الذي قال مُجيبًا عن السؤال: «أنا سأخبركم. نحن قتلناه- أنتم وأنا. جميعنا قتلناه. لكنْ كيف فعلنا ذلك؟ كيف استطعنا أن نشربَ البحرَ؟ ومَنِ الذي أعطانا الإسفنجةَ التي مَحَونا بها الأفق بأكمله؟ ما الذي فعلناه عندما فَكَكْنا الارتباط ما بين هذه الأرض والشمس التي تدور الأرضُ حولها؟ وأين ستذهب الأرض الآن؟...هل ستُولي وجهها بعيدًا عن كلِّ الشموس؟ ألسنا نترنَّح باستمرار؟ إلى الخلف وعلى الجانبَين وإلى الأمام، وفي كلِّ الاتِّجاهات؟ أما زالت لدينا الاتِّجاهات الرأسيَّة من أعلى وأسفل؟ ألسنَا نَضِلُّ طريقَنا عبر عدمٍ لانهائيّ؟ ألا نشعرُ بأنفاس هذا الفضاء الفسيح الفارغ؟ ألَم يصبح هذا الفضاء أشدَّ برودة؟ أوَليسَتِ الليالي تدهمُنا الواحدة بعد الأخرى على نحو متواصل؟ أليس من الضرورة أن نُوقِدَ السُّرُجَ في الصباح؟ ألم نسمع بعدُ الجَلَبَةَ التي يُحدِثُها حفَّارو القبور الذين يدفنون الله؟...الله مات...ونحن قتلناه. كيف لنا نحن القَتَلَةَ الُمجرمين أن نعزِّيَ أنفسنا؟»".[٥]

راحَ جمهورُ المحتشدين يحملقُ في المجنون بصمتٍ ودهشةٍ. وفي النهاية وضعَ الرجل سراجَه على الأرض وقال: «لقد أتيتُ باكرًا جدًّا، ويبدو أنَّ خبرَ هذا الحدثَ الجللَ لم يصل بعدُ إلى مسامع الناس»".

لم يستوعِبِ الناسُ بعدُ عواقبَ موت الله. لكنَّ نيتشه- كما تكشف لنا الفِقرةُ السابقة- توقَّع أنَّ الإنسانَ الحديث سيدركُ تبعاتِ الإلحاد، وسيكونُ

هذا الإدراك من جانبِ الإنسان لحظةَ بدايةِ عصرِ العدميَّة، وهو عصر القضاء على كلِّ معنى وكلِّ قيمة في الحياة.

معظم الناس لا يفكِّرون مَليًّا في عواقب الإلحاد، لذا فهُم مثل جمهور المحتَشِدين في قصَّة نيتشه يمضون في طريقهم على غير هُدَى. لكنْ متى أدركنا- تمامًا كما أدرك نيتشه- ما يعنيه الإلحادُ فعلًا، فعندها سيدهَمُنا سؤاله: كيف لنا نحن القتلة المجرمين أن نُعزِّيَ أنفسَنا؟

الاستحالة العمليَّة للإلحاد

الحلُّ الوحيد الذي يقدِّمه المُلحِد هو أن نواجه عبثيَّة الحياة ونعيشَها بجسارة. فمثلًا، اعتقدَ الفيلسوفُ البريطانيُّ برتراند رَسِل (Bertrand Russel)، أنَّنا لا نملك خيارًا إلَّا أن نُقيمَ حياتنا على "أساسٍ راسخٍ لا يَلينُ من اليأس والقنوط". ويعني هذا أنَّنا لا يمكن أن نتقبَّلَ الحياةَ ونتعاملَ معها بكفاءةٍ إلَّا بعد أن ندركَ أنَّ العالَمَ هو بالفعل مكانٌ بائس. قال ألبير كامو ذات يوم إنَّ علينا أن ندركَ عبثيَّةَ الحياة، وعندها فقط سنستطيع أن نعيشَ ويُحِبَّ أحدُنا الآخر.



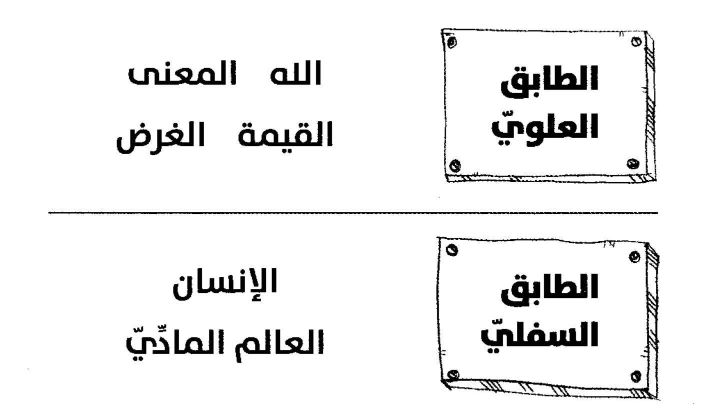
ألبير كامو "Albert Camus" (١٩١٣- ١٩٦٠م)

روائيٌّ فرنسيٌّ وجوديٌّ. حسبَ كامو أنَّ الحياة عبثيَّة نتيجةَ عدم وجود إله. والحياة عنده ليسَتْ فقط بلا معنى، ولكنَّها أيضًا خادعةٌ وقاسية. ولأنَّ الحياة عبثيَّة؛ فالانتحارُ هو السؤال الفلسفيُّ الوحيد الجدير بالاهتمام. ورغم عبثيَّة الحياة- من وجهة نظر كامو- فإنَّه كان يُناهضُ الانتحار، ويروِّجُ فكرةَ الأُخوَّة الإنسانيَّة.

غير أنَّ المشكلة الجوهريَّة التي تواجهنا هنا هي استحالة أن يعيشَ المرء سعيدًا ومُتَّسقًا مع أفكاره في الوقت ذاته وَفقًا للرؤية الإلحاديَّة للعالم؛ فإنْ

عشتَ مُتَّسقًا مع أفكارك، لن تحظى بالسعادة. وإنْ عشتَ سعيدًا، فهذا لأنَّك لست مُتَّسقًا مع أفكارك.

وقد أحسنَ فرنسيس شيفر (Francis Schaeffer) شرْحَ هذه الفكرة عندما قال إنَّ الإنسانَ الحديثَ يعيش في كونٍ من طابقَين: في الطابق السفلي هناك العالم المادِّيُّ المحدود الذي يغيب عنه الله، وفي هذا الطابق- كما رأينا- الحياة ليسَتْ إلَّا عبثًا. أمَّا الطابق العلويُّ فهو الذي يتضمَّنُ المعنى والقيمة والغرض. ووَفقًا لتصوُّرات الملحدين، فإنَّ الإنسان الحديث يعيشُ في الطابق السفليِّ؛ لأنَّه لا يؤمن بوجود الله. ولكنَّ الإنسان الحديث لا يستطيع أن يحيا سعيدًا في عالمٍ عبثيّ، ومن ثَمَّ يداوم باستمرار على إجراء قفزات إيمانيَّة إلى الطابق العلويّ، في محاولةٍ منه لتأكيد وجود المعنى والقيمة والغرض، حتَّى لو لم يكُنْ له الحقُّ في ذلك، على أساس أنَّه لا يؤمن بوجود الله.



فلنُعِدِ النظرَ مرَّةً أخرى إذًا في المواضيع الثلاثة التي رأينا بواسطتها عبثيَّة الحياة دون الله، كما رأينا بها أنَّ المرءَ لا يقدر أن يعيشَ سعيدًا ومتَّسقًا مع أفكاره في الوقت ذاته إنْ تبنَّى الرؤيةَ الإلحاديَّة للعالم.

معنى الحياة

لنبدأ أوّلًا بموضوع المعنى. رأينا في ما سبق أنَّ الحياةَ هي بلا معنى دون وجود الله. ورغم ذلك، فإنَّ بعضَ الفلاسفةِ يواصلون حياتهم، كما لو أنَّ للحياة معنًى بالفعل. مثلًا، قال سارتر إنَّ في وُسع الإنسان أن يخلقَ معنى لحياته إنِ اختارَ لنفسه بمحض إرادته الحرَّة أن يسلكَ مسارًا مُحدَّدًا. وسارتر نفسه اختارَ الماركسيَّة.

ناقش

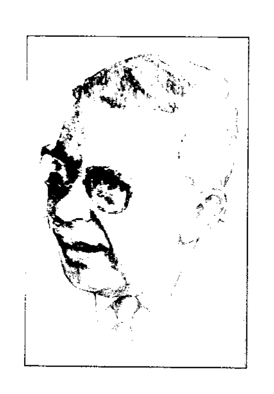
هل تعرفُ شخصًا يعتقد أنَّ في وُسعه أن يصنعَ بنفسه المعنى الخاصَّ لحياته؟ إنْ كنتَ فعلًا تعرفُ هذا الشخص، فكيف يمكنكَ أن تتحدَّث إليه بشأنِ دلالةِ ما يعتقده؟

لكنَّ ذلك الموقف يتَّسم بعدم الاتِّساق؛ فأنت تقعُ في عدم الاتِّساق إنْ قلتَ إنَّ الحياةَ عبثيَّة من الوجهة الموضوعيَّة، ثمَّ تقول بعدها إنَّ في وُسعك أن تخلقَ معنًى لحياتك. إنْ كانت الحياةُ عبثيَّةً فعلًا، فأنت إذًا رهينُ الطابق الأسفل. وإنْ حاولتَ أن تصنعَ معنًى للحياة، فيعني هذا أنَّك تحاول أن تقفزَ إلى الطابق الأعلى. لكنَّ سارتر لا يملك أساسًا يبرِّرُ به هذه القفزة. ومن هنا فإنَّ مشروعَ سارتر في حقيقته هو فعليًّا محاولة لخداع النفس؛ فالكونُ لا يكتسبُ معنًى لمجرَّد أنِّي منحتُه هذا المعنى بالمصادفة. الفكرةُ هنا سهلةٌ وواضحة: افترض أنِّي أعطَيتُ هذا الكون معنًى ما، وأنتَ منحته معنى آخر، فأيُّنا هو الأصحّ؟ الإجابة هي أنَّ كلا الإجابتَين خاطئتان؛ لأنَّ الكون بلا الله يبقى موضوعيًّا بلا معنى، بغضِّ النظر عن الكيفيَّة التي ننظرُ بها إلى هذا الكون. وما يقوله سارتر هنا في الواقع: "**فلنتظاهر** بأنَّ للكون معنًى". وليس هذا إلَّا خداعًا للنَّفس.

الفكرة الأساسيَّة هنا هي كالتالي: لو كان الله غير موجود، فالحياة إذًا بلا معنى من الناحية الموضوعيَّة. لكن لا يمكن أن يبنيَ الإنسان على فرضيَّة عدم وجود معنى للحياة أن يعيشَ سعيدًا ومُتَّسقًا مع هذه الفرضية في الوقت نفسه، وهو ما يجعل الإنسان يتظاهرُ بأنَّ للحياة معنى حتَّى يعيش سعيدًا. لكنَّ ذلك أمرٌ دون اتِّساق بتاتًا؛ لأنَّ الإنسان والكون، في حالة عدم وجود الله، لا يحملان أيَّ معنًى حقيقيّ.

قيمة الحياة

لنتحوَّلِ الآنَ إلى مشكلة القيمة، وإليكَ أكثرَ أوجه عدم الاتِّساق وضوحًا. أوَّلًا، يبرزُ عدم الاتِّساق الكامل في تشديد أصحاب النزعة الإنسانيَّة الإلحاديَّة على القيم التقليديَّة المتعلِّقة بالمحبَّة والأُخُوَّة. وكان ناقدو كامو مُحقِّين في إظهارهم عدم اتِّساقه في الجمع ما بين فكرة عبثيَّة الحياة والقيَم الأخلاقيَّة المرتبطة بالمحبَّة والأُخُوَّة الإنسانيَّة. فوجهة النظر التي ترى عدم وجود أيِّ قِيَم تتنافى منطقيًّا مع التشديد على قيمتَي المحبَّة والأُخُوَّة. ونجدُ عدم الاتِّساق نفسه عند برتراند رَسِل. فعلاوة على كونه مُلحدًا، كان رَسِل ناقدًا اجتماعيًّا مُفَوَّهًا يشجبُ الحرب ويَدينُ القيودَ المفروضة على الحرِّيَّة الجنسيَّة. وكان رَسِل قد اعترف بأنَّه لا يمكنه أن يتعايش مع فرضيَّة أنَّ القِيَم الأخلاقيَّة ليست سوى وجهة نظر شخصيَّة، ومن ثمَّ فقد حسبَ أنَّ آراءه هو "يصعب تصديقُها". وأقرَّ قائلًا: "لا أعرف حلًّا لهذه المعضلة".[6]



جان پول سارتر (١٩٠٥-١٩٨٠م)

فيلسوف وجوديٌّ فرنسيٌّ تبنَّى مقولة نيتشه عن موت الله بوصفها أساسًا أنكر بموجبه أيَّ وجود موضوعيٍّ للقيم والمعنى في الحياة يمكن أن يكتشفه المرء. ومن ثمَّ يمكن- بناءً على ذلك- أن يبتدع المرءُ لنفسه أيَّة قيم أو غايات يختارها هو لنفسه. إلَّا أنَّ سارتر وجدَ صعوبةً كبرى في الجَمْع ما بين هذه النزعة التحرُّريَّة الواضحة ومناهضته للفكر النازيِّ المُعادي للساميَّة.

الفكرة الأساسيَّة هنا أنَّه إنْ كان الله غير موجود، فمعنى ذلك أنَّ معايير الصواب والخطأ لا وجود لها من ناحية موضوعيَّة. وكما قال دوستويڤسكي ستكون: "كلُّ الأشياء مسموحٌ بها". لكنْ لا يمكن أن يعيشَ الإنسانُ على

هذا النحو، ثمَّ يقفزُ قفزةَ إيمانٍ يؤكِّدُ بها وجود القيم. وعندما يفعل الإنسان ذلك، فإنَّه يكشف حقيقة تهافُتِ العالم وعدم كفايته عندما يغيب عنه الله.

عاودني الإحساسُ بالهلع- وإنْ كان مُضاعفًا هذه المرَّة- من فكرة وجود عالمٍ مُفرَغٍ من القيمة، وذلك عندما شاهدتُ منذ بضع سنوات فيلمًا وثائقيًّا من إنتاجٍ هيئة الإذاعة البريطانيَّة (BBC) بعنوان "اللقاء" (The Gathering)، وقد تناوَلَ لَمَّ شمل الناجين من مُحرقة الهولوكوست، واجتماعهم في القدس حيث أعادوا سردَ الخبرات المشتركة، والصداقات القديمة التي ضاعت بمرور الزمن. إحدى السجينات السابقات في معسكراتِ النازِّي، وعملت مُمرِّضة، قالت إنَّ النازيِّين أسندوا إليها دورَ طبيبة الأمراض النسائيَّة في المعسكر الذي أُودِعت فيه. وكانت هذه السيِّدة قد لاحظت أنَّ الجنود النازيِّين جمعوا عددًا من النساء الحوامل، وأودعوهنَّ في الثُّكنة العسكريَّة نفسها تحت إشراف الدكتور جوزيف مينجل (Josef Mengele). وبعد مرور بعض الوقت، لاحظت هذه السيِّدة أنَّها لم تعُدْ ترى أيًّا من تلك النساء. ولمَّا سألت عن "أولئك الحوامل اللاتي كُنَّ قد أُودِعنَ هذه الثُّكنة" أتتها الإجابة: "ألم تعلَمي أنَّ الدكتور مينجل استخدمهم في عمليَّات التشريح الحيّ (Vivisection)؟".

أيضًا حَكَتِ امرأةٌ أخرى عن الكيفيَّة التي رَبطَ بها مينجل ثدييها حتَّى لا تتمكَّن من إرضاع طفلها، وكان غرض الدكتور من ذلك هو أن يعرفَ المدَّة الزمنيَّة التي يمكن أن يتحمَّلها الرضيع دون تغذية. حاولت هذه المرأة المسكينة جاهدةً أن تُبقي رضيعها على قيد الحياة بإطعامه قطعًا من الخبز المغموس بالقهوة، لكنْ دونَ جدوى. وكان الرضيع يفقد من وزنه كلَّ يوم، وهو ما كان الدكتور مينجل يراقبه بكلِّ شغف. وبعد ذلك جاءت مُمرِّضةٌ إلى تلك السيِّدة قائلةً: "لقد رتَّبتُ لك طريقةً للخروج من هنا، لكنْ لا يمكنُكِ أن تأخذي رضيعَك معكِ. لقد أحضرتُ لك حقنةَ مورفين يمكن أن تُعطِيَها لطفلكِ لتُنهي بها حياته". وعندما اعترضَتِ الأمُّ، قالت الممرِّضة بنبرةٍ حاسمة: "اسمعيني، رضيعك سيموت في كلِّ الأحوال، فعليكِ أن تُنقذي نفسَكِ

على الأقلّ". وهكذا اضطُرَّتْ هذه الأمُّ لأنْ تنهِيَ بنفسها حياةَ رضيعها. أمَّا الدكتور مينجل فقد تملَّكه الغضب عندما علم بموت الرضيع؛ لأنَّه فقد العيِّنة التي يُجري عليها تجاربه، وراح يبحثُ عن الرضيع الميت ضمنَ جثث الموتى، لا لشيء إلَّا ليقيسَ وزنه للمرَّة الأخيرة.

لقد تمزَّق قلبي عند سماع هذه القصص. أحَدُ مُعلِّمي اليهود، والذي كان قد نجا أيضًا من معسكرات النازي، أوجز ما حدثَ بقَوله إنَّ معسكرات النازي في أوشڤيتز كانت أشبَه بعالَمٍ جرى فيه تحويل الوصايا العشر إلى نقيضها. لم تَرَ البشريَّة في كلِّ تاريخها جحيمًا كهذا.

وبالقياس، إنْ كان الله غير موجود، فإنَّ عالمنا- بمعنى من المعاني- هو مجرَّد معسكرات نازي لا مكانَ فيه للصواب والخطأ؛ **فكلُّ شيء فيه مُباح.**

لكنْ ليس هناك ملحدٌ أو لاأدريٌّ يمكنه أن يعيشَ باتِّساقٍ مع هذه الفكرة. فنيتشه نفسه، الذي كان قد أعلن ضرورةَ أن يعيشَ المرءُ خارج إطار فكرتَي الخير والشرّ، قطع علاقته بأستاذه ومرشده الموسيقار ريتشارد ڤاغنر (Richard Wagner) فقط بسبب آرائه المعادية للساميَّة، ودفاعه عن القوميَّة الألمانيَّة على نحوٍ مُبالَغ فيه. على نحوٍ مشابه كتبَ سارتر في أعقاب الحرب العالميَّة الثانية مُدينًا لمعاداة الساميَّة، ومؤكِّدًا أنَّ أيَّة عقيدةٍ تؤدِّي إلى الإبادة الجماعيَّة، هي ليست مجرَّد رأي أو وجهة نظر شخصيَّة، وأنَّ هذا الفكر لا يتساوى في قيمته مع ما يناقضه من فكر. وفي مقالة سارتر المهمَّة بعنوان "الفلسفة الوجوديَّة هي فلسفةٍ إنسانيَّة النزعة" (Existentialism is Humansim) يحاول جاهدًا، دون جدوى، أن يتجنَّب التناقض القائم بين إنكاره وجود قِيَم أرساها الله مسبَّقًا ورغبته الشديدة في تأكيد قيمة الشخصيَّة الإنسانيَّة. وفي السياق نفسه، لا يستطيع سارتر، حالُه حالُ رَسِل، أن يتقبَّل نتائجَ إنكاره وجود ثوابت أخلاقيَّة مطلقة.

ناقش

ماذا تظنُّ السببَ الذي يجعلُ الملحدين بكلِّ ذكائهم يغضُّون الطَّرْفَ عن عدم اتِّساق تصوُّراتهم عن الصواب والخطأ؟

وينطبق الأمر نفسه على ما يُطلَق عليهم اسم "الملحدون الجدد" من أمثال ريتشارد دوكينز. فرغم أنَّ دوكينز ينادي بعَدم وجود شرٍّ أو خير، ويرى أنَّ الوجود لا يبالي ولا يرحم- فإنَّه لا يُخفي قناعتَه بوجود مبادئَ أخلاقيَّة؛ فهو يَدين بشدَّةٍ بممارسات من قبيل الإساءة لمِثليِّي الجنس، وعمليَّات التلقين الدينيِّ الممنهج للأطفال، وتقديم قبائل الإنكا للذَّبائح البشريَّة، كما يُثمِّن التنوُّع الثقافيَّ على الانعزال الذي تراه جماعات الآميش[†] (Amish) في مصلحة أطفالهم. بل إنَّ دوكينز يخطو خطوةً أبعد من ذلك عندما يقدِّم تعديله للوصايا العشر وصياغته الخاصَّة لها على النحو الذي يوجِّه السلوك من وجهة نظره، منكرًا في الوقت نفسه التناقُضَ بين ما يقوم به وتصوُّره ذاتيِّ النزعة عن القيم الأخلاقيَّة.[٧]

واقع الأمر أنَّنا قد لا نجدُ ملحدًا واحدًا يعيشُ باتِّساق مع منظومة الأفكار التي يؤمن بها؛ لأنَّ الكون دون مسؤوليَّة أخلاقيَّة وبلا تصوُّر واضح عن القيم هو كونٌ مُرعِب إلى حدٍّ يفوق التصوُّر.

غرض الحياة

لنأتِ الآن إلى مشكلة الغرض من الحياة. حتَّى يعيش مَن ينكرون وجودَ غرض للحياة سعداء، فإنَّ ليس أمامَ معظمهم إلَّا أن يبتَدِعوا غرضًا ما لهم- وهو ما يؤدِّي إلى خداع النفس، كما هي الحال مع سارتر- أو أن يتجاوَزوا النتائجَ المنطقيَّة التي يؤدِّي إليها إنكارهم. لا ننكرُ أنَّ إعطاء دلالةٍ وأهمِّيَّة موضوعيَّة لخططنا ومشاريعنا المحدودة بحيث نتمكَّنُ من إيجاد غرضٍ للحياة، هو أمرٌ يمثِّل إغراءً تصعبُ مقاومتُه.

مثلًا، يكتب عالم الفيزياء الحاصل على جائزة نوبل ستيڤن وينبرغ (Steven Weinberg) وهو مُلحد مُفَوَّه في خاتمة كتابه الأشهر "الدقائق الثلاث الأولى" (The First Three Minutes):

---

† طائفةٌ مسيحيَّةٌ تقليديَّة يسكن أغلبُها ولاية بنسلفانيا الأميركيَّة، وبعض المناطق الأخرى في الولايات المتَّحدة. نشأت هذه الطائفة- التي تعود في أصولها إلى كنائس المنونايت- على يد جاكوب آمان، وتقوم مبادؤها الأساسيَّة على التزام التعاليم المسيحيَّة حرفيًّا، والابتعاد عن مظاهر الحياة الحديثة، بما فيها من تكنولوجيا ووسائل اتِّصال (المترجم).

"نادرًا ما يجدُ البشر صعوبةً في الإيمان بوجود علاقة خاصَّة بيننا وبين الكون، وبأنَّ الحياة الإنسانيَّة ليست مجرَّدَ ذلك الناتجَ الهزليَّ لسلسلة من المصادفات ترجع إلى الدقائق الثلاث الأولى من حياة الكون. كما لا يجد الذهن البشريُّ صعوبةً كبيرةً في تصديق أنَّ تكويننا الداخليَّ أُوجِدَ منذُ البداية بصورةٍ من الصُّوَر...ومِن الصعب جدًّا أن نتقبَّل أنَّ كلَّ ذلك ليس سوى مجرَّدِ جزء صغير من كَونٍ معادٍ لنا بصورةٍ يصعبُ تصوُّرها. كذلك يصعب جدًّا أن نتقبَّل أنَّ الكونَ كما نعرفه اليوم تطوَّرَ من حالة سابقة غير معروفة لنا بتاتًا، وأنَّ هذا الكون يواجه خطرَ الاندثار في المستقبل إمَّا بسبب برودة لا تنتهي وإمَّا جرَّاء ارتفاع لا يُحتمَلُ في درجة الحرارة. كلَّما بدا أنَّ الكونَ في متناوَل فهمِنا واستيعابِنا، بدا أنَّه بلا غاية ولا معنى.

لكنْ إنْ كانت نتائج بحثنا لا تُرضينا، فعلى الأقلِّ نجد بعض الرضى في عمليَّة البحث نفسها. لم يَعُدِ البشر الآن- رجالًا ونساءً- قانعين بحكايا الآلهة والجبابرة، كما لم يعودوا قانعين بالتَّضييق على أفكارهم في إطار شؤون الحياة اليوميَّة؛ فالبشر الآن يصنعون التليسكوبات والأقمار الصناعيَّة والمسارعات الذرِّيَّة، كما يجلسون إلى مكاتبهم ساعات عمل طويلة يستخلصون في أثنائها دلالات البيانات التي يجمعونها. إنَّ الجهد المبذول في فهم الكون هو واحد ضمن بضعة أشياء ترفع الحياة الإنسانيَّة فوق مستوى المهزلة الكوميديَّة، وتمنحها بعضًا من وقار المأساة".[٨]

لكنَّ ثمَّة أمرًا غريبًا في وصف وينبرغ المؤثِّر لمأزق الإنسان: كلمة **مأساة** ليست كلمة محايدة، وهي تعبِّر عن **تقييم** مَن يستخدمها لموقفٍ محدَّد. والواضح أنَّ وينبرغ يرى أنَّ الحياة المُكرَّسة للأغراض العلميَّة هي فعلًا حياة

ذات معنى، لذا فالأمر المأساويُّ هنا هو أنَّ هذه الأغراض النبيلة لا بدَّ أن تتلاشى يومًا ما. لكنْ إذا قبلنا بالفرضيَّات التي يقوم عليها الإلحاد، فكيف يمكن أن يكونَ تكريسُ الحياة للبحث العلميِّ مختلفًا عن التسكُّع بلا عملٍ؟ إنْ كان لا يوجد أيُّ غرض موضوعيٍّ للحياة الإنسانية، فليس هناك معنى موضوعيٌّ لأيِّ شيء نفعله، بغضِّ النظر عن رؤيتنا الذاتيَّة لأهمِّيَّة ما نفعله وقيمة ما نعملُه. ووَفقًا للرؤية الإلحاديَّة، فإنَّ كلَّ ما نفعله لا يزيد في أهمِّيَّته على تبديل أماكن مقاعد سفينة **تايتانيك** التي مصيرُها الفناء.

مأزقُ الإنسان

إن الأزمة التي يواجهها الإنسان الحديث هي مُفزعة حقًّا؛ فالرؤية الإلحاديَّة إلى العالم عاجزةٌ عن توفير حياة سعيدة ومتَّسقة مع الأفكار التي تُؤَسَّس عليها. لا يمكن أن يحيا الإنسانُ حياةً سعيدةً ومتَّسقةً إذا افترضَ أنَّ هذه الحياة في شكلها النهائيِّ خاليةٌ من المعنى والقيمة والغرض. وإنْ حاوَلْنا أن نعيشَ باتِّساق تامٍّ مع الرؤية الإلحاديَّة إلى العالم، فلن نعرف سوى التعاسة في أعمق صورها. لكنْ إنْ نجحنا أن نحيا بسعادة، فهذا لا يعني إلَّا أنَّنا نُكَذِّب الرؤية التي نتبنَّاها إلى العالم.

ناقش

فَكِّر في فيلم شاهدته مؤخَّرًا. إنْ كان لك أن تسألَ بطلَ الفيلم هذا السؤال: "لماذا ترى أنَّ حياتَك مهمَّة؟"، فماذا ستكون الإجابة من وجهة نظرك؟

وعندما يُواجَه الإنسانُ الحديثُ بهذه الورطة، نجده يُصابُ بالاضطراب والارتباك في بحثه عن مخرَج منها. في خطابٍ لافت ألقاه الدكتور أل. دي. رو (L. D. Rue) أمام الأكاديميَّة الأميركيَّة لتقدُّم العلوم عام ١٩٩١م، تناول مأزقَ الإنسان الحديث، وقال بكلِّ جسارة إنَّنا نخدع أنفسنا مستخدمين بعض "الأكاذيب النبيلة" لنُقنعَ أنفسَنا بأنَّه لا تزال لنا قيمة، نحن والكون.

قال رو في هذا الخطاب: "الدرس الذي لُقِّنَّاه على مرِّ القرنَين الماضيَين هو أنَّ النسبيَّة الفكريَّة والأخلاقيَّة هي أساس كلِّ تفكير". ويواصل رو حديثَه قائلًا إنَّ نتيجة ذلك كانت انهيار كلِّ مساعينا إلى تحقيق الذات وتحقيق

التماسك الاجتماعيّ. وسبب ذلك هو أنَّ سَعيَنا إلى تحقيق الذات اكتسب- في ضَوء النسبيَّة- بُعدًا شخصيًّا متطرِّفًا؛ إذ صار لكلِّ شخص أن يختارَ المعنى ومجموعة القيم التي تناسبه **شخصيًّا**.

ما الخِيارات المطروحة أمامنا إذًا؟ يقول رو إنَّ الخِيارَ الأوَّل هو "خيار مُستشفى المجانين"، والمقصود به هو أن يسعى كلٌّ منَّا إلى تحقيق ذاته بغضِّ النظر عن التماسك الاجتماعيّ، ومن ناحيةٍ أخرى هناك "الخِيار الشموليّ" وفيه تفرض الدولة التماسك الاجتماعيَّ على الناس، وذلك على حساب رغباتهم في تحقيق ذواتهم. ويواصل رو حديثه قائلًا إنَّه إذا أردنا أن نتجنَّبَ هذين الخيارَين، فليس أمامنا بديلٌ سوى أن نتبنَّى إحدى تلك "الأكاذيب النبيلة" التي تلهمُنا أن نعيشَ فوق مصالحنا الأنانيَّة، ومن ثَمَّ نسهمُ طواعيةً في تحقيق التماسك الاجتماعيّ.

وهي كذبة لأنَّها تخبرنا بأنَّ الكونَ يضمُّ قيمتَه في ذاته (وهذا محضُ اختلاقٍ كبير) لأنَّها بذلك تدَّعي وجودَ حقيقةٍ عامَّة (في حين لا توجَدُ تلك الحقيقة)، وكذلك لأنَّها تخبرُني بأنَّ عليَّ ألَّا أعيشَ لمصلحتي الشخصيَّة (وهو مطلبٌ زائفٌ بالضَّرورة). "لكنَّنا لا نستطيع أن نعيشَ دون هذه الأكاذيب".

هذا هو الحكم النهائيُّ المرعب الذي صدر على الإنسان الحديث، الذي إنْ أراد أن يعيشَ، فعليه أن يحيا في خداعٍ للنفس.

قصَّتي

تتجاوزُ مسألة عبثيَّة الحياة مجرَّد كونها قضيَّةً أكاديميَّة؛ فهي قضيَّةٌ تتلامس مع عمق وجودنا. عندما كنتُ مراهقًا، انتابني شعورٌ عميق بانعدام معنى الحياة، وباليأس الذي يخلِّفه هذا الوعي.

ومع أنِّي نشأتُ في عائلةٍ طيِّبة تسودُها المحبَّة، فإنَّنا لم نكن نرتادُ الكنيسة، بل لم نكن عائلةً مسيحيَّة حقيقيَّة. لكنْ لمَّا بلغتُ سنَّ المراهقة، رحتُ أطرح

أسئلةَ الحياة الكبرى من قبيل: "من أنا؟" و"لماذا أنا هنا؟" و"إلى أين أنا ذاهب؟". وفي سعيي إلى الوصول إلى إجابات، بدأتُ أرتادُ كنيسةً كبيرةً في منطقتي. لكنْ بدلَ التوصُّل إلى إجابات، كان كلُّ ما وجدته هو ناديًا اجتماعيًّا ريفيًّا كان الاشتراك فيه دولارًا أسبوعيًّا أضعه في سلَّة التقدمات. أمَّا الآخرون من طلبة المرحلة الثانويَّة، والذين كانوا منخرطين في مجموعة الشباب، وكانوا يزعمون أنَّهم مسيحيُّون أيَّام الآحاد، فقد عاشوا لإلههم الحقيقيِّ في ما تبقَّى في الأسبوع، ولم يكن هذا الإله سوى الشهرة وجذب الانتباه. وبدا لي أنَّ أولئك الشباب كانوا على استعداد لأن يفعلوا أيَّ شيء ليلفتوا انتباهَ الجميع.

الأكاذيب النبيلة
د. أل. دي. رو

والكذبة النبيلة هي تلك التي "تُغوينا وتخدعنا وتدفعنا إلى ما هو أبعد من مصلحتنا الشخصيَّة، وأبعد من «الأنا» والعائلة وانتمائنا القوميّ والعرقيّ".

وقد أزعجني هذا الأمر بالفعل. **فقد زعم هؤلاء الشباب أنَّهم مسيحيُّون، ولكنِّي كنتُ أعيشُ حياةً أفضل منهم،** وَفقًا لما تصوَّرتُ. ومع ذلك، **فقد كنتُ أشعر بفراغ داخليّ، وظننتُ أنَّه لا بدَّ أنَّ لهؤلاء الشباب تكررت الشعور نفسه، وإنْ كانوا يزعمون في أنفسهم ما لا يمثِّلُ حقيقتَهم. لم يكن هؤلاء سوى مجموعة من المرائين!** وعند تلك اللحظة بدأتْ تزداد في داخلي مشاعر المرارة تُجاه مؤسَّسة الكنيسة وكلِّ مَن يرتادها.

وبدأ هذا التوجُّه يزدادُ داخلي تُجاه آخرين أيضًا؛ فقد كان كلُّ تفكيري محصورًا في أنَّه **ليس هناك مَن هو خالٍ من الزيفِ؛ فالبشر جميعًا ليسوا سوى حفنةٍ من المدَّعين الذين يَضَعون أقنعةً من البلاستيك في مواجهتهم للعالم، بينما ذواتهم الحقيقيَّة انكمشت على نفسها داخلهم، وتخشى الخروج بحقيقتها إلى العالم.** وهنا اتَّسعت دائرة غضبي واشمئزازي لتضمَّ على العموم الناس جميعًا، فبدأت أحتقر الناس، ولم تكن لديَّ رغبةٌ سوى في الابتعادِ عنهم. واعتقدت أنِّي لستُ بحاجة إلى الناس ممَّا دفعني إلى الانهماك في دراستي. كنتُ في الواقع في طريقي لأنْ أصير شابًّا غايةً في الاغتراب عمَّن حوله.

ورغم ذلك كنتُ في لحظات الصدق والتأمُّل أتيقَّنُ بأنِّي كنتُ أرغب أن أُحِبَّ وأكون محبوبًا من الآخرين. وعندها كنتُ أدرك أيضًا أنِّي لم أقل ادِّعاءً

عن الناس الذين كنتُ أحتقرهم؛ لأنِّي كنتُ أدَّعي أنِّي لستُ أحتاجُ إلى الناس، بينما كنتُ أعلم في قرارة نفسي أنِّي أحتاج إليهم أيَّ احتياج. وهنا تحوَّل اتِّجاه الغضب والكراهية من الناس إلى نفسي لما وجدته في نفسي من رياءٍ وادِّعاء.

لا أعرف إنْ كنتَ قد عرفت معنى هذا الشعور، لكنَّ هذا النوع من الغضب واليأس الداخليّ يلتهمكُ من داخلك، ويجعل كلَّ أيَّامك بائسة عندما يتحوَّل كلُّ يومٍ إلى عبءٍ ثقيل. لم أستطع وقتها أن أرى أيَّ غرض للحياة؛ ولم تكن هناك أهمِّيَّة لأيِّ شيء.

وفي أحد الأيَّام بينما كنتُ شاعرًا بانكسارٍ رهيب، ذهبتُ إلى أحد دروس اللغة الألمانيَّة في المرحلة الثانويَّة، وجلستُ خلف فتاة كانت من ذلك النوع من الناس الذين لازمَتْهم السعادةُ على الدوام على نحو يثير الغثيان! فما كان منِّي إلَّا أن ربَّتُّ كتفها، فاستدارت لأبادرها بالسؤال المباغت: "ساندي، لماذا أنتِ **سعيدة دائمًا هكذا؟**"

جاء ردُّها: "حسنًا يا بِل- أنا سعيدة لأنِّي نلتُ الخلاص".

أدهشني الجوابُ؛ لأنِّي لم أسمع لغةً كهذه من قبل.

فردَدْتُ عليها بسؤالٍ آخر: "أنتِ ماذا؟"

وعندها شرحَتْ قائلةً: "أنا أعرف يسوع المسيح مخلِّصًا شخصيًّا".

وهنا قلتُ متردِّدًا: "أنا أذهبُ إلى الكنيسة".

فأجابت: "هذا ليس كافيًا يا بِل. عليكَ أن تقبلَ يسوع في قلبك، ليحيا هو داخلك فعليًّا".

وهنا توقَّفتُ مرتبكًا ثمَّ سألت: "وما الذي يدفعه لأن يفعل ذلك؟"

"لأنَّه يحبُّك يا بِل".

وقد صدمتني هذه الجملة كما لو كانت طنًّا من الحجارة. في تلك اللحظة كنتُ ممتلئًا بالغضب والكراهية، عندما قالت لي إنَّ هناك شخصًا يحبُّني

بالفعل. ولم يكن هذا الشخص سوى إلهِ الكون كلِّه! هذه الفكرة أفقدتني توازني، ولم أستطع أن أتصوَّر أنَّ إله الكون يمكن أن يحبَّني أنا، بِل كريغ، ذلك الدودة التافهة الموجودة على ذرة التراب المسَّماة كوكب الأرض.

وكانت تلك اللحظة بدايةً لأكثر الأوقات إيلامًا وفحصًا للنفس التي مررتُ بها في حياتي. فقد حصلتُ على العهد الجديد وقرأتُه كلَّه. وبينما كنتُ أقرأ أسرتني شخصيَّة يسوع الناصريِّ بصورة كاملة. لقد وجدتُ في تعليمه حكمةً لم أعرفها من قبل، كما وجدتُ في حياته أصالةً لم تكن تميّز شخصيات أولئك الذين زعموا أنَّهم يتَّبعونه في الكنيسة المحلِّيَّة التي كنتُ أرتادها. وعلمتُ وقتها أنَّه لا يمكنني أن أستغني عن يسوع بسبب أولئك الذين يدَّعون اتِّباعه.

في أثناء ذلك، عرَّفتني ساندي إلى طلبة مسيحيِّين آخرين في المدرسة الثانويَّة لم أرَ مثلهم في حياتي! ما لا أستطيع أن أنكره على هؤلاء أنَّ كلَّ ما قالوه عن يسوع كانوا يعيشونه واقعيًّا، ولم أكن أحلم أنَّه موجود فعلًا، وكان ذلك يوجِدُ لحياتهم معنى، ويمنحهم فرحًا كنتُ أتوق لأن أنالَه.

وحتَّى أوجزَ قصَّةً طويلة، فقد داومتُ على بحثي الروحيِّ على مدار الشهور الستَّة التالية، انضممتُ في أثنائها إلى الاجتماعات المسيحيَّة، ورحتُ أقرأ الكتب المسيحيَّة، وطلبتُ وجه الله في الصلاة. وفي نهاية الأمر عندما بلغتُ نهاية عمليَّة البحث، ما كان منِّي إلَّا أن صرختُ إلى الله طاردًا ما تراكَمَ فيَّ من غضبٍ ومرارة، وفي الوقت نفسه أحسستُ بهذا الفرح الغامر يملأني كما لو كنتُ بالونًا يُملأ بالهواء بالتدريج حتَّى بات على وشك الانفجار. وأتذكَّر وقتها أنِّي اندفعتُ إلى الخارج وكانت وقتها ليلةً صيفيَّةً رائقةً من ليالي مناطق وسط غرب أميركا، ويمكنك فيها أن ترى طريق دربِ اللبَّانة في السماء وهو ينتشر على امتداد الأفق. وعندما رفعتُ رأسي إلى النجوم، قلتُ في نفسي: **الله! لقد عرفتُ الله!**

وقد كان من شأن هذه اللحظة أن تُبدِّل حياتي تمامًا. وكنتُ قد فكرتُ مليًّا في الرسالة التي وُجهت إليَّ في تلك الشهور الستَّة لأتحقَّقَ من أنَّها الحقُّ فعلًا، وإنْ كانت فعلًا هي الحقَّ، فلن أفعل ما هو أقلُّ من تكريس عمري كلِّه لنشر تلك الرسالة بين الناس.

وللعديد من المسيحيِّين، فإنَّ الفارق الأساسيَّ الذي يصنعه المسيح عندما يتعرَّفون إليه هو أنَّه يملأهم بالحبِّ أو الفرح أو السلام. ودون شكٍّ، أبهرتني هذه الأمور أيضًا، لكنْ إن سألتني عن الفارق الأهمِّ الذي صنعه المسيح في حياتي، فستكون إجابتي بلا تردُّد هي "المعنى". لقد عرفتُ قتامةَ الحياة وبؤسها عندما تحياها مُستقلًّا عن الله. لكنْ ما إنْ تعرَّفتُ إلى الله حتَّى دخل المعنى الأبديُّ حياتي؛ وبعدها صار كلُّ ما أفعله مشحونًا بهذا المعنى الأبديّ، وباتت للحياة أهمِّيَّتُها، كما صار كلُّ يوم فرصةً متجدِّدة لمسيرةٍ شخصيَّةٍ معه.

ناقش

هل لديك شعور بأنَّ حياتَك مهمَّة؟ إن كان الأمر كذلك، فما الذي يعطيك هذا الشعور؟ إذا لم يكن لديك هذا الشعور، فلماذا تفترض أنَّه ليس لديك؟

نجاح المسيحيَّة بحسب الكتاب المقدَّس

بناءً على ما سبق فإنَّ المسيحيَّة بحسب الكتاب المقدَّس تتحدَّى رؤية العالم كما يتبنَّاها الإنسان الحديث؛ لأنَّه وفقًا للرؤية المسيحيَّة إلى العالم، فإنَّ الله موجود **حقًّا** كما أنَّ الحياة لا تنتهي عن القبر. لذا فالمسيحيَّة بحسب الكتاب المقدَّس توفِّر الشرطَين الأساسيَّين الضروريَّين لوجود حياة ذات معنى وقيمة ومدفوعةٍ بغرض، وهما الله والخلود. وبناءً على هذين الشرطَين، في وُسعِنا أن نعيشَ سعداء ومتَّسقين مع أنفسنا وَفقًا لهذه الرؤية إلى العالم، لذلك تنجح المسيحيَّة بحسب الكتاب المقدَّس في ما أخفق فيه الإلحاد.

ومع ذلك فإنَّ أيًّا ممَّا سبق لا يبرهن على صحَّة المسيحيَّة بحسب الكتاب المقدَّس. وقد يكابر الملحد ويقول إنَّه تبنَّى إحدى "الأكاذيب النبيلة" وإنَّه أراح نفسه بخداعها. لذا سنفحصُ الأطروحات المؤيِّدة والمعارضة لوجود الله

في الفصول التالية. لكنْ ما فعلناه في هذا الفصل هو عرض البدائل الفكريَّة المتاحة بوضوح. إنْ كان الله غير موجود، فالحياةُ دون جدوى. وإنْ كان الله موجودًا، فللحياة إذًا معنى. والبديل الثاني هنا وحده هو ما يُمكِّننا من أن نعيشَ سعداء ومتَّسقين مع أنفسنا في الوقت نفسه. لذا فإنَّ الإجابة عن سؤال وجود الله تحقِّقُ فرقًا كبيرًا.

فضلًا عن ذلك كلِّه، يبدو لي أنَّه حتى لو كانت الأدلَّة على الخيارَين المتاحَين متساويةً تمامًا، فإنَّ على الشخص العاقل أن يختارَ الإيمانَ بالله. بعبارةٍ أخرى، لو افترضنا تعادل كفَّتَي الأدلَّة في الحالتَين، فمن غير المعقول تمامًا أن يفضِّلَ المرء الموتَ واللَّاجدوى والخراب على الحياة والمعنى والسعادة. كما قال پاسكال (Pascal) في هذا الصدد: "ليس لدينا ما نخسره، ولنا أبديَّة كاملة نكسبها".

إلَّا أنَّ الهدفَ من هذا الفصل بسيطٌ جدًّا. فبطرحي فكرةَ عبثيَّة الحياة دون الله، فإنِّي أرجو أن أجعَلَكَ تفكِّرُ في تلك القضايا، وتدركُ أنَّ لمسألة وجود الله نتائج بالغة الأهمِّيَّة لحياتنا، ومن ثمَّ فنحن لا نملك ترفَ عدم الاكتراث بها. إنِ استطعنا أن نقنعَ غير المؤمن بذلك، فنحن نسير معه على الطريق الصحيح.

موجز الفصل الثاني

١. **إنْ كان الله غير موجود، فحياة البشر جميعًا، فضلًا عن حياة كلِّ إنسان على حدة، مصيرها جميعًا الزوال والدمار.**

٢. **إنْ كان الله غير موجود ولا وجود للحياة بعد القبر، فالحياة ذاتها تفتقر إلى أيِّ معنًى موضوعيٍّ، كما تفتقر إلى القيمة والغرض.**

أ. المعنى

١. دون الخلود، ليس لحياتك أيُّ معنى نهائيّ، كما أنَّها لا تترك أثرًا في العالم إجمالًا.

٢. دون الله، لا يوجد أيُّ إطار شامل يمكن أن نرى بواسطته أهمِّيَّة الحياة.

ب. القيمة

١. دون الخلود، ليست هناك أيَّة مسؤوليَّة أخلاقيَّة، كما أنَّ خِياراتِكَ الأخلاقيَّة تصيرُ بلا نتائج أو تبعات.

٢. ودون الله تصيرُ القِيَم الأخلاقيَّة مجرَّدَ ضَلالات تترسَّخُ فينا بفعل التطوُّر وعمليَّات التشكيل الاجتماعيّ.

ج. الغرض

١. دون الخلود، فإنَّ مصيرك المحتوم هو الموت.

٢. دون الله، لا غرض من وجودك في هذا العالم.

٣. من المستحيل أن يحيا المرء سعيدًا ومُتَّسقًا مع رؤيته الإلحاديَّة إلى العالم في الوقت نفسه.

أ. إنْ عشنا سُعداء بصفة ملحدين، فذلك لأنَّنا نؤكِّدُ بصورة غير متَّسقة وجود المعنى والقيمة والغرض في حياتنا دون أن نملكَ أساسًا واضحًا لها.

ب. أمَّا إنْ عشنا متَّسقين مع رؤيتنا بصفة ملحدين، فسنحيا حياةً غايةً في التعاسة، بل البؤس؛ لأنَّنا نُدركُ أنَّ حياتَنا تفتقر بالفعل إلى المعنى والقيمة والغرض.

٤. تتحدَّى المسيحيَّة بحسب الكتاب المقدَّس رؤية العالم التي يتبنَّاها الإنسان الحديث.

أ. وَفقًا للمسيحيَّة بحسب الكتاب المقدَّس، فإنَّ الله موجود والحياة لا تنتهي عند القبر.

ب. تشدِّدُ المسيحيَّةُ بحسب الكتاب المقدَّس إذًا على شرطَين يضمَنان لنا حياة لها معنى وقيمة وغرض، وهما: الله والخلود.

ج. كذلك تُوفِّر المسيحيَّة بحسب الكتاب المقدَّس إطارًا يمكن أن يعيشَ المرء بواسطته سعيدًا ومُتَّسقًا مع ما يؤمن به في الوقت نفسه.

د. السؤال المطروح الآن بناءً على ما سبق: لماذا لا تفحص بنفسِكَ صحةَ المسيحيَّة بحسب الكتاب المقدَّس؟

الفصل الثالث

ما السبب وراء الوجود؟

"في البدء كانَ الكلمة. والكلمةُ كانَ عند الله. وكانَ الكلمةُ الله... كلُّ شيءٍ بهِ كان، وبغيره لم يكن شيءٍ ممَّا كان" (يوحنَّا ١ : ١، ٣).

كانت منطقة كيوكوك (Keokuk) هي المكانَ المثاليَّ الذي نشأتُ فيه في صباي. تقع كيوكوك على ضفاف نهر المسيسپي العظيم، وعلى الطرف الجنوبيِّ الشرقيِّ لولاية أيوا، وعلى مقربة من ولاية ميزوري. وفي طفولتنا كنَّا نرى كلَّ أنواع الحيوانات الأليفة التي يمكن أن نمسكَها، مثل الضفادع وضفادع الجبال والثعابين والسمندل والأرانب والطيور والكلاب الضالَّة والقطط التي كانت جميعًا تجول بالقرب من منزلنا، حتَّى الخفافيش وحيوان الأبوسوم كنَّا نراها أمامنا. وفي كيوكوك، في وُسعِكَ أيضًا أن ترى النجومَ بوُضوح ليلًا. أتذكَّرُ عندما كنتُ صبيًّا، كنتُ أتطلَّعُ إلى السَّماء لأرى النجوم بأعدادها التي لا تُحصَى في المساء الحالك، وعندها كنتُ أتساءل: **من أين أتت كلُّ هذه النجوم؟** وانتابني شعورٌ فطريٌّ حينها أنَّ هناك تفسيرًا لوجود كلِّ هذه الخليقة. كان لديَّ إيمانٌ دائمٌ بأنَّ لهذا الكونِ خالقًا، لكنِّي لم أتعرَّف إلى هذا الخالق شخصيًّا.

وبعد ذلك بسنوات، أدركتُ أنَّ السؤال الذي طرحتُه في صباي، والإجابة التي كنتُ قد وصلت إليها، شغلا أذهان أعظم الفلاسفة على مدار القرون التي خلَتْ. من هؤلاء مثلًا الفيلسوف الألمانيُّ جي. دبليو. لَيبنِتز (G. W. Leibniz) الذي أسهم مع آخرين في وضع حساب التكامل

والتفاضل، ويُعدُّ أحدَ القامات الفكريَّة الرفيعة في أوروبا القرن الثامن عشر. كتب لَيبنِتز ذاتَ مرَّة: "السؤال الأوَّل الجدير بأن يُطرَح هو: لماذا هناكَ شيءٌ موجود بدلًا من لاشيء؟"[1]

بعبارةٍ أخرى، لماذا توجد الأشياء التي حولنا؟ ويرى لَيبنِتز أنَّ هذا هو السؤال الأهمُّ الذي يمكن أن يُطرَح على أيٍّ شخص. وكان لَيبنِتز قد انتهى- كما فعلتُ أنا- إلى أنَّ إجابة هذا السؤال لا يمكن أن نجدها في هذا الكون الذي يضمُّ كلَّ ما خُلِق، بل الإجابة هي في الله ذاته. الله موجودٌ بالضرورة*، ووُجوده هو ما يُفسِّر وجودَ أيِّ شيءٍ آخر.

حُجَّة لَيبنِتز

في وُسعنا صياغة تفكير لَيبنِتز حول هذا السؤال في حُجَّة بسيطة. وميِّزةُ هذه الصياغة أنَّها تجعلُ منطقَ لَيبنِتز في التفكير غايةً في الوضوح، كما تساعدنا على تركيز انتباهنا على الخطواتِ الأساسيَّة التي يقوم عليها استدلاله. كما أنَّ هذه الصياغة تجعلُ بالإمكان تذكُّرُ هذه الحُجَّة، ممَّا يسهِّلُ مشاركتها مع الآخرين (ستجدُ مخطَّطَ هذه الحُجَّة في نهاية الفصل).

* يقول الفلاسفة إنَّ هناك نوعَين من الكائنات: كائنات مشروطة (Contingent)، وكائنات ضرورية (Necessary). والكائنات المشروطة هي تلك التي تعتمد علَّةُ وجودها على كائنات أخرى. فمثلًا، الفردُ البشريُّ كائنٌ مشروط؛ لأنَّه يعتمد في وجوده على والدَيه. بالمقارنة، لا ينطبقُ هذا المنطق على الله؛ لأنَّ الله بالتَّعريف هو الكائن الذي لم يوجده آخر، بمعنى أنَّ وجوده لا يعتمد على أيِّ كائنٍ آخر هو سبب وجود أو علَّته. لذا نقول إنَّ الله ضروريُّ الوجود (الناشر).



غوتفريد ڤيلهلم لَيبنِتز (Gottfried Wilhelm Leibniz)

عاش لَيبنِتز ما بين ١٦٤٦ و١٧١٦م، وكان فيلسوفًا ورياضيًّا وعالمًا في المنطق من ألمانيا، وكان قد اخترع حسابَ التفاضل والتكامل في الوقت ذاته الذي توصَّل إليه السِّير إسحاق نيوتن. وبسبب ذلك، أمضى لَيبنِتز السنوات الخمس الأخيرة من حياته يدفعُ عن نفسه تهمةَ سرقة أفكار نيوتن ونشرها بِاسْمه. ويتَّفقُ المؤرِّخون في الوقت الحاضر أنَّ لَيبنتِز اخترعَ بالفعل حسابَ التفاضل والتكامل باستِقلالٍ عمَّا توصَّل إليه نيوتن.

يقومُ التفكيرُ الاستدلاليُّ لدى لَيبنِتز على ثلاث خطوات أو مُقَدِّمات:

١. هناكَ تفسير لوجود كلِّ ما هو موجود.

٢. إنْ كانَ هناكَ ما يفسِّر وُجود هذا الكون، فليس هذا التفسير سوى الله نفسه.

٣. الكون موجود.

ما الذي يترتَّب منطقيًا على هذه المقدِّمات؟

حسنًا، فلنتأمَّلِ الآنَ في المقدِّمتَين ١ و٣. (اقرأهما بصوتٍ مسموع إنْ كان ذلك سيُساعدك). إنْ كان هناك تفسيرٌ لكلِّ ما هو موجود؛ وإنْ كان الكونُ موجودًا، فالنتيجةُ المنطقيَّة التي تترتَّبُ على ذلك هي:

٤. هناك تفسيرٌ لوُجود الكون.

فلنُلاحِظِ الآنَ أنَّ المقدِّمة رقم ٢ تقول إنَّه إنْ كان هناك تفسيرٌ لوُجود الكون، فهذا التفسيرُ هو الله. وتقولُ المقدِّمة رقم ٤ إنَّ هناك تفسيرًا فعلًا لوُجود الكون. وبناءً على المقدِّمتَين ٢ و٤ نخلص إلى أنَّ:

٥. تفسير وجود الكون هو في الله نفسه.

ناقش

أيُّ المقدِّماتِ الثلاث تتعرَّض لنقد الملحدين بحسب خبرتك الشخصيَّة؟ وعلى أيِّ أساس يبنون هجومَهم على هذه المقدِّمة أو تلك؟

ضروريٌّ أم مشروط؟

توجَدُ الموجودات الكائنة بالضَّرورة بفعل الضرورة التي تفرضُها طبيعتُها، أي أنَّ طبيعتها توجبُ عليها أن توجد. أمَّا الأشياء التي يكون وجودها مشروطًا، فهي تقصر عن أن توجَدَ من ذاتها، لذا فهي تحتاج إلى عِلَّة تفسِّرُ سببَ وجودها.

هذه حُجَّةٌ مُحكَمةُ الصياغة؛ لأنَّه إنْ كانت المقدِّمات الثلاث صحيحة، فلا يمكنُ إذًا رفضُ النتيجة. لا يَهمُّ هنا إنْ كان الملحدُ أو اللَّاأدريُّ لا يقبل هذه النتيجة؛ فما دامَ قد قَبِلَ المقدِّمات، فعليه أن يقبَلَ النتيجة. وإنْ كان لا بُدَّ أن يرفضَ النتيجةَ، فعليه أن يُثبتَ عدمَ صحَّة أيٍّ من المقدِّمات الثلاث.

والآن، ما المقدِّمة التي يمكن أن يرفضَها الملحد أو اللَّاأدريّ؟ لا يمكنُ أن يُنكِرَ أيُّ باحثٍ مُخلِصٍ عن الحقِّ المقدِّمةَ الثالثةَ؛ فمن البديهيِّ أنَّ الكون موجود. لذا فلَيس أمامَ الملحد إلَّا أن ينكرَ المقدِّمة الأولى أو الثانية لو أرادَ أن يظلَّ على إلحاده، ويحتفظَ بعقلانيَّته في آنٍ معًا. ومن هنا فإنَّ القضيَّة كلَّها تتلخَّص في السؤال التالي: هل المقدِّمتان الأولى والثانية حقيقيَّتان أم زائفتان؟ فلنحاوِلِ الآن أن نفحَصَ هاتَين المقدِّمتَين.

المقدّمة الأولى
هناك تفسير لوجود كلِّ ما هو موجود

اعتراض على المقدِّمة الأولى: لدى الله حتمًا تفسيرٌ لوجوده

قد تبدو المقدِّمة الأولى ضعيفة ومتهافتة للوهلة الأولى. فإنْ كان هناك تفسيرٌ لوجود كلِّ ما هو موجود؛ وإنْ كان الله موجودٌ، فهناك بالضرورة تفسيرٌ لوجوده. لكنْ يبدو أنَّ الفكرةَ المطروحةَ هنا غير مقبولة تمامًا؛ لأنَّ تفسيرَ وجود الله لا بد أن يكون في كائنٍ آخرَ أعظَمَ من الله. ولأنَّ ذلك أمرٌ مستحيل، فلا بدَّ أنَّ المقدِّمةَ الأولى زائفة. فهناك أمورٌ لا بدَّ أن توجَدَ في ذاتها دون الحاجة إلى ما يُفسِّر وجودها. وهنا سيقول المؤمن إنَّ الله موجودٌ على نحوٍ يستعصي على التفسير، فيقول المُلحد عندئذٍ: "لماذا لا نكتفي إذًا بالكون، ونقول إنَّه موجودٌ هو الآخر على نحوٍ يستعصي على التفسير؟" وعند هذه اللحظة نجدُ أنفسَنا في ورطة.

الردُّ على الاعتراض: هناك من الموجودات ما يُوجَد بالضَّرورة

إنَّ مرجعَ هذا الاعتراض الواضح على المقدِّمة الأولى هو سوء فَهمِ ما قصده لَيبنِتز بمصطلح "التفسير". في رأي لَيبنِتز هناك نوعان من الموجودات: (أ) موجودات كائنة بالضَّرورة و(ب) وموجودات وجودها مشروط بعِلَّة خارجيَّة سبَّبتها. ولأفسِّر الأمرَ الآنَ.

أ. توجد الموجودات الكائنة بالضَّرورة بفعل الضرورة التي تفرضُها طبيعتها، لذا يستحيل على هذه الموجودات إلَّا أن توجد. والعديد من علماء الرياضيَّات، مثلًا، يعتقدون أنَّ الأرقام والمجموعات والقِيَم الرياضيَّة موجودةٌ على هذا النحو. أي أنَّها ليست بحاجة إلى عِلَّةٍ تسبِّب وجودَها، بل هي توجد بموجب الضرورة التي تفرضُها طبيعتها.

ب. على النقيض من ذلك، فإنَّ الموجودات التي يتوقَّف وجودُها على شيء آخر يُسبِّب وجودها، فهي لا توجَد بالضَّرورة، بل هي كائنة لأنَّ شيئًا آخرَ أخرجَها إلى حيِّز الوجود. الموجودات المادِّيَّة المعروفة لنا، مثل البشر والكواكب والأجرام السماويَّة، تنتمي إلى هذه الفئة من الموجودات.

ناقش

إنْ كان الله موجودًا حقًّا، فما الذي يجعلُ وجودَ علَّةٍ خارجيَّةٍ سبَّبت وجوده أمرًا مستحيلًا؟

لذا عندما يقول لَيبنِتز إنَّ كلَّ ما هو موجود له ما يفسِّر وجوده، فإنَّ هذا التفسير إمَّا أن نجده في الضرورة التي تفرضُها طبيعة هذا الموجود، وإمَّا في عِلَّةٍ خارجيَّةٍ سبَّبت وجوده. ومن هنا يمكن صياغة المقدِّمة الأولى على النحو التالي:

١. لدى كلِّ الموجودات ما يفسِّر وجودها، إمَّا بالضَّرورة التي تفرضها طبيعتُها، وإمَّا بعِلَّةٍ خارجيَّة.

وهكذا يسقط الاعتراضُ على هذه المقدِّمة. إنَّ تفسير وجود الله إنَّما يكمن في الضرورة التي تفرضُها طبيعتُه. من المستحيل أن تكونَ هناك عِلَّة تسبِّبُ وجودَ الله، وهذا أمرٌ يدركُه حتَّى الملحدُ نفسه. لذا فالحُجَّة التي يقدِّمُها لَيبنِتز هي حُجَّةٌ تبرهن على وجود الله بوصفه كائنًا موجودًا بالضرورة، لا بعِلَّة خارجة عنه.

الاعتراضُ الذي يُوجّهه الملحدون لحُجّة لَيبنِتز لا ينالُ من صدقيّتها، بل يساعدنا في الواقع على توضيح مَن هو الله. الله كائنٌ، ووجوده ضرورةٌ من ضروراتِ طبيعتِه، لا نتيجةَ عِلّةٍ سبّبته.

دفاعٌ عن المقدّمة الأولى: الحجمُ ليس مُهمًّا

السؤال الآن: ما الأسباب التي يمكن أن نقدّمها للتدليل على صحّة المقدّمة الأولى؟ عندما تُفكّر مليًّا في المقدّمة الأولى، ستجدُ أنّها تملكُ في ذاتها أدلّة صحّتها. تخيّل أنّك تسير عبر الغابات لتكتشفَ فجأةً وجودَ كرة شفّافة. عند هذه اللحظة، من الطبيعيّ أن تتساءل عن سبب وجود الكرة في هذا المكان. وإنْ قال لك واحدٌ ممّن يرافقونك: "إنّ الكرةَ موجودةٌ هنا على نحو لا يستدعي أيّ تفسير، فلا تُعِرْها اهتمامك"، عندها ستعتقد إمّا أنّ هذا الشخص مُختلٌّ وإمّا أنّه يرغب في أن تواصِلَ المسيرَ دون أن تضيّعَ وقتَك في التفكير في أمر الكرة. لكنّكَ لن تجدَ في كلّ الأحوال شخصًا يأخذ ما قاله رفيقك عن عدم وجود تفسير لوجود الكرة على مَحمَل الجِدّ.

ولنفترِضِ الآنَ أنّ حجم الكرة في هذه القصّة قد زادَ ليصلَ إلى حجم السيّارة. إنّ ذلك لن يستبعدَ ضرورةَ وُجودِ تفسير. أو افترض أنّ الكرة كانت في حجم المنزل- ستَظلُّ مشكلة عدم وجود تفسير قائمة. وماذا لو افترضنا أنّ الكرة كانت في حجم القارة أو الكوكب أو حتّى في حجم الكون بأسره. ستَظلُّ هناك حاجةٌ إلى تفسير وجودها. إنّ تغيُّر حجم الكرة لا يُغيّرُ من ضرورةِ تفسيرِ وُجودِها.

مغالَطةُ سيّارة الأجرة

ربّما يقولُ الملحدون إنّ المقدّمة الأولى صحيحة في ما يتعلّق بكلّ شيء في الكون، ولكنّها لا تصحُّ على الكون نفسه. لكلّ شيء في الكون تفسير، إلّا الكونُ نفسُه الذي يظلُّ دون تفسير.

المغالطة (Fallacy)

المغالطةُ هي خطأ في الاستدلال. وتكونُ المغالطات شكليّةً أو غير شكليّة. وتنطوي المغالطة الشكليّة على تجاوزِ قواعد المنطق، أمّا مصدرُ المغالطة غير الشكليّة فهو استخدام حيلة غير جائزة في النقاش مثل الاستدلال في حلقة دائريّة مفرَغة. لذا تُعدُّ "مغالطة سيّارة الأجرة" مغالطةً غير شكليّة.

غير أنَّ هذا التصوُّر يوقعُ صاحبَه في فخٍّ ما يمكن أن نُطلقَ عليه اسم "مغالطة سيَّارة الأجرة". قالَ الفيلسوف الملحد آرثر شوبنهوَر (Arthur Schopenhauer)، الذي عاش في القرن التاسع عشر، مازحًا إنَّ المقدِّمة الأولى لا يمكن تركها جانبًا كما هي الحال عندما يترك المرء سيَّارة الأجرة بعد أن يصلَ إلى المكان الذي يقصده. لا يمكنك أن تقول إنَّ لكلِّ شيء هناك ما يفسِّرُ وجوده، ثمَّ تستثني فجأةً الكون من ذلك.

إنَّ من التعسُّف أن يزعمَ الملحد أنَّ الكونَ هو الاستثناءُ من القاعدة سالفة الذكر. وعليك أن تتذكَّر هنا أنَّ لَيبنِتز لم يجعل الله استثناءً من المقدِّمة الأولى. وقد رأينا في مثال الكرة التي وُجدت في الغابة أن مجرَّدَ الزيادة في حجم موجود من الموجودات، حتَّى لو صارَ في حجم الكون نفسه، لا يمكن أن يستبعدَ الحاجةَ إلى إيجاد تفسير لوجوده.

لاحظ أيضًا أنَّ ردَّ الفعل ذلك من جانب المُلحد يتَّسم بتَوجُّهٍ منافٍ للعلم؛ لأنَّ هناك علمًا قائمًا بذاته هو علم "الكوزمولوجيا" (أي علم دراسة الكون)، ومهمَّته هي البحثُ عن تفسير لوجود الكون؛ لذا فإنَّ من شأن ذلك التوجُّه الإلحاديِّ أن يعوق العلمَ عن أداء وظيفته.

الكوزمولوجيا

الكوزمولوجيا هو علم دراسة بناء الكون في أبعاده الكبرى وتطوُّره. وتعني الكلمة اليونانيَّة كوزموس (kosmos) "الترتيب المتَّسق" أو "العالَم". وربَّما كان فيثاغورس أوَّل مَن استخدم هذه اللفظة في إشارته إلى الكون.

مغالطة إلحاديَّة أخرى: هل يستحيل وجود تفسير للكون؟

وهكذا حاوَلَ بعضُ الملحدين أن يقدِّموا تعليلًا لاستثناء الكون من المقدِّمة الأولى. وهم يعتقدون هنا استحالة وجودِ تفسير للكون. لماذا؟ لأنَّ تفسيرَ وجود الكون يستدعي وجود وضع سابق للَّحظة التي وُجِدَ فيها الكون. لكنَّ هذا الوضع السابق لا بدَّ أن يكون "العدم"[†]. والعدم لا يمكن أن يشكِّل تفسيرًا لأيِّ شيء.

[†] تُستخدَم كلمةُ "العدم" هنا بالصيغة الأنتولوجيَّة (Ontological) وليس بالصيغة الوجوديَّة (Existential). فالعدم بالصيغة الأنتولوجيَّة هو مفهوم اللاوجود، والوجود هو أن تكون هناك أشياءُ حقيقيَّةٌ لها كِيان وحضور وتأثير يناسب طبيعتها. والعدم بهذه الصيغة يعني غياب الأشياء الحقيقيَّة كليًّا. أمَّا العدم في الصيغة الوجوديَّة، فهو مفهوم يتعلَّق باللَّامعنى في الحياة. ومن هذا المفهوم تُصاغ فلسفة العدميَّة الوجوديَّة (الناشر).

وهنا يأتي إقرار الملحدين بأنَّ الكونَ مَوجودٌ دون قدرة لنا على تقديم تفسيرِ وجوده.

من الواضح لنا أنَّ هذه الطريقة في الاستدلال تقوم على مغالطة‡؛ لأنَّها تفترض أنْ لا وُجود إلَّا للكون، وقبل أن يكون الكون موجودًا لم يكن هناكَ إلَّا العدم. بعبارةٍ أخرى، يفترضُ هذا التصوُّر في الأساس صحَّة الإلحاد؛ إذ يفترضُ الملحد هنا صحَّةَ ما يسعى إلى إثبات صحَّته، وهو ما يجعله يدورُ حول نفسه.

ناقش

من الصعب أن نتخيَّل العدم. ربَّما في وُسعنا أن نتخيَّلَ فضاءً خاويًا، لكنَّ الفضاء الخاويَ هو شيء له وجود، وليس عدمًا. حاول أن تتخيَّل أنَّ الله وحده هو الموجود دون كون ودون فضاءٍ خاوٍ، ودون زمنٍ أيضًا. ما الذي يخطرُ ببالك عندما تحاول أن تستَوعبَ ذلك؟ حاوِلْ بعدَ ذلك أن تفترضَ أنَّ الله نفسَه غير موجود.

ويتَّفق لَيبنتز مع الطرح القائل إنَّ تفسيرَ الكون يجب أن يكون بِوَضعٍ سابقٍ لوجود الكون، لكنَّ هذا الوضع السابق إنَّما هو الله وإرادته، وليس العدم كما يرى الملحد.

يبدو لي إذًا ممَّا سبق أنَّ احتمالات صحَّة المقدِّمة الأولى أكثر من احتمالات زيفها، وهو كلُّ ما نحتاج إليه للوصول إلى حُجَّة متماسكة.

المقدِّمة الثانية

إنْ كان هناك تفسير لوجود الكون، فذلك ليس إلَّا الله نفسه

قبول المُلحدين للمقدمة الثانية

ماذا إذًا بشأن المقدِّمة الثانية القائلة إنَّ وُجودَ تفسير للكون- إنْ وُجِد- فذلك التفسير هو الله نفسه؟ هل احتماليَّة صحَّة هذه المقدِّمة أكبر من احتماليَّة زَيفِها؟

الأمر المربكُ للملحد هنا هو أنَّ المقدِّمة الثانية متكافئةٌ منطقيًّا مع الردِّ الإلحاديِّ الشهير على حُجَّة لَيبنِتز. إنَّ أيَّ مقولتَين تتكافئان منطقيًّا إذا كان من المستحيل لإحداهما أن تكون صحيحةً بينما يثبتُ زَيفُ الأخرى. تتكافأ هاتان المقولتان منطقيًّا إنْ ثبتا معًا أو سقطا معًا. ماذا يقول الملحدُ إذًا في ردِّه

‡ المغالطة هي خطأ في الفكر، ويجري تمييز هذه الأخطاء وَفقًا للمنطق وقواعده (الناشر).

المعتاد على حُجَّة لَيبنِتز؟ كما رأينا يتلخَّص ردُّ الملحد في الآتي:

أ. إنْ كان الإلحادُ صحيحًا، فليس هناك ما يفسِّرُ وجودَ الكَون.

هذا ما يقوله المُلحد بالضبط في ردِّه على المقدِّمة الأولى؛ فالكون موجودٌ على نحوٍ يصعب تفسيره. لكنَّ هذا القول يتكافأ منطقيًّا مع القول:

ب. إنْ كان في الكون ما يفسِّرُ وجوده، فالإلحادُ ليس صحيحًا إذًا.

ومن هنا، لا يمكنك أن تؤكِّدَ المقولة (أ) وتنكر في الوقت ذاته المقولة (ب).

لكنَّ المقولة (ب) هي في الواقع مرادفة للمقدِّمة الثانية. حاول مقارنتهما! إنْ قال الملحد ردًّا على المقدِّمة الأولى إنَّ التصوُّرَ الإلحاديَّ يجعله يؤمن بأنْ ليس هناك ما يُفسِّرُ وجودَ الكون، فهو في هذه الحالة يقبلُ ضمنيًّا بالمقدِّمة الثانية القائلة إنَّ وجود تفسير للكون يعني وجودَ الله، ونفي صحَّة الإلحاد.

حُجَّة أخرى لتأييد المقدّمة الثانية: عِلَّة الكون: موجودٌ مُجرَّد أم عقلٌ غير متجسِّد؟

فضلًا عن كلِّ ما سبق، فإنَّ احتمالات صحَّة المقدِّمة الثانية كبيرة جدًّا. حاول أن تفكِّر في ماهيَّة الكون: كلُّ واقع الزمكان (space-time)[§]، بما في ذلك كلُّ المادَّة وكلُّ الطاقة. ونستنتج من ذلك أنَّه إنْ كانت للكون عِلَّةُ وجود، فيجب أن تكونَ هذه العلَّة غير فيزيائيَّة ولاماديَّة ومتجاوزة للمكان والزمن. يا للعجب!

وليس أمامنا إلَّا نوعان من الموجودات ينطبق عليهما هذا الوصف: إمَّا موجود مُجرَّد كالأعداد مثلاً، وإمَّا عقلٌ غير مُتجسِّد. لكنَّ الموجودات المجرَّدة ليس في وُسعِها أن تكونَ عِلَّة فاعلة؛ فهذا جزءٌ من تعريف ما هو مُجرَّد. فالرقم ٧، مثلًا، لا يمكن أن يتسبَّبَ في إحداث تأثيرات ما. لذلك، فإنَّ علَّة الوجود

الموجودات المجرَّدة (Abstract objects) مقابل الموجودات المادِّيَّة (Concrete objects)

يميِّزُ الفلاسفةُ بين نوعَين من الموجودات: مجرَّدة وماديَّة. والفارق الواضح بينهما هو أنَّ الموجودات المجرَّدة تفتقر إلى الفاعليَّة والقدرة على التأثير، بينما تستطيع الموجودات المادِّيَّة إحداث تأثير في العالم. وقد عملَ الفلاسفة على توصيف موجوداتٍ متباينة على أنَّها مجرَّدة، وتلك تضمُّ الكلِّيَّات الرياضيَّة، مثل الأعداد والمجموعات والاقترانات، كما تضمُّ أيضًا القضايا الفلسفيَّة والسمات والشخصيَّات المُتخيَّلة، وتشمل كذلك الأعمال الأدبيَّة والموسيقيَّة.

§ "الزمكان" هو مصطلح من كلمتَي "الزمان" و"المكان" لتشابه مصطلح "space-time" المستخدم في الإنكليزيَّة. والزمكان هو مفهومٌ علميٌّ يشير إلى طبيعة الكون وعلاقة المكان والزمان بعضهما ببعض (الناشر).

يجب أن تكونَ عقلًا متسامِيًا (متعالِيًا)[¶]، وهو ما يتصوَّره المؤمنون عن هُوِيَّة الله.

أتمنَّى أن تكونَ قد استطعت الإحاطة بمتانة الحُجَّة التي يقدِّمها لَيبنِتز. فإنْ تبرهنَتْ لنا صحَّة هذه الحُجَّة، فهي تُثبتُ لنا وجودَ خالق لهذا الكون لا غنى عنه، وليست هناك عِلَّةٌ سابقةٌ مُسبِّبةٌ له، وهو كائنٌ شخصيٌّ الخالق الذي لا يحدُّه زمانٌ ولا يحصره مكان. وهذا الخالق ليس مجرَّدَ تصوُّر كائنٍ غامضٍ مختَلَق وَفقَ تصوُّرٍ قاصرٍ، بل هو كائنٌ متعالٍ ومتسامٍ، ويتمتَّع بالعديد من الصفات، التي تعزى في الفكر الدينيِّ التاريخيِّ، إلى الله. وهذا أمرٌ مذهلٌ!

البديل الإلحاديّ: الكونُ موجودٌ بالضرورة!

ما الذي يمكن أن يفعله الملحد في هذه الحالة؟ البديل المُتاح أمامه هنا أكثر راديكاليَّة؛ إذ في وُسعه أن يخطوَ إلى الوراء ويسحب اعتراضَه على المقدِّمة الأولى، ويقول بدلًا من ذلك: "نعم هناكَ بالفعل ما يُفسِّر وجود الكون، وإليكَ هذا التفسيرَ: الكونُ موجودٌ بالضَّرورة التي حتَّمتها طبيعتُه. وهكذا فالكون في هذه الحالة للملحد يصيرُ بديلًا عن الله، حتَّى يصبح وجوده محتومًا بطبيعته.

غير أنَّ هذا البديل يتَّسم بالراديكاليَّة الشديدة، بحيثُ يصعبُ على أيِّ ملحدٍ أن يتبنَّاه. ولا أستطيع شخصيًّا أن أفكِّر في أيِّ ملحدٍ معاصر تبنَّى بالفعل هذه الحُجَّة. في مؤتمرٍ عن فلسفة الزمن عُقِدَ في كلِّيَّة سانتا باربارا منذ بضع سنوات، كنتُ أعتقد أنَّ هذه الحُجَّة تستهوي البروفيسور أدولف غرونباوم (Adolf Grünbaum) من جامعة بيتسبرغ، وهو أحدُ فلاسفة العلم المجاهِرين بإلحادهم. ولكنْ عندما أثَرتُ المسألةَ في سؤالٍ لي على كلمته ما إذا كان الكون موجودًا بالضرورة التي تحتِّمها طبيعته، جاءني الجواب بنبرةٍ مستهجنة: "بالتأكيد لا"، واستطرد بعدها قائلًا إنَّ الكونَ موجودٌ دونَ وجودِ تفسير لذلك.

¶ المقصود بمفهوم التسامي أو التعالي هو أنَّ هذا العقل ليس جزءًا من الكون، وطبيعة هذا العقل لا تخضع لمحدوديَّات الكون وما هو مألوف لدينا (الناشر).

لا يخفى على أحد السبب الذي يجعل الملحدين يُعرِضون عن تبنّي هذا البديل. فإذا ما تأمّلنا في الكون، لوَجَدْنا أنَّ أيًّا من مكوّناته (سواءٌ كانت نجومًا أم كواكبَ أم مَجرَّاتٍ أم أتربةً أم إشعاعًا أم غيرها) لا يبدو أنَّها توجد بالضرورة التي تحتّمها طبيعتُها؛ فجميع هذه المكوّنات يمكن أن يتوقّفَ وجودها. في الواقع، في لحظة ما في الماضي؛ وبسبب كثافة الكون لم يكن لأيٍّ من هذه المكوّنات وجود.

ناقش

هل تعرف أحدًا يؤمن بأنَّ الكونَ أو العالَمَ يمكن أن يكونَ بديلًا عن الله (مثل الإلاهة "جايا" في الأساطير اليونانيّة التي تجلس على كرة الأرض، أو مثل "القوّة الكونيّة" في أفلام حرب النجوم)؟ ما الذي يجعل هذا الشخص يؤمن بذلك؟

لكنْ ربَّما يقول قائل: "وماذا عن المادَّة التي تتكوَّنُ منها هذه الأشياء؟ لربَّما توجد هذه المادَّة بالضرورة التي تحتِّمها طبيعتها، لذلك لا تختلف عنها كلُّ هذه الأشياء التي تمثِّلُ تجلِّياتٍ مختلفةً لهذه المادَّة؟ المشكلة التي يثيرها هذا التصوُّر هو أنَّ المادَّة نفسها- وَفقًا للنموذج القياسيِّ الذي تقدِّمه الفيزياء دون الذرِّيَّة- تتكوَّن من جُسَيمات أساسيَّة لا يمكن أن تنشطر إلى وحداتٍ أصغر. والكونُ كلُّه ليس سوى مجموعةِ هذه الجسيمات موزَّعة بأشكالٍ مختلفة. والسؤال المطروح الآن: أَلَم يكن ممكنًا أن توجَدَ مجموعة مختلفة من الجسيمات الأساسيَّة بدلَ المجموعة الحاليَّة؟ هل كلُّ واحد من هذه الجسيمات موجود بالضرورة التي تحتِّمها طبيعته؟

	I	II	III	Bosons
Quarks	u up	c charm	t top	γ photon
Quarks	d down	s strange	b bottom	g gluon
Leptons	νe electron neutrino	νμ muon neutrino	ντ tau neutrino	Z^0 weak force
Leptons	e electron	μ muon	τ tau	$W^{\pm}$ weak force

لاحظ ما لا يمكن أن يقوله الملحد في هذا السياق. لا يمكن أن يقول الملحد إنَّ الجسيمات الأساسيَّة ليست سوى تجلّياتٍ للمادَّة يمكنُها أن توجَدَ بصورةٍ مختلفةٍ عمَّا هي عليه الآن، لكنَّه يقول إنَّ هذه المادَّة التي تتكوَّنُ منها الجسيمات توجد بالضَّرورة التي تحتِّمُها طبيعتُها. لا يمكنُه أن يقولَ ذلك؛ لأنَّ هذه الجسيمات لا تتكوَّن من أيِّ شيء، بل هي الوحدات الأساسيَّة التي تتشكَّلُ منها المادَّة. لذا فعدمُ وجود أيٍّ من هذه الجسيمات لا يعني إلَّا عدم وجود المادَّة نفسها.

من الواضح أنَّ مجموعةً أخرى من الجُسَيماتِ كان يمكنُ أن توجَدَ بدلَ الجُسَيماتِ الموجودة حاليًّا. ولكنْ إنْ حدثَ ذلك، فإنَّه سيؤدِّي إلى وجود كون مختلفٍ عمَّا نعيش فيه.

وحتَّى تتَّضح لك الفكرة، حاول أن تفكِّر في المكتب الذي تعمل عليه. هل كان بالإمكان أن يُصنع مكتبك من الثلج مثلًا؟ لاحظ أنَّ سؤالي هنا ليس عن استطاعتك الحصول على مكتبٍ مصنوع من الثلج بالحجم والشكل ذاتِهما بدل مكتبك، بل سؤالي هو إن كان بالإمكان أن يُصنع مكتبك الخشبيُّ هذا من الثلج. الإجابة الواضحة عن هذا السؤال هي بالنفي؛ لأنَّ المكتب الثلجيَّ لن يكون المكتب نفسَه.

على نحوٍ مشابه، إنَّ كونًا مصنوعًا من جُسيمات مختلفة، حتَّى لو وُزِّعت بصورة متماثلة مع توزيع الجسيمات في الكون الحاليّ، سيكون كونًا مختلفًا عمَّا نعرفه. ويترتب على ذلك أنَّ الكون لا يوجد بالضرورة التي تفرضها طبيعته.

المشابهة والمخالفة

المشابهةُ هي وجه التشابه ما بين شيئَين. والمخالفة هي وجه الاختلاف أو التخالف ما بينهما.

وهنا قد يعترض أحدُهم قائلًا إنَّ جسمي يظلُّ كما هو بمرور الوقت رغم التبدُّل الذي يحدثُ على مكوِّناته المادِّيَّة. ويخبرنا العلماء أنَّ المادَّة التي تتشكَّلُ منها أجسادنا يُعادُ تدويرها كلَّ سبع سنوات على نحوٍ يكاد يكون كاملًا، ومع ذلك يظلُّ جسمي متماثلًا مع الجسم الذي كان لي سابقًا. وهنا يقول قائل، بالمشابهة يمكننا الحديث بشأن إمكانيَّة وجود عدَّة أكوان محتملة

تتماثل بعضها مع بعض حتَّى لو تكوَّنت من مجموعات مختلفة تمامًا من الجسيمات.

إلَّا أنَّ المخالفة (أو وجه الاختلاف) في المثل المطروح هو أنَّ التبايُن ما بين كونَين مختلفين ليس مجرَّد شكل من أشكال التغيُّر على الإطلاق؛ لأنَّه ليس هناك في ذلك المثَل "كِيان"** ممتدٌّ عبر الزمن يمكن أن يتغيَّرَ جوهره. إنَّ الكونَين المختلفَين يُشبِهان جسدَين لا علاقة لأحدهما بالآخر.

ناقش

اطرح هذا السؤال على أستاذ فيزياء: لماذا توجد الجُسيمات الأساسيَّة؟ هل هناك استحالة لعدم وجود هذه الجُسيمات؟ (الاحتمال قائمٌ أنَّ أستاذ الفيزياء الذي ستسأله لن يكونَ راغبًا في استكمال النقاش، فكُنْ مستعدًّا لذلك).

لا يوجد مَن يعتقدُ أنَّ كلَّ جُسَيم في الكون موجود بالضرورة التي تُحتِّمُها طبيعته. ويترتَّبُ على ذلك أنَّ الكون الذي يتكوَّن من تلك الجُسَيمات ليس موجودًا هو الآخر بالضرورة التي تحتِّمُها طبيعته. لاحظ هنا أنَّ هذا الاستنتاج صحيحٌ سواء نظرتَ إلى الكون بوصفه موجودًا من الموجودات (تمامًا كما هي الحال مع تمثال الرخام الذي لا يتماثل مع تمثال شبيه ولكن مصنوع من نوع مختلف من الرخام) أم بوصفه مجموعة من الموجودات (كما هي الحال مع سرب من الطيور الذي لا يتماثل مع سرب شبيه من طيورٍ مختلفة)، أم حتَّى بوصفه مجموعة الجسيمات الأساسيَّة لا أكثر ولا أقلّ.

إنَّ زَعمي أنَّ الكون ليس موجودًا بالضرورة المفروضة عليه من طبيعته يصير باديًا للعيان عندما ندرك أنَّ المكوِّنات الأولى للطبيعة كان يمكن أن تختلف عن الجسيمات الأساسيَّة التي نعرفها. وفي هذه الحال، فإنَّ هذا الكون سيكون محكومًا بقوانين طبيعيَّة مختلفة. حتَّى لو حسبنا قوانينَنا الطبيعيَّة ضروريَّةً من الناحية المنطقيَّة، فالاحتمال قائمٌ بأنَّ قوانينَ مختلفة كان يمكن أن تكون نافذة المفعول لأنَّ الكون كان يمكن أن يقومَ على مكوِّنات أساسيَّة أخرى لها سمات وقدرات مختلفة. وفي هذه الحال، سيكون لدينا بالتأكيد كونٌ آخر مختلف.

** استخدمَ الكاتب كلمة "Subject"، وهو مصطلح فلسفيٌّ- لغويٌّ في اللغة الإنكليزيَّة، ويمكن التعبير عنه في اللغة العربيَّة بكلمة "كيان" أو "شيء" (الناشر).

ويتَّضح لنا أنَّ الملحدين لم يملكوا من الجرأة التي تجعلهم ينكرون المقدِّمة الثانية وأن يقولوا إنَّ الكون موجودٌ بالضرورة. إذًا فالمقدِّمة الثانية- مثلها مثل الأولى- يبدو أنَّها تحتمل الصحَّة.

الخلاصة

بناءً على صحَّة المقدِّمات الثلاث، فالنتيجة المنطقيَّة الحتميَّة هي: الله هو التفسير الوحيد لوجود هذا الكون. وفضلًا عن ذلك، فإنَّ الحُجَّةَ المطروحةَ بناءً على هذه المقدِّمات هي أنَّ الله عقلٌ غير متجسِّد، لا علَّةَ سابقةٌ له، كما أنَّه يتسامى على العالم المادِّيِّ، كما يتسامى على المكان والزمان، وهو موجودٌ بالضرورة التي تحتِّمها طبيعته. هذه الخلاصة مذهلة. لقد ساعدنا لَيبنِتز على توسيع مداركنا على نحوٍ يتجاوز أمور الحياة اليوميَّة البسيطة. في الفصل التالي ستزداد مداركنا اتِّساعًا عندما نحاول استيعابَ اللامحدود، ونستكشف معًا بداية الكون.

ناقش

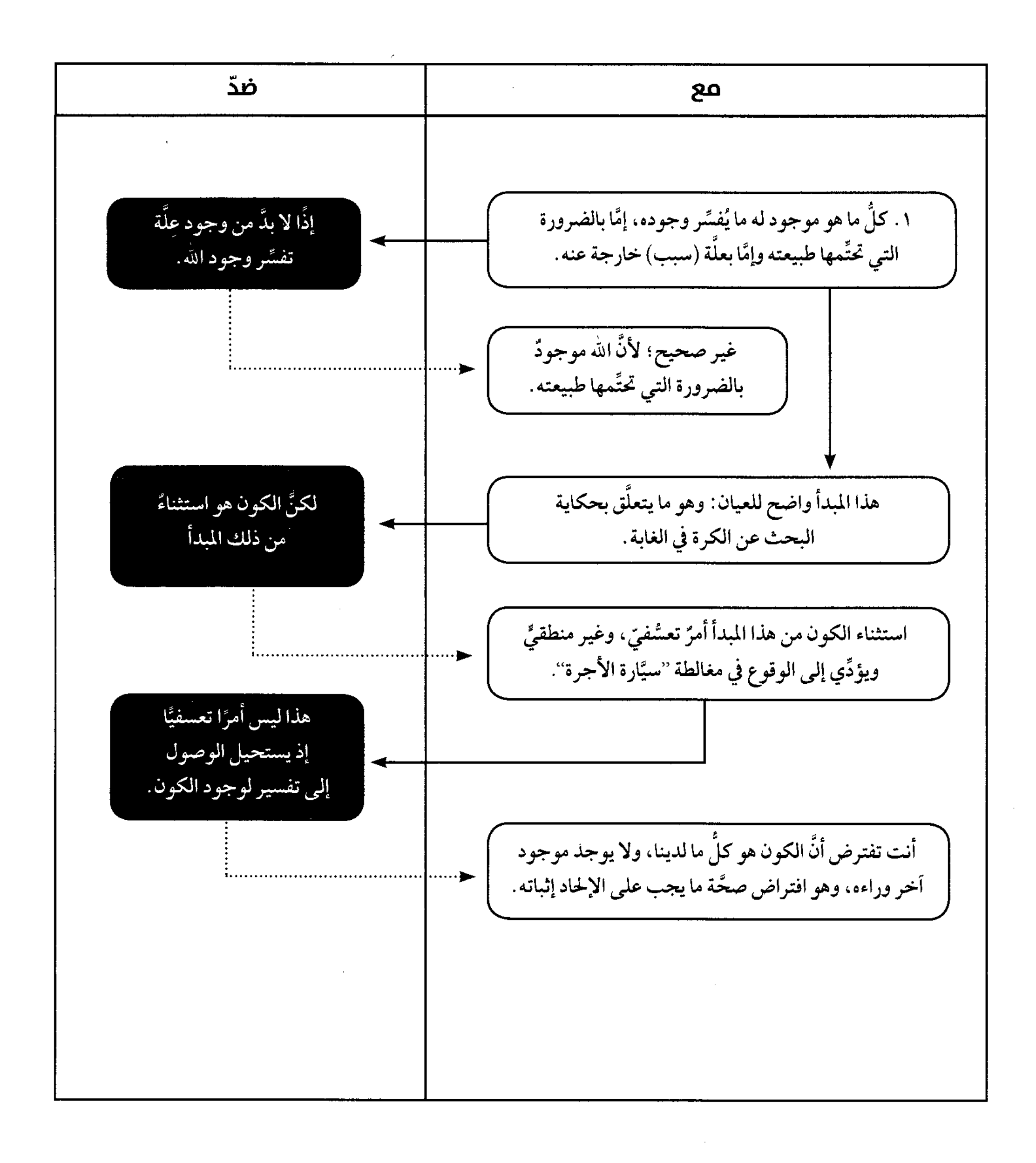
كيف استطاع هذا الفصل أن يُظهر أنَّ الله:

عقلٌ غير متجسِّد؟

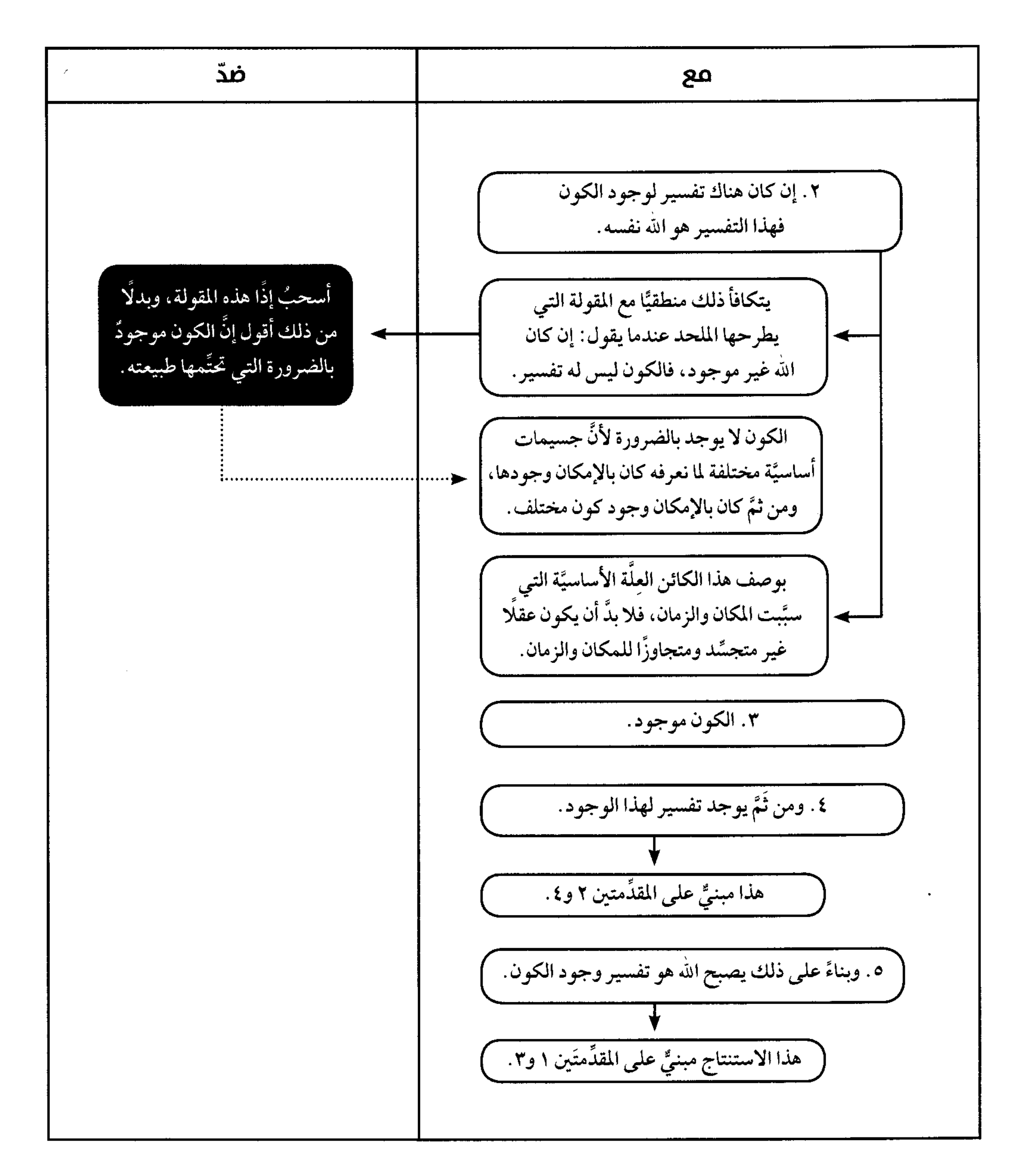
يتجاوزُ الكون؟

خلقَ الكون؟

الحُجَّة الكونية (الكوزمولوجيَّة) كما صاغها لَيبنِتز



الحُجَّة الكونية (الكوزمولوجيَّة) كما صاغها لَيبنِتز



فاصلٌ شخصيّ

رحلةُ فيلسوفٍ على طريق الإيمان

الجزء الأوَّل

بعدما قرَّرتُ اتِّباع المسيح في عامي الأخير من مرحلة الدراسة الثانويَّة، سرعان ما وجدتُ نفسي أمام ضرورة اتِّخاذ قرار بشأن الجامعة التي أرغب في الدراسة فيها. وكانت ساندي- تلك الفتاة التي تعرَّفت إليها في حصَّة اللغة الألمانيَّة وكانت قد شاركتني بإيمانها بالمسيح- قد اقترحت عليَّ التقدُّم للالتحاق بكلِّيَّة ويتون (Wheaton College) والتي كان يدرس فيها أخوها الأكبر پول (Paul). وبالفعل وجدتُ خِيار الدراسة في كلِّيَّة مسيحيَّة أمرًا ملائمًا لكَوني قد عرفتُ المسيح حديثًا، فتقدَّمتُ للالتحاق وحصلتُ على القبول.

وعليكَ أن تتذكَّر أنِّي قبل ذلك لم أكن جزءًا من أيَّة جماعةٍ مسيحيَّة، لذا فالالتحاق بكلِّيَّة ويتون كان لي أشبهَ بعَربونٍ لحياة السماء؛ فقدِ اعتاد الأساتذة الصلاة قبل بدء المحاضرات، كما كان هناك وقتٌ مخصَّصٌ لارتياد الكنيسة يوميًّا، وكان من المستحيل أن تسمع شتائمَ أو ألفاظًا نابيةً في غرفة الخِزانات المخصَّصة للطلَّاب. لذا فقد أعجَبَتني هذه البيئة إعجابًا بالغًا.

لكنَّ الهديَّة التي لا تُقدَّر بثمن والتي منحتني إيَّاها كلِّيَّة ويتون هي التكامل بين إيماني وما أتعلَّمه. لقد اكتشفتُ أنِّي، بوصفي مسيحيًّا، لم أكن محتاجًا إلى الفصل ما بين عقلي وإيماني، على نحوٍ لا يتلاقى فيه الاثنان. لكنِّي تعلَّمتُ أنَّه يمكن أن تكونَ لديَّ رؤية مسيحيَّة إلى العالم- أي أن تكون لي رؤية مسيحيَّة في العلم والتاريخ والفنون وما إلى ذلك. في ويتون تكوَّنتْ

لديَّ رؤية أستطيع بواسطتِها مشاركةَ إيماني مع الآخرين في إطار تقديم دفاع فكريٍّ عن الإنجيل، فيتلاءمُ ما أقدِّمه مع العقل والقلب في آنٍ معًا.

لسوء الحظّ؛ وما أصابني بالدَّهشة، أنَّ ويتون لم تكن تتمتَّع بالقوَّة في مجال الدفاعيَّات. وكان أستاذ علم اللاهوت البروفيسور روبرت ويبر (Robert Webber) يقول لنا إنَّه لا توجد حُجَّةٌ رصينةٌ عن وجود الله، وإنَّ كلَّ الأدلَّة التقليديَّة جرى دحضُها. ورُغمَ تشكيكي في صحَّة هذا الكلام، فقد استسلمتُ لما قاله، بصورةٍ أو بأخرى، استنادًا إلى سلطةِ الأستاذ.

لكنْ قبل مدَّة قصيرةٍ من التخرُّج في ويتون، التقطت نسخةً من كتاب للبروفيسور ستيوارت هاكِت (Stuart Hackett) بعنوان "**إحياء الإيمان بالله**" *(The Resurrection of Theism)* من على منضدة لبيع الكتب الرخيصة في متجر الكتب. ويجب أن أعترفَ هنا أنِّي لم أكن متيقِّنًا من معنى عنوان الكتاب! ولاحقًا في أثناء شهور الخريف عندما بدأتُ أقرأ الكتاب، غمرَتْني دهشةٌ شديدةٌ ممَّا قرأته. فعلى النقيض ممَّا كنتُ أسمعه في ويتون، فقد وجدتُ البروفيسور هاكِت، وهو يستعين بعقله المنطقيِّ المُبهر في طرحه للحُجَج التي تدافع عن وجود الله، وفي تقديمه للأفكار التي تُفَنِّد كلَّ الاعتراضات التي يمكن تصوُّرها تُجاه هذه الحجج.

أمَّا الحُجَّة الأساسيَّة في دفاع هاكِت والتي نالَتْ قبولي وإعجابي فهي كالتالي: من غير المنطقيِّ أن نتصوَّر أنَّ الماضي هو سلسلةٌ لا تنتهي من الأحداث، بل لا بدَّ أن تكون هناك بدايةٌ للكَونِ، وهو ما يستدعي بالضَّرورة وُجودَ عِلَّة متجاوزة لهذا الكون سبَّبت وجوده. وهنا كانت قراءة كتاب هاكِت خبرةً صادمةً وكاشفةً عندي. وكان لزامًا عليَّ بعد القراءة أن أتحقَّقَ إنْ كان كلامُه صحيحًا أم لا.

في أثناء السنة النهائيَّة لدراستي في كلِّيَّة ويتون، تحدَّانا أحَدُ المتحدِّثين في كنيسة الكلِّيَّة الصغيرة، واسمه جون غست (John Guest) بأن نتفرَّغ

مدَّة عامَين بعد التخرُّج لمشاركة إيماننا مع طلبة الجامعة بينما لا نزال في عمرٍ مقاربٍ لهم. اقتنعتُ بهذا الاقتراح، ثمَّ قرَّرتُ تأجيل خُطَّتي للالتحاق بكلِّيَّة اللاهوت مدَّة عامَين، وانضممتُ إلى العاملين في هيئة "كامپس كروسيد" (Campus Crusade for Christ) التي تهتمُّ بتقديم بشارة الإنجيل لطلبة الجامعة. وكان من نصيبي الانضمام إلى طاقم العمل الذي يعمل في جامعة شمال إلينوي (Northern Illinois).

كان ضمنَ أعضاء الفريق شابَّةٌ صغيرةٌ عازبةٌ اسمها جان كولمان (Jan Coleman) وكانت قد تخرَّجت في جامعة شمال داكوتا (North Dakota). وكانت جان تتمتَّع بالحيويَّة والانفتاح على الآخرين، فضلًا عن الثقة بالنفس والاستقلاليَّة وقوَّة الشخصيَّة. كما كانت مكرَّسة تمامًا للمسيح ومشاركة بشارة الإنجيل مع الآخرين. كما كانت جان فتاةً جذَّابة، إذا جاز لنا أن نقول ذلك، بمظهرها النحيف، وشعرها البُنِّيِّ الطويل وعينَيها البنِّيَّتَين الواسعتَين. كما ذكرت لي أيضًا أنَّها تودُّ أن تذهب إلى كلِّيَّة اللاهوت، وهو ما كنتُ أخطِّط له تمامًا. فتاة مثل جان كانت تفوقني في أشياء كثيرة، ولكنِّي لم أستطع أن أمنع نفسي من الانجذاب إليها. لكنَّ المعجزات ما زالت تحدث؛ فرغم أنِّي عملتُ مع فريق من الشباب وهي مع فريق من الفتيات، فقد أحببنا أحدنا الآخر وتزوَّجنا قبل نهاية تلك السنة الأكاديميَّة.

وبعد ذلك ابتدأنا نوجِّه أنظارَنا إلى برنامج الماجستير في الفلسفة الذي أنشأه الدكتور نورمان غايزلر (Norman Geisler) في كلِّيَّة لاهوت جامعة ترينيتي (Trinity Evangelical Divinity School)، في شمال شيكاغو. وكان واحد من شروط القبول في هذا البرنامج هو اجتياز امتحان الخرِّيجين في الفلسفة (Graduate Record Exam in philosophy)، لذا أمضيتُ السنة التالية أستعدُّ لهذا الامتحان، فقرأتُ ودوَّنتُ ملاحظات على كتاب "**تاريخ الفلسفة**" *(History of Philosophy)* المكوَّن من تسعة أجزاء لمؤلِّفه فردريك كوپلستون (Frederick Copleston). وفي كلِّيَّة لاهوت ترينيتي اكتشفتُ التاريخَ الطويلَ

للفكر اليهوديّ والإسلاميّ والمسيحيّ في ما يتعلّق بالحجّة التي كان هاكِت يحاول الدفاع عنها. وعندها صمّمتُ أن تكونَ أطروحتي للدكتوراه في الفلسفة- إن قُدّر لي ذلك- حول هذه الحُجّة ذاتِها.

أمضَينا عامَين في ترينيتي نتعلّم على أيدي أناس من أمثال پول فاينبرج (Paul Feinberg)، وديڤيد وولف (David Wolfe)، وجون ووريك مونتغُمري (John Warwick Montgomery)، وديڤيد ويلز (David Wells)، وجون وودبريدج (John Woodbridge)، وجاي. آي. پاكر (J. I. Packer)، وكلارك پينوك (Clark Pinnock)، ومريي هاريس (Murray Harris). وحصلت في ترينيتي على درجتَي الماجستير في فلسفة الدين وتاريخ الكنيسة. وبانتهاء العامَين، اكتشفنا أنّ الوقتَ الذي أمضَيناه في ترينيتي كان خطوةً جوهريّة في المسيرة التي رسمها الله لنا.

اكتشفتُ أنا وجان في حياتنا معًا أنّ الله يمنحُنا عادةً نورًا يكفي لاتّخاذ الخطوة التالية دون معرفة ما ينتظرنا بعد هذه الخطوة. وأتذكّرُ في إحدى الأمسيات عندما كنّا نقترب من نهاية دراستنا في ترينيتي؛ وفي أثناء جلوسنا إلى مائدة العشاء، كنّا نتحدّث بشأن الخطوة التالية بعد التخرُّج، ولم تكن لدى أيٍّ منّا فكرةٌ واضحةٌ أو تصوُّر ما عمّا يمكن أن نفعلَه بعد ذلك.

وعند هذه اللحظة، قالت جان: "حسنًا، إنْ لم يكن الدخل المادّيُّ هو الهدفَ، فما الذي تحبُّ أنت فعلًا أن تفعله بعد ذلك؟"

وهنا أجبت: "إنْ لم يكن الدخل المادّيَّ هو الغرضَ، فما أرغب في عمله فعلًا هو الذهاب إلى إنكلترا ودراسة الدكتوراه مع جون هِك".

فسألَتْ جان: "ومَن يكون؟"

فأجبت: "هو ذلك الفيلسوف الإنكليزيُّ المشهور الذي كتب باستفاضة عن الحجج التي تدافع عن وجود الله. إنْ تمكّنتُ من الدراسة على يدَيه، لأمكنني تطوير الحجّة الكوزمولوجيّة عن وجود الله".

لكنّ الفكرة لم تبدُ واقعيّةً كثيرًا.

في مساء اليوم التالي، ناولَتْني جان قصاصةَ ورقٍ عليها عنوان جون هك وهي تقول: "ذهبتُ إلى المكتبة اليوم وبحثتُ وعرفتُ أنَّ هِك يعمل الآن في جامعة بيرمنغهام في إنكلترا. لماذا لا تكتب إليه وتخبره بأنَّك تريد أن تُنجزَ أطروحةَ الدكتوراه تحت إشرافه عن الحجَّة الكوزمولوجيَّة لوجود الله؟"

يا لها من امرأةٍ شجاعة! بالفعل عملتُ وَفقًا لاقتراحها، ولدهشتي وفرحتي ردَّ البروفيسور هِك على رسالتي قائلًا إنَّه سعيد بالإشراف على مشروع الدكتوراه الذي طرحته. وهنا وجدنا الباب وإذ به يُفتَحُ أمامنا. وكانت المشكلة الوحيدة أنَّ جامعة بيرمنغهام كانت تطلبُ حسابًا مصرفيًّا يُبيِّنُ أنَّنا نملك التمويل اللازم لكلِّ سنوات الدراسة التي أحتاج إليها للانتهاء من درجة الدكتوراه. ولم تكن الجامعة ترغب في أن يتركَ طلبة الدكتوراه دراستهم في منتصف الطريق لمجرَّد أنَّ تمويلهم قد نفد.

لكنَّنا لم نكن نملك هذا المبلغ! بل كنَّا فقراء إلى حدٍّ ما. وكانت شقَّتنا البسيطة في ترينيتي صغيرةً جدًّا حتَّى إنَّه كان يمكنني وأنا مستَلقٍ على فراشنا على الأرض أن أمدَّ يدي لألمس الثلَّاجة. ونتيجةَ فقرنا فقد اعتَدْنا قطعَ أطباق الورق إلى نصفَين واستخدامها مرَّات عديدة لتقليل نفقاتنا (وأوقعنا ذلك مثلًا في موقفٍ مُحرج عندما دعينا الدكتور وودبريدج إلى شقَّتنا لتناول الحلويات، وما كان من جان إلَّا أن قدَّمتْ فطيرةً للضَّيف على نصف طبق ورق دون أن تفكِّر. ومن كرمه، لم يقل دكتور وودبريدج شيئًا).

رغم ذلك، فقد استشعرنا بالفعل أنَّ الله كان يدعونا للذهاب إلى إنكلترا لنَيلِ هذه الدرجة. ولم تكن هناك أيَّة منح دراسيَّة مقدَّمة للطلبة الأجانب من الجامعات البريطانيَّة، التي كانت بدَورها تعاني نقصًا في الموارد المادِّيَّة. لذا كان لزامًا علينا أن نحصل على التمويل اللازم، فبدأنا الصلاة كلَّ صباح ومساء طالبين إلى الربِّ أن يدبِّرَ لنا بطريقته هذا التمويل.

وحدث أن حصلنا على موعد مع رجل أعمال غير مسيحيٍّ كانت عائلته

قد دعمت جان في أثناء عملها مع فريق عمل كامپس كروسيد، وشرحنا له ما اعتقدنا أنَّ الله دعانا له. وما كان من رجل الأعمال غير المسيحيِّ أن منحَنا- لم يكن مجرَّد قرض واجب السداد- كلَّ التمويل الذي كنَّا نحتاج إليه لأبدأ دراسة الدكتوراه مع جون هِك في جامعة بيرمنغهام. وكان ذلك إحدى أكثر معونات الربِّ إثارةً لدهشتي وعجبي. وشعرتُ أنا وجان كأنَّ الله أمسَكَنا ونقلَنا بطريقةٍ معجزيَّةٍ إلى إنكلترا لنَيل هذه الدرجة.

وهكذا كتبتُ عن الحجَّة الكوزمولوجيَّة تحت إشراف الپروفيسور هِك، ولاحقًا كتبتُ ثلاثَ كتب استنادًا لما أنجزته في رسالة الدكتوراه. واستطعتُ بهذه البحوث أن أكتشفَ الجذورَ التاريخيَّة للحُجَّة التي طوَّرها هِك، كما عملتُ على تعميق التحليل الذي قام به. كما اكتشفتُ أيضًا علاقاتٍ مذهلةً بعلم الفلك وعلم الكون (الكوزمولوجيا) في شكلهما المعاصر.

وبسبب الجذور التاريخيَّة لحُجَّة هِك، والتي تعود إلى علم الكلام الإسلاميِّ في العصر الوسيط، فقد عملتُ على إضفاء الصبغة المسيحيَّة على ما أطلقَ عليه هِك اسمَ "الحجَّة الكوزمولوجيَّة المستندة إلى علم الكلام" (والكلام هو اللفظة العربيَّة المعبِّرة عن دراسة اللاهوت في العصر الوسيط). وبعد أن غابت هذه الحجَّة عن الأذهان لمدَّة طويلة؛ ومنذ وقت إيمانويل كانْت، ها هي تعود من جديدٍ لتلفتَ الانتباه. جاء في كتاب "مُرشد جامعة كامبردج إلى الإلحاد" أنَّ "إحصاء المقالات في المجلَّات الفلسفية يُظهر أنَّ أعدادًا متزايدة من المقالات قد نُشرَ عن دفاع وليَم كريغ عن حجَّة علم الكلام على نحوٍ يفوق إسهامات أيِّ فيلسوف معاصر حول حجَّة وجود الله...ولا يمكن أن ينأى الدينيُّون والملحدون، على حدٍّ السواء، بأنفسهم عن تأثير حجَّة علم الكلام كما طوَّرها كريغ" (ص ١٨٣).

شكرًا لله الذي أعطانا امتيازَ دراسةِ هذه الحُجَّة التاريخيَّة التي أشارككم الحديث بشأنها في الفصل التالي.

الفصل الرابع

لماذا بدأ الكون؟

"السموات تُحَدِّث بمجد الله والفَلَك يُخبِر بعمل يديه" (مزمور ١٩ : ١).

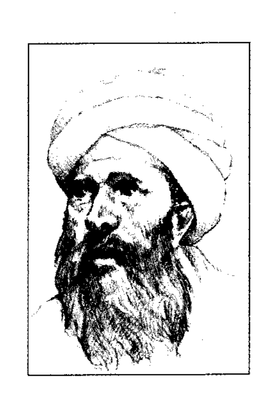
إبَّان سنوات صباي، أدهشَتني حقيقة وجود هذا الكون، كما أثارَتْ دهشتي أيضًا الكيفيَّة التي خرج بها الكون إلى الوجود. وأتذكَّر أنِّي كنتُ أستلقي على فراشي ليلًا مُحاوِلًا التفكير في كَونٍ دون بداية، على النحو الذي يكون فيه كلُّ حدثٍ مسبوقًا بحَدثٍ آخر في رجوعٍ متوالٍ إلى ماضٍ سحيق لا يوقفه شيء- أو بعبارةٍ أدقّ، لا يُبدِئُه شيء! ماضٍ لا بداية له ولا نهاية. دارَ عقلي بسرعةٍ أمامَ هذا الاحتمال الذي بدا عَصِيًّا على الاستيعاب لعقلي، وقُلتُ لنفسي إنَّ هناك حتمًا بدايةٌ خرجَ بواسطتِها كلُّ شيءٍ إلى الوجود.

من ناحيةٍ أخرى، لم أكن على وعيٍ كبير أنَّ البشرَ ظلُّوا على مدار قرون- بل ربَّما آلاف السنين- يصارعون في عقولهم مع فكرة الماضي اللانهائيِّ، ويشتَبِكون مع السؤال الخاصِّ باحتماليَّةِ وُجودِ بدايةٍ لهذا الكون. مثلًا، اعتقدَ فلاسفة الإغريق أنَّ المادة لازِمة وغير مخلوقة، ومن ثَمَّ فهي أزليَّة، بلا بداية. ربَّما يكون الله- من وجهة النظر تلك- مسؤولًا عن ترتيب الكون وتنظيمه، ولكنَّه لم يخلقه.

تتناقض وجهة النظر تلك مع تصوُّر آخر مصدره الفكر اليهوديُّ القديم حول الموضوع نفسه؛ إذ يرى كُتَّاب الوحي من اليهود أنَّ الكونَ لم يكن دائمًا في حيِّز الوجود، بل أبدأه الله وخلقَه في لحظةٍ ما في الماضي. وتقول الآية الأولى

من سِفرِ التكوين، أوَّلِ أسفار التوارة: "في البدء خلق الله السموات والأرض" (تكوين ١ : ١).

وبمرور الزمن حدثَ تفاعلٌ واشتباكٌ فكريٌّ ما بين هذين التيَّارَين المتناقضَين أدَّى إلى إثارة جدل متواصل في الفلسفة الغربيَّة استمرَّ لما يزيد على ألف عام حول احتماليَّة وجود بداية لهذا الكون. وقد تقاسمَ هذا الجدلَ اليهودُ والمسلمون، فضلًا عن المسيحيِّين، الكاثوليك منهم والپروتستانت. واستمرَّ الجدل حول هذه القضيَّة بين التيَّارَين المعروفَين، إلى أن أدلى الفيلسوف الألمانيُّ العظيم إيمانويل كانْت بدَلْوِه في الموضوع على نحوٍ لا يحسم القضيَّة لمصلحة أيٍّ من الطرفَين. وقد رأى كانْت وجودَ حُجج منطقيَّة مقنعة لدى كلا الفريقَين، وهو رأيٌ ينطوي على مُفارَقة باعثة على السخرية؛ إذ يكشف به كانْت عن إفلاس العقل البشريِّ ذاته!



أبو حامد مُحمَّد بن مُحمَّد الغزالي

وُلِدَ الغزالي في بلاد فارس ما بين عامَي ١٠٥٥ و١٠٥٨م. وعندما بلغ منتصفَ الثلاثينيَّات من عمره، لفتَ بعلمه انتباه كبير وزراء السلاجقة الذي عَيَّنهُ مُعلِّمًا في إحدى المدارس الدينيَّة المرموقة في بغداد، ثمَّ صار صاحبَ نفوذٍ كبيرٍ داخل البلاط الملكيِّ، حتَّى إنَّه صار مُشيرًا للسُّلطان وكاتمًا لسرِّه. إلَّا أنَّ دراسة الغزالي للأدبيَّات الصوفيَّة دفعَتْه للاعتقاد باستحالة ممارسة المُثُل الأخلاقيَّة الدينيَّة، بينما يتمتَّع بثَراء أصحاب النفوذ والسلطان، لا لسببٍ إلَّا لأنَّه كان يدعَمُ حكمَهم الفاسد. فما كان من الغزالي إلَّا أن غادر بغداد عام ١٠٩٥م ليعيشَ حياة بسيطة، فعمل في التدريس في مدارس صغيرة حتَّى عام ١١٠٦م عندما عادَ إلى مدرسة أخرى بارزة كانت غايتُه من العمل فيها هي تصحيح فوضى الفكر الدينيِّ بين العامَّة، على حدِّ قَوله. تُوُفِّيَ الغزالي في مسقط رأسه عام ١١١١م.

حُجَّة الغزالي

ما الحُجَّة التي أدَّت إلى احتدام الجدل حول هذه القضيَّة؟ فلنُنصتْ إلى أحد كبار الفلاسفة في العصور الوسطى وهو يُعبِّرُ عن رأيه في هذه القضيَّة. كان

الغزالي مُتكلِّمًا* مسلمًا وُلِدَ في بلاد فارس (أو إيران حاليًّا) في القرن الثاني عشر. وكان الغزالي قلقًا لما رآه من فلاسفة المسلمين في أيَّامه من تأَثُّرٍ بالفلسفة الإغريقيَّة القديمة التي أنكرَتْ خلقَ الله للكون؛ فقد رأى الفلاسفة المسلمون في زمنه أنَّ الكونَ فَيضٌ† من فيوض الله، لذا فهو أزليّ.

بعد دراسة الغزالي المُدقِّقة لآراء هؤلاء الفلاسفة، كتب تقييمًا نقديًّا بالغَ القسوة لهم في كتابه "**تهافت الفلاسفة**". وفي هذا الكتاب المُبهر يتبنَّى الغزالي وجهة النظر القائلة إنَّ أزليَّة العالم (أو العالم الذي بلا بداية) هي فكرةٌ عبثيَّة؛ لأنَّه كانت للكَونِ بداية بالضَّرورة. وما دامت الأشياءُ لا تخرجُ إلى الوجود دون علَّة (أو سبب)، فلا بدَّ من وجود خالق متسام وراء الكون، ولكنَّه في الوقت نفسه لا يخضع لقوانين الكون (Transcendent).‡

ويصوغ الغزالي حُجَّته ببساطة قائلًا: "لكلِّ كِيان بداية لا بدَّ لها من عِلَّة تسبِّبها. وما دامَ العالم كِيانًا له بداية، لذا لا بدَّ أن تكون هناك علَّةٌ سبَّبت بدايَتَه".

مرَّة أخرى بإمكاننا أن نلخِّص التفكير الاستدلاليَّ عند الغزالي في ثلاث خطوات بسيطة:

١. كلُّ ما له بداية، لا بدَّ من عِلَّة وراء بدايته.
٢. الكون له بدء.
٣. إذًا فهناك علَّة وراء هذا الكون.

هذه الحُجَّة غاية في البساطة، ويمكنُ بسهولة حفظها ومشاركتها مع

---

* أي متخصِّصًا في علم الكلام (المترجم).

† رأى بعضُ فلاسفة المسلمين في زمن الغزالي بأزليَّة العالم (المترجم).

‡ التسامي في هذا السياق هو التسامي الميتافيزيقيُّ (أي التسامي في الجوهر). فنقول إنَّ الله متسامٍ، بمعنى أنَّ جوهره متفوِّق بطبيعته مقارنة بكلِّ شيء آخر. مثلًا، نقول إنَّ الجوهر الإلهيَّ لا يحتاج إلى مسبِّب يسبقه، أمَّا الكون فيحتاج إلى مسبِّب يسبقه. لذلك يسعنا القول إنَّ الجوهرَ الإلهيَّ متفوِّق، (أو متسامٍ بالمقارنة) على الكون؛ لأن الكونَ كِيان يعتمد على آخر في وجوده، أمَّا الله لا يعتمدُ على أحدٍ في جوهره (الناشر).

الآخرين. وهي أيضًا حُجَّةٌ رصينةٌ ومتماسكةٌ منطقيًّا. إنْ كانت المقدِّمتان صحيحتَين، فالنتيجة بالضرورة صحيحة. لذا فأيُّ شخص يريد أن ينكر صحَّة النتيجة عليه أن يُثبتَ أنَّ أيًّا من المقدِّمتَين غير صحيحة. والسؤال الأساسيُّ هنا إذًا هو التالي: هل يُحتمَلُ أن تكون هاتان المقدمتان صحيحتَين أم أنَّهما زائفتان؟ لنحاول إذًا أن نفحَصَ صحَّةَ كلِّ مقدِّمة على حِدة.

المقدِّمة الأولى
كلُّ ما له بداية، لا بدَّ من عِلَّة وراء بدايته

أعتقد أنَّه يصعُبُ إنكارُ هذه المقدِّمة من جانب أيِّ باحث صادق عن الحقّ. لأنَّ أيَّ شيء يخرجُ إلى الوجود **دون وجود أيَّة علَّة تسبِّبه فهو يأتي من** العدم. وهذا مستحيلٌ بكلِّ تأكيد. فلأطرح عليكَ ثلاثة أسباب لدعم هذه المقدِّمة:

١. **لا يمكن أن يخرج شيءٌ من اللَّاشيء**. إذا زعمت بوجود شيءٍ يخرج من العدم، فذلك يفتقر إلى المنطق الذي تجده حتَّى في السحر. فعندما يمدُّ الساحر يده ليستخرج شيئًا من قبَّعة، فعلى الأقلِّ هناك الساحر نفسه، فضلًا عن القبَّعة! لكنَّك إنْ أنكرت المقدِّمة الأولى، فعليكَ أن تقبل أنَّ الكونَ كلَّه ظهر في لحظةٍ ما في الماضي دون أيِّ سببٍ مفهوم. ولا يوجد شخص يؤمن بصدقٍ بأنَّ الأشياء- حصان، مثلًا، أو قرية من قرى الإسكيمو- يمكن أن تخرجَ إلى الوجود دون عِلَّة وراءَها.

نحنُ لا نتحدَّث هنا بشأن علمٍ معقَّد كعلم صناعة الصواريخ، بل نطرح فكرةً بسيطة. عندما يكاشف الكاپتن ڤون تراپ وماريا أحدهما الآخر بحبِّه في فيلم "صوت الموسيقا" (The Sound of Music)، ماذا تقول ماريا بعدها؟ تقول: "لا يأتي شيء من لاشيء: ذاك أمرٌ لم يحدُثْ قَطّ". نحن لا نفكِّر عادةً في المبادئ الفلسفيَّة على نحوٍ رومانسيّ، لكنَّ ماريا هنا كانت تعبِّرُ عن مبدأ

حجّة مسيحيّة، يهوديّة، إسلاميّة

الحُجة الكونيّة (الكوزمولوجيّة) المُستندة إلى علم الكلام بدأت أساسًا بجهود فلاسفة مسيحيِّين قُدامَى مثل يوحنَّا النحويِّ السَّكندريّ (John Philoponus of Alexandria) والتي تركَّزت على تفنيد ما نادى به أرسطو حول "أزليَّة الكون". وعندما دخل الإسلام مِصرَ، تَمثَّل هذا التراث الفلسفيَّ وطُوِّرت منه حججٌ أكثر تعقيدًا. أيضًا عاش اليهود مع المسلمين في إسپانيا العصور الوسطى، حيث أعادَ القدِّيسُ يوحنَّا بوناڤنتورا (St. Bonaventura) هذا التراثَ وتبنَّاه وتلقَّفه ونقلَه مرَّةً أخرى إلى الغرب المسيحيِّ. وحيث إنَّ المسيحيِّين واليهود والمسلمين يتَّفقون على الإيمان بالخلق، فإنَّ الحجَّة الكونيَّة لاقَت قبولًا كبيرًا من جانب خلفيَّات دينيَّة عدَّة، ومن هنا فهي تُسهم في بناء الجسور ومشاركة الإيمان مع اليهود والمسلمين.

أساسيٌّ في علم ماوراء الطبيعة (الميتافيزيقا) بصورته التقليديَّة (لا بد أنَّ ماريا تعلَّمت الفلسفة في مدرسة دير الراهبات!).

أحيانًا يردُّ المتشكِّكون على تلك النقطة بالقول إنَّ الجزيئات دون الذرِّيَّة في الفيزياء (أو ما يطلق عليه "الجزيئات الافتراضيَّة") تخرج إلى الوجود من اللاشيء. أو أنَّ بعض النظريَّات المتعلِّقة بنشأة الكون توصف أحيانًا في المجلَّات الشعبيَّة أنَّها تستخرج الشيء من اللَّاشيء، ومن ثمَّ فالكون هو الاستثناء للقاعدة القائلة إنَّه لا بدَّ من أصلٍ للأشياء.

هذا الردُّ من جانب المتشكِّكين ليس سوى إساءة متعمِّدة للعلم. فالنظريَّات التي يتحدَّث بشأنها هؤلاء تتعلَّق بالجزيئات الناتجة عن تذبذب الطاقة الموجودة في الفراغ. إلا أنَّ "الفراغ" في الفيزياء الحديثة ليس هو الفراغ كما يفهمه رجل الشارع العاديّ. فالفراغ في الفيزياء عبارة عن بحر من الطاقة المتذبذبة التي تحكمها قوانين الفيزياء، ولها بناء فيزيائيّ. لذا فعندما يقول هؤلاء المتشكِّكون لرجل الشارع العاديِّ إنَّ هذه النظريَّات تنادي بأنَّ الشيء يمكن أن يأتي من اللَّاشيء، فهم بذلك يشوِّهون هذه النظريَّات.

وحتَّى نتحرَّى الدقَّة هنا، فإنَّ "اللَّاشيء" هنا لا يعني مجرَّد الفراغ الخاوي، بل يعني في هذا السياق غياب كلِّ شيء تمامًا، بما في ذلك الفراغ نفسه. وبناء على ذلك، فلا توجَدُ سِماتٌ للعدم! لذا، فمن السُّخفِ أن يتحدَّثَ غير

الميتافيزيقا (علم ما وراء الطبيعة) هو أحد فروع الفلسفة التي تختصُّ بدراسة القضايا المتعلِّقة بطبيعة الواقع الكلِّيّ للوجود. القضايا البارزة التي تنضوي تحت الميتافيزيقا تشمل طبيعة الوجود، وطبيعة الزمان والمكان، والعلاقة ما بين العقل والجسد، وحقيقة الموجودات المجرَّدة، ووجود الله.

العارفين ويقولوا أمورًا من قبيل إنَّ "العدم غير ثابت" أو إنَّ "الكون خرج إلى الوجود من لاشيء"!

عندما نشرت أوَّل عمل لي عن الحجَّة الكونيَّة المستندة إلى علم الكلام، وذلك في عام ١٩٧٩م، تصوَّرت أنَّ يهاجمَ الملحدون المقدِّمة الثانية من تلك الحجَّة، والقائلة **إنَّ للكون بداية**. ولكنِّي لم أتصوَّر أنَّهم سيوجِّهون نقدَهم إلى المقدِّمة الأولى. لأنَّ ذلك ببساطة كان سيكشف عدم إخلاصهم في بحثهم عن الحقّ، وأنَّ كلَّ ما يعنيهم هو إيجاد صياغة أكاديميَّة يفنِّدون بها الحجَّة.

ويا لها من مفاجأة لي أن أسمع بعض الملحدين وهم ينكرون المقدِّمة الأولى حتَّى يتجنَّبوا النتيجةَ التي تُفضي إليها! مثلًا ردَّ كوينتِن سميث (Quentin Smith) من جامعة غرب ميشيجان على هذه المقدِّمة بالقول إنَّ أكثرَ موقف عقلانيٍّ يمكن أن يتبنَّاه المرء هو أنَّ الكون خرج "من لا شيء، بواسطة لا شيء، ودون أيِّ غرض"- لعلَّ ذلك يصلح أن يكونَ خاتمةً لطيفة لإحدى الخُطب في مؤتمرات الملحدين.

هذا ببساطة ما يؤمن به شخصٌ ملحد. حقيقة الأمر أنَّ مقولة كهذه تحتاج منِّي إلى الكثير من الإيمان أكثر ممَّا يتطلَّبه الإيمان بوجود الله. لأنَّ الأمر هنا- كما ذكرتُ سابقًا- أكثر سوءًا من السحر. إن كان ذلك هو بديل الإيمان بالله، فلا يمكن أن يُتَّهمَ المؤمنون بالافتقار إلى المنطق؛ لأنَّ ما يقوله غير المؤمنين هو غاية في اللَّامنطق كما يتَّضحُ لنا.

إنْ كان هناك شيءٌ يأتي من اللَّاشيء، فكيف لنا أن نفسِّرَ أنَّ كلَّ الأشياء التي نعرفها لا تأتي إلى الوجود من اللاشيء؟ فكِّر في ذلك الأمر: لماذا لا تخرج الدرَّاجات وبيتهوفن وما نتناوله من طعام وشراب هكذا من اللَّاشيء؟ لماذا يأتي الكون وحده من العدم، بينما كلُّ ما نعرفه من موجودات يأتي بواسطة مسبِّب لها؟ ما الذي يجعل العدمَ هو ما يميِّز بين الموجودات التي يخرج بعضها ولا يخرج بعضها الآخر؟ لا يمكن أن يكون هناك شيءٌ خاصٌّ في

العدم يجعله يفضِّلُ الكون على غيره فيخلقَه؛ لأنَّ العدمَ أصلًا لا يحظى بأيَّة سِمات تجعله يفضِّل شيئًا وينفرُ من شيء آخر. وليس هناك ما يمكن أن يُحَجِّم من العدم؛ لأنَّه لا يملك ما يمكن تحجيمه!

لقد سمعت ملحدين يردُّون على هذه الحجَّة بقولهم إنَّ المقدِّمةَ الأولى تصحُّ على كلِّ الأشياء في الكون، ولكنَّها لا تصحُّ على الكون ذاته. وذلك ليس إلَّا مغالطة "تاكسي الأجرة" التي كنَّا قد تحدَّثنا بشأنها في الفصل الثالث. لا يمكنك أن تنكر وجود مبدأ العِلة المُسبِّبة للوجود عندما تبدأ الحديث بشأن الكون. المقدِّمة الأولى ليست مجرَّد قانون من قوانين الطبيعة مثل قانون الجاذبيَّة، الذي ينطبق فقط على ما يوجد داخل إطار الكون؛ بل هي أيضًا قانونٌ ميتافيزيقيٌّ يحكم كلَّ الموجودات وكلَّ الواقع من حولنا.

وهنا ربَّما يردُّ الملحد بالقول: "حسنًا، إنْ كانت لكلِّ شيء عِلَّة تسبِّبه، فما العلَّة التي سبَّبت وُجودَ الله؟" والحقيقة أنِّي أتعجَّب من الإحساس بالزَّهو الذي ينتاب الطلبة وهم يطرحون هذا السؤال. ويتصوَّر هؤلاء أنَّهم قالوا شيئًا عميقًا أو ذا بال، بينما هم في الواقع يكونون قد أساءوا فهم تلك المقدِّمة. فالمقدِّمة الأولى لا تقولُ إنَّ لكلِّ شيء علَّة، بل تقولُ بالأحرى إنَّ لكلِّ ما له بداية علَّة سبَّبتْ هذه البداية. أمَّا الموجود الأزليّ-الأبديُّ فلا يحتاج إلى علَّة تسبِّب وجوده؛ لأنَّه لم يكن هناك بدءٌ لوجوده.

وهنا يقول الغزالي أيضًا إنَّ الله أزليٌّ ولم يسبِّبْ وجودَه شيءٌ. إلَّا أنَّ ذلك لا يُشكِّل دفاعًا متميِّزًا عن الله؛ لأنَّ الملحدَ يطرحُ الفكرةَ نفسها بالارتباط بالكون؛ فالكون للملحد أزليٌّ ولم يسبِّب وجوده شيء. والمشكلة هنا أنَّنا نملك الأدلَّة على أنَّ الكون ليس أزليًّا، بل كانت له بداية، وهو ما يضع الملحد في مأزق كبير عندما يقول إنَّ الكون خرجَ فجأةً إلى الوجود دون علَّة، وهو قولٌ يتَّسم بالسُّخف.

العلم الشعبيّ

عليكَ أن تكون حَذِرًا جدًّا في التعاطي مع المقالات والبرامج التلفزيونيَّة التي تتناول النظريَّات العلميَّة، ولا سيَّما وأنت تقرأ المقالات الشعبيَّة أو تشاهد البرامج؛ فالكُتَّاب والإعلاميُّون يبغون إيصال هذه النظريَّات بتفاصيلها المتخصِّصة للإنسان العاديّ، فيُضطرُّون إلى استخدام المجازات والعبارات التصويريَّة التي كثيرًا ما يشوبها الكثير من عدم الدقَّة، وتؤدِّي إلى الكثير من التضليل. ومثالنا على التضليل وعدم الدقَّة هو تلك الفكرة التي يزعمُ بها بعض الناس أنَّ الفيزياء تعلِّمنا بأنَّ شيئًا يمكن أن يخرج من لاشيء.

ناقش

من وجهة نظرك، ما الذي يجعل الكثيرين ممَّن يتمتَّعون بالذكاء يعتقدون بصحة الفكرة القائلة إنَّ الكونَ خرج غالبًا من اللَّاشيء دون علَّة سبَّبته؟

الخبرة العاديّة والأدلّة العلميّة تؤكّدان صحّة المقدّمة الأولى. إنَّ المقدّمة الأولى دائمًا ما تثبُتُ صحّتها ويصعب تفنيدُها عندما تخضعُ للفحص. ومن الصعب عليَّ أن أرى شخصًا يزعم ولاءه للتفكير العلميّ وينكر في الوقت ذاته أنَّ احتمالات صحّة المقدّمة الأولى أكثر بكثير من احتمالات ضدّها، وذلك في ضوء الأدلّة.

ناقش

ماذا تقول لشخص يعتقد أنّه لا توجد بداية لأيِّ شيء موجود، على أساس أنَّ كلَّ الأشياء تشكّلت من مكوّنات سابقة لها؟

لذا فاعتقادي هو أنَّ المقدّمة الأولى من الحُجَّة الكونيّة المستندة إلى علم الكلام هي صحيحة كما يتَّضح للعِيان. إنْ كان إنكار نتيجة هذه الحُجَّة سيكلّف الملحدين إنكارَ المقدّمة الأولى، فهذا لا يعني سوى إفلاس الإلحاد فلسفيًّا.

المقدّمة الثانية
للكون بداية

المقدّمة الأكثر إثارةً للجدل في الحجّة الكونيّة هي المقدّمة الثانية التي تقول إنَّ للكون بدايةً خرجَ بها إلى الوجود. فلأقدِّمْ إليك حُجَّتَين فلسفيَّتَين وحُجَّتَين علميَّتَين في دفاعي عن هذه المقدّمة.

الحُجَّة الفلسفيّة الأولى: لا يمكن أن يوجَدَ بالفعل عدد لانهائيٌّ من الأشياء

يدافع الغزالي عن حجّته قائلًا إنّه لو لم تكن للكون بداية، فيعني ذلك وجودَ عدد لانهائيٍّ من الأحداث التي وقعت في الماضي قبل زمننا الحاضر. ولكنّه يرى صعوبةً في وجود عدد لانهائيٍّ من الأشياء والأحداث. وتحتاجُ هذه الفكرة إلى بعض التفصيل. أدرك الغزالي أنّه **يمكن** وجود عدد لانهائيٍّ من

الأشياء بصورة مرتقبة (أو محتمَلة)§، ولكنَّه أنكر إمكانيَّةَ وجودِ هذا العدد اللانهائيِّ بصورة فعليَّة. فلأوضِحْ لكَ الفارق.

اللانهائيَّة المرتَقَبة في مقابل اللانهائيَّة الفعليَّة

عندما نقول إنَّ شيئًا ما يمكن أن يكون لانهائيًّا (لانهاية مرتقَبة)، فالمقصود باللانهائيَّة هنا هو مجرَّد الحدِّ المثاليِّ الذي لا يمكن أن يصل إليه أحد. مثلًا، في وسعك تقسيم أيَّة مسافة محدودة نصفَين، وأربعةَ أنصاف، أو ثمانيةً أو ستَّة عشر قسم متساوٍ، ويمكنك أن تفعل ذلك إلى ما لانهاية. أي أنَّ عدد المرَّات التي يمكنك بها أن تقسِّم هذه المسافة المحدودة **يمكن** أن يكون لانهائيًّا. لكنَّك لن تصل أبدًا إلى القسمة اللانهائيَّة التي تتكوَّن منها مسافات أصغر.

لم تكن لدى الغزالي مشكلة في الوجود المرتقَب لعدد لانهائيٍّ من الأشياء؛ لأنَّ اللانهائيَّة المشار إليها هنا هي مجرَّد حدود مثاليَّة. لكنْ عندما نتحدَّث بشأن اللانهائيَّة **الفعليَّة**، فإنَّنا لا نتحدَّث بشأن مجموعة من الموجودات التي لا تتزايد وصولًا إلى ما لانهاية، بل هي موجودات وصلت بصورة حقيقيَّة إلى ما لانهاية؛ إذ يكون عدد الموجودات في هذه المجموعةِ أكبرَ من أيِّ عدد محدود. وهنا يقول الغزالي إنَّه لو افترضنا وجودًا فعليًّا لعدد لانهائيٍّ من الأشياء، فإنَّ نتيجة ذلك مجموعةٌ من الأفكار العبثيَّة. ولو أردنا تجنُّب هذه الأفكار العبثيَّة، فعلينا أن نُنكِرَ الوجودَ الفعليَّ لعدد لانهائيٍّ من الأمور. ويعني هذا أنَّ عددَ الأحداث الماضية لا يمكن أن يكونَ لانهائيًّا. ومن ثَمَّ، فلا يمكن أن يكونَ الكون بلا بداية، بل لا بدَّ له من بدايةٍ خرج بها إلى الوجود.

---

§ يمكن تمثيل اللانهائيَّة المحتملة أو المرتقبة على النحو التالي: لنفترض جدلًا أنَّ هناك إنسانًا لا يموت؛ ولنفترض جدلًا أيضًا أنَّه قرَّر في أحد الأيَّام أن يمشي دون توقُّف. إذًا سيمشي هذا الإنسان إلى الأبد. وهكذا، يمكننا أن نقول إنَّه سيمشي عددًا لانهائيًّا من الخطوات، لكنَّه في كلِّ لحظة سيكون قد سارَ عددًا نهائيًّا من الخطوات (أي يمكن حصرها برقم رياضي) مهما كبر عددها. لذلك نقول إنَّنا نترقَّب مسير هذا الإنسان عددًا لانهائيًّا من الخطوات (لأنَّه لن يقف)، لكن هذه اللانهائيَّة هي محتملة أو مرتقبة، وليست حقيقيَّة؛ لأنَّها لن تتحقَّقَ فعليًّا لأنَّه سيكونُ في وُسعِنا إحصاء كلِّ الخطوات التي مشاها (الناشر).

جورج كانتور واللانهائيَّة

وضعَ جورج كانتور (١٨٤٥-١٩١٨م) نظريَّة المجموعات اللانهائيَّة. ويُلقي البعض باللوم على مفهوم "اللانهائيَّة" بوصفه سبب جُنونه، لكنَّ أغلب الظنِّ هو أنَّ مجموعة من الضغوط والتركيبات الجينيَّة هي التي أدَّت إلى إصابته باضطراب "ثنائي القطب" (Bipolar disorder). وكان هناك العديد من زملائه من الرياضيِّين ممَّن كانوا يرفضون أفكاره. لكنْ رغم نوبات الاكتئاب الشديدة التي كانت تنتابه، استطاع كانتور أن يقدِّم أفكاره. وكان يتراسل مع لاهوتيِّين، ومنهم أيضًا البابا ليو الثالث عشر، ويتكلَّم معهم عن "اللانهائيَّة". وكان يظنُّ أنَّ فكرة "الأرقام غير المحدودة" أتَتْه بوصفها رسالة من الله.

اعتراض من الرياضيَّات الحديثة

كثيرًا ما زعم البعض أنَّه أُثبتَ عدم صحَّة هذه الحجَّة بواسطة التطوُّرات التي حدثت في الرياضيَّات الحديثة؛ ففي نظريَّة المجموعات الحديثة (Set theory)، يشيع استخدام المجموعات اللانهائيَّة بالفعل. فمثلًا، مجموعة الأرقام الطبيعية {٠، ١، ٢ ...} تضمُّ بالفعل عددًا لانهائيًّا من عناصر المجموعة. وعددُ عناصر هذه المجموعة- وَفقًا لنظريَّة المجموعات الحديثة- هو بالفعل لانهائيّ. لقد ظنَّ الكثيرون خطأً أنَّ هذه التطوُّرات تُضعِفُ من حجَّة الغزالي.

الردُّ على الاعتراض: الواقع في مقابل الخيال

تُظهِرُ لنا هذه التطوُّرات في الرياضيَّات الحديثة أنَّنا إذا تبنَّينا بديهيَّاتٍ وقواعدَ رياضيَّة معيَّنة، فإنَّ في وُسعِنا **الكلام** بالفعل عن مجموعات لانهائية (أي تحتوي على عدد لانهائيٍّ من الأعضاء)، وبصورة متَّسقةٍ دون أن نقعَ في فخِّ التناقض. كلُّ ما تحرزه هذه التطوُّرات هو إظهار إمكانيَّة خلق **لغة ومفردات** يمكن بها الكلام باتِّساق عن قيَم رياضيَّة لانهائيَّة. إلَّا أنَّ هذه التطوُّرات لا تفيدنا بشيء؛ لأنَّها لا تُرينا أنَّ مثل هذه القِيَم الرياضيَّة موجودةٌ فعلًا، أو أنَّ عددًا لانهائيًّا من الأشياء يمكن أن يوجد بالفعل. إنْ كان الغزالي مُحِقًّا في حُجَّته، فإنَّه يمكن النظرُ إلى هذه "اللغة والمفردات" المشار إليها بوصفها عالمًا فرضيًّا، تمامًا كعالم شرلوك هولمز، أو مجرَّد فكرة لا توجد إلَّا داخل العقل.

علاوة على ذلك، فإنَّ الغزالي لا يرى أنَّ الوجود الفعليَّ لعدد لانهائيٍّ من الأشياء ينطوي على تناقض **منطقيّ**، لكنَّه يرى أنَّ هذه الفرضيَّة في الأساس مستحيلة **بالفعل**. وبالمشابهة، فإنَّ الزعم بأنَّ شيئًا يمكن أن يخرجَ إلى الوجود من لا شيء هو طرحٌ غير متناقض منطقيًّا، غير أنَّه مستحيلُ الحدوث فعليًّا. فمن المستبعد أن تُقوِّضُ هذه التطوُّرات في الرياضيَّات الحديثة من حجَّة الغزالي، بل هي تدعم تلك الحجَّة، وتمنحنا فهمًا لحقيقة اللانهائيَّة الفعليَّة.

فندق هيلبرت

يحاول الغزالي أن يُظهر استحالة الوجود الفعليّ لهذا العدد اللانهائيّ للأشياء بتصوُّره كيفيَّة حدوث ذلك، والنتائج العبثيَّة التي ستترتَّب عليها. فلأضرب أمامَك أحد الأمثلة المفضَّلة عندي، والتي توضح الصورة. ويُدعى هذا المثل "فندق هيلبرت"، وهو فكرةُ الرياضيِّ الألمانيِّ العظيم ديڤيد هيلبرت (David Hilbert).

يدعونا هيلبرت لأن نتخيَّل فندقًا عاديًّا مكوَّنًا من عددٍ محدودٍ من الغرف. ولنفترض أنَّ كلَّ غرف الفندق مشغولة. ويعني هذا أنَّه عندما يَظهَرُ ضيفٌ جديدٌ ويذهب إلى مكتب الاستقبال لحجز غرفة، فسيقول له موظَّف الاستقبال: "عذرًا! جميع الغرف مشغولة الآن"؛ وهنا تنتهي القصَّة.

لكنْ فلنتخيَّلِ الآنَ- على حدِّ قولِ هيلبرت- فندقًا مكوَّنًا من عددٍ لانهائيٍّ من الغرف. ولنفترض مرَّةً أخرى أنَّ **كلَّ الغرف مشغولة**. وعلينا أن نَعِيَ هذه الحقيقة جيِّدًا؛ إذ لا توجد غرفةٌ واحدةٌ متاحة للحجز في هذا الفندق المكوَّن من عدد لانهائيٍّ من الغرف، ففي كلِّ غرفة شخص يشغلها. والآن افترض أنَّ ضيفًا جديدًا أتى وتوجَّه إلى مكتب الاستقبال مستفسرًا عن غرفة. وهنا سيقول الموظَّف: "لا توجد مشكلة!". ثمَّ ينقل الشخص الذي كان يشغل الغرفة ١ إلى الغرفة ٢، والشخص في الغرفة ٢ إلى الغرفة ٣، والذي في الغرفة ٣ إلى الغرفة ٤، وهكذا إلى ما لانهاية. ونتيجةً لهذه التغييرات في الغرف، تصيرُ الغرفة ١ شاغرة، ويصير في وُسعِ الضيف الجديد النزول فيها شاكرًا. ولكنْ قبل وصوله، كانت كلُّ الغرف مشغولةً أصلًا!

والآن يزداد هذا المثلُ تعقيدًا! تخيَّلِ الآن- على حدِّ تعبير هيلبرت- أنَّ عددًا لانهائيًّا من الضيوف الجدد يذهب إلى مكتب الاستقبال مستفسرين عن غرف. وهنا سيقول موظَّفُ الاستقبال: "ليست هناك مشكلة"، ثمَّ ينقل الشخص في الغرفة ١ إلى الغرفة ٢، والشخص في الغرفة ٢ إلى الغرفة ٤، والذي في الغرفة ٣ إلى الغرفة ٦، وفي كلِّ مرَّة ينقل النزيلَ إلى غرفة رقمُها ضعف رقم

الغرفة التي كان يشغلها. وما دام كلُّ رَقْم مضروبًا في ٢، لذا يكون الناتج عددًا زوجيًّا، فكلُّ الضيوف سيشغلون غرفًا أرقامها زوجيَّة، وبهذا ستصيرُ كلُّ الغرف ذات الأرقام الفرديَّة شاغرة، فيصير بالإمكان تسكين العدد اللانهائيِّ من النزلاء الجدد. وفي الواقع، يستطيعُ المدير أن يفعلَ ذلك **عددًا لانهائيًّا من المرَّات**، ويستطيع في كلِّ مرَّةٍ تسكينَ عدد لانهائيٍّ من الضيوف. ومع ذلك، فقبل أن يَصِلَ هؤلاء الضيوف الجدد، تصيرُ كلُّ الغرف مشغولةً تمامًا.



علَّق أحد طلَّابي مرَّة قائلًا إنَّه لو كان هناك فندق مثل فندق هيلبرت، فاللافتة خارج هذا الفندق يجب أن تقول: "ليست هناك غرفٌ شاغرة! (ومرحبًا بالضيوف الجدد)".

إلَّا أنَّ فندق هيلبرت أغربُ كثيرًا ممَّا تصوَّر الرياضيُّ الألمانيُّ العظيم. فقط اطرح على نفسك هذا السؤال: ماذا سيحدث لو أنَّ بعضَ النزلاء بدأوا **يُنهون حجوزاتِهم**؟ افترض مثلًا أنَّ كلَّ نزلاء الغرف الفرديَّة أنهَوا حجوزاتهم.

معنى ذلك أنَّ عددًا لانهائيًا من الأفراد سيكونون قد غادروا الفندق- وهو عددٌ لانهائيٌّ كعددِ مَن سيبقون بعد مغادرتهم؛ إذ لن ينقص عدد الذين بقوا. العدد لانهائيّ! وتصوَّرِ الآن الموظَّفَ وهو غير سعيد بفندق نصف فارغ (فهذا ليس في مصلحته مادِّيًا). لا يهمّ! المسألة بكلّ بساطة تُحَلُّ بأن ينقلَ الموظَّفُ ضيوفَ الفندق من غرفهم مرَّة أخرى، وإنْ كان بترتيب عكسيٍّ هذه المرَّة، ليعودَ الفندق مشغولًا بالكاملِ من جديد!

ربَّما تعتقد الآن أنَّ هذا الموظَّفَ يستطيعُ بإجراء هذه المناورات أن يحتفظَ بفندقه الغريبِ هذا مشغولًا دَومًا. لكنَّك مخطئ. افترض مثلًا أنَّ نزلاءَ الغرف ٤، ٥، ٦ غادروا الفندق، فهنا سيفرغُ الفندق من ضيوفه، ولن يظلَّ على سجلِّ النزلاء سوى ثلاثة أسماء، ويتحوَّل العدد اللَّانهائيُّ من النزلاء إلى عدد محدود. ومع ذلك، فوَفقًا لهذه الطريقة في التفكير، نستنتج أنَّ عدد النزلاء الذين غادروا هذه المرَّة هو ذاته عدد النزلاء الذين غادروا الغرف ذات الأرقام الفرديَّة! هل يمكن أن يوجَدَ مثل هذا الفندق في الواقع؟

فندق هيلبرت مكانٌ عبثيّ. وبناءً على هذا المَثَلِ يمكن طرحُ حُجَّةٍ مفادها استحالةُ، بل عبثيَّة، وجود عدد لانهائيٍّ من الأشياء.

ردود على مَثَلِ فندق هيلبرت

أحيانًا يأتي ردُّ الناس على مثل فندق هيلبرت بالقول إنَّ هذه النتائجَ العبثيَّة لهذا المثَلِ هي نتيجة عدم استيعابنا لمفهوم اللانهاية الذي يتجاوز فهمَنا. لكنَّ ردَّ الفعل ذلك خاطئ ويتضمَّن تبسيطًا. فكما ذكرت سابقًا، نظريَّة المجموعات الحديثة هي فرع من فروع الرياضيَّات الحديثة، وقد طُوِّرَ بصورةٍ مُحكَمةٍ على أيدي رياضيِّين استوعَبوه جيِّدًا. النتائج العبثيَّة التي استعرضناها هي نتيجةُ فهمِنا في الواقع لطبيعة اللانهاية الفعليَّة. كان هيلبرت شخصًا ذكيًّا، وعرفَ جيِّدًا

ناقش

لا يوجد شيءٌ في هذا الكون يمكن أن يكونَ لانهائيًّا بالفعل. لكنْ ماذا عن الله نفسه الذي يتجاوزُ هذا الكون؟ بأيِّ معنى يُعدُّ الله لانهائيًّا؟ ما أهمِّيَّة طرحِ هذا السؤال؟

كيف يعبّر عن النتائج الغريبة التي تتضمّنها احتماليَّة الوجود الفعليّ لعدد لانهائيٍّ من الأشياء.

ما يمكن أن يفعله أيُّ رافضٍ لفكرة بداية الكون هو أن يجافيَ العقلَ، ويُقرَّ أنَّ فندق هيلبرت ليس فكرةً عبثيَّة. أحيانًا يحاول مَن ينتقدون الحجَّة الكونيَّة تعليلَ طريقة تفكيرهم بالقول إنَّ مثل هذه المواقف هي ما يجب أن يتوقَّعه، ما دامَ يمكنُ أن توجَدَ اللانهاية الفعليَّة. غير أنَّ الضعفَ يشوبُ هذا التعليلَ. دون شكّ، سيوافق هيلبرت على الفكرة القائلة إنَّ الموقفَ الذي يقدِّمه إلينا هذا الفندق المتخيَّل هو ما يجب أن نتوقَّعه، ما دامت اللانهاية الفعليَّة أمرًا واردَ الحدوث، وإلَّا فما فائدة هذا المثل؟ لكنَّ السؤال المطروح هنا هو ما إذا كان يُحتمَل وُجودُ هذا الفندق فعلًا.

ناقش

يُرينا الغزالي استحالةَ وجود عددٍ لانهائيٍّ من أحداث الماضي. فماذا عن المستقبل؟ هل المستقبل لانهائيٌّ فعلًا، أم أنَّ لانهائيَّته هي أمرٌ ممكن فقط؟ كيف تختلفُ الأبديَّة عن مسألة وجود عدد لانهائيٍّ من اللحظات في الزمن؟

فضلًا عن ذلك، لا يمكن أن يتجاهَلَ رافضو الحجَّة الكونيَّة المنطقَ تمامًا في ما يتعلَّق بالموقف الافتراضيّ في هذا المثل، والخاصّ بمغادرة الضيوف للفندق؛ لأنَّنا هنا أمام تناقُضٍ منطقيّ: أنَّنا هنا نجد حاصل طرح قيمٍ رياضيَّة متماثلة من قيم رياضيَّة متماثلة لنحصل على نتائج غير متماثلة. لذا غير مسموح في الرياضيات بطرح ما لانهاية من ما لانهاية. لكنْ بينما يمكن أن نوجِّه اللَّومَ إلى عالم الرياضيَّات الذي يحاول أن يتجاوَزَ القواعد، لا يمكن أن نمنَعَ مغادرةَ الضيوف الذين يغادرون فندق هيلبرت في هذا المَثَلِ العبثيّ.

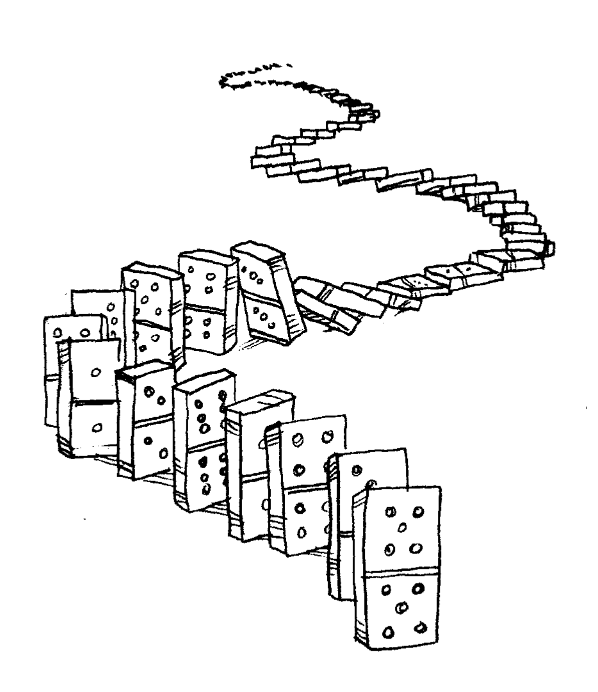
بناءً على ما سبق، أظنُّ أنَّ حجَّةَ الغزالي الأولى صحيحة، وهي تُظهِرُ لنا أنَّ عددَ الأحداث الماضية لا بدَّ أن يكون محدودًا، ومن ثمَّ فقد كانت هناك حتّمًا للكون بداية.

الحُجَّة الفلسفيَّة الثانية: لا يمكنك أن تعبُرَ أيَّ عددٍ لانهائيٍّ من العناصر في سلسلةٍ ما، بحيث تفعلُ ذلك مع عنصرٍ واحدٍ في كلِّ مرَّة

للغزالي حُجَّة أخرى مستقلَّة يدافع فيها عن بداية الكون. لذا، فإنَّ أمامَ مَن يُنكِرون وجودَ بداية للكون تحدِّيَ دَحْضِ الحجَّة الثانية، وليس الأولى فقط؛ لأنَّها حجَّة منفصلة.

العَدُّ إلى ما لانهاية أو من ما لانهاية

يشير الغزالي إلى أنَّ سلسلةَ أحداث الماضي تشكَّلت بإضافة حدثٍ إلى آخر. وتُشبِه هذه السلسلة من الأحداث مجموعةً من قطع الدومينو التي تقع الواحدة تلو الأخرى حتَّى نصلَ إلى القطعة الأخيرة، وهي اللحظة الحاضرة. ولكنَّه يسترسل في طرح حُجَّته بالقول إنَّه لا توجد سلسلةٌ من الأشياء تتكوَّنُ من إضافة عنصر إلى آخر يمكن أن تكون لانهائيَّة فعليًّا؛ لأنَّه ليس بالإمكان أن تعبُرَ هذا العدد اللانهائيَّ من العناصر، بحيث تفعلُ ذلك مع عنصرٍ واحدٍ في كلِّ مرَّة.



ربَّما يسهل إدراك ذلك إذا ما حاولت أن تَعُدَّ إلى ما لانهاية. فبِغَضِّ النظر عن العدد الكبير الذي يمكن أن تصلَ إليه في العدّ، فسيبقى دائمًا عددٌ لانهائيٌّ من الأرقام ينتظر العَدّ.

لكنْ إنْ عجزتَ عن عدِّ الأرقام وُصولًا إلى ما لانهاية، فكيف يمكنك العدُّ التنازليُّ بدءًا من اللانهاية؟ يشبه هذا أيضًا العدَّ التصاعديَّ بدءًا من الأرقام السالبة وصولًا إلى الصفر، كالتالي: -٣، -٢، -١، ٠. ليس هذا إلَّا ضربٌ من الجنون، لأنَّك في هذه الحالة قبل أن تعدَّ الصفر، عليك أن تَعدُّ -١، وقبله عليك أن تعدَّ -٢، وهكذا رجوعًا إلى ما لانهاية في الاتِّجاه العكسيّ. معنى ذلك أنَّه قبل أن تعدَّ أيَّ رقم، عليك أن تعدَّ عددًا هائلًا من الأرقام اللانهائيَّة أوَّلًا. وهنا أنت تداوم على الرجوع إلى الوراء دون أن تستطيع فعلًا أن تعدَّ أيَّ عددٍ في سَعيِكَ إلى الوصول إلى نقطة البداية.

ومعنى ذلك أنَّ قطعةَ الدومينو الأخيرة لن تقع بتاتًا؛ لأنَّه يجب أن يسبقَها سقوطُ عدد لانهائيٍّ من قطع الدومينو. كما يعني أيضًا أنَّنا لن نستطيعَ الوصول إلى اللحظة الحاضرة. غير أنَّ الواقع يقول إنَّنا في اللحظة الحاضرة؛ ويعني ذلك أنَّ لسلسلةِ أحداثِ الماضي بدايةً دون شكّ.

اعتراض: من كلِّ نقطة زمنيَّة في الماضي يمكن بلوغ اللحظة الحاضرة

قام بعض المعترضين على هذه الحُجَّة بالردِّ عليها قائلين إنَّ كلَّ حدث في الماضي دون بدايةٍ إنَّما يقع على مسافة زمنيَّة محدودة من الحاضر. لاحظ مثلًا الأرقام السالبة: ...-٣، -٢، -١، ٠. هذه السلسلة هي دون بداية، ومع ذلك فإنَّ أيَّ عددٍ في هذه السلسلة- وليكن مثلًا -١١ أو -١٠٠٠٠٠٠ أو أيِّ رقم آخر- إنَّما يقفُ على مسافةٍ زمنيَّة محدودةٍ من الصفر. لذا فإنَّ المسافةَ الزمنيَّةَ المحدودة بين أيِّ حدثٍ في الماضي واللحظة الحاضرة يمكن عبورها بسهولة، تمامًا عندما تعُدُّ من أيِّ عددٍ سالبٍ تختاره وصولًا إلى الصفر.

الردُّ على الاعتراض: مغالطة التركيب

يقع هذا الاعتراض في فخٍّ مغالطة منطقيَّة نسمِّيها "مغالطة التركيب" (Fallacy of Composition). وهذه المغالطة تحدثُ عندما يخلط المرء ما بين سمات الجزء وسمات الكلّ. مثلًا، كلُّ جزء من جسد الفيل قد يكون خفيف الوزن، لكنَّ هذا لا يعني أنَّ جسدَ الفيل خفيف الوزن!

بخصوص الحالة التي نتأمَّلها، فإنَّ وجودَ جزء من سلسلة اللانهاية على مسافة محدودة من غيره من الأجزاء ومن ثمَّ يمكن عدُّه، فهذا لا يعني أنَّ سلسلة اللانهاية كلُّها تتَّسم بالمحدوديَّة نفسها، وأنَّه يمكن عدُّها. لقد وقع المنتقدون هنا في مغالطةٍ بسيطة. السؤال هنا ليس: كيف يتكوَّن جزءٌ محدودٌ من الماضي بإضافة حدثٍ إلى آخر؟ بل هو: كيف يتكوَّن هذا الماضي الذي دون بدايةٍ بإضافة حدثٍ تلو الآخر؟

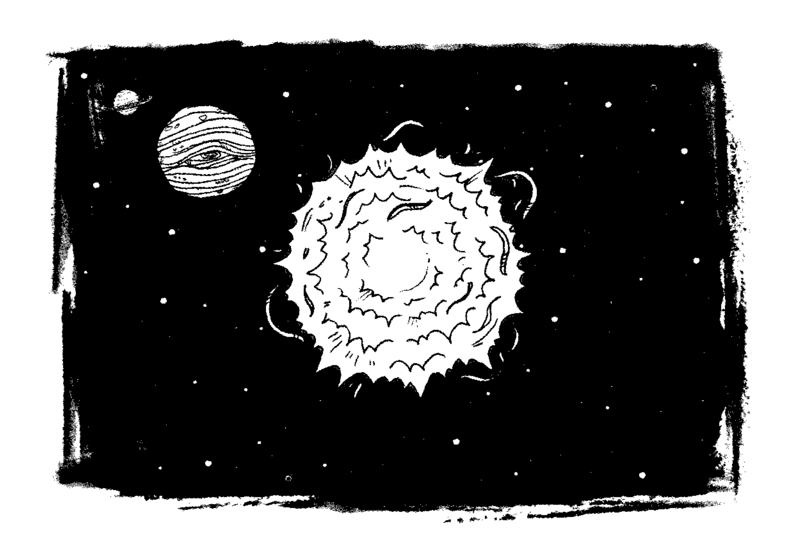
فكرتان عبثيَّتان

حاول الغزالي أن يبيِّنَ استحالةَ أن يكونَ الماضي لانهائيًّا بالتشبيهات التي قدَّمها ليُظهِرَ النتائجَ العبثيَّةَ التي يخلِّفها هذا التصوُّر. مثلًا، افترضْ أنَّه في مقابل كلِّ دورة يدورها كوكب زُحل حول الشمس يدور كوكب المُشتري دورتَين. وكلَّما طالَتْ فترة الدوران، تخلَّفَ زُحل عن المشتري. وإذا ظلَّ هذان الكوكبان يدوران إلى الأبد، فسيصلُ الأمر إلى الحدِّ الذي يتخلَّفُ فيه زحل عن المشتري بصورةٍ لامحدودة. غير أنَّهما لن يصلا بتاتًا إلى هذا الحدِّ.

مغالطة التركيب
Fallacy of Composition
كلُّ جزء من جسد الفيل قد يكون خفيف الوزن، لكنَّ هذا لا يعني أنَّ جسدَ الفيل خفيف الوزن!

لكنْ فكِّرِ الآن في هذا الأمر بصورةٍ عكسيَّة. افترض أنَّ المشتري وزحل كانا يدوران حول الشمس منذ الأزل. السؤال هنا: أيُّهما سيكون قد أكمل عددَ دوراتٍ أكثر؟ الإجابة هي أنَّ عدد الدورات التي أكمَلَها كلاهما متساوية تمامًا: فهي عددُ دوراتٍ لانهائيَّة في الحالتَين! (لا تجعلْ أحَدًا يهربُ من هذه الحجَّة القويَّة بالقول إنَّ اللانهاية ليست رقمًا. في الرياضيَّات الحديثة، اللانهاية رقم، فهي تشكِّلُ عددَ العناصر الموجودة في المجموعة الرياضيَّة {٠، ١، ٢، ٣، ...}

لكنَّ هذه فكرةٌ عبثيَّة، لأنَّه كلَّما دارَ هذان الكوكبان، ازداد اتِّساعُ الفجوةِ ما بينهما. فكيف يمكن إذًا أن يتساوى بصورةٍ سحريَّة عدد الدورات، بمجرَّد القول إنَّهما كانا في مدارهما منذ الأزل السحيق؟



مَثَلٌ آخر: افترض أنَّنا التقَينا شخصًا يزعم أنَّه كان يَعُدُّ منذ الأزل عدًّا تنازليًّا، وأنَّه الآن على وشك الانتهاء: ...-٣، -٢، -١، ٠! أخيرًا! والسؤال الذي سنطرحه هنا: لماذا ينتهي من عدِّه التنازلي اليوم؟ لماذا لم ينتهِ من العدِّ بالأمس أو قبلَ ذلك؟ لأنَّه سيكون فعلًا قد أمضى زمنًا غير محدودٍ في محاولة الانتهاء من العدّ. لو كان هذا الشخص يعدُّ بمعدَّل عددٍ واحد في الثانية، فسيكون قد أمضى عددًا غير محدودٍ من الثواني في محاولة إنهاء العدِّ التنازليّ، ولا بدَّ أن يكون قد انتهى من محاولته قبل ذلك. في الحقيقة، لا بدَّ أن يكونَ هذا الشخص قد أمضى وقتًا لانهائيًّا في الماضي للانتهاء من هذه المحاولة. لكنَّنا مع ذلك عندما نذهبُ إلى أيَّة نقطة زمنيَّة في الماضي سنجد الرجل لم ينتهِ بعدُ من مهمَّته، وهو ما يتناقض مع فرضيَّةِ أنَّه كان يعدُّ منذ الأزل.

كلُّ هذه الصور التشبيهيَّة تدعم ما يطرحه الغزالي حول استحالة وجود سلسلة لانهائيَّةٍ فعليًّا من الأشياء بإضافة أحد عناصرها الواحد تلو الآخر.

وما دامت سلسلةُ أحداث الماضي تكوَّنت بإضافة حدث إلى آخر، فهذه السلسلة لا يمكن أن تكونَ لانهائيَّة بالفعل. لا بدَّ أن تكونَ هناك بدايةٌ لهذه السلسلة. نحن إذًا أمام حجَّة ثانية قويَّة تدعم المقدِّمة الثانية من الحجَّة الكونيَّة المستندة إلى علم الكلام، ألا وهي أنَّ للكون بدايةً.

الحجَّة العلميَّة الأولى: تمدُّد الكون

إنَّ أحَدَ أكثر التطوُّرات إدهاشًا في علم الفلك الحديث، والتي ما كان الغزالي ليتوقَّعها، هو التوصُّل إلى أدلَّةٍ علميَّةٍ قويَّة على وجود بداية للكون. أجل! فالعلم يمدُّنا ببعض الأدلَّة المذهلة على المقدِّمة الثانية في الحجَّة الكونيَّة المستندة إلى علم الكلام. أمَّا الدليل العلميُّ الأوَّل على وجود بداية للكون فمصدره حقيقةُ تمدُّد الكون.

الانفجار العظيم

اعتقد الناس عبر التاريخ أنَّ الكونَ- إجمالًا- لم يكن يتغيَّر. وبحسب ظنِّ هؤلاء، فإنَّ الأشياء الموجودة في الكون كانت تتحرَّك وتتحوَّل، ولكنَّ الكونَ نفسه ظلَّ في مكانه، إذا صحّ التعبير. وكانت تلك قناعة ألبرت أينشتاين أيضًا عندما بدأ تطبيق نظريَّته الجديدة عن الجاذبيَّة، والمعروفة بالنظريَّة النسبيَّة العامَّة، على الكون وذلك في عام ١٩١٧م.

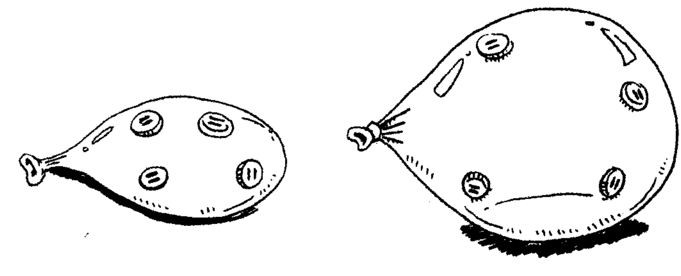
لكنَّ أينشتاين اكتشفَ أنَّ ثمَّةَ شيئًا خاطئًا في اكتشافه ممَّا أثارَ فزعَه. لقد وجد أنَّ معادلاته التي خلصَ إليها إمَّا أنَّها تصف كونًا في طريقه إلى الانفجار كالبالون، وإمَّا كونًا ينهار من داخله. وعندما أصابَه هذا الاكتشاف بالارتباك، حَلَّ أينشتاين هذه المعضلة بتعديل معادلاته على نحوٍ يُخفي هذا الكشف، مضيفًا حدًّا جديدًا في المعادلة يحفظ به للكون توازنَه ما بين الاحتمالين: الانفجار من خارج أو الانفجار من داخل.

ناقش

باعتقادك، ما الأسباب التي جعلَتْ أينشتاين يبدو غير مستريح لفكرة أنَّ الكون لم يكن في حالةِ ديمومةٍ بل كان مُتغيِّرًا؟

وإبَّان عشرينيَّات القرن العشرين قرَّر كلٌّ من عالم الرياضيَّات الروسيِّ ألكسندر فريدمان (Alexander Friedman) وعالم الفلك البلجيكيِّ جورج لوميتر (Georges Lemaitre) أن يلتزما مَعادَلات أينشتاين كما هي. ونتيجةً لذلك توصَّلا- كلٌّ على حِدَة- إلى تصوُّرات عن تمدُّد الكون. وفي عام ١٩٢٩م، وضعَ عالم الفلك الأميركيُّ إدوين هَبل (Edwin Hubble) ملاحظاتٍ فلكيَّةً مستفيضةً باستخدام مرصد ماونت ويلسون (Mount Wilson)، وتوصَّل بها إلى اكتشافٍ مذهلٍ أثبتَ فيه صحَّة النظريَّة التي كان قد توصَّل إليها فريدمان ولوميتر. لقد وجد أنَّ الضَّوءَ الآتي من المجرَّات البعيدة بدا أكثر حُمرةً ممَّا يُتوَقَّع. والاحتمال الأكبر وراء تغيُّر حُمرة الضوء هو تمدُّد الموجات الضوئيَّة نتيجةً لابتعاد المجرَّات عنَّا. أينما وَجَّه هَبل تليسكوبَه في أيَّة جهةٍ من السماء، كان يلاحظ التغيُّرَ نفسَه في درجة الحُمرة في الضَّوء الآتي من المجرَّات البعيدة. وبناءً على هذه الملاحظة، بدا أنَّنا في قلبِ انفجارٍ كونيٍّ، وأنَّ كلَّ المجرَّاتِ تسبَحُ في الفضاء بعيدًا عنَّا بسرعاتٍ فائقة!

لكنْ وَفقًا لتصوُّر فريدمان-لوميتر، فإنَّنا لسنا في مركَز الكون. ويستطيعُ أيُّ مراقبٍ في أيَّة مجرَّة حولنا أن يرى المجرَّات الأخرى وهي تندفعُ بعيدًا عنه. وسبب ذلك، وَفقًا للنظريَّة، هو أنَّ الفضاءَ نفسَه هو الذي يتمدَّد، ولا يحدثُ شيءٌ للمجرَّات نفسها، ولكنَّها تتراجع إحداها عن الأخرى في الوقت الذي يتمدَّد فيه الفضاء نفسه. حتَّى تتمكَّنَ من إدراك تلك الفكرة الصعبة، تخيَّل بالونًا عليه مجموعةٌ من الأزرار الملصَقة به (انظر الشكل ١). هذه الأزرار ملصَقة بسطح البالون، لذا فهي لا تتحرَّك على هذا السطح. غير أنَّك عندما تنفخُ هذا البالون، فستجد أنَّ هذه الأزرارَ يبتعد أحَدُها عن الآخر بصورةٍ متدرِّجة؛ لأنَّ حجمَ البالونِ يتزايد بالتدريج. لاحظ عدم وجود مركَز على سطح البالون (هناك مركَز داخل البالون، ولكنَّ تركيزنا ينحصر هنا على سطح البالون). وإذا افترضنا وجود مراقِبٍ يقفُ على أيٍّ من هذا الأزرار، سيتصوَّرُ أنَّه في مركَزِ البالون؛ لأنَّه عندما ينظر حوله سيجدُ كلَّ الأزرار تبتعد عنه.



الشكل (١)

ويمثِّلُ السطح ثنائيُّ الأبعاد للبالون صورةً للفضاء ثلاثيِّ الأبعاد، كما تمثِّل الأزرار صورةً للمجرَّات الموجودة في الفضاء. وكما ذكرنا، فالمجرَّات نفسها لا تتحرَّك، بل تتزايد المسافة بينها؛ لأنَّ الفضاء نفسه يتمدَّد. وكما لا يوجد مركَز على سطح البالون، لا يوجد مركَز أيضًا على سطح الكون.

لاحقًا عُرِف النموذج الذي وضعه كلٌّ من فريدمان ولوميتر بنظريَّة الانفجار العظيم، ولو بدا أنَّ التسميةَ مضلِّلةٌ. فأن نتصوَّرَ تمدُّدَ الكون بوصفه نوعًا من الانفجار ربَّما يضلِّلنا ويدفعنا للاعتقاد أنَّ المجرَّات تتحرَّك فعلًا بعيدًا عن مركَزِ الكون في اتِّجاه فضاءٍ خاوٍ موجودٍ مسبَّقًا. وهذا التصوُّر ليس إلَّا سوءَ فهمٍ كاملًا للنموذج الذي وضعه فريدمان ولوميتر. لم يحدُثِ الانفجارُ العظيمُ في لحظةٍ ما في فضاءٍ خاوٍ موجودٍ مسبَّقًا.

(ربَّما تقول لي هنا: "وماذا عن المركَزِ الموجود داخل البالون؟" وهنا أذكِّرُك أنَّ المشابَهةَ هنا هي ما بين **سطح** البالون والفضاء. فقد تصادَفَ أنَّ السطح ثنائيَّ الأبعاد للبالون موجود داخل عالم ثلاثيِّ الأبعاد ويتمدَّد داخله. أمَّا في النموذج الذي وضعه فريدمان ولوميتر، لا يوجد عالم رباعيُّ الأبعاد يتمدَّد داخله فضاؤنا ثلاثيُّ الأبعاد. لذا فليس هناك ما يتوازى مع الفضاء الموجود داخل البالون أو خارجه).

ناقش

إذا حسبنا أنَّ تسميةَ "الانفجار العظيم" مُضلِّلة، فلماذا شاعَتْ في تصوُّرك؟ ما الاسم الأفضل للنظريَّة باعتقادك؟

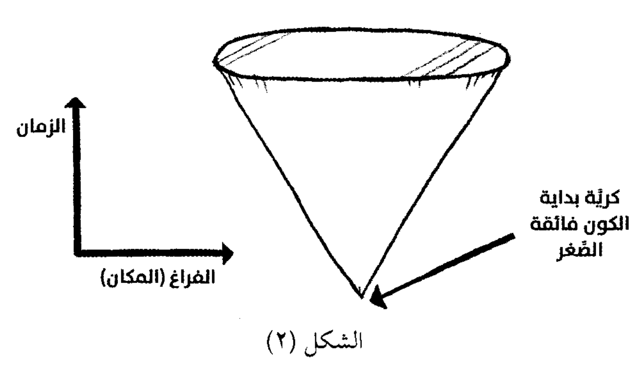
لذا يجب ألَّا نظنَّ خطأً أنَّ الانفجار العظيم هو انفجار كُريَّةٍ فائقةِ الكثافة من المادَّة داخل فضاءٍ خاوٍ. نظرية الانفجار العظيم أكثر راديكاليَّة من ذلك.

حاول التفكير في أنّ الفراغَ يتوسَّع الآن بينما تقرأ هذا الكتاب.

بداية الزمن

كلّما تتبَّعتَ تمدُّدَ الكون وكيف تطوَّر رُجوعًا بالزمن إلى الوراء، وجدتَ أنَّ عناصر الكون تزدادُ اقترابًا أحدها من الآخر. إنْ تصوَّرنا أنَّه ليس للبالون المُشار إليه حدٌّ أدنى في حجمه؛ وفي وُسعِه أن ينكمش بالتدريج بصورة متزايدة، لوجدنا أنَّ المسافة ما بين أيِّ نقطتَين على سطحه ستنكمش هي الأخرى لتصلَ إلى الصفر. ووَفقًا لنموذج فريدمان-لوميتر، فإنَّ هذا ما يحدُثُ للفضاء كلّما رجعتَ به في الزمن إلى الوراء، حيث تصيرُ المسافةُ ما بين أيِّ نقطتَين فيه صفرًا. وعندئذٍ لن تجدَ أقصرَ من تلك المسافة ما بين نقطتَين. وعند تلك النقطة، ستجد أنَّك وصلتَ إلى النقطةِ التي بدأ منها الزمان والمكان، إذ لا يمكن أن يتجاوزَ الزمان أو المكان تلك النقطة إلى ما هو أبعد من ذلك. وتلك النقطة ستكون هي حرفيًّا بداية الزمان والمكان.

وحتّى نستطيعَ أن نتصوَّرَ ذلك، يمكن تمثيل الفضاء ثلاثيِّ الأبعاد بسطح ثنائيِّ الأبعاد ينكمش كلّما رجعنا في الزمن إلى الوراء (الشكل ٢).



الشكل (٢)

نهاية هذا الرجوع في الزمن إلى الوراء هو بلوغُ المسافة ما بين أيِّ نقطتَين في الفضاء إلى حدِّ الصفر. لذا فيمكن تمثيلُ المكان-الزمان هندسيًّا بصورة مخروط. الأمر الدالُّ في المخروط أنه يمكن أن يتمدَّد بلا حدود في أحد اتِّجاهاته، فيما يحتفظ بحدٍّ ثابت في الاتِّجاه الآخر. ولأنَّ هذا الاتِّجاه يمثِّل الزمن الذي يقع حدُّه في الماضي، فإنَّ النموذج يشيرُ إلى أنَّ الزمنَ الماضيَ محدودٌ

وله بداية. وبحسبان أنَّ الزمان-المكان (أو الزمكان) هما الدائرة التي تتشكَّلُ وتوجد فيها المادَّة والطاقة، فإنَّ بداية الزمان-المكان هي أيضًا بداية المادَّة والطاقة، وهي نفسها بداية الكون.

لاحظ أنَّه ليس هناك حدٌّ سابقٌ للحدِّ الأوَّل للزمان-المكان (الزمكان). ولا ننخدِعَنَّ بالكلمات هنا. عندما أقول "لا يوجد شيء سابق لهذا الحدِّ الأوَّل"، فلا أقصد هنا وُجودَ وضع أو حالةٍ ما سابقة لهذا الحدّ، وأنَّ هذا الوضع هو "العدم". إنْ قلتُ ذلك، فإنَّه يعني أنِّي أعتقد أنَّ "العدم" هو "شيء" موجود! كلُّ ما أقصده بذلك هو أنَّه عند هذا الحدِّ لا يصحُّ القَولُ إنَّ "هناك شيئًا موجودًا سابقًا له".

وهكذا فإنَّ نموذجَ الانفجار العظيم يصلُ إلى نتيجة مفادها أنَّه كانت هناك بداية للكون. إنْ صحَّ هذا النموذج في تصوُّره، سنجد أمامنا برهانًا علميًّا مذهلًا لصحَّة المقدِّمة الثانية من الحُجَّة الكونيَّة المستندة إلى علم الكلام.

هل نموذج الانفجار العظيم صحيح؟

هل هذا النموذج صحيح فعلًا؟ والأهمُّ من ذلك، هل هو صحيح في استنتاجه وجودَ بداية للكَون؟ لقد رأينا حقًّا أنَّ ازديادَ حُمرةِ الضَّوء المنبعثِ من المجرَّات البعيدة يقدِّم إلينا دليلًا قويًّا على الانفجار العظيم. فضلًا عن ذلك، فإنَّ أفضَلَ تفسيرٍ لوفرة بعض العناصر الخفيفة في الكَون، مثل الهيليوم، هو أنَّ هذه العناصر تكوَّنت بواسطة انفجارٍ ذي كثافة كبيرة وحرارة عالية جدًّا. أخيرًا، فإنَّ اكتشافَ كتلةٍ هائلةٍ في خلفيَّة الكون من الإشعاع المتكوِّن من موجات دقيقة (Cosmic Background of Microwave Radiation)- هذا الأمرُ الذي اكتُشِفَ في عام ١٩٦٥م- لا يمكن تفسيره إلَّا بحسبانِ هذه الإشعاعات من البَصماتِ التي تركت أثرها من الانفجار العظيم.

ورغم ذلك، فإنَّ نموذج الانفجار الكبير بصورته القياسيَّة يحتاجُ إلى تعديل في نواحٍ مختلفة. وكما رأينا، فإنَّ هذا النموذج يستند إلى نظريَّة النسبيَّة العامة

القديس أغسطينوس

لماذا لم يخلِقِ الله العالم مبكِّرًا عن اللحظة التي خلقَه فيها؟ في بدايات القرن الرابع للميلاد، رأى القدِّيس أغسطينوس أنَّ الله لم يخلِقِ الكونَ في لحظةٍ من الزمن، ولكنَّه خلقَه بصورة "متزامنة مع الزمن". معنى ذلك أنَّه رأى أنَّ الله خلقَ الزمانَ والمكانَ معًا. وتوصَّلَ المتخصِّصون في علم الكون الحديث إلى قناعةٍ مفادُها أنَّ أغسطينوس كان على صواب في ما يتعلَّق بالزمان والمكان، لذا فمن السُّخفِ أن نطرحَ السؤالَ حول إمكانيَّةِ حدوث الانفجار العظيم باكرًا؛ لأنَّ الزمن لم يكن موجودًا أصلًا قبل هذه اللحظة.

"في البداية تردَّد المجتمع العلميُّ كثيرًا في قبوله لفكرة ولادة الكون".

"إنَّ نظريَّة الانفجار العظيم تتَّسقُ ليس فقط مع الرؤية المسيحيَّة-اليهوديَّة للعالم، وهي رؤيةٌ تؤمن بوجود بداية للكون، بل تستدعي هذه النظريَّة أيضًا وجود فعلِ خلقٍ فائق للطبيعة أحدث هذه البداية..."

"كان المجتمع العلميُّ يحتاجُ إلى الوقت، والأدلَّة القائمة على الملاحظة، والبرهنة الدقيقة للاستنتاجات- حتَّى يقبل فكرة تكوين الكون".

"يمثِّلُ الانفجار العظيم نموذجًا ناجحًا جدًّا... فرضَ نفسَه بقوَّة على المجتمع العلميِّ الذي كان متردِّدًا في قبوله".

جاي. أم. ويرسينغر (J. M. Wersinger)، أستاذ مشارك في علم الفيزياء، جامعة أوبرن (Auburn University)

لأينشتاين. لكنَّ نظريَّة أينشتاين تتهاوى أمامَ فكرة انكماش الفضاء حتَّى يصل إلى أبعاد "دون ذرِّيَّة". وهنا سنحتاج لأن نُدرِج في نقاشنا الفيزياء دون الذرِّيَّة، ولا يعرف أحد كيف يمكن عمل ذلك. علاوةً على ذلك، فإنَّ تمدُّدَ الكون قد لا يحدثُ بمعدَّلٍ ثابتٍ كما يقول النموذجُ القياسيُّ لنظريَّة الانفجار العظيم؛ فالأمر المحتمل هو أنَّ هذا التمدُّدَ يتسارع الآن، وربَّما يكونُ قدَ وقع بصورةٍ فائقةِ السرعة، ولمدَّةٍ وجيزة في الماضي.

لكنَّ هذه التعديلات في النموذج لا تؤثِّر في الاستنتاج الجوهريِّ القائل إنَّ هناك بدايةً كاملةً للكَون. وقد قدَّم الكثير من الفيزيائيِّين، في حقيقة الأمر، العشرات من النماذج البديلة على مدار العقود الماضية، منذ أن وضعَ فريدمان ولوميتر نموذجهما، وثبت عدم صحَّة كلِّ النماذج التي لم تُدرِج فكرة وجود البداية الكاملة للكَون. قد لا تشمل هذه البداية وجود نقطة زمنيَّةٍ محدَّدةٍ لبداية الكون في بعض هذه النماذج. هناك نظريَّات (مثل اقتراح ستيفن هوكنغ بخصوص "عدم وجود حدٍّ زمنيّ") لا تشير إلى وجود نقطة زمنيَّة محدَّدة، ومع ذلك فهي تؤكِّد محدوديَّة الماضي. لكنَّ الأمرَ لهذه النظريَّات هو أنَّ الكونَ لم يكن موجودًا منذ الأزل، بل خرج إلى الوجود، حتَّى لو لم يحدُثْ ذلك عند نقطة زمنيَّةٍ محدَّدة.

بمعنًى من المعاني، يمكن النظر إلى تاريخ علم الكون (الكوزمولوجيا) في القرن العشرين بوصفه سلسلةً من المحاوَلات النظريَّة الفاشلة- الواحدة تلو الأخرى- التي سعت إلى تجاهل فكرة البداية الكاملة التي استنتجتها نظريَّة الانفجار العظيم. والانطباع الذي قد يتركُه علم الكون في أذهان غير المتخصِّصين، للأسف، هو أنَّ هذا العلم في تحوُّلٍ دائم، ولا تَثبُتُ نتائجُه على حال. وما لا يستوعبه غير المتخصِّص هو أنَّ هذه المجموعة من النظريَّات المتهافتة إنَّما **تؤكِّد** الاستنتاج الأساسيَّ الذي خرج به نموذج الانفجار العظيم عن بداية الكون. وبعد مرور أكثر من ثمانين عامًا يظلُّ هذا الاستنتاج ثابتًا، وذلك على مرِّ حقبةٍ شهدَتْ تطوُّراتٍ هائلةً في علم الفلك القائم على

المُلاحظة، فضلًا عن الإسهامات النظريَّة المُبدعة في علم الفيزياء الفلكيَّة.

وحقيقة الأمر أنَّ عام ٢٠٠٣م يمثِّلُ نقطةً فاصلةً في تاريخ هذا الجدل، حيث استطاع ثلاثة من كبار العلماء، هم أرڤيند بورد (Arvind Borde)، وآلان غوث (Alan Guth)، وألكسندر ڤيلنكِن (Alexander Vilenkin)، أن يُثبِتوا أنَّ أيَّ كَونٍ من الأكوان ظلَّ يتمدَّد عبر تاريخه لا يمكن أن يكونَ لامُتناهيًا، بل يجب أن يكونَ له حدٌّ زمكانيٌّ (من الزمان والمكان).

وما يجعل الأدلَّة التي قدَّمها هؤلاء العلماء قويَّة ومحكَمةً هي صحَّتها بغضِّ النظر عن الوصف المادِّيِّ للكون في بدايَته الباكرة. ولأنَّنا لا نستطيع بعدُ تقديم وصفٍ مادِّيٍّ للكَون في بداياته الباكرة، فإنَّ هذه المرحلة الوجيزة من عمر الكون كانت تربةً خصبةً لكثيرٍ من التصوُّرات والتخمينات. أحَدُ العلماء رأى مشابهةً ما بين تلك الحالة الأولى للكون والمناطق الموجودة على الخرائط القديمة التي كُتِب عليها "هنا يسكن الديناصورات!"- وهي مرحلة يمكن أن يملأَها المرءُ بكلِّ أشكال التصوُّرات الخياليَّة. لكنَّ النظريَّة التي وضعها بورد، وغوث، وڤيلنكِن لا ترتبط بالوصف المادِّيِّ لهذه اللحظة من عمر الكون، بل تشير إلى أنَّه حتَّى لو كان الكونُ الذي نعيش فيه هو مجرَّد جزء متناهي الصغر مِمَّا يعرف بمفهوم الأكوانِ المتعدِّدة، فإنَّ لهذه الأكوان المتعدِّدة بدورها بدايةً كاملةً بدأتْ منها. يقول ڤيلنكِن صراحةً في حديثه بشأن نتائج النظريَّة التي أسهم في وضعها:

> "يقالُ إنَّ الحُجَّة هي ما يُقنعُ كلَّ ذي عقل، وإنَّ الدليل هو ما يحتاجُ إليه المرءُ ليُقنع مَن يفتَقرون إلى العقلانيَّة. وما دُمنا أمامَ هذا الدليل، فلا يسوغ لعلماء الكون (الكوزمولوجيا) أن يُخفوا رؤوسهم وراء احتماليَّة وجود كون أزليٍّ في الماضي. لا مهربَ لهؤلاء العلماء من تلك المشكلة التي عليهم مواجهتُها، وهي بداية الكون".

الأكوان المتعدِّدة (Multiverse)

يرى بعض المتخصِّصين في علم الكون أنَّ الكونَ المنظورَ كما نعرفه هو مجرَّدُ فقَّاعة تتمدَّد داخل بحر هائل من الطاقة أضخم منها، بينما يتمدَّد هذا البحر أيضًا بدَوره. وعلى أساسِ أنَّ هذا الكِيانَ الضخم يضمُّ داخله العديد من الفقَّاعات الأخرى، علاوةً على فقَّاعة الكون الذي نعيش فيه، فعادةً ما نسمِّي هذا بالأكوان المتعدِّدة. كذلك فإنَّ نظريَّة بورد- غوث- ڤيلنكِن تنطبق على مفهوم الأكوان المتعدِّدة إجمالًا، وليس فقط على الفقَّاعات الأصغر التي توجد داخله. ومن ثَمَّ. حتَّى لو كانت هناك أكوان متعدِّدة، فهي لا يمكن أن تكون أزليَّة، ولا بدَّ أن تكون لها بداية. وسنعود مرَّة أخرى في الفصل التالي إلى سؤال ما إذا كانت هناك أكوان متعدِّدة أم لا.

ولن نستغرب بتاتًا ظُهورَ نظريَّاتٍ جديدةٍ تسعى إلى تجاهُل حقيقة وجود بداية للكون. وإنْ كانت هذه الأفكار الجديدة مَوضعَ ترحيبٍ، إلَّا أنَّنا لا نملكُ من الأسباب ما يضمَنُ إثبات صحَّتها ونجاحها، كما كانت حال سابقاتها من النظريَّات المتهافتة. النتائج العلميَّة هي مبدئيَّةٌ وقابلةٌ للتغيُّر. ورغم ذلك يتبدَّى لنا بوضوح ما تدلُّ عليه الأدلَّة المتوافرة لدينا. وفي الوقت الحاضر يقفُ المدافعون عن الحُجَّة الكونية المستندة إلى علم الكلام بكلِّ ثقةٍ مُمسِكين بالدليل العلميِّ المعروف، الذي يشير إلى أنَّ للكون بدايةً خرج بها إلى الوجود.

الحُجَّة العلميَّة الثانية: الديناميكا الحراريَّة للكَون

تكفينا الحجَّة العلميَّة الأولى لإثبات صحَّة الاحتمال القائل بوجود بداية للكون، ومع ذلك فهناك برهانٌ علميٌّ آخر يؤكِّد ذلك، وهو يأتي هذه المرَّة من القانون الثاني للديناميكا الحراريَّة. ووفقًا للقانون الثاني في الديناميكا الحراريَّة، فإنَّه إن لم تجدِ الطاقة طريقها إلى نظامٍ ما، فإنَّ هذا النظام ستصيبه الفوضى بازدياد. مثلًا، إنْ كانت لديك زجاجة فارغة ومغلقة، ثمَّ ضخخت فيها جُزَيئاتٍ من الغاز، فإنَّ هذا الغازَ سيتوزَّع بالتَّساوي داخل الزجاجة.

احتمالات تجمُّع جزيئات الغاز في ركنٍ واحدٍ من الزجاجة تكاد تكون معدومة. وسبب ذلك أنَّ احتمالات توزُّع هذه الجزيئات داخل نظام فوضَويٍّ تزيد عنها إن كان النظام في حالة انتظام.

نهاية العالم

منذ القرن التاسع عشر والعلماء مدركون أنَّ للقانون الثاني من الديناميكا الحراريَّة نتائجَ لا تبعث على التفاؤل في ما يتعلَّق بمستقبل الكون. فبمرور الزمن، ستنتشرُ الطاقةُ الموجودةُ في الكون بالتساوي في أرجاء الكون كلِّه، تمامًا كما انتشر الغاز بالتَّساوي داخل الزجاجة. وعند هذه اللحظة سيصيرُ الكون أشبهَ بحساء دون مَعالم، وتستحيل فيه إمكانيَّة الحياة. وعندما يصل الكون

قوانين الديناميكا الحراريَّة

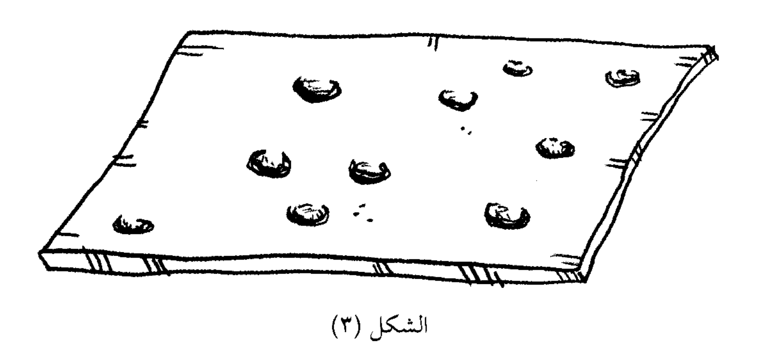
أُنشئَ علم الديناميكا الحراريَّة على إسهامات عالم الفيزياء الألمانيِّ رودولف كلوسيوس (Rudolf Clausius)، وعاشَ في الفترة ما بين ١٨٢٢ و١٨٨٨م، والذي يُنسَب إليه وَضْعُ القانون الثاني للديناميكا الحراريَّة. هناك ثلاثة قوانين أساسيَّة للديناميكا الحراريَّة: حيث يقولُ القانون الأوَّل إنَّ الطاقة الموجودة في أيِّ نظام فيزيائيٍّ لا تُفنى ولا تُستَحدَث، بل تتحوَّل من شكلٍ إلى آخر. ويعرف هذا القانون بحِفْظ الطاقة. أمَّا القانون الثاني فيقول إنَّ أيَّ نظام مغلق يميل إلى تزايد الفَوضى داخله أو تزايد القصور الحراريِّ حتَّى يصل إلى حالة التوازن ما بين درجة الحرارة والضغط. ويقول القانون الثالث إنَّه عندما يقتربُ النظام الفيزيائيُّ عندما يقترب من درجة الصفر المطلق، فإنَّ قصورَه الحراريَّ يقترب من أدنى قيمة.

إلى هذه الحالة، ستنعدم إمكانيَّة حدوث أيِّ تغيير؛ إذ يصل الكون إلى حالة التوازن التي تتعادل عندها درجة الحرارة مع الضغط في كلِّ أرجاء الكون. ويطلق العلماء على هذه الحالة "الموت الحراريُّ" (Heat death) للكون.

غير أنَّ هذا التوقُّعَ المشؤومَ أثارَ لغزًا آخر: أنَّ الحالة الحتميَّة للكون هي الموت الحراريُّ بعد مرور مدَّةٍ من الزمن، فلماذا لم يصل الكون الآن إلى حالة الموت الحراريُّ إن كان الكون أزليًا في الحقيقة؟ إنْ كان مرور زمن معيَّن من عمر الكون من شأنه أن يؤدِّي به إلى الوصول إلى حالة التوازن تلك؛ وإنْ افترضنا أنَّ الكونَ موجود منذ الأزل، فالمفترض أن يكونَ قد وصل الآن إلى هذه الحالة من التوازن بين الحرارة والضغط، والتي تؤدِّي إلى الموت الحراريّ. لكنَّ ذلك لم يحدُثْ. الكونُ لم يصل إلى هذه الحالة، والطاقة ما زالت متاحةً للاستخدام، وما زال الكون بناءً متَّسقًا كالزجاجة الفارغة.

فرضيَّة العوالم المتعدِّدة عند بولتزمان

طرح عالم الفيزياء الألمانيُّ لودفيغ بولتزمان (Ludwig Boltzmann) الذي عاشَ في القرن التاسع عشر حلًّا جريئًا لهذه المعضلة. فقد رأى أنَّ الكون، إجمالًا، يحتملُ فعلًا أن يكونَ في حالة توازن. ومع ذلك، فبالصدفة وحدها سينشأ عدد متزايدٌ من جيوب عدم التوازن الحراريِّ في أماكن عدَّة في الكون بما يحفظ الاتِّساقَ والنظام فيه (انظُرِ الشكلَ ٣). ويشير بولتزمان إلى هذه المناطق المعزولة التي تحفظ عدم التوازن الحراريِّ بوصفها "عوالم". وكوننا هذا- وَفقًا



الشكل (٣)

لبولتزمان- ليس سوى واحدٍ من هذه العوالم. لكنْ في المحصلة النهائيَّة، فإنَّ الكونَ سيرتدُّ إلى حالة التوازن التي تؤدِّي إلى الموت الحراريِّ، وَفقًا للقانون الثاني من الديناميكا الحراريَّة.

إلَّا أنَّ علماء الفيزياء المعاصرين رفضوا بالإجماع فرضيَّة بولتزمان حول العوالم المتعدِّدة، والتي قصد بها تفسير حالة عدم التوازن بين الحرارة والضغط الموجودة في الكون. والخطأ القاتل في هذه الفرضيَّة هو أنَّه لو كان عالمنا مجرَّدَ نتاجِ تغيُّرٍ حدثَ بالصدفة من حالة التوازن الكامل، فيعني هذا أنَّنا يجب أن نجدَ أمامَنا نظامًا كونيًّا منتظمًا ومصطفًّا أصغر بكثير ممَّا نراه الآن. لماذا؟ لأنَّ التغيُّر البسيط من حالة التوازن هو أكثر احتمالًا من حدوث تغيُّر هائل ومستمرٍّ في هذا التوازن على النحو الذي يحتاج إليه الكون الذي نعرفه لكي يُخلق. مثلًا، فإنَّ التغيُّر اللازم لتكوين نظام منتظمٍ ومصطفٍّ لا يزيد في حجمه على حجم المجموعة الشمسيَّة التي نعيش فيها هو ما يكفينا للحياة، واحتمالات حدوث هذا التغيُّر المحسوب أكثر بكثير (وربَّما على نحوٍ يستعصي على فهمنا) من حدوث التغيُّر في التوازن الذي أدَّى إلى تكوين كلِّ هذا الكون المصطفِّ كما نعرفه!

إذا سلَّمنا بالفرضيَّة التي يطرحها بولتزمان وبمقدِّماتها، لوصلنا إلى حالةٍ غريبةٍ من الخداع البصريِّ والفكريّ؛ فوَفقًا لهذه الفرضيَّة، نحن نسكنُ بالفعل في نظام صغير منتظمٍ ومصطفٍّ، أمَّا النجوم والكواكب التي نرصدها حولنا، فليست سوى خداعٍ بصريٍّ، أو صورٍ مطبوعةٍ على السماء؛ لأنَّ وجودَ العالم بشكله هذا هو أكثر احتمالًا من كونٍ يتحدَّى القانون الثاني للديناميكا الحراريَّة ليتجنَّبَ حالة التوازن المميتة لبلايين السنة حتَّى ينشأ الكون كما نعرفه.

التوازن

التوازنُ هو الحالة التي تصل فيها كلُّ القوى إلى نقطة الاتِّزان التي لا تستدعي وجودَ أيِّ تغيير. والتوازن الكامل في حالة الكون يعني تلك اللحظة التي تتعادل عندها درجة الحرارة مع الضغط في كلِّ مكان في الكون. وعندما يصل الكون إلى هذه اللحظة، فلن توجَدَ المجرَّات ولا النجوم ولا الكواكب.

سيناريوهات نهاية العالم في الفيزياء المعاصرة

إنَّ اكتشافَ تمدُّدِ الكون في عشرينيَّات القرن العشرين أدَّى إلى تعديل فكرة "الموت الحراريّ" التي كان العلماء قد خلصوا إليها استنادًا إلى القانون الثاني للديناميكا الحراريَّة، وإنْ لم يُغيِّرْ هذا الاكتشاف في القضيَّة الجوهريَّة.

إنْ ظلَّ الكون يتمدَّد إلى الأبد، فلن يصل بتاتًا إلى لحظةِ التوازن؛ لأنَّ حجمَ الفضاء يتزايد باستمرار، مِمَّا يتيح للمادَّة والطاقة مساحة أكبرَ لينتشرا فيها. لكنْ كلَّما تمدَّدَ الكون، استُنفدَتْ طاقتُه المتاحة، واتَّجه نحو البرودةِ والظُّلمةِ، وقلَّت كثافته، واقترب من الموت. وفي النهاية سيصيرُ مجرَّدَ غازٍ قليل الكثافة مكوَّن من جزيئاتٍ دون ذرِّيَّة تتمدَّد باستمرار لتصلَ بالكون إلى حالة الظَلمة الكاملة.

على النقيض من ذلك، إنْ لم يتمدَّد الكون بما يكفي، فإنَّ سرعة التمدُّد ستتناقص حتَّى يتوقَّف تمامًا، ثمَّ تبدأ الجاذبيَّة في جذب كلِّ الأشياء معًا حتَّى يحدث انهيارٌ مروِّع. وفي النهاية سيجتمعُ كلُّ شيء في الكون في ثقبٍ أسوَدَ ضخمٍ لن يعودَ منه الكون إلى سابق حالته.

سواء كانت نهاية العالم هي التجمُّدَ أم الاحتراق، فسيظلُّ السؤال الجوهريُّ قائمًا: إنْ كان مرورُ الزمن كفيلًا بوصول الكون إلى هذه النهاية، فلماذا لم يحدث ذلك للكون حتَّى الآن لو حسبنا أنَّه موجودٌ منذ الأزل؟

بينما نجتاز العقود الأولى من القرن الحادي العشرين، تشير الاكتشافات الحديثة إلى تزايد سرعة التمدُّد الكونيّ. ولأنَّ حجم الفضاء يتزايد بسرعة شديدة، يبتعد الكون أكثر وأكثر عن حالة التوازن التي تتوَّزع فيها المادَّة والطاقة بصورةٍ متساوية في الكون كلِّه. لكنَّ تسارع هذا التمدُّد من شأنه التعجيل بتلاشي الكون؛ لأنَّه سيزدادُ ابتعادُ المناطق المختلفة الموجودة في الكون أحدها من الآخر، وستصيرُ كلُّ منطقةٍ معزولةٍ مظلمةً وباردةً وقليلةَ الكثافة وميتةً. السؤال مرَّة أخرى: لماذا لم تَصِلِ المنطقة التي نسكنُها من الكون إلى هذه الحالة ما دامَ الكونَ موجودًا من الأزل؟

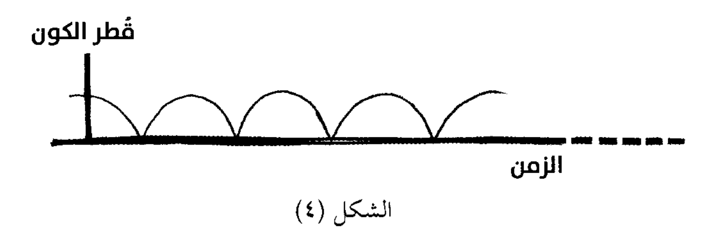
بداية الكون ومحاولات تجنُّبها

النتيجة الواضحة لما سبق هو أنَّ الفرضيَّة التي نطرح على أساسها السؤال هي فرضيَّة خاطئة، والكلامُ هنا هو عن فرضيَّة وجود الكون منذ زمنٍ لانهائيّ.

سيقول معظم الفيزيائيِّين اليوم إنَّ المادَّة والطاقةَ وُضِعتا في الكون بوصفهما شرطًا أوّليًّا لوجوده وإنَّ الكَونَ سار- منذ نشأته قبل زمنٍ محدَّد- في المسار الذي يصفه القانون الثاني للديناميكا الحراريَّة.

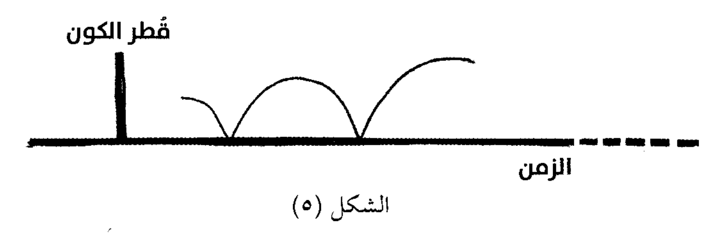
ودون شكّ، كانت هناك محاوَلاتٌ لتجنُّب الحديث بشأن بداية الكون، وهو ما يستند إليه القانون الثاني للديناميكا الحراريَّة. لكنَّ النجاحَ لم يُكتَبْ لأيٍّ من هذه المحاولات.

الأكوان المتذبذبة (Oscillating Universes). إبَّانَ ستِّينيَّات القرن العشرين، حاول بعض المُنظِّرين صياغةَ نماذجَ نظريَّةٍ لدراسة الأكوان تقوم على فكرة التذبذب، التي بموجبها يُنظَر إلى الكون على أنَّه كان يتمدَّد وينكمش، ويعيد الكَرَّةَ مرَّةً أخرى منذ الأزل السحيق (الشكل ٤).



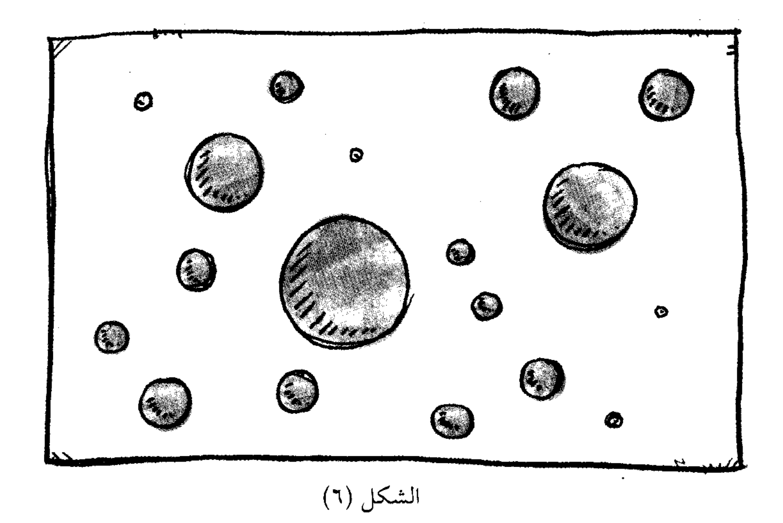
الشكل (٤)

لكنَّ خواصَّ الديناميكا الحراريَّة التي تقوم عليها هذه النماذج النظريَّة أوحت بوجود بداية للكون، حتَّى وإنْ حاولت تجنُّب هذا التصوُّر. إذا تأمَّلنا في هذا النموذج، فسنجد أنَّ القصورَ الحراريَّ سيتراكم بين كلِّ دورة تمدُّد انكماش والدورة الأخرى، ممَّا سيجعل كلَّ دورة أكبرَ وأطوَلَ زمنيًّا من سابقتها (الشكل ٥). ومعنى ذلك أنَّك إذا تتبَّعتَ هذه الدورات رجوعًا بالزمن إلى الوراء، ستجد أنَّها تصغُرُ حتَّى تصل إلى الدورة الأولى وأصل الكون. وفي الواقع، حاول علماءُ الفلك تقديرَ عددِ هذه الدورات استنادًا إلى مستويات الإشعاع الحاليَّة في الكون، فوجدوا أنَّ الكونَ لا يمكن أن يكونَ قد اجتاز ما يتجاوزُ مئةَ دورةٍ سابقة.



الشكل (٥)

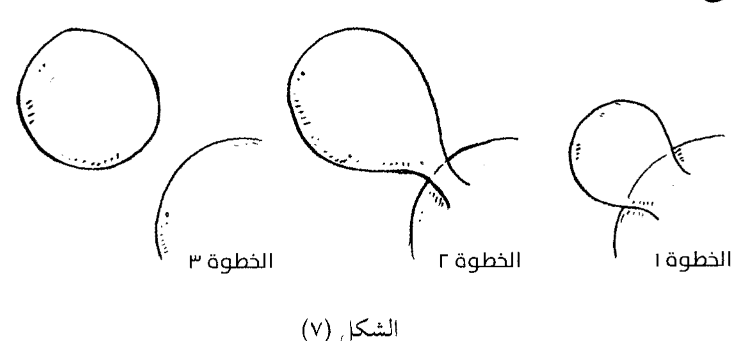
الأكوان الفقَّاعيَّة (Bubble Universes). في الآونة الأخيرة، طرحت بعضُ النظريَّاتِ الأخرى تصوُّرًا عن الكون بوصفه فقَّاعةً داخل كون متعدِّدٍ يضمُّ داخلَه مجموعةً أخرى من الأكوان الفقَّاعيَّة (الشكل ٦). والفرضيَّة هنا أنَّ القانون الثاني ينطبقُ فقط على هذه الفقَّاعات، كلٍّ على حِدة، وليس على الأكوان المتعدِّدة بجملتِها. حتَّى لو صحَّت هذه الفرضيَّة، فلن يُغيِّرَ ذلك شيئًا، فقد رأينا نظريَّة بورد- غوث-ڤيلنكِن التي انطبقت على الأكوان المتعدِّدة، ومع ذلك استدعَتْ وُجودَ بدايةٍ للكون.



الشكل (٦)

أكوان وليدة (Baby Universes). وأخيرًا هناك بعض التصوُّرات التي ترى احتمال أن تكونَ الثقوب السوداء مدخَلَ "ثقوب دوديَّة" (Wormholes) في الزمكان (الزمان والمكان) تتحرَّك فيها الطاقة لتخلقَ أكوانًا وليدة (الشكل ٧). وعندما ينقطع الحبل السُّرِّيُّ ما بين الكون الأمِّ

والأكوان الوليدة، تنفصل عنه وتستقلُّ بنفسها. ووَفقًا لهذا التصوُّر يمكن نقلُ هذا السيناريو إلى الماضي السحيق، ليصيرَ الكون الذي نعيش فيه نتاج نسل لامحدود من الأكوان السالفة.



الشكل (٧)

للأسف، لا يمكنُ أن تثبُتَ صحَّة كلُّ هذا التصوُّرات بعيدًا عن القانون الثاني للديناميكا الحراريَّة؛ فلا يمكن أن تحدثَ العمليَّة المشار إليها في نموذج الأكوان الوليدة بعددٍ لانهائيٍّ زمنيًّا. وعلاوة على ذلك، فإنَّ هذا السيناريو يتناقضُ مع الفيزياء دون الذرِّيَّة (Subatomic physics) التي لا بدَّ بموجبها للمعلومات التي تنتقلُ عبر الثقب الأسود أن تظلَّ أيضًا في الكون. كانت هذه الفكرة موضوعَ رهانٍ ما بين جون بريسكِل (John Preskill) وستيفن هوكنغ (Stephen Hawking)، واضطُرَّ هوكنغ إلى الاعتراف بخسارته في عام ٢٠٠٤م عندما قال: "لا يوجد كونٌ وليدٌ يخرجُ من عالمنا".

لذا فإنَّ الأدلَّة العلميَّة التي تمدُّنا بها الديناميكا الحراريَّة تؤكِّدُ صحَّة المقدِّمة الثانية للحُجَّة الكونيَّة المستندة إلى علم الكلام. وهذه الأدلَّة مبهرة فعلًا، على أساسِ أنَّ الديناميكا الحراريَّة تتمتَّعُ بقُبولٍ وفهمٍ كبيرَين ما بين علماء الفيزياء، حتَّى إنَّها تشكِّلُ الآن مجالًا علميًّا مكتملًا. ومن شأن هذا أن يقلِّلَ من احتمال الوصول إلى نتائج عكسِ ما جرى الوصول إليه.

خاتمة

بناءً على ما سبق؛ واستنادًا إلى الأدلَّة الفلسفيَّة والعلميَّة، فإنَّ لدينا ما يَكفي من المسوِّغاتِ التي تجعلنا نعتقدُ بوجود بداية للعالم خرج من خلالها إلى الوجود. ولأنَّ كلَّ ما يبدأ لا بدَّ من وجودِ عِلَّةٍ سبَّبتْ بدايتَه، فلا بدَّ للكون من عِلَّة وراء وجوده.

هل الكون هو عِلَّةُ وجوده؟

يوافق الفيلسوف الملحد دانييل دَنيت (Daniel Dennett) على أنَّ للكَون عِلَّة وراءه. لكنَّه يعتقد أنَّ عِلَّة وجود الكون هي الكون نفسه! أجل، هو يعني ذلك. يزعم دَنيت أنَّ الكونَ خلقَ نفسَه في ما يُعرف بخدعة "الخلق الذاتي".

ما يقوله دَنيت ليس سوى كلام فارغٍ. لاحظْ هنا أنَّه لا يقول إنَّ الكونَ هو عِلَّة نفسه، بمعنى أنَّ الكون كان موجودًا منذ الأزل، بل يقول إنَّ الكون أخرجَ نفسه إلى الوجود. غير أنَّ هذا مستحيل منطقيًّا؛ لأنَّه حتَّى يستطيع العالم أن يخلقَ نفسه، فلا بدَّ أن يكون موجودًا أوَّلًا- أي أنَّه يجب أن يكون موجودًا قبل أن يوجد. إنَّ وجهة نظر دَنيت غير متَّسقةٍ منطقيًّا.

الخالق- الشخص الذي أبدأ الكون

نستنتج إذًا أنَّ علَّة الكون يجب أن تكون علَّةً متسامية (أو متعالية) على الكون. ويجب ألَّا تُسبِّبَ هذه العِلَّةُ عِلةً أخرى؛ لأنَّنا رأينا استحالةَ وُجودِ سلسلة لامتناهية من العلل. أي أنَّنا يجب أن نبحَثَ عن العلَّة الأولى التي لم تسبِّبها علَّةٌ أخرى. ويجب أن تسموَ على هذه العلَّة الزمان والمكان؛ لأنَّها خلقتْهُما. لذا فيجب أن تكونَ هذه العلَّة بلا كِيانٍ فيزيائيّ (Nonphysical) وغير مادِّيَّة أو روحانيَّة (Immaterial)، بمعنى أنَّها غير جسديَّة. كما يجب أن تملك من القوَّة ما يصعب تصوُّره؛ لأنَّها خلقت المادَّة والطاقة.

وأخيرًا، لا بدَّ لهذه العلَّة أن تكون كِيانًا شخصيًّا. وكُنَّا قد رأينا سببًا يؤدِّي

التفكير الشرقيّ

يرفض بعض الأشخاص ما نطرحه هنا من حُجَّةٍ منطقيَّة على أساسِ أنَّها مثَلٌ على طريقةِ التفكير الغربيَّة. ويقول هؤلاء إنَّ الناس في الشرق ينظرون إلى ما هو أبعد من حواجز المنطق في سَعيِهم نحو الاستنارة. لاحِظْ هنا أنَّ الغزالي كان من بلاد فارس (إيران اليوم)، وأنَّ الهند اليوم تخرِّج أعدادًا هائلة من العلماء والمهندسين الذين يستخدمون قواعد المنطق والأدلَّة العلميَّة ذاتها التي استخدمناها في نقاشنا. ما الأسباب التي تجعل العديد من الغربيِّين ينجذبون إلى الأنظمة العقائديَّة التي لا تقوم على المنطق كالبوذيَّة؟

بنا إلى هذه النتيجة في الفصل السابق. ولا يوجد ما ينطبق عليه هذا الوصف السابق سوى "العقل" (Mind) لنصِفَ به العلَّة الأولى.

فلأشاركْ وإيَّاكم سببًا آخرَ يقدِّمه الغزالي في سياق تأكيده أنَّ العلَّة الأولى لا بدَّ أن تكونَ شخصًا: تلك هي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن نفهمَ بها ونفسِّرُ وجودَ علَّة لا تخضعُ للزمن، ولديها القدرة على إحداث أثرٍ في الزمن له بداية واضحة كما هي الحال مع الكون.

ألخِّص المشكلة في الآتي: إنْ كانت العلَّة كافيةً لإحداث أثر، إذًا يجب أن يكونَ الأثرُ باديًا لنا كما أنَّ العلَّة باديةٌ أمامنا أيضًا. مثلًا، تتجمَّد المياه عندما تصل درجة الحرارة إلى ما دون الصفر المئويّ، ومن ثَمَّ فإنَّ علَّة التجمُّد هي انخفاضِ درجة الحرارة إلى ما دون الصفر. وإنْ كانت الحرارة دائمًا عند درجة الصفر، فإنَّ المياه لا بدَّ أن تكونَ متجمِّدةً منذ الأزل. يستحيل أن تبدأ المياهُ في التجمُّد منذ زمنٍ محدود. فكِّر معي الآن: علَّة خلق الكون كانت موجودة دائمًا؛ لأنَّها خارج الزمن. لماذا لا يوجَدُ الكونُ منذ الأزل تمامًا مثل العلَّة التي أوجَدَتْه؟ لماذا خرج الكونُ إلى الوجود منذ ١٣,٧ بليون سنة فقط؟ لماذا لم يكن الكون في حالة ديمومة تمامًا مثل العلَّة التي أوجدته؟

هنا يقول الغزالي إنَّ الإجابة عن هذه المعضلة تكمن في أنَّ هذه العلَّة كِيانٌ شخصيٌّ يملك إرادةً حرَّة. وهذا الكِيانُ الشخصيُّ بخلقه للكون إنَّما كان يمارس فعلًا حرًّا ومستقلًّا عن كلِّ شروطٍ مسبَّقة. لذا فإنَّ فعل الخلق الذي قام به كان تلقائيًّا وجديدًا من نوعه. والحجَّة على هذا النحو تؤدِّي بنا ليس فقط إلى فكرة العلَّة المتجاوزة للكون، بل تصلُ بنا أيضًا إلى وجود الخالق-الشخص.

من وجهة نظري، إذًا، أنَّ الله موجود بالاستقلال عن الكون؛ لأنَّه خارج الزمن ولا يخضع للتغيير. وفعل الخلق الحرّ الذي قام به تزامن مع بداية وجود الكون. ومن ثَمَّ فإنَّ الله يدخل الزمن بالخلق؛ أي أنَّه فوق الزمن دون وجود الكون، وداخل الزمن عند الخلق.

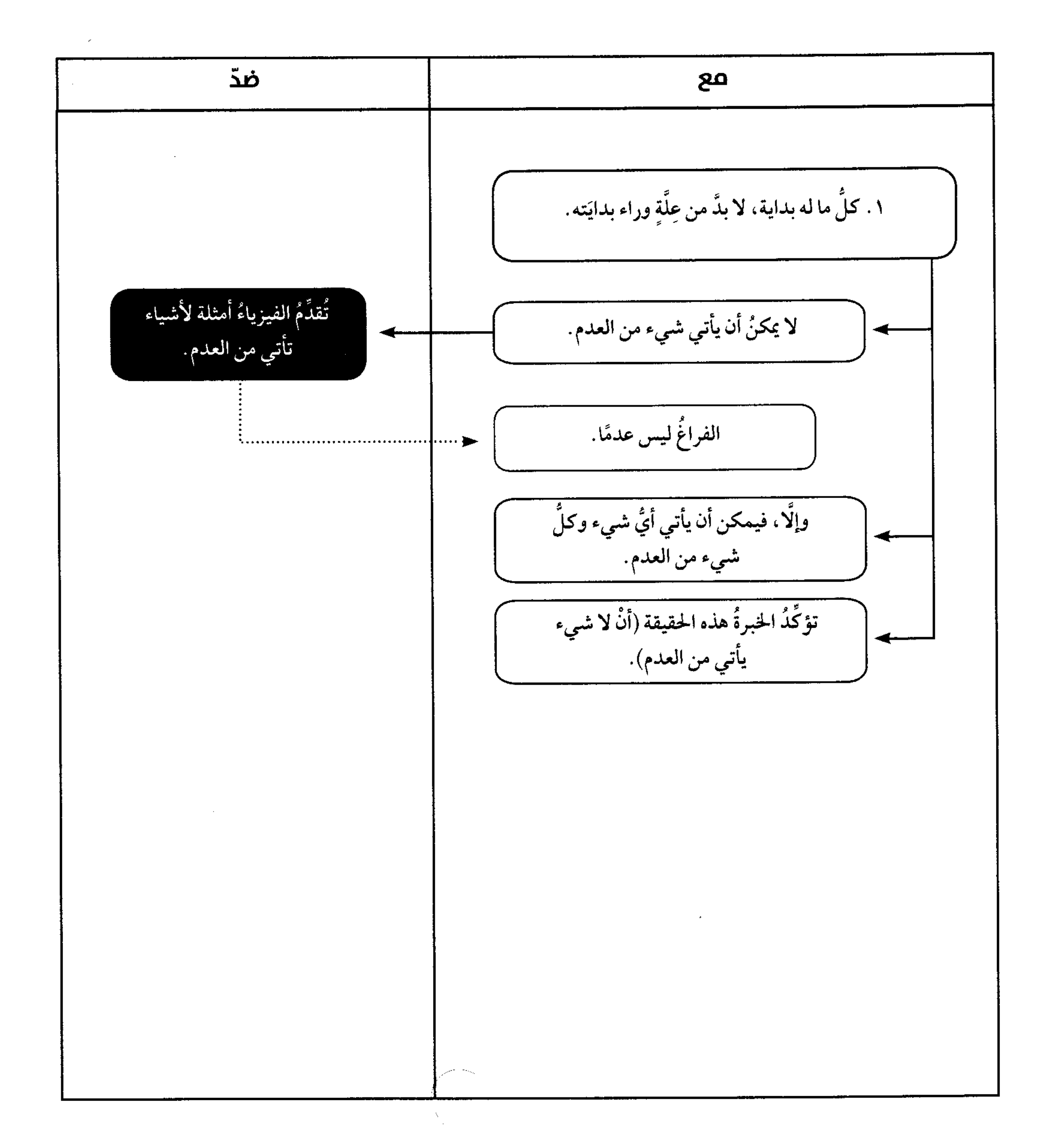
وهكذا، فإنَّ الحجة الكونيَّة المستندة إلى علم الكلام تمنحنا أساسًا قويًّا للإيمان بوجود خالقٍ شخصٍ، لا بداية له، ولا علَّة تسبِّبه، وهو فوق الزمان، وخارج حيِّز المكان، لا يتغيَّر، كما أنَّه غير مادِّيٍّ، ويملك قوَّةً هائلة.

ناقش

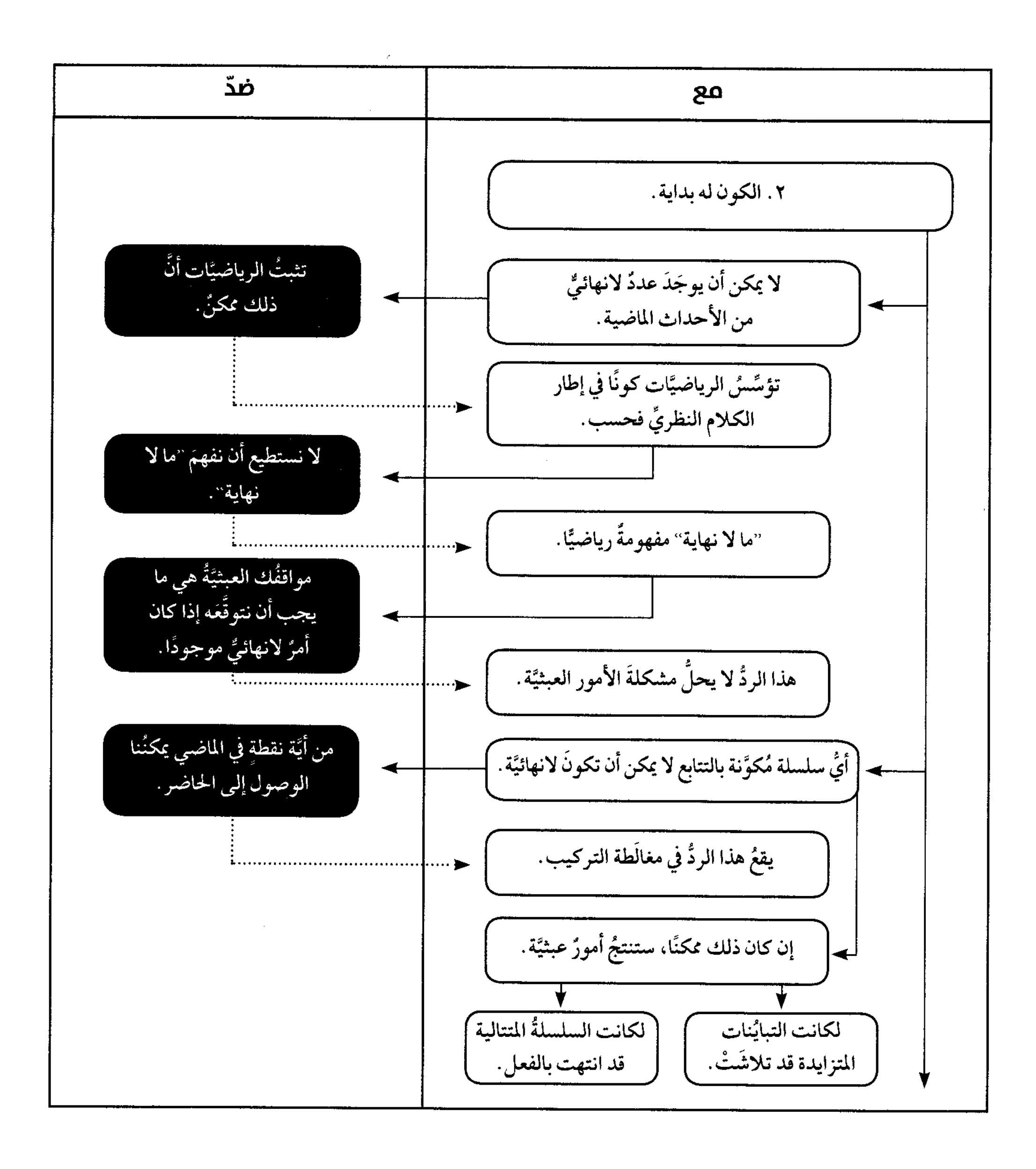
ما الأسباب التي تجعل اللاهوتيِّين يجهَلون الحُجَّة المستندة إلى علم الكلام؟ برأيك، ما الأسباب التي جعلت الرعاة لا يتعلَّمون مثل هذه الحجج في كلِّيَّات اللاهوت؟

عندما أنهيتُ كتابة أطروحة الدكتوراه عن الحجَّة الكونيَّة في جامعة بيرمنغهام، أخذها البروفيسور هِك إلى أحَدِ المتخصِّصين في الفيزياء في الجامعة ليفحصَ المعلومات العلميَّة فيها. وبعد قراءتها، رجع هذا المتخصِّص إلى البروفيسور هِك ليخبره بأنَّ كلَّ ما قلتُه صحيح. وعندما أعاد البروفيسور هِك الأطروحة إليَّ، قال لي مستغربًا ومتسائلًا: "لماذا لا يعرفُ اللاهوتيُّون كلَّ ذلك؟" والسؤال قائمٌ حتَّى اليوم!

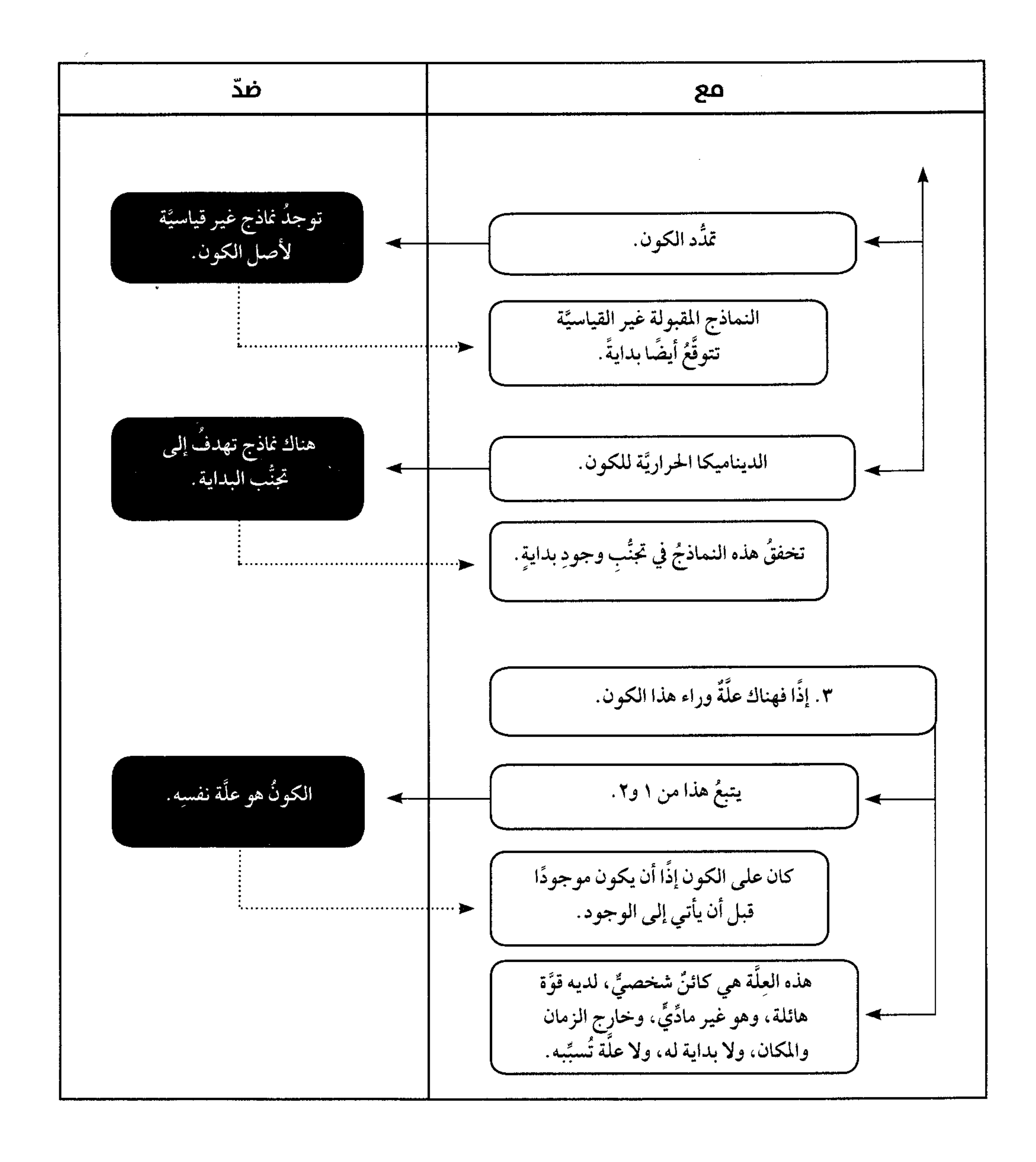
الحُجَّة الكونيَّة (الكوزمولوجيَّة)



الحُجّة الكونيّة (الكوزمولوجيّة)



الحُجَّة الكونيَّة (الكوزمولوجيَّة)



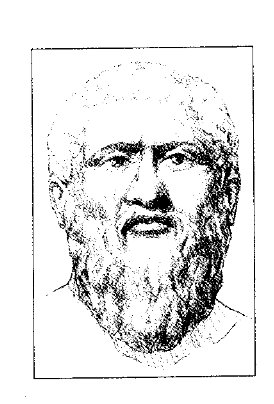
الفصل الخامس

لماذا يتَّسمُ الكونُ بالضَّبط الدقيق الذي يجعلُه صالحًا للحياة؟

"لأنَّ أموره غير المنظورة تُرى منذ خلق العالم، مُدرَكةً بالمصنوعات قدرته السرمديَّة ولاهوته حتَّى أنَّهم بلا عذر" (رومية ١: ٢٠).

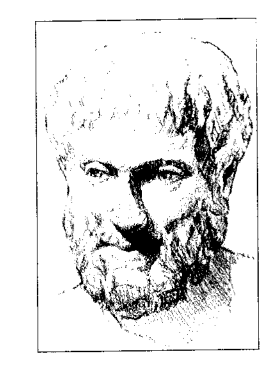
أصابَتِ الدهشةُ فلاسفةَ الإغريق القُدَامى بالنِّظام الذي يشمل الكون، كما أدهشتهم النجوم والكواكب في حركتها الدائبة في السماء. لقد صرف أعضاء أكاديميَّة أفلاطون (Plato) وقتًا طويلًا في دراسة الفلك؛ لأنَّ أفلاطون كان يعتقد أنَّ الفلك هو العلم الذي من شأنه أن يُنَبِّه الإنسان لمصيره الذي رسمه الله.

بحسب تصوُّر أفلاطون، هناك أمران من شأنهما أن يقودا الإنسان إلى الإيمان بالله: الحجَّة المتعلِّقة بوجود النفس، والحجَّة المختصَّة "بنظام حركة النجوم، ونظام كلِّ الموجودات التي تقع في سلطان العقل الأعلى الذي رتَّب هذا الكون" (قوانين 12.966e). استخدم أفلاطون هذه الحجج في دحضه للإلحاد، وخلُصَ إلى أنَّه لا بدَّ من وجود "النفس الفُضلَى" المُعبِّرة عن "بارئ وأبي الكُلّ"، و"الملك" الذي حَوَّل الفوضى الأولى إلى الكون المعقول الذي نلحَظُه اليوم (قوانين 899c -10.893b).



أكاديميّة أفلاطون

نحو عام ٣٨٧ ق. م، اشترى الفيلسوف الإغريقيُّ أفلاطون بيتًا في متنزَّه يعرف بِاسْم "أكاديميكا" (Academeca) على مسافةٍ قريبةٍ خارج مدينة أثينا، وافتتح في هذا البيت مدرسةً استمرَّتْ وازدهرَتْ لنحو تسعة قرون، حتَّى أغلقها أحد الأباطرةِ البيزنطيِّين نحوِ عام ٥٢٩م. وكان غرض أفلاطون من إقامة هذه المدرسة هو البحث عن الحقِّ باستخدام البحث العقلانيّ. وجذبت هذه الأكاديميَّة إليها المفكِّرين الراسخين، فضلًا عن الطلَّاب الأصغر سنًّا الذين استخدموا جميعًا الحوار في بحث القضايا العميقة المتعلِّقة بالطبيعة الجوهريَّة للواقع، وماهيَّة الخير، والنفس، والمنطق، والرياضيَّات، والفلك، هذا علاوة على البحث في السياسة والمجتمع. ومن بين الطلَّاب الذين ارتادوا الأكاديميَّة للدراسة فيها، كان هناك طالبٌ يُدعى أرسطو (Aristotle)، والذي ظلَّ فيها حتَّى وفاة أفلاطون. إنَّ تأثيرَ تلك الأكاديميَّة في الفكر والتاريخ الغربيَّين يصعبُ وصفه، لا سيَّما بسبب مَن تعلَّموا فيها.



هناك مقولة أخرى تتجاوز في رَوعتِها ما قالَه أفلاطون عن النظام الإلهيِّ في الكون، وتلك نجدها في قصاصةٍ متبقِّيةٍ من عملٍ ضائعٍ لأرسطو بعنوان "في الفلسفة" (On Philosophy). عَبَّر أرسطو أيضًا عن عمقِ دَهشَتِه أمامَ المشهد المُذهل للنُّجوم في سماء اليونان القديمة. كلُّ مَن درسَ نجوم السماء يجب أن ينصت جيِّدًا لهؤلاء الرجال العظام في التاريخ القديم الذين تأمَّلوا نجوم السماء- التي لم تكن قد غاب عنها بهاؤها بسبب التلوُّث- وأنوار النجوم عندهم تلمع ليلًا فوق المدينة، كما شاهدوا التحوُّلات البطيئة في الكون بكلِّ ما فيه من نجومٍ وكواكب ومجرَّاتٍ معروفة لهم؛ هؤلاء نظروا إلى كلِّ ذلك، وأبدوا دهشتَهم وطرحوا السؤال: "ما العِلَّة وراء كلِّ ذلك؟"

الإجابة التي وصلَ إليها أرسطو بعد طرحه هذا السؤال هو أنَّ العلَّة وراءَ ذلك ليست سوى ذكاءٍ إلهيٍّ أبدعَ ذلك كلَّه. وتخيَّلَ أرسطو تأثير منظر العالم في جنسٍ متخيَّلٍ من البشر عاشوا تحت الأرض ولم يُتَح لهم بتاتًا رؤية السماء، حيث يقول أرسطو:

"عندما يقع بَصَرُ هؤلاء على الأرض والبحار والسماء؛ وعندما يتعرَّفون جلال السَّحاب وقوة الرياح، وعندما ينظرون إلى الشمس ويدركون رَوعتَها وجمالَها، فضلًا عن قدرتها على ولادة النهار بإخراجها النور للسماء، وعندما يرَون الليل وقد غَطَّى الأراضيَ بظلمته، ويرَونَ السماءَ وقد ترصَّعتْ بالنجوم، وعندما يرَون أضواء القمر وهي تتغيَّر كلَّما اكتملَ أو تناقص، ومنظر هذه الأجسام السماويَّة ومساراتها الثابتة غير المتغيِّرة منذ الأزل- عندما يرى هؤلاء كلَّ ذلك، فهُم حتمًا سيصلون إلى نتيجةٍ مفادها أنَّ للآلهة وجودًا، وأنَّ كلَّ هذه الموجودات المذهلة من عمل تلك الآلهة" (في الفلسفة).

ناقش

اخرج إلى الخلاء ليلًا وانظُر إلى السماء. ما الاختلاف بين ما تراه وما رآه أرسطو؟ كيف يؤثِّر هذا الاختلاف في الكيفيَّة التي يُفكِّر بها الناس اليوم في النجوم والكواكب وفي الكيفيَّة التي يشعرون بها تُجاهَهُم؟

يستكمل أرسطو حجَّته في كتابه "**ما وراء الطبيعة**" *(Metaphysics)* قائلًا إنَّه لا بدَّ من وجود علَّة أولى موجودةٍ قبل كلِّ علَّة. وهذه العلَّة الأولى هي الله، وهو ذلك الكائن الحيُّ الذكيُّ وغير المادِّيِّ والسرمديُّ الذي يتَّسم بكلِّ الصلاح، وهو مصدر كلِّ نظامٍ نراه في الكون.

وعندما يطَّلع المرء على أعمال هؤلاء الفلاسفة القدماء، لا يملك إلَّا أن يسترجعَ كلمات الرسول بولس في رسالته إلى أهل رومية: "لأنَّ أموره غير المنظورة تُرى منذ خلق العالم، مُدركةً بالمصنوعات قدرته السرمديَّة ولاهوته" (رومية ١: ٢٠). منذ القديم وصل أناسٌ لم يكونوا على علمٍ بما جاء في الكتاب المقدَّس إلى حقيقة وجود الله استنادًا إلى التصميم الدقيق الموجود في الكون.

عودة فكرة التصميم الدقيق

في وقتنا الحاضر يصل الكثير من علماء الفلك إلى نتيجة مشابهة استنادًا إلى اكتشافات حديثة.

اعتاد العلماء تصوُّرَ أنَّه بِغَضِّ النظرِ عن شكل الكَونِ في أطواره الأولى،

فإنَّ أشكال الحياة الذكيَّة كالبشر كانت حتمًا ستظهر إلى الوجود في مكانٍ ما من الكون بمحض الصدفة وبمرور الزمن. وبسبب الاكتشافات التي جرى التوصُّل إليها على مدار العقود الأربعةِ الماضية ندرك الآن خطأَ هذه الفرضيَّة، بل إنَّنا نعلم الآن أنَّ العكس تمامًا هو الصحيح.

لقد أُصيبَ علماءُ الفلك بالدَّهشةِ عندما اكتشفوا درجةَ التعقيد والتوازن التي يجب أن تتَّسم بها العوامل الكونيَّة الأوَّليَّة عند حدوث الانفجار العظيم ذاته، وذلك كي تتوافَرَ شروط وجود الحياة الذكيَّة في أيِّ جزء من هذا الكون. وهذا الاتِّزان الدقيق في العوامل الكونيَّة الأوَّليَّة عُرِف بعد ذلك بالضَّبط الدقيق الذي يسمح بوجود الحياة في الكون. لقد اكتشَفْنا جميعًا أنَّ الكونَ يتَّسم بضبطٍ دقيقٍ يسمح بوجود الحياة في الكون على نحوٍ يتجاوَزُ في تعقيده فهمنا البشريّ.

ثوابت الطبيعة

عندما يُعبَّر عن قوانين الطبيعة بالمعادلات الرياضيَّة، فإنَّ ثوابت محدَّدة تبرز بوضوح في هذه المعادلات. تأمَّل مثلًا قانون الجاذبيَّة المشهور الذي وضعه نيوتن، والذي يُعبَّر عنه بالمعادَلة الرياضيَّة التالية:

$F= Gm_1m_2/r^2$

وفقًا لهذه المعادلة، فإنَّ قوَّة الجاذبيَّة (المرموز إليها بالحرف F) تساوي قيمة ثابت الجاذبية (المرموز له بالحرف G) مضروبًا في كتلةِ الجسمَين اللذين ينجذب أحدهما إلى الأخر (بالكيلوغرام)، مقسومًا على مربَّع المسافة ما بينهما (بالمتر المربَّع). قد تختلف الكتلة والمسافة بالارتباط بالموادِّ التي نتناوَلُها، لكنَّ قيمة الجاذبيَّة تظلُّ ثابتًا لا يتغيَّر.

نوعان من الضَّبط الدقيق:

هناك نوعان من الضبط الدقيق. يشمل الأوَّل ثوابت الطبيعة، أمَّا الثاني فنعلَمُه من الحساباتِ الكمِّيَّة الفيزيائيَّة المحدَّدة.

ثوابت الطبيعة

لنتناوَلْ أوَّلًا "ثوابت الطبيعة". ما تعريف "الثابت الطبيعيّ"؟ عندما نعبِّر عن قوانين الطبيعة بصورة معادلات رياضيَّة، سنجد فيها بعض الرموز المحدَّدة التي تعبِّر عن كمِّيَّات رياضيَّة ثابتة لا تتغيَّر، مثل قوَّة الجاذبيَّة، والقوَّة الكهرومغناطيسيَّة، والقوَّة دون الذرِّيَّة الضعيفة (Weak Subatomic Nuclear Force). وتُسمَّى هذه الكمِّيَّات غير المتغيِّرة الثوابت. قد تكون هناك أكوانٌ تحكمُها القوانين الطبيعيَّة نفسها، حتَّى لو كانت هذه الثوابت تحمل قيمًا مختلفةً تمامًا. لذا فإنَّ قوانين الطبيعة لا تحدِّدُ القِيَم الفعليَّة لهذه الثوابت المتباينة. واعتمادًا على قِيَم هذه الثوابت، فإنَّ الأكوان التي تحكمُها قوانين الطبيعة نفسها ستبدو مختلفةً تمامًا.

كمِّيَّات محدَّدة سلفًا

فضلًا عن تلك الثوابت، هناك كمِّيَّاتٌ معيَّنةٌ محدَّدةٌ سلفًا تمثِّل الشروط الأساسيَّة التي تقوم عليها قوانينُ الطبيعة، وتعمل وَفقًا لها. ولأنَّ هذه الكمِّيَّات محدَّدة سلفًا، فهي لا تتحدَّد بواسطة قوانين الطبيعة.

المثلُ على ذلك هو كمِّيَّةُ الفوضى التي خلَّفتها الديناميكا الحراريَّة (أو القصور الحراريّ) في المراحل الباكرة للكون. وقد جرى التعبير عن هذه الفوضى بالانفجار العظيم بوصفه شرطًا أوَّليًّا، وبعد ذلك بدأت قوانين الطبيعة تحدِّدُ الطريقةَ التي سيتطوَّر بها الكون بعد ذلك. فلو كانت الكمِّيَّاتُ الأوَّليَّة مختلفة، لأنتجتْ قوانينُ الطبيعة كونًا مختلفًا.

تعريف "الضبط الدقيق"

ما أدهشَ العلماء لدى اكتشافهم أنَّ هذه الثوابت والكمِّيَّات يجب أن تتوزَّع ضمن مدى محدودٍ جدًّا من القيم الرياضيَّة حتَّى تسمحَ بوجود الحياة في الكَونِ. وهذا هو المقصود بالضبط الدقيق للكَون السامحِ بوجودِ الحياة.

ناقش

تخيَّل كونًا تزيدُ فيه قوَّة ثابت الجاذبيَّة (Gravitational constant) على نحوٍ أكبرَ كثيرًا ممَّا هو عليه في كوننا. هل يمكن أن تتخيَّلَ وُجودَ مجرَّاتٍ في كَونٍ بهذا الشكل؟ لماذا؟

أمثلة على الضبط الدقيق

يحظى الضبط الدقيق بهذا المعنى المحايد بالقبول الواسع، ولا يُثير أيَّ إشكال. وهناك في علم الفيزياء الكثير من الأمثلة على الضبط الدقيق. وقبل أن أشاركك ببعض هذه الأمثلة، فلأعطِكَ بعضَ الأرقام ليتكوَّنَ لديك تصوُّرٌ عامٌّ عن مدى الدقَّة التي نتحدَّثُ بشأنها عندما نتكلَّم عن الضبط الدقيق. عدد الثواني منذ بداية الكون، والتي تؤلِّفُ مجمَلَ تاريخ الكونِ هو تقريبًا $١٠^{١٧}$ (أي رقم ١ متبوعًا بسبعةَ عشر صفرًا: ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠). أمَّا عدد الجزيئات دون الذريَّة في الكون المعروف، فيقول العلماء إنَّه $١٠^{٨٠}$ (أي رقم ١ متبوعًا بثمانين صفرًا). هذه الأعدادُ كبيرةٌ جدًّا على نحوٍ يصعب معه تصوُّرها واستيعابها.

تأمَّلِ الأمثلةَ التاليةَ عن الضبط الدقيق على خلفيَّة هذه الأرقام. هناك ما يَدعوه العلماء "القوَّة الضعيفة"، وهي إحدى أربع قوى أساسيَّة في الطبيعة، وتعمل داخل نواة الذرة. وهذه القوَّة مضبوطةٌ ضَبْطًا دقيقًا على النحو الذي يؤدِّي أيُّ تغيير في قيمتها بمقدار $١٠^{١٠٠}$ إلى إنتاج كون غير صالح للحياة. على نحوٍ مشابه، فإنَّ التغيير في قيمة الثابت المعروف بِاسْم "الثابت الكونيّ" (Cosmological constant) الذي يعمل على تسريع تمدُّد الكون بنسبة ضئيلة تبلغ $١٠^{١٢٠}$ سيؤدِّي أيضًا إلى عدم وجود الحياةِ في الكَون.

هل تتذكَّر حالة القصور الحراريِّ المنخفضة التي بدأ بها الكون؟ (لقد تناوَلْنا ذلك في الفصل الرابع تحت عنوان "قوانين الديناميكا الحراريَّة"). عملَ العالِمُ روجر پنروز (Roger Penrose) من جامعة أكسفورد على حساب احتمالات بقاء حالة القصور الحراريِّ حول معدَّلاتها المنخفضة استنادًا إلى الصدفة وحدها، فوجدَ أنَّ احتمال حدوث ذلك هو واحد إلى $١٠^{١٠^{(١٢٣)}}$، وهو عدد يستحيل على الذهن تصوُّره، وسيكون من قبيل التهوين وصفه بأنَّه "فَلَكيّ".

لذا فإنَّ الضبطَ الدقيقَ هو أمرٌ يستعصي على الاستيعاب؛ فعندما نتحدَّث بدقَّةٍ تصل إلى واحد على $١٠^{٦٠}$، فإنَّ هذا يشبهُ إطلاقَ رصاصةٍ نحو الجهةِ الأخرى من الكون المعروف لنا، أي على بُعدِ عشرين بليون سنة ضوئيَّة لتصيب هدفًا لا يتجاوز البوصة الواحدة!

تمييزٌ أساسيٌّ ما بين المفاهيم

مصطلح "مضبوط بدقة" (Fine-tuned) لا يعني "مصمَّم" (Designed)؛ فالتعبير المستخدم هنا حياديٌّ ولا يوحي بشيءٍ عن الكيفيَّة المُثلى التي يمكن بها تفسير الضبط الدقيق. إنَّما يعني الضبط الدقيق أنَّ مدى القيم الرياضيَّة الخاصَّة بالثوابت والكمِّيَّات التي تسمح بوجود حياة على الأرض هو مدى محدود جدًّا. وإذا تغيَّرَتِ القيمةُ الرياضيَّة لأحَدِها بمقدارٍ ضئيلٍ جدًّا، لاختلَّ التوازنُ الدقيق الذي يسمح بوجود حياةٍ في الكون، ولصارَ الكونُ مانِعًا لوجود الحياة.

الأمثلة على الضبط الدقيق متعدِّدةٌ ومتنوِّعةٌ على نحوٍ يستحيل على تقدُّم العلم أن يقلِّلَ من شأنها أو أن يُغيِّبَها. سواء أردتَ ذلك أم لم تُرِدْه، فإنَّ الضبطَ الدقيقَ حقيقةٌ من حقائق الحياة التي جرى التحقُّق منها علميًّا.

ناقش

إنْ علمتَ أنَّ الكونَ مضبوطٌ ضبطًا دقيقًا على نحوٍ غايةٍ في الدقَّة، ما تأثير ذلك فيك؟

اعتراض محتمل والإجابة عنه

ربَّما يقولُ بعضٌ منَّا في نفسه: "لكنْ لو كانت لهذه الثوابت والكمِّيَّات قِيَمٌ رياضيَّةٌ مختلفة، لكان من الممكن أن تنشأ وتتطوَّرَ أشكال مختلفة للحياة".

إلَّا أنَّ هذا الافتراضَ يستهين بالعواقب الكارثيَّة التي يمكن أن تنجم عن هذا التغيُّر في القيم الرياضيَّة للثوابت والكمِّيَّات.

عندما يقول العلماء إنَّ الكون يسمح بالحياة، فهم يتحدَّثون ليس فقط بشأن أشكال الحياة الحاضرة، بل يقصدون بمصطلح "الحياة" الخاصِّيَّة التي تتمتَّع بها الخلايا الحيَّة من حيثُ قدرتُها على تناول الغذاء واستخلاص الطاقة منه، والنموِّ والتكاثر والتكيُّف مع البيئة التي تعيش فيها. أيُّ شيء يقوم بهذه الوظائف يُعدُّ شكلًا من أشكال الحياة، بغضِّ النظر عن هذا الشكل. وحتَّى توجَدَ الحياة- على النحو الذي نعرفه اليومَ- فيجب أن تكونَ الثوابتُ والكمِّيَّات الموجودةُ في الكون مضبوطةً ضبطًا دقيقًا على نحوٍ مُذهل. وفي غياب الضبط الدقيق ستَختفي المادَّة، كما ستتلاشى الكيمياء الموجودة في الكون، وتضمحلُّ الكواكب التي يمكن أن تنشأَ عليها الحياة وتتطوَّر.

اعتراض آخر والإجابة عنه

يعترضُ آخرون منَّا بالقَول: "ربَّما في عالمٍ تحكمُه قوانين مختلفة للطبيعة، فإنَّ هذه التبعاتِ الكارثيَّةَ لن تكون هي النتيجة". غير أنَّ هذا الاعتراض يوحي بسوء فهم للحُجَّة المطروحة.

لسنا معنيِّين بالأكوان التي تحكمُها قوانين طبيعيَّة **مختلفة**؛ إذ ليس لدينا أيُّ تصور عن طبيعة هذه الأكوان! لكنَّ ما يعنينا هنا هو الأكوان التي تحكمها القوانين الطبيعيَّة نفسُها، حتَّى لو كانت للثوابت والكمِّيَّات الموجودة فيها قِيَمٌ رياضيَّةٌ مختلفة. ولأنَّ القوانين الطبيعيَّة واحدة في هذه الحالة، فيمكنُنا تحديدُ ما يمكن أن يحدُثَ لو تغيَّرتِ الثوابتُ والكمِّيَّات. والنتائج كارثيَّةٌ حقًّا في حال تغيير الثوابت والكمِّيَّات؛ فمن بين الأكوان التي تحكمها قوانين الطبيعة كما نعرفها، يصعب أن نجدَ كَونًا يمكن أن يسمح بالحياة في حال تغيُّر الثوابت والكمِّيَّات.

ذبابة على الحائط

يقدِّم الفيلسوف جون ليزلي (John Leslie) المثلَ التالي للتدليل على عدم حاجتنا إلى الانشغال بأكوانٍ أخرى تحكمُها قوانينُ طبيعيَّةٌ مختلفة. تخيَّلْ ذبابةً تستقرُّ على مساحة واسعة وخالية من الحائط، ثمَّ أُطلِقتْ طلقة لتصيبَ تلك الذبابة. افترض الآن أنَّ ما تبقَّى من الحائط، خارج المساحة الخالية التي وُضعَتِ الذبابةُ فيها، كان يعجُّ بعددٍ هائلٍ من الذباب، على نحو يجعل أيَّة رصاصةٍ تُطلَق على هذه المنطقة ستصيبُ حتمًا ذبابةً ما- هذا لن يُغيِّر من استحالة أن تصيبَ رصاصةٌ أُطلقَتْ عشوائيًا ذبابةً وحيدةً على حائط فارغ وواسع.

ويُشبِه الكونُ الذي يسمح بوُجودِ الحياة هذه الذبابة الوحيدة. وعندما نتخيَّل أكوانًا تحكمُها قوانينُنا الطبيعيَّة، فإنَّ معظمَها لا يسمح بوجود الحياة. ومن ثَمَّ فإنَّ احتمالات أن نختارَ بالصدفة من بينها كونًا يسمحُ بوجود الحياة هي احتمالاتٌ شبه معدومةٍ.

التفسيرات المحتمَلة للضبط الدقيق

١. الأسباب الثلاثة المحتمَلة وراء الضبط الدقيق في كوننا هي:

٢. الضرورة الفيزيائيَّة: الثوابت والكمِّيَّات يجب بالضرورة أن تحمل القِيم التي تحملُها.

٣. الصدفة: الثوابت والكمِّيَّات تحمل هذه القيم بمحض الصدفة.

٤. التصميم الذكيّ: الثوابت والكمِّيَّات مُصمَّمةٌ لتحمل تمامًا هذه القِيم.

حُجَّةٌ للدِّفاع عن التصميم الذكيّ

السؤال الذي نواجهه الآن هو: ما الطريقة المُثلى لتفسير الضبط الدقيق في الكون؟ يعتقد العديدُ من الناس أنَّ السببَ وراءَ الضَّبطِ الدَّقيقِ للكَونِ على النحو الذي يجعلُه قابلًا لوُجود حياةٍ هو أنَّه صُمِّمَ ليؤدِّي هذا الغرض من قِبل مُصمِّم ذكيّ.

إلَّا أنَّ التصميم الذكيَّ ليس هو الإجابة الوحيدة عن هذا السؤال. هناك أيضًا الضرورة الفيزيائيَّة والصدفة. إذا خلصنا إلى أنَّ التصميم الذكيَّ هو أفضل إجابة عن السؤال المطروح، فيعني هذا استبعادَ هذَين البديلَين.

وعلى هذا الأساس يمكن صياغة حُجَّةٍ بسيطةٍ من ثلاث خطوات:

١. يعودُ الضبط الدقيق الموجود في الكون إمَّا إلى الضرورة الفيزيائيَّة أو الصدفة وإمَّا إلى التصميم الذكيّ.

٢. لا يُعزى الضبط الدقيق إلى الضرورة الفيزيائيَّة أو الصدفة.

٣. إذًا يعودُ الضبط الدقيق إلى وجود تصميم ذكيّ.

هذه الحُجَّةُ صحيحة منطقيًّا ونتيجتها نابعة من المقدِّمتَين المطروحتَين. والسؤال المطروح علينا هنا هو إنْ كانت هاتان المقدِّمتان صحيحتَين. فلنفحَصِ الآن هاتَين المقدِّمتَين.

المقدِّمة الأولى

يعودُ الضبط الدقيق الموجود في الكون إمَّا إلى الضرورة الفيزيائيَّة أو الصدفة وإمَّا إلى التصميم الذكيّ.

المُقدِّمة الأولى القائلة إنَّ الضبطَ الدقيقَ يُعزَى إمَّا إلى الضرورة الفيزيائيَّة أو الصدفة وإمَّا إلى التصميم الذكيِّ لا يمكن الاعتراض عليها؛ لأنَّها بكلِّ بساطةٍ تقدِّمُ قائمةً بالبدائل الثلاثة المتاحة لتفسير الضَّبطِ الدقيق. إنْ كان لدى أحَدٍ بَديلٌ رابع، فليُضِفْه إلى القائمة، ويمكن فحصُه لاحقًا عندما ننتقلُ

إلى المقدِّمةِ الثانية. لكنْ يبدو لي عدم وجود بديلٍ آخرَ يمكن أن يُضافَ إلى البدائل الثلاثة.

المقدِّمة الثانية

لا يُعزى الضبط الدقيق إلى الضرورة الفيزيائيَّة أو الصدفة.

المقدِّمةُ المحوَريَّةُ هنا هي المقدِّمة الثانية القائلة إنَّ الضبط الدقيق لا يُعزَى إلى الضرورة الفيزيائيَّة أو الصدفة.

فلنفحَصِ الآنَ هذه البدائلَ كلًّا على حِدة.

ناقش

ما المواقف في ثقافتنا الشعبيَّة التي نحتكمُ فيها للصدفة في تفسيرنا للعالم؟ ماذا عن الضرورة بوصفها أداةً للتَّفسير؟ وماذا بشأن التصميم الذكيّ؟ أيُّ هذه الأطروحات يُتاح لها الفرصة الأكبر في الإعلام لتقديم نفسها على مستوى شعبيٍّ واسع؟

الضرورة الفيزيائيَّة؟

وَفقًا للبديل الأوَّل، أي الضرورة الفيزيائيَّة، فإنَّه لا بدَّ للكَون أن يسمحَ بوجود حياة. لذا فإنَّ للثوابتِ والكمِّيَّاتِ الموجودة في الكون بالضَّرورة القِيمَ الرياضيَّةَ المرتبطة بها على النحو الذي يجعَلُ وُجودَ كَونٍ لا يسمَحُ بوُجودِ الحياةِ أمرًا مستحيلًا من الناحية الفيزيائيَّة.

عدمُ احتماليَّة الضرورة الفيزيائيَّة

الأمرُ الواضحُ لنا أنَّ هذا البديلَ يبدو غير محتملٍ على نحوٍ مُذهل؛ إذ يتطلَّبُ هذا الاحتمال منَّا أن نُقِرَّ بالاستحالة الفيزيائيَّة لوجود كونٍ لا يسمح بوجود الحياة. لكنْ لماذا نذهب إلى مثل هذا الرأي شديد التطرُّفِ؟ ونقول إنَّ قوانينَ الطبيعة لا تحدِّدُ الثوابت، فما الذي يجعلها تختلف؟ فضلًا عن ذلك، فإنَّ الكمِّيَّاتِ المحدَّدة سلفًا هي مجرَّد شروط مبدئيَّة تشتغل عليها قوانين الطبيعة. فلا يوجد ما يجعلنا نعتقد أنَّ هذه الثوابت وتلك الكمِّيَّات هي ضرورة حتميَّة. لذا، فمَن يقاومون فكرة التصميم الذكيِّ إنَّما ينتهجون نهجًا راديكاليًّا متطرِّفًا يحتاج إلى دليل، وهو غير متاح لهم. البديل المطروح هنا هو مجرَّد احتمال.

تحدّي فكرة التطوُّر

لاحظْ أنَّ التركيزَ على فكرة الضبط الدقيق في الكون تؤلِّفُ حُجَّةً من شأنها أن تتحدَّى القضيَّة التي يتبنَّاها كثيرون بالكثير من العاطفيَّة، وهي قضيَّة التطوُّر الطبيعيّ. لو ثبتَتْ صحَّةُ الحُجَّة القائلة إنَّ في الكونِ ضبطًا دقيقًا، فمعنى ذلك أنَّ تطوُّرَ الحياة الذكية في أيِّ مكانٍ في الكون إنَّما يعتمد على وُجودِ تصميم للشروط الكونيَّة الأوَّليَّة. إنَّ أيَّة حُجَّةٍ تنطلقُ من فكرة التصميم الذكيِّ وتؤسَّس على فكرة أصل الحياة، وأصل التعقيد البيولوجيّ، وأصل الوعي، وما إلى ذلك- هي حُجَّة يزعم أصحابها أنَّ تفسيرَ كلِّ هذه القضايا السالفة غير ممكن بعيدًا عن وجود "المصمِّم الذكيّ".

أحيانًا يتحدَّثُ العلماء بشأن نظريَّة يُنتَظَر اكتشافها في المستقبل ويُطلِقون عليها اسم "نظريَّة كلِّ شيء" (Theory of Everything)، واختصارُها "TOE"، والتي توحي بأنَّها ستقدِّمُ تفسيرًا فيزيائيًّا لكل شيء، بما في ذلك الضبط الدقيق. لكنَّ هذه التسمية الخاصة هي خادعة جدًّا، حالُها حالُ كلِّ التسميات الجذَّابة التي يعطيها العلماء للنظريَّات العلميَّة. فإنَّ أيَّة نظريَّةٍ ناجحَةٍ تزعم أنَّها "نظريَّة كلِّ شيء" يجب أن تمكِّنَنا من جمع قوى الطبيعة الأربع الأساسيَّة (الجاذبيَّة والقوى الضعيفة والقوى القويَّة والكهرومغناطيسيَّة) في قوَّةٍ واحدةٍ يحملُها جزيءٌ واحدٌ من النوع المفرد. ومن شأن هذه النظريَّة أن تؤدِّي إلى تبسيطٍ هائل للفيزياء. لكنَّها مع ذلك لن تتمكَّنَ حتَّى من محاولة تقديم تفسير حرفيٍّ لكلِّ شيء. مثلًا، النظريَّة الأوفر حظًّا في ترشُّحها لحمل لقب "نظريَّة كلِّ شيء" هي ما يُعرَف بِاسْم "M-theory" أو نظريَّة الأوتار الفائقة، وهي نظرية لا تقدرُ أن تفسِّرَ شيئًا إلَّا في حالةِ توافر أحدَ عشرَ بُعدًا. لكنَّ النظريَّة نفسها لا تستطيع أن تفسِّر السبب من وراءِ الحاجة إلى وُجودِ هذا العدد المحدَّد من الأبعاد.

فضلًا عن ذلك، فإنَّ نظريَّة الأوتار الفائقة لا تستطيع أن تتنبَّأ بصورةٍ واضحة ومتميِّزة بوجود كَونٍ يسمح بوجود الحياة. إنَّما ما تقوم به هو تقديم احتمالاتٍ لوجود أكوان محتملة يصلُ عددها إلى ما يقرب من ١٠^٥٠٠، وهي أكوانٌ يتَّسق أحَدُها مع الآخر بسبب خضوعها للقوانين الطبيعيَّة نفسِها، لكنَّها تختلف في القِيَم الرياضيَّة الخاصَّة بثَوابتِ الطبيعة. ومعظم هذه الأكوان المحتملة لا يسمح بوجود حياة. لذا فنحن نحتاجُ هنا إلى تفسير للأسباب التي تجعل كونًا واحدًا دونًا عن كلِّ هذه الاحتمالات هو الذي يسمح بوجود حياة. ولا يمكننا القول إنَّ الأكوان التي تسمح بالحياة ضروريَّة؛ لأنَّ تلك الفكرة غير صحيحة استنادًا إلى نظريَّة الأوتار الفائقة.

لا يوجد إذًا أيُّ دليل على أنَّ الكونَ الذي يسمح بالحياة هو ضَرورةٌ فيزيائيَّة. على النقيض من ذلك، فإنَّ كافَّة الأدلَّة المتاحةِ تُشيرُ إلى أنَّ احتِمالَ

وُجودِ الأكوانِ التي لا تسمح بوُجود الحياة هو أكبر من تلك التي تسمح بوجود الحياة.

الصدفة؟

يؤدّي ذلك بنا إلى البديل الثاني: هل يمكن أن يُعزى الضبط الدقيق لمجرَّد الصدفة؟ وَفقًا لهذا البديل، فإنَّ الصدفة وحدَها هي السبب وراء اكتساب الثوابت والكمّيّات الكونيّة قِيَمًا رياضيَّة تجعلُها تسمح بوجود حياة في الكون. أي أنّنا- وَفقًا لهذا التصوُّر- لسنا سوى كائنات محظوظة.

المشكلةُ الجوهريَّة في هذا البديل هي أنَّ احتمالات وُجود كون تصادف أنّه يسمح بوجود حياة هي احتمالات بعيدة جدًّا، ممّا يجعل هذا البديل يفتقر إلى المنطق.

عدم احتمال وجود كون يسمح بوجود حياة

يُعبِّرُ بعضُ الناس أحيانًا عن اعتراضهم على عَبَثيَّة الفكرة القائلة باحتمال وجود كون آخر يتمتَّع بالضَّبط الدقيق؛ لأنّه لا يتوافر لنا بكلِّ بساطةٍ إلَّا كونٌ واحد نعرفه. لذا لا يمكنك القول مثلًا إنَّ واحدًا من بين كلِّ عشرة أكوان يسمح بوجود حياة.

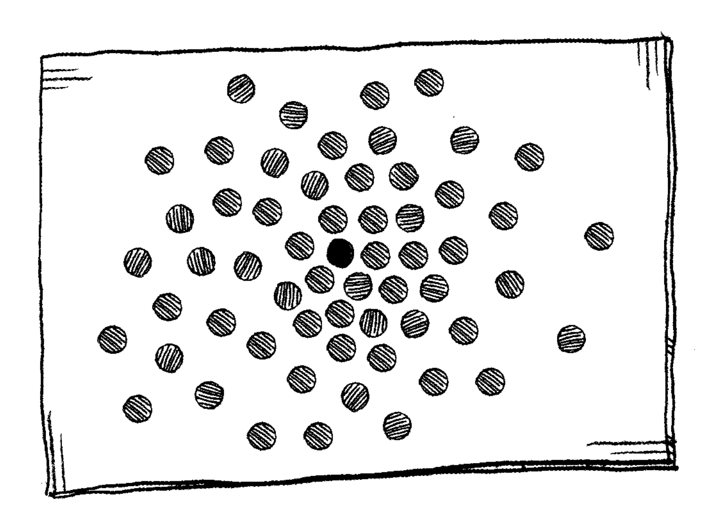
لكنَّ المثَلَ التاليَ المأخوذَ من عالم الفيزياء جون بارو (John Barrow) يوضحُ المقصودَ بعَدمِ احتماليَّةِ وُجود كَونٍ آخرَ يسمحُ بوجود الحياة. خذ ورقةً بيضاء وارسم عليها نقطة حمراء، تعبِّر عن الكون الذي نعيش فيه.

فلنتخيَّلِ الآن أنّه أمكَنَك إدخالُ تعديل بسيط على الثوابت والكمّيّاتِ الفيزيائيَّة التي تناوَلناها، والتي تُعدُّ مضبوطةً ضَبطًا دقيقًا. سينتجُ عن ذلك كَونٌ مختلفٌ في توصيفه، والذي يمكن أن نعبِّر عنه بنقطة جديدة نضعُها بجوار النقطة الأولى على الورقة. إنْ كانت المجموعةُ الجديدةُ من الثوابت والكمّيّات تصفُ كَونًا يسمح بوجود الحياة، فاجعَلِ النقطةَ الجديدةَ حمراء اللون، أمّا إنْ

الفضاء الكونيّ

ما يُعرف بِاسْم "الفضاء الكونيّ" (The Cosmic Landscape) للعوالم الذي تقدِّمه إلينا نظريَّة الأوتار الفائقة أصبح ظاهرةً لافتةً مؤخَّرًا. فمن المهمِّ أن نفهمَ هنا أنَّ "الفضاء" في هذا السياق ليس سوى مدى من الاحتمالات. وقد أساءَ بعضُ الناس تفسيرَ الفكرة هنا على نحوٍ اعتقدوا معه أنَّ كلَّ هذه العوالم المختلفة موجودةٌ بالفعل. والبعض الآخر تصوَّرَ أنَّ هذه الفكرة تهدم الحُجَّة المدافعة عن التصميم الذكيّ؛ لأنَّ "الفضاء" يوحي هنا بوجود عوالم أخرى كعالمنا تسمح بوجود الحياة. إلَّا أنَّ الفضاءَ الكونيَّ ليس حقيقيًّا؛ فهو مجرَّد قائمة من الاحتمالات، وهو يصفُ مدى العوالم الممكنة التي تتَّسق مع نظريَّة الأوتار الفائقة.

كانت النقطة تصفُ كَونًا لا يسمح بوجود حياة، فاجعَلِ النقطةَ زرقاء. كَرِّرْ ذلك عدَّة مرَّات إلى أنْ تمتلئ الورقةُ بنقاط عديدة. في النهاية ستجدُ الورقة وقد امتلأت ببحرٍ من النقاط الزرقاء مع القليل من النقاط الحمراء. ويعطينا هذا المثلُ انطباعًا ما عن الاحتمالات المحدودة جدًّا لوجود كونٍ يسمحُ بالحياة. الحقيقةُ البسيطةُ أنَّ هناك في مجرَّتنا عددًا أكبرَ بكثيرٍ من الأكوان التي لا تسمح بوجود الحياة مقارنة بعَددِ الأكوان التي تسمح بوجود حياة.



أمثلة مأخوذة من فكرة "اليانصيب"

يلجأُ بعضُ الناس أحيانًا إلى فكرة "اليانصيب" في محاولةٍ لتعليل سيناريو الصدفة الخاصّ بنشوء الكون. عندما تُباع كلُّ التذاكر في اليانصيب تكون احتمالات فوز شخصٍ به محدودة جدًّا، ومع ذلك هناك **شخصٌ ما** يفوز به. سيكون من غير المعقول أن يقول الفائز، أيًّا كان: "احتمالات عدم فوزي كانت عشرين مليون إلى واحد، وقد فُزتُ رغمَ ذلك! لا بُدَّ أنَّ هناك من تلاعَبَ باليانصيب!".

على المنوال نفسه، يقول أصحاب هذا التشبيه إنَّ كَونًا ما من بين عدد محتمل من الأكوان كان لا بدَّ أن يوجد، لذا فمن غير المعقول أن يقولَ الكونُ

الفائزُ باليانصيب إنَّ ذلك تمَّ بواسطة "التصميم الذكيّ" وليس بالصدفة. وهكذا فكلُّ الأكوان تتساوى في عدم احتماليَّة خروجها إلى الوجود، لكنَّ واحدًا منها لا بدَّ أن يفوز بمحض الصدفة.

هذه المشابهة مفيدة جدًّا في حقيقة الأمر؛ لأنَّها تُمكِّننا من أن نرى بوضوح الخطأ الذي وقعَ فيه دُعاة فكرة الصدفة ممَّا أدَّى إلى سوء فهمهم للحُجَّة المدافعة عن "التصميم الذكيّ"، وهو ما يجعلنا أيضًا نفكِّر في مشابهةٍ أكثر دقَّة تحلُّ محلَّ مشابهة اليانصيب. على النقيض ممَّا يتصوَّره الآخرون، فإنَّ الحُجَّة المدافعة عن "التصميم الذكيّ" لا تحاول أن تُفسِّرَ أسباب وجود **هذا** الكون بالذات، بل أن تفسِّرَ أسبابَ وُجود كونٍ يسمح بوجود حياة فيه. التصوُّر العامُّ الذي تنطلق منه مشابهة اليانصيب لم يكن صحيحًا؛ لأنَّها تركِّز على أسبابِ فوز شخص معيَّن باليانصيب.

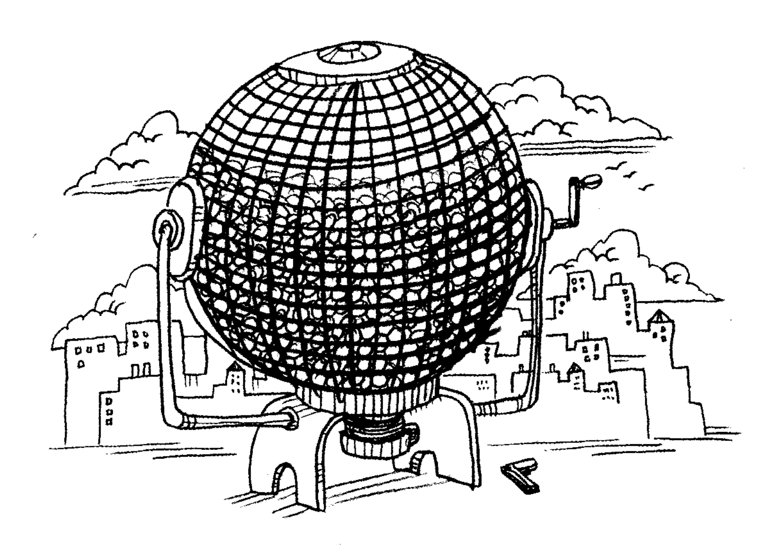
المشابهة الأصَحُّ في هذه الحالة تتمثَّل في يانصيب يقوم على وجود بلايين عديدة من كرات "البنغ بونغ" البيضاء يختلط أحدها بالآخر، ومعهم كرة سوداء واحدة. ويقول لك القائمون على اليانصيب إنَّه ستُختارُ كرةٌ واحدةٌ من بين بلايين الكرات. إنْ كانت هذه الكرة سوداء، ستنجو بحياتك، وإنْ كانت بيضاء فسيُطلقُ النار عليك.

لاحظ الآن أنَّ أيَّة كرة يقع عليها الاختيار تتساوى في عدم احتماليَّة اختيارها مع كلِّ الكرات. وبغضِّ النظر عن أيَّة كرة ستدخل في أنبوب انتقاء الكرات، فإنَّ احتمالات اختيارها محدودة جدًّا. ولكن في نهاية الأمر لا بدَّ من وجود كرة ما سيقع عليها الاختيار. هذه هي الفكرة التي تحاول أن توصِلَها المشابهةُ الأولى المتعلِّقة باليانصيب. ومع ذلك، فالفكرةُ الأساسيَّة التي ينبغي لنا التركيز عليها هي الأسباب وراء اختيار هذه الكرة **بالذات**.

الفكرةُ الأساسيَّة هنا أنَّه بغضِّ النظر عن الكرة التي ستدخل في أنبوب الاختيار، فالواضح أنَّ احتمالات أن تكون بيضاءَ كبيرةٌ جدًّا على نحوٍ لا

دلالةُ قصَّة اليانصيب

إنْ كنتَ تجدُ صعوبةً في فَهْم الفكرة من وراء مشابهة اليانصيب. فحاول أن تتخيَّل أنَّك لتبقى على قَيدِ الحياة، فيجب أن تختار عشوائيًّا كرةً سوداء خمسَ مرات متتالية. إنْ كانت احتمالات عدم اختيار الكرة السوداء لمرَّة واحدة كبيرة جدًّا، فإنَّ اختيارها خمس مرَّات متعاقبة سيجعل الجميع يدركون أنَّ ذلك لم يحدُثْ بمحض الصدفة.



يمكن تصوُّره. وانتقاء الكرة السوداء لا يقلُّ في احتماليَّة حدوثه عن أيَّةِ كرة بيضاء بعينها. لكنَّ الاحتمال الأكبر بصورةٍ كبيرة جدًّا هو أن تُنتقى إحدى الكرات البيضاء بدلَ الكرة السوداء. لذا فإنَّ دخول الكرة السوداء إلى أنبوب الاختيار ينبغي أن يجعلك تتشكَّك في أنَّ شخصًا ما تدخَّل في عمليَّة اليانصيب ليبقِيَكَ حيًّا.

لذا فإنَّنا في هذه المشابهة- إذا ما صيغت بصورةٍ صحيحة- لا يعنينا لماذا انتُقِيَتْ كرةٌ بعَينها، بل ما يذهلنا هنا هو فهم الأسباب التي أدَّت إلى الحصول على كرة تسمحُ بوجود الحياة، دونًا عن كلِّ الكرات الأخرى، وعلى النقيض من كلِّ الاحتمالات المتوقَّعة. لذا فمن غير المقبول حلُّ معضلة وجود الكون بالقول: "حسنًا، كان من الضروريِّ اختيارُ كرة في كلِّ الأحوال".

على المنوال نفسه، فإنَّ كَونًا ما كان لا بدَّ أن يوجد، لكنْ بغَضِّ النظر عن الكون الذي وقع عليه الاختيار، فما يستعصي على فهمنا هو أنَّ احتمالات أن يكونَ هذا الكونُ صالحًا للحياة أكثر كثيرًا من غيرها من الاحتمالات. لذا فما زلنا نحتاجُ إلى تفسيرٍ للسبب وراءَ وُجود كَونٍ يسمح بالحياة.

المبدأ البشريّ

يقول هذا المبدأ إنَّنا نستطيع فقط ملاحظة القيم الجوهريَّة المتعلِّقة بالثوابت والكمِّيَّات التي تتَّسق مع وجودنا الإنسانيّ.

هل نحن بحاجة إلى تفسير؟

يرى بعض الناس أنْ ليست هناك حاجة إلى تفسير السبب وراء وُجود كون يسمح بالحياة؛ لأنَّ هذا هو النمط الوحيد من الأكوان الذي نستطيع أن نلاحظه! إنْ كان الكون لا يسمح بوجود الحياة، فلن يكون بالإمكان أن نوجد هنا لنطرح هذا السؤال (هذا ما يُسَمَّى بالمبدأ البشريّ [Anthropic Principle]، القائل إنَّنا نستطيع فقط أن نلاحظ سِمات الكون التي تتَّسق وتتوافق مع وجودنا البشريّ).

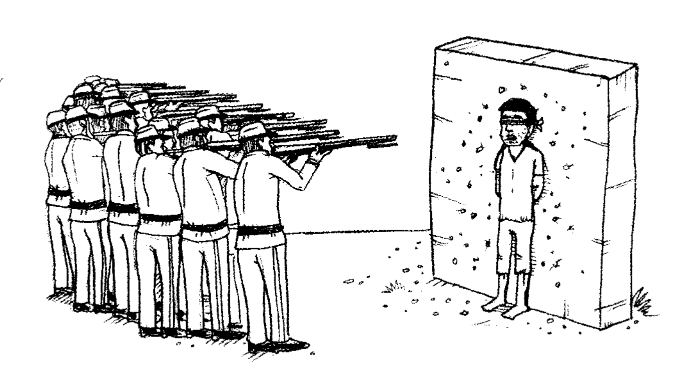
وتتَّسمُ هذه الطريقة في الاستدلال بالمغالطة. فحقيقةُ أنَّنا لا نستطيع أن نلاحظَ ونستوعبَ إلَّا الكون الذي يسمح بإمكانيَّة الحياة- لا تستبعد هذه الحقيقة احتياجنا إلى تفسيرِ وجودِ كَونٍ يسمحُ بالحياة.

ربَّما يسعفُنا مثلٌ آخر هنا أيضًا. تخيَّلْ أنَّك في رحلة إلى خارج البلاد، وأُلقيَ القبضُ عليك ولفِّقَتْ لك تُهمة حيازة مخدِّرات. وبعد توجيه التهمة، جرى اقتيادك لتَقفَ أمام فرقة إعدام مكوَّنة من مئة رجل يحملون الأسلحة ويوجِّهونها إليك على مسافةٍ قريبة منك. وفي لحظةٍ ما تسمع صوت قائد الكتيبة وهو يصرخ: "استعدّ! صَوِّب! أطلِق!" وبعدَها تسمع الصوت المدَوِّي للبندقيَّات، ولكنَّك تلاحظ أنَّك ما زلت على قيد الحياة، فتدرك أنَّ المئة رجل أخطأوا التصويب! ما الذي ستَستَنتجه في هذه الحالة؟

"حسنًا، ظنِّي أنَّه عليَّ ألَّا أُدهَشَ نتيجة إخطاء الرجال المئة التصويب! في نهاية الأمر، لو لم يخطئ هؤلاء، لما وصلتُ إلى هذه اللحظة حتَّى تُصيبني الدهشة! لا شيء آخر يمكن شرحه هنا!"

بالتأكيد لا! صحيح أنَّ عليك ألَّا تُصابَ بالدهشة لأنَّك لا تلحظ أنَّك ميت، لأنَّه لو كنت ميتًا لما استطعتَ أن تلحظ ما يصيبك بالدَّهشة. لكنَّك يجب أن تُصاب بالدهشة لأنَّك ما زلتَ حيًّا، رغم الاحتمال المحدود جدًّا لأنْ يخطئ هؤلاء الرجال التصويب. في حقيقة الأمر، ربَّما تستنتج من هذا

الموقف أنَّ الجنودَ كلَّهم أخطأوا التصويب عمدًا، وأنَّ الموقفَ كلَّه مرتَّبٌ على نحوٍ مسبَّق، وأنَّ شخصًا ما خَطَّطَ لذلك لسببٍ محدَّد.



فرضيَّة العوالم المتعدِّدة

أدرك المُنظِّرُون بناءً على ما سبق أنَّ المبدأ البشريَّ لا يمكن أن يستبعد الحاجة إلى تفسير الضبط الدقيق ما لم يستند هذا التفسير إلى فرضيَّة العوالم المتعدِّدة (Many Worlds Hypothesis). وَفقًا لهذه الفرضيَّة فإنَّ الكونَ الذي نعيش فيه ليس سوى عضوٍ داخلَ كونٍ متعدِّد، أو مجموعة من الأكوان المرتَّبةِ عشوائيًّا، ويبدو أنَّها لامتناهية. إنْ كانَ لكلِّ هذه الأكوان وجودٌ فعليٌّ، فإنَّ الصدفة وحدها ستؤدِّي إلى ظهور بعض العوالم التي تسمحُ بوجود حياة في مكان ما من هذا الكون المتعدِّد. ولأنَّ الأكوان المضبوطة ضبطًا دقيقًا هي وحدها التي فيها مَن لديهم القدرة على الملاحظة، فإنَّ هؤلاء سيَلحظون أنَّ العوالم التي يعيشون فيها مضبوطة ضبطًا دقيقًا. وخلاصة القول لأصحاب هذه الفرضيَّة إنَّه لا حاجة إلى نظريَّة التصميم الذكيِّ لتفسير الضبط الدقيق. المسألة كلُّها محضُ صدفة!

الردُّ الأوَّل على فرضيَّة العوالم المتعدِّدة

إحدى وسائل الردِّ على فرضيَّة العوالم المتعدِّدة هي بإثبات أنَّ الأكوان

فرضيَّةُ العوالم المتعدِّدة تدعم "التصميم الذكيّ" من حيث لا تدري.

المتعدِّدة ذاتها تقوم على الضَّبط الدقيق. وكي تتحقَّق المصداقيَّةُ العلميَّة لتلك الفرضيَّة، فلا بدَّ من وجود آليَّة مقبولة منطقيًّا يمكن بها تكوين هذه العوالم المتعدِّدة. لكنْ إنْ ثبتَ نجاحُ هذه النظريَّة في الربط بين الضبط الدقيق والصدفة وحدها، فإنَّ الآليَّة التي تتكوَّنُ بها العوالم المتعدِّدة يجب هي أيضًا أن تتَّسم بالضبط الدقيق! وإنْ صحَّ ذلك، فإنَّ السؤال يطرح نفسه مرَّةً أخرى: كيف يمكنك تفسير الضبط الدقيق للكون المتعدِّد؟

ويكتنفُ الغموضُ تلك الآليَّاتِ التي يطرحها أصحاب فرضيَّة العوالم المتعدِّدة، والتي تُكوَّنُ بها العوالم المختلفة- ولا تشرح لنا الكيفيَّة التي يمكن بها أن تحكمَ الفيزياء عمل هذه العوالم دون ضبط دقيق. مثلًا، إنْ كانت نظريَّة الأوتار الفائقة هي التي تشكِّل المبادئ الفيزيائيَّة التي تحكم العوالم المتعدِّدة، فإنَّ ذلك يقصر، كما أسلفنا، عن تفسير وجود أحدَ عشرَ بُعدًا فقط لهذه الأكوان. ويَظلُّ أنَّه لا بدَّ أن تستند الآليَّةُ التي تُفعَّلُ بها كلُّ الإمكانيَّاتِ في الفضاء الكونيِّ إلى الضبط الدقيق. من ذلك نخلصُ أنَّ فرضيَّةَ وُجودِ مجموعةٍ من العوالم لا تكفي في حدِّ ذاتها لتعليل الاستناد إلى الصدفة لتكونَ بديلًا عن التصميم الذكيّ.

أصبح الجدل الحاليُّ حول الضبط الدقيق جدلًا حول فرضيَّة العوالم المتعدِّدة. فحتَّى يمكن تفسير الضبط الدقيق يطلبُ البعض أن نؤمنَ بعددٍ لانهائيٍّ من الأكوان التي تتباين ما بينها، وبصورةٍ عشوائيَّة، في ثوابتها وكمِّيَّاتها الجوهرية، فضلًا عن عدم قدرتنا على ملاحظة هذه الأكوان. والغرض من كلِّ ذلك هو دَعْمُ فكرةِ وجود أكوانٍ تسمحُ بوجود الحياة في مجموعة الأكوان المتعدِّدة، وأنْ لا تفسيرَ لظُهورِ هذه الأكوان إلَّا الصدفة. غير أنَّ فرضيَّة الأكوان المتعدِّدة تدعمُ من حيثُ لا تدري فرضيَّة "التصميم الذكيّ". ذلك أنَّ العلماء من أصحاب العقول الواعية لن يندفعوا وراءَ فرضيَّة العوالم المتعدِّدة بما تتضمَّنه من مبالغةٍ لا تستند إلى حقائق ثابتة ما لم يُضطرُّوا اضطرارًا إلى ذلك. لذا، إنْ قال لكَ أحدُهم: "من الممكن أن يكونَ الضَّبط الدقيق قد حدث بالصدفة!"

أو "غير المحتمل أن يحدث!" أو "لم يكن الأمر سوى ضربة حظّ!" اسأله السؤال التالي: "لماذا إذًا يُضطرُّ المعادون للتَّصميم الذكي إلى تبنِّي رؤية خياليَّة مثل فرضية العوالم المتعدِّدة فقط ليتجنَّبوا الإقرار بالتصميم الذكيّ؟"

الردُّ الثاني على فرضيَّة العوالم المتعدِّدة

فضلًا عمَّا ذكرناه، فإنَّ العديد من المُنَظِّرين ينظرون بعين الشكِّ إلى فرضيَّة العوالم المتعدِّدة في حدِّ ذاتها. ما الذي يجعلنا نؤمن بالوجود الفعليِّ لمجموعة من العوالم؟ رأينا في الفصل الرابع أنَّ نظريَّة بورد-غوث-ڤيلنكِن تتطلَّب وجودَ بداية للأكوان المتعدِّدة المكوَّنة من مجوعة أكوان فقَّاعيَّة. وفي هذه الحالة فإنَّ الآليَّة التي تتكوَّنُ بها هذه الأكوان الفقَّاعيَّة كانت قد اختفت لمدَّةٍ محدودة من الزمن. لذا فيمكن الآن وجود عدد محدود من هذه الفقَّاعات في مجموعة العوالم، وهو ما يكفي لضمان وجود كون مضبوط ضبطًا دقيقًا بمحض الصدفة وحدها. لا يوجد لدينا دليل على وجود هذا النوع من مجموعة العوالم الذي تفترضه فرضيَّة العوالم المتعدِّدة.

على النقيض من ذلك، لدينا أسباب جيِّدة ومستقلَّة تجعلنا نؤمن بوُجود مُصَمِّم لهذا الكون، كما نرى في الحجج التي صاغها كل من لَيبنِتز والغزالي.

الردُّ الثالث على فرضيَّة العوالم المتعدِّدة

فضلًا عن ذلك كلِّه، فإنَّ فرضيَّة العوالم المتعدِّدة تواجه اعتراضًا قد يصيبها في مقتل. هل تتذكَّر الفرضيَّة التي طرحها بولتزمان عن العوالم المتعدِّدة، والتي ناقشناها في الفصل الرابع؟ الحقيقة التي أسقطت هذه الفرضيَّة يمكن صياغتها في ما يلي: إنْ كان عالمنا هو مجرَّدَ عضوٍ داخل مجموعة من العوالم الموزَّعة عشوائيًّا، فنتيجة ذلك وجود احتمالات كبيرة لأنْ يفتقر الفضاء الكونيُّ حولنا إلى النظام. ويتبدَّى لنا هنا أنَّ مشكلةً موازيةً

ناقش

إذا وضعنا في الحسبان الثغرات الموجودة في فرضيَّة العوالم المتعدِّدة، فلماذا تعتقد أنَّ العديد من الناس يميلون إلى تفضيل فكرة الصدفة عن وجود "مصمِّم" لهذا الكون؟

تواجهُ فرضيَّة العوالم المتعدِّدة التي تحاول أن تفسِّرَ الضبط الدقيق للكون بعيدًا عن التصميم الذكيّ.

طرح روجر پنروز هذا الاعتراض بكلِّ قوَّة، فقد أشار إلى أنَّ احتمالَ وجود قصور حراريٍّ في الكون بمحض الصدفة هو واحد إلى $١٠^{١٠^{(١٢٣)}}$. على النقيض من ذلك، فإنَّ احتمالات أن يتكوَّن نظامنا الشمسيُّ فجأةً بالتصادم العشوائيِّ للجزيئات بالصدفة هي واحد إلى $١٠^{١٠^{(٦٠)}}$. ووَفقًا لتعبير پنروز، فإنَّ الرقم الثاني ليس إلَّا شيئًا زهيدًا إذا ما قُورن بالأوَّل. معنى ذلك أنَّ احتمال وجود كون منظَّم لا يتجاوز في حجمه نظامنا الشمسيَّ يتجاوز أيَّ احتمال آخر، ذلك أنَّ احتمالات وجود كون أكبر من كَونِنا الذي يتَّسم بالضَّبط الدقيق هي احتمالات لامتناهية.

في حقيقة الأمر، نحن نصل بهذا المنطق إلى حالة الوهم نفسها التي أحاطت بفرضيَّة بولتزمان، والتي ترى أنَّ وجودَ عالم صغير مع وَهْم وُجود كَونٍ أكبرَ منظَّمٍ، هو أكثر احتمالًا من كون حقيقيٍّ يتَّسم بالضَّبط الدقيق. وعندما تأخذ هذه الفرضيَّة توجُّهًا متطرِّفًا فهي تؤدِّي إلى ما أطلقَ عليه المُنظِّرون اسم "غزو العقليَّات الشبيهة بعقليَّة بولتزمان"؛ لأنَّ الكونَ القابلَ للملاحظة والمحتَمَلُ وجوده هو كَونٌ يتكوَّن من عقلٍ واحدٍ يخرجُ إلى الوجود نتيجةً لتصوُّرات وهميَّة عشوائيَّة عن وجود كون منظَّم! لذا، فلو قبلْنا بفرضيَّة العوالم المتعدِّدة، فنحن مُضطرُّون لأنْ نقبل بأنَّ عقولنا هي الوحيدة الموجودة، بينما هذا الكتاب وجسدك والأرض وكلُّ شيء تدركه في هذا العالم ليس سوى تخيُّلات.

لا يوجد عاقل يقبل أن يؤمن بأنَّه مجرَّد "عقل" كما تصوَّره بولتزمان. إذًا فوجهة النظر الإلحاديَّة ترى احتمالًا كبيرًا لوجود مجموعة من العوالم المنظَّمة تنظيمًا عشوائيًّا. الأمر المثير للسخرية هنا أنَّ الأملَ المتبقِّيَ للمنحازين لفرضيَّة الكون المتعدِّد لإثبات صحَّة فرضيَّتهم هو أنَّ الله هو الذي خلق هذا الكون ونظَّم العوالم الموجودة فيه على نحوٍ أبعد ما يكونُ عن العشوائيَّة. ووجود الله

هو الذي يرجِّحُ كفَّةَ الفرضيَّة القائلة بوجود عوالمَ متعدِّدة قابلةٍ للملاحظة، وتتَّسمُ بالضبط الكونيِّ الدقيق. لذا فإنَّ فرضيَّة العوالم المتعدِّدة تحتاج إلى وجود الله لتصبحَ مقبولةً منطقيًّا.

ومع تهافت فرضيَّة العوالم المتعدِّدة ينهار آخر حصنٍ دفاعيٍّ لمن يتبنَّون فكرةَ الصدفة؛ إذ ليس في وُسعِ الضَّرورة الفيزيائيَّة ولا الصدفة أن يقدِّما تفسيرًا مقبولًا للضَّبط الدقيق الذي يتَّسم به الكون.

التصميم الذكي: اعتراض دوكينز

وماذا بشأن فكرة "التصميم الذكيّ"؟ هل تقدِّم إلينا هذه الفكرة تفسيرًا أفضل للضبط الدقيق ممَّا تقدِّمه إلينا الضرورة الفيزيائيَّة أو الصدفة؟ أم أنَّ كلَّ التفسيرات تتساوى في عدم احتماليَّتها؟

يعترض المعارضون للتصميم الذكيِّ على هذه الفرضيَّة حاسبينَ أنَّ فكرة المصمِّم الكونيِّ ذاته فكرة لم تجد من يفسِّرها. هذا الاعتراض هو ما وصفه ريتشارد دوكينز بقَوله إنَّه: "الحُجَّة المحوريَّة في كتابي"، والإشارة هنا إلى كتابه "**وهم الإله**"[٢] (*The God Delusion*). ويوجِزُ دوكينز حُجَّته كما يلي:

١. واحدة من أعظم التحدِّيات التي واجهت العقل البشريَّ هي تفسير التصميم المعقَّد للكون والذي يبدو أنَّه غير محتَمَلِ الحدوث.

٢. الميل الطبيعيُّ لأن ننسبَ ما يبدو في الظاهر كأنَّه تصميم إلى وجود تصميم فعليّ.

٣. هذا الميل خاطئ بالضَّرورة؛ لأنَّ فرضيَّة وجود مُصَمِّم تثير سؤالًا أكبر هو: مَن صمَّمَ المصمِّم؟

٤. التفسير الأقوى والأكثر إقناعًا لما يبدو تصميمًا في الكون هو التطوُّر بالانتخاب الطبيعيِّ كما شرحه داروين.

٥. لا يوجد لدينا تفسير موازٍ للفيزياء.

٦. يجب ألَّا نيأس من إمكانيَّة وجود تفسيرٍ أفضلَ في عالم الفيزياء- تفسيرٍ يتَّسم بقوَّة الداروينيَّة في علم الأحياء.

بناءً على ذلك، فإنَّ المرء يكاد أن يجزمَ بعدم وجود الله.

المذهبُ الطبيعيّ

يقومُ المذهبُ الطبيعيُّ على الاعتقاد أنَّ ما يجب أن يحظى باهتمامنا هو التفسيرات الطبيعيَّة للظواهر (في مقابل التفسيرات الفائقة للطبيعة). ولأنَّ فكرة المصمِّم تُعدُّ أمرًا فائقًا للطبيعة- أي مجاوزًا لها- فإنَّ المذهب الطبيعيَّ يستبعد هذا التفسير بغضِّ النظر عن الأدلَّة المتاحة.

عدم مصداقيَّة حُجَّة دوكينز: النتيجة لا تتَّسق مع المقدِّمات

يشوبُ حُجَّة دوكينز الضَّعف والتهافُتَ لأنَّ النتيجة الإلحاديَّة القائلة: "بناءً على ذلك، فإنَّ المرء يكاد أن يجزمَ بعدم وجود الله"، لا تتَّسقُ مع المقدِّمات الستِّ السابقة، حتَّى لو صحَّت كلُّ واحدة منها على حدة. لا توجد أيُّ قواعد منطقيَّة يمكن أن تسمحَ بمثل هذا الاستدلال. فحُجَّة دوكينز تفتقر افتقارًا واضحًا إلى المصداقيَّة.

كلُّ ما نستخلصه من حُجَّة دوكينز أنَّنا يجب ألَّا نستنتج وجود الله بناءً على ظهور التصميم في الكون. لكنَّ واقع الحال يقول إنَّ هذه النتيجة تتَّفقُ مع إيماننا بوجود الله ومع إيماننا المعلَّلِ علميًّا بوجود الله. ربَّما يستند إيماننا بالله إلى الحُجَّة الكونيَّة أو الحُجَّة الأخلاقيَّة. وربَّما لا يستند هذا الإيمان إلى أيَّة حُجَّة بتاتًا، بل يقوم على اختبار روحيٍّ أو إعلان إلهيّ. الفكرة الأساسيَّة هنا أنَّ رَفْضَ الحُجج الداعمة للتصميم الذكيِّ والمؤيِّدة لوجود الله لا يقدِّمُ شيئًا يُثبتُ صحَّة الإلحاد أو أنْ ليس هناك ما يبرِّرُ الإيمان بالله. الواضح للعِيانِ هنا هو افتقار دوكينز إلى أيِّ عُمقٍ فلسفيّ.

زَيفُ المقدِّمات التي يستند إليها دوكينز

لكنَّ السؤال المطروح هنا: هل تنجح حُجَّة دوكينز في هدم الحُجَّة الداعمة للتصميم الذكيّ؟ إجابتي هي بالنفي القاطع؛ لأنَّ العديد من الخطوات التي تُبنى عليها هذه الحُجَّة تحتمل الخطأ. وتشير الخطوة رقم ٥ إلى الضبط الكونيِّ الدقيق وهو موضوع نقاشنا. وهنا لا يملك دوكينز ما يفسِّر به الضبط الدقيق، ومن ثمَّ فالأمل الذي يعبِّر عنه في الخطوة السادسة ليس سوى إيمانٍ لعالم ينتمي إلى المذهب الطبيعيّ.

فضلًا عن ذلك، تأمَّل مثلًا الخطوة الثالثة. هنا يزعم دوكينز أنَّه لا يوجد مسوِّغ لاستنتاج أنَّ التصميمَ الذكيَّ هو أفضل تفسير للنظام المعقَّد الموجود في الكون؛ لأنَّ ذلك سيفتح أمامنا الباب للسؤال: مَن صمَّم المصمِّم؟

المشكلة الأولى في الخطوة الثالثة: لستَ بحاجة لأن تفسِّر التفسير

هذا الزعم متهافتٌ لسببَين على الأقلّ. أوَّلًا، حتَّى تدرك صحَّة أيِّ تفسير وأفضليَّته عن غيره، فأنت لا تحتاج لأنْ يُتاحَ لك تفسيرٌ لهذا التفسير. هذه فكرة ابتدائيَّة في فلسفة العلم. لو عثرَ علماء الآثار وهم يحفرون الأرض على ما يُشبه رؤوسَ سِهام وشظايا أواني فَخَّاريَّة، فإنَّ لدى هؤلاء العلماء من الدلائل ما يجعَلُهم يستنتجون أنَّ مثل هذه الأشياء ليسَتْ نتاجًا لعمليَّات الترسيب والتحوُّل التي حدثت صدفةً، بل هي أمورٌ تخصُّ مجموعةً غير معروفة من الناس، حتَّى لو كان هؤلاء العلماء غير قادرين على تقديم تفسيرٍ لهُويَّةِ هؤلاء الناس ومن أين أتَوا. بصورةٍ مشابهة، لو افترضنا أنَّ مجموعةً من رجال الفضاء عثروا على بقايا آلة من الآلات في الجانب الخلفيِّ من القمر، فلدى هؤلاء ما يسوِّغُ الاستنتاجَ أنَّ هناك كائناتٍ عاقلةً ذكيَّةً أنتجتْ هذه الآلة، حتَّى لو لم تكن لديهم فكرة عن هُويَّةِ هذه الكائنات، ولا عن الكيفيَّة التي وصلوا بها إلى هذه البقعة من القمر.

لذلك فإنَّك لا تحتاجُ لأنْ تفسِّرَ التفسيرَ الذي تدركُ أنَّه أفضل التفسيرات المتاحة للظواهر. في حقيقة الأمر، ستؤدِّي بنا هذه الطريقة في التفكير إلى عدد غير محدود من التفسيرات في كلِّ مرَّةٍ نحاول فيها تفسير التفسير، وهو ما يجعلنا في النهاية غير قادرين على تفسير أيِّ شيء، ممَّا يهدم العلم من أساسه! لأنَّك في هذه الحالة لن تقبلَ بأيِّ تفسير قبل أن يكون هناك تفسيرٌ له، وقبل أن يكونَ هناك تفسيرٌ للتفسير، ثمَّ تفسير لتفسير التفسير، وهكذا دواليك... لن نستطيعَ تفسير شيء على هذا النحو.

بتطبيق ذلك على حالتنا، فإنَّه ليست هناك حاجةٌ إلى تفسير "المصمِّم" حتَّى ندرك أنَّ "التصميم الدقيق" هو أفضل تفسير لوجود "التصميم" كما

يظهر في هذا الكون. إنْ كان هناك تفسير للمصمِّم، فهذه قضيَّة يمكن طرحها في إطارِ سؤالٍ مستقلٍّ على البحث المستقبليّ.

المشكلة الثانية في الخطوة الثالثة: الله بسيط بصورةٍ لافتة

الأمر الثاني أنَّ دوكينز يعتقد أنَّه في حالة وُجود مصمِّم إلهيٍّ لهذا الكون، فلا بدَّ أن يكونَ هذا المصمِّم معقَّدًا تمامًا كالظاهرة المعقَّدة التي نحاول تفسيرها، لذلك لن يتسنَّى لنا تفسيره. يثير هذا الاعتراض العديد من الأسئلة حول الدور الذي تلعبُه مسألة "البساطة" في تقييم التفسيرات المتباينة للظواهر المختلفة. مثلًا هناك العديد من العوامل الأخرى غير البساطة التي يضعها العلماء في الحسبان عند تقييمهم لأفضل التفسيرات، منها- مثلًا- القوَّة التفسيريَّة، والمدى التفسيريّ، وما إلى ذلك. إنَّ تفسيرَ ما له مدى تفسيريٌّ أوسعُ من غيره قد يكون أقلَّ بساطةً من تفسير مناقض، لكنَّه مع ذلك يحظى بالقبول لأنَّه يفسِّر عددًا أكبر من الظواهر. البساطة ليسَتِ المعيارَ الوحيدَ أو المعيارَ الأهمَّ في تقييم النظريَّات.

لكنْ متى تركنا هذه القضايا جانبًا، لوجدنا أنَّ الخطأ الأساسيَّ الذي وقع فيه دوكينز هو افتراضه أنَّ "المصمم الإلهيَّ" يتَّسم بدرجة التعقيد نفسها التي يتَّسم بها الكون، وهذا افتراضٌ خاطئٌ تمامًا؛ لأنَّ الله عقلٌ خالصٌ دون جسد، فهو كِيانٌ بسيط جدًّا، وليس العقل (أو الروح) كِيانًا مادِّيًّا مكوَّنًا من أجزاء. على النقيض من الكون المتغيِّر والمتعدِّد الجوانب بكلِّ ما فيه من ثوابت وكمِّيَّات يصعب تفسيرها، فإنَّ العقل الإلهيَّ بسيط بصورةٍ لافتة. ودون شكّ، فإنَّ لهذا العقلِ **أفكارًا** معقَّدة- كأنْ يفكِّرَ مثلًا في حسابات رياضيَّة متناهيةِ الصغر- لكنَّ هذا العقلَ **ذاته** هو كيان روحيٌّ غاية في البساطة. وهنا التبسَ الأمر على دوكينز، فخلط ما بين الأفكار التي ينتجها العقل والتي يمكن أن تكونَ معقَّدة

ناقش

إذا ما وضعنا في الحسبان الثغراتِ الموجودة في المنهج الاستدلاليِّ عند دوكينز، فكيف تفسِّر الشعبيَّةَ الكبيرةَ التي يحظى بها كتابه (الذي وصلت مبيعاته إلى ١,٥ مليون نسخة)؟ بِغَضِّ النظر عن المنطق، ما العوامل الأخرى التي يمكن أن تفسِّر هذه الشهرة؟

حقًّا، والعقل نفسه الذي يُعدُّ كِيانًا بسيطًا على نحوٍ مذهل. لذا فإنَّ افتراض وجود عقل إلهيٍّ وراء الكون يُعبِّر بصورةٍ واضحة عن تطوير لبساطة الحُجَّة.

ناقش

إنْ كان هناك فعلًا مصمِّمٌ ضبطَ الكونَ على هذا النحو الدقيق، فما الذي يمكن أن نتعلَّمه عن هذا المصمِّم بالاستعانة بالدقَّة المتناهية التي يتَّسم بها هذا التعقيد اللازم لوجود عالمنا؟

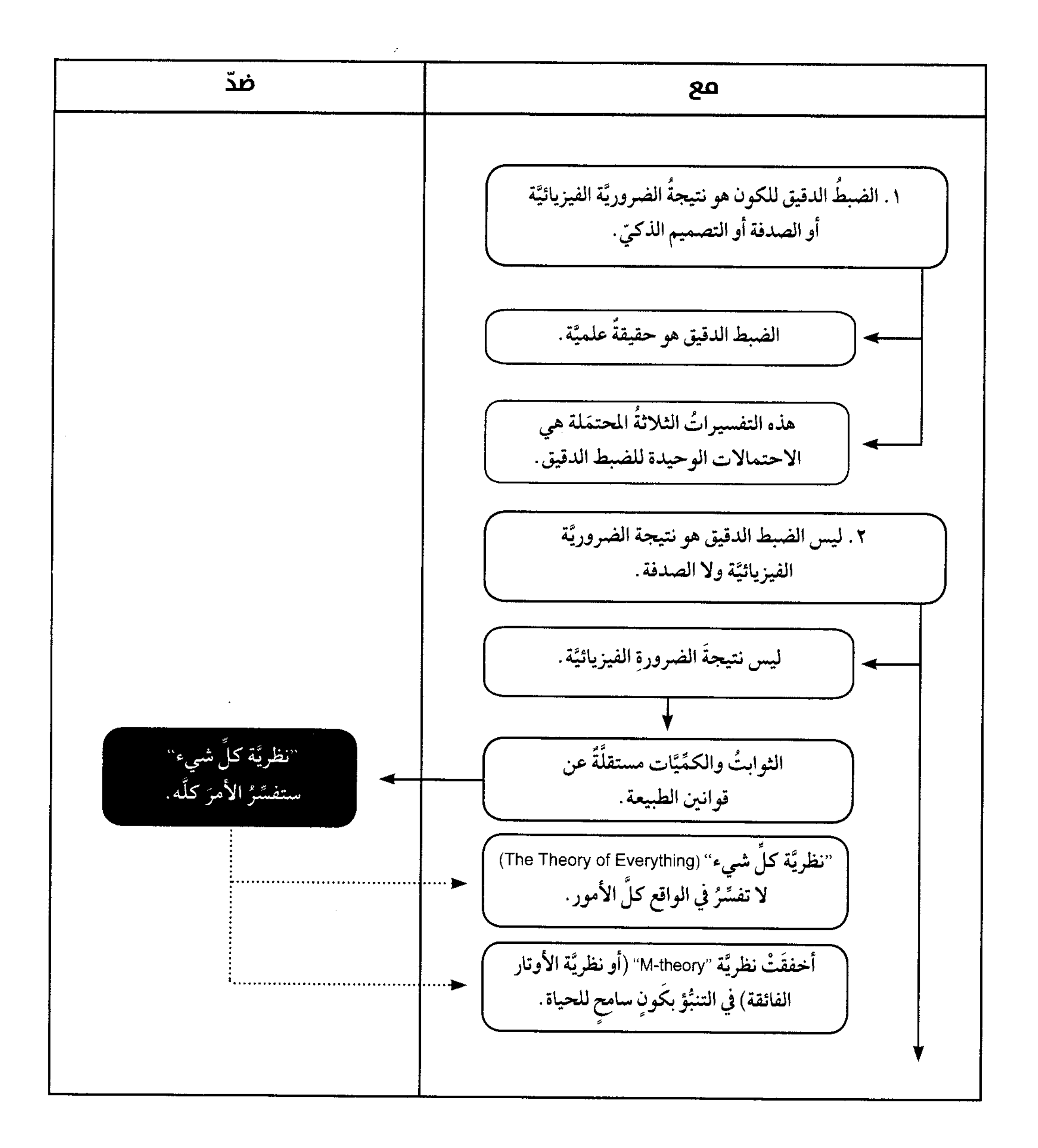
بعض المقدِّمات الأخرى في حُجَّة دوكينز تتضمَّن إشكاليَّات أخرى أيضًا، ولكنْ يكفينا ما ذكرناه لبيان أنَّ حُجَّته لا تقدِّم شيئًا من شأنه أن يهدِّدَ حُجَّةَ الضبط الدقيق الداعمة لوجود مُصمِّم للكون، فضلًا عن استخدامها في تسويغ الإلحاد.

منذ عدَّة سنوات وصفَ الفيلسوف الملحد كوينتِن سميث (Quentin Smith) حُجَّة ستيفن هوكينغ ضدَّ الله، والتي طرحها في كتابه "**تاريخ موجز للزمن**" *(A Brief History of Time)* مانحًا إيَّاها لقب "أسوأ حُجَّة إلحاديَّة في تاريخ الفكر الغربيّ".[3] والآن بعد نشر كتاب "وهم الإله"، أعتقد أنَّ الوقتَ قد حان لمنح هذا اللقب لريتشارد دوكينز بدلًا من هوكينغ.

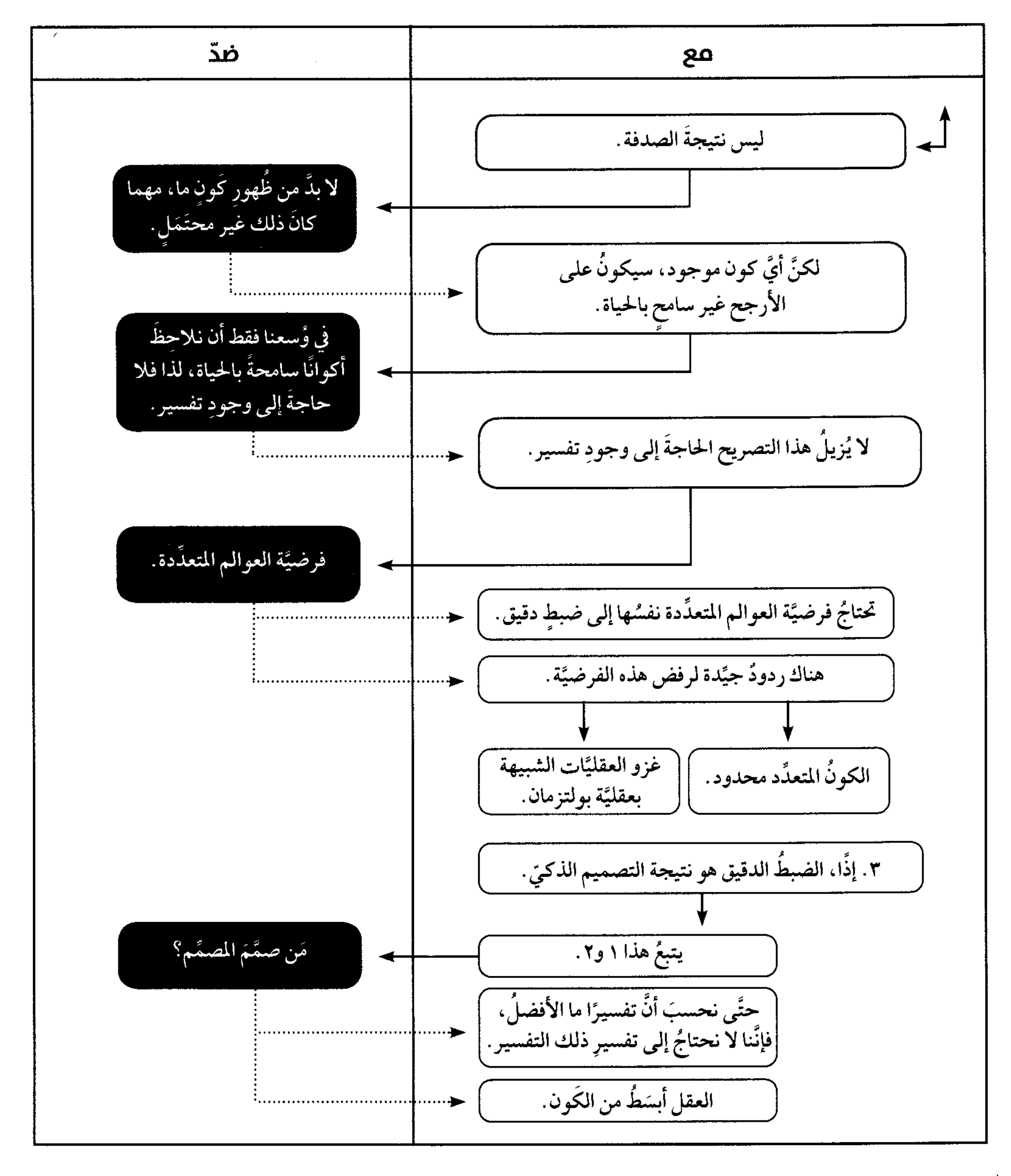
خاتمة

يتَّضح لنا، بناءً على ما سبق، أنَّ من بين البدائل الثلاثة المطروحة أمامنا- الضرورة الفيزيائيَّة والصدفة والتصميم الذكيّ- فإنَّ البديل الأكثر قبولًا واحتمالًا هو التصميم الذكيّ. ولعلَّ أفلاطون وأرسطو كانا سيُسعَدان كلَّ السعادة لو عَلِما بقدرة العلم الحديث على تأكيد رأيِهما. أمامنا الآن حُجَّةٌ ثالثة نبني عليها قضيَّتنا للدفاع عن وجود الله.

حُجَّة التصميم (الضبط الدقيق)



حُجَّة التصميم (الضبط الدقيق)



الفصل السادس

هل يمكننا أن نكونَ صالحين دون الله؟

"ليس أحد صالحًا إلّا واحد وهو الله" (مرقس ١٠: ١٨).

هل يمكننا أن نكون صالحين دون الله؟

قد تبدو الإجابة عن هذا السؤال في البداية واضحة جدًّا لدرجة تزيد معها احتماليَّة إغضاب الناس؛ فمع أنَّ المسيحيِّين يجدون في الله مصدرًا لقوَّة أخلاقيَّة تساعدنا أن تكونَ حياتنا أفضل من تلك الحياة التي كنَّا لنحياها دونه، فإنَّ لِمن الغرور والجهل ادِّعاء أنَّ حياة غير المؤمنين ليست في الغالب أخلاقيَّة صالحة، بل في الواقع هي أحيانًا تُشعِرنا بالخجل.

ولتنتظر لحظة! مع أنَّ من الغرور والجهل ادِّعاء أنَّ الناس غير قادرين أن يكونوا صالحين دون **الإيمان** بالله، فلم يكن هذا هو السؤال؛ إذ كان السؤال هو: هل يمكننا أن نكون صالحين **دون الله**؟ حين نطرح ذلك السؤال نسألُ عن طبيعة القيم الأخلاقيَّة، فهل القِيَم التي نجلُّها وتقود حياتنا هي فقط أعراف اجتماعيَّة، مثل القيادة على الجانب الأيمن من الطريق مقابل القيادة على الجانب الأيسر منه؟ أم مجرَّد تعبير عن الاستحسان الشخصيِّ، مثل تفضيل مذاق أطعمة معيَّنة؟ أم أنَّها صالحة ومُلزمة، بالاستقلال عن رأينا، وإذا كانت القيم متجرِّدة بهذه الطريقة، فما أساسها؟

ما أساس قيمنا؟

هل تُبنى قيمُنا على:

١. العُرف الاجتماعيّ؟

٢. الاستحسان الشخصيّ؟

٣. التطوُّر؟

٤. الله؟

حُجَّة أخلاقيَّة مؤيِّدة لوجود الله

اعتقد الكثير من الفلاسفة أنَّ الأخلاقيَّات تقدِّم حُجَّة جيِّدة لوجود الله، ومِن أحسن هؤلاء وليَم سورلي (William Sorley) والذي كان أستاذًا للفلسفة الأخلاقيَّة في جامعة كامبردج. ففي كتابه "**القيم الأخلاقيَّة وفكرة الله**" *(Moral Values and the Idea of God)* في عام ١٩١٨م، يقول سورلي إنَّ أفضل رجاء من أجل نظرة عقلانيَّة موحَّدة للواقع هو في افتراض أنَّ الله هو أساسُ النظامَين الطبيعيّ والأخلاقيّ كلَيهما.

ويقول سورلي إنَّ هناك نظامًا أخلاقيًّا موضوعيًّا، وهذا النظام حقيقيٌّ ومستقلٌّ عنَّا تمامًا مثلما هي الحال في النظام الطبيعيّ للأشياء، ويعترف أنَّه لا يمكننا إثبات وجود قيم أخلاقيَّة موضوعيَّة، لكنَّه يشير إلى أنَّه بذلك المنطق لا يمكننا إثبات وجود العالم الطبيعيّ للأشياء المادِّيَّة أيضًا! (يمكن أن تكون جسدًا مستلقيًا تختبر واقعًا افتراضيًّا)، لذا فالنظام الأخلاقيُّ والنظام الطبيعيُّ على قدم المساواة، فتمامًا كما نفترض واقعيَّة عالم الأشياء على أساس اختبارنا الحسِّيّ، نفترض واقعيَّة النظام الأخلاقيّ على أساس اختبارنا الأخلاقيّ.

في رأي سورلي، النظام الطبيعيُّ والنظام الأخلاقيُّ كلاهما جزءٌ من الواقع، لذا فالسؤال هو: أيُّ نظرة يمكن أن تدمج هذين النظامَين في أكثر الأشكال التفسيريَّة تماسكًا؟ رأى سورلي أنَّ أفضل تفسير هو الله؛ إذ لا بدَّ من وجود عقل أزليٍّ غير محدود خَطَّط الطبيعة، وله غرضٌ أخلاقيٌّ ينفِّذه الإنسانُ والكونُ بالتدريج.

ناقش

ما ردُّك على فكرة أنَّ العالم الأخلاقيّ الموضوعيّ هو بواقعيَّة العالم المادِّيّ الموضوعيّ؟ ولماذا؟

صادفتُ شخصيًّا الحُجَّة الأخلاقيَّة بينما كنتُ أتحدَّث في الجامعات بشأن عبثيَّة الحياة دون الله؛ فقد كنتُ أرى أنَّه إنْ لم يكن الله موجودًا فلا يوجد أساسٌ لقيم أخلاقيَّة موضوعيَّة، إذ يُصبح كلُّ شيء نسبيًّا. ما أدهشني هو أنَّ في ردِّ الطلَّاب إصرارٌ على وجود قيم أخلاقيَّة موضوعيَّة؛ فهناك حقًّا أمورٌ معيَّنة توصَف بالصَّواب أو الخطأ.

لم يدحض ما قاله الطلّاب ما تكلّمتُ عنه أنّ القيم الموضوعيّة غير موجودةٍ دون الله، فبدلَ ذلك قدّموا إليَّ على نحوٍ عفويٍّ المقدّمة المفقودة في حُجّة أخلاقيّة تؤيّد وجود الله! إذ يمكننا الآن أن نقول:

١. إذا كان الله غير موجود، فلا توجد قِيَم وواجبات أخلاقيّة موضوعيّة.

٢. توجد بالفعل قِيَم وواجبات أخلاقيّة موضوعيّة.

٣. إذًا الله موجود.

من السهل حفظ هذه الحُجّة الصغيرة وهي أيضًا حُجّة قويّة منطقيًّا. وبينما حاججتُ مؤيّدًا حقيقة المقدّمة الأولى أصرَّ الطلّابُ على الثانية، والمقدّمتان معًا تعنيان وجود الله.

ما يجعل هذه الحُجّة بهذه القوّة هو تصديق الناس عمومًا للمقدّمتَين؛ ففي عصر تعدُّديٍّ يرتعبُ الطلّاب جدًّا من فَرْض قِيَمهم على شخصٍ آخر، لذا تبدو لهم المقدّمةُ الأولى صحيحةً بما فيها من نسبيّة ضمنيّة. وفي الوقت نفسه، غُرِستْ فيهم بعض القيم المعيّنة، مثل التسامح وانفتاح الذهن والمحبّة، فيعتقدون أنّ من **الخطأ** موضوعيًّا أن تفرضَ قِيَمَك على شخصٍ آخر! لذا يلتزمون بِعمقٍ المقدّمةَ الثانية أيضًا.

من الممكن أن يقود هذا إلى محادثات غريبة جدًّا. فأذكر مرّة حين كنتُ أتكلّم مع أحد الطلّاب وكان يتنقّلُ ذهابًا وإيابًا ما بين المقدّمتين، فحين كنّا بصدد التكلُّم عن المقدّمة الأولى كان يتّفق معها وينكر المقدّمة الثانية، وحين كنّا ننتقل إلى المقدّمة الثانية كان يتّفق معها منكرًا الأولى، وهكذا كنّا نتحرّكُ ذهابًا وإيابًا وهو غير قادر على الاستقرار على رأي واحد! كان الأمر ليَبدوَ مسلّيًا لو لم يكن موجعًا للقلب بهذا الشكل أن ترى شخصًا يتخبّط في طريقه في محاولة يائسة لتجنُّب الله.

ناقش

هل سبقَ أن تحدَّثتَ إلى شخص وقال لك إنّه ليستْ هناك قِيَم أخلاقيّة موضوعيّةٌ تنطبقُ على الجميع؟ إنْ كان الأمر كذلك، كيف تعامَلَ هذا الشخص مع قِيَم مثل التسامح والمحبّة؟

لنفحص الآنَ مقدّمَتَي هذه الحُجّة بُغية الوصول إلى دفاع عنهما يمكنك تقديمه، مع فحصِ الاعتراضات التي تبرزُ عليهِما.

المقدّمة الأولى

إذا كان الله غير موجود، فلا توجد قِيَم وواجبات أخلاقيَّة موضوعيَّة

تمييزان مهمّان

تتضمَّن المقدِّمة الأولى تمييزين مُهمَّين ينبغي إدراكُهما قبل أن نتمكَّن من النظر إلى الأسباب التي تجعلنا نجزمُ بصحَّة تلك المقدِّمة.

القِيَم والواجبات

أوَّلًا، لاحظ أنِّي أميِّز بين القِيَم والواجبات؛ إذ تتعلَّق القيم بما إذا كان شيء ما صالحًا أم سيِّئًا، أمَّا الواجبات فتتعلَّق بما إذا كان شيء ما صائبًا أم خاطئًا. قد تظنُّ في البداية أنْ لا فارقَ بين هذين الأمرَين هذا؛ لأنَّ "صالح" و"صائب" يعنيان الأمر نفسه. وينطبق الأمر نفسُه على "سيِّئ" و"خاطئ"، لكنْ عند التفكير في الأمر، سترى أنَّ الأمرَ ليس كذلك.

يتعلَّق الواجب بالالتزام الأخلاقيِّ، ما يجب أن تفعله وما يجب ألَّا تفعله، لكنَّك بالتأكيد لستَ ملزَمًا أخلاقيًّا أن تفعل شيئًا لمجرَّد أنَّ من الصالح لك أن تفعله، فمثلًا: من الصالح لك أن تصيرَ طبيبًا، لكنَّك لستَ مُلزَمًا أخلاقيًّا أن تصيرَ طبيبًا؛ فسيكون من الصالح أن تصيرَ مزارعًا أو تصيري دبلوماسيَّة أو ربَّة منزل، لكنَّنا لا نستطيعُ أن نكونَ كلَّ هذا. علاوة على ذلك، تجدُ في بعض الأحوال أنَّ كلَّ الخياراتِ المتاحةِ سيِّئة (مثلما حدث في فيلم "اختيار صوفي")*، لكنَّه ليس خطأً أن تختار أحدها، إذ أنت مُضطرٌّ إلى الاختيار.

هناك إذًا فرقٌ ما بين الصالح/السيِّئ والصائب/الخاطئ، إذ يتعلَّقُ

---

* فيلم "اختيار صوفي" (Sophie's Choice)، يتناوَلُ قصَّة مهاجِرةٍ بولنديَّة كانت معتقلةً في معسكر أوشفتز النازيّ. وقد اعترفَت في أحد مشاهدِ الفيلم أنَّ النازيِّينَ طلبوا إليها أن تختارَ مَن بين ابنَيها سيُرسَلُ إلى الموتِ بأفران الغاز، ومَن سيُرسَل إلى معسكرات العمل الشاقِّ، التي كانت نتيجتُها الموتَ غالبًا. وهذا هو المقصودُ بأنَّ كلا الخِيارَين المطروحَين هما خِياران سيِّئانِ (الناشر).

الأوّل بقيمة شيء ما، بينما يتعلّق الثاني بمدى كَون شيء ما إلزاميًّا.

القيم والواجبات

تشير القيمة الأخلاقيّة إلى نوع الشخص أو الفعل، ما إذا كان صالحًا أو سيِّئًا، أمَّا الواجب الأخلاقيُّ فيشير إلى كوننا ملزَمين أن نتصرَّف بطريقةٍ ما، إنْ كان التصرُّف صائبًا أم خاطئًا.

الموضوعيُّ والشخصيُّ

ثانيًا، هناك تمييز ما بين كَونِ الأمر **موضوعيًّا وشخصيًّا**، وأعني بكلمة **موضوعيّ** أنّه "مستقلٌّ عن آراء الناس"، وبكلمة **شخصيّ**، أنّه "معتمدٌ على آراء الناس الشخصيَّة"، لذا فقَول إنَّ هناك قِيَمًا أخلاقيَّةً موضوعيَّة هو قَولُ إنَّ أمرًا ما صالحٌ أو سيِّئ بغضِّ النظر عن رأي الناس فيه.

بالمِثل، القَول إنَّ لدينا واجبات أخلاقيَّة موضوعيَّة هو القَول إنَّ هناك بعض الأفعال هي صائبةٌ أو خاطئةٌ لنا، بغضِّ النظر عمَّا يعتقده الناس.

ناقش

اكتب قائمة ببعض القيم- أيْ بعض الأمور التي تؤمن بأنَّها إمَّا صالحة وإمَّا سيِّئة، ثمَّ اكتب قائمة ببعض الواجبات- أي بعض الأمور التي تؤمن بأنَّها إمَّا صائبةٌ وإما خاطئة. قارن قائمتَيك بقائمتَي شخص آخر لتتحقَّقَ من أنَّكَ تميِّزُ تمامًا ما بين الأمرَين.

فمثلًا، القَوْل إنَّ المحرقةَ النازيَّة كانت خاطئةً من الناحيةِ الموضوعيَّة هو القَوْل إنَّها كانت خاطئةً حتَّى لو كان النازيُّون الذين نفَّذوها يعتقدون أنَّها كانت صوابًا، ولظلَّت خطأً حتَّى لو انتصرَ النازيُّون في الحرب العالميَّة الثانية ونجحوا في إبادة كلِّ مَن يعارضهم أو غسل دماغه ليُصدِّقَ الجميع أنَّ المحرقةَ كانت صائبةً.

تؤكِّد المقدِّمة الأولى أنَّه إذا لم يكن الله موجودًا لما كانت القِيَم والواجبات الأخلاقيَّة موضوعيَّة على هذا النحو.

الدفاع عن المقدّمة الأولى

القِيَم الأخلاقيَّة الموضوعية تستلزم الله

فَلْنَرَ أوَّلًا القيم الأخلاقيَّة، فقد استندَتِ القيم الأخلاقيَّة تاريخيًّا إلى الله، والذي هو الخير الأسمى. لكنْ إذا لم يكن الله موجودًا فما أساس القيم الأخلاقيَّة؟ وبالتحديد، لماذا الاعتقاد أنَّ هناك قيمة للإنسان؟ الشكل الأكثر انتشارًا للإلحاد ينبع من "المذهب الطبيعيّ" (أو الفلسفة الطبيعيَّة)، والتي تنادي أنَّ الأمورَ الوحيدةَ الموجودةَ هي الأشياء الموصوفة بأفضل نظريَّاتنا العلميَّة. لكنَّ

العلم محايدٌ أخلاقيًّا؛ إذ لا يمكنك أن تجدَ قِيمًا أخلاقيَّة في أنبوب اختبار، ويستتبع ذلك مباشرة أنَّ القيم الأخلاقيَّة غير موجودة، بل هي مجرَّد أوهام لدى البشر.

حتَّى وإنْ كان الملحد على استعداد للذَّهاب إلى ما وراء حدود العلم، فلماذا الاعتقاد أنَّ البشر ذوو قيمة، بافتراض تبنِّي وجهة النظر الإلحاديَّة؟ من وجهة نظر الفلسفة الطبيعيَّة، ليسَتِ القيم الأخلاقيَّة سوى ناتج ثانويٍّ للتطوُّر البيولوجيِّ والتكيُّف الاجتماعيِّ، فتمامًا مثلما يُظهر قَطيعٌ من قرود البابون سلوكًا تعاونيًّا، بل مضحِّيًا بالنفس- لأنَّ الانتخابَ الطبيعيَّ حدَّد أنَّ ذلك مفيدٌ في الصراع من أجل البقاء- كذلك يُظهر ابن عمِّهم الأكبر الإنسان العاقل *(Homo sapiens)* سلوكًا مشابهًا للسبب نفسه. ونتيجة للضُّغوط البيولوجيَّة الاجتماعيَّة، تطوَّر ما بين الإنسان العاقل نوعٌ من "أخلاقيَّات القطيع"، والتي تقوم بِدَورٍ جيِّد في استبقاء نَوعِنا.

لكنْ بناءً على النظرة الإلحاديَّة لا يبدو هناك شيء بشأن الإنسان العاقل ليجعل من أخلاقيَّاته أمرًا حقيقيًّا موضوعيًّا. فإنْ كان لنا أن نعيدَ عرضَ فيلم التطوُّر الإنسانيِّ إلى البداية ونبدأ مرَّة أخرى، لكانَ من الممكن أن يكون الناتج أناسًا لهم مجموعة مختلفة جدًّا من القيم الأخلاقيَّة.

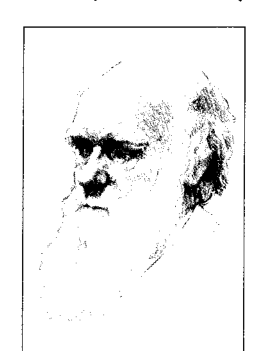
فكما كتب داروين نفسُه في كتاب "**نسب الإنسان**" *(The Descent of Man)*:

"لو...تربَّى الإنسان تحت الأحوال ذاتها تمامًا مثل النحل، لما كان هناك أيُّ شكٍّ تقريبًا في أنَّ إناثنا اللاتي لم يتزوَّجن ستفعلن مثل شغَّالاتِ النحل، أي تعتقدن أنَّه واجبٌ مقدَّسٌ أن تقتلنَ إخوتَهنَّ، ولسَعَتِ الأمَّهات إلى قتل بناتهنَّ القادرات على وَضعِ البيضِ، ولَما فكَّر أحدٌ في التدخُّل".[١]

فاعتقادنا أنَّ البشر مُميَّزون وأنَّ أخلاقيَّاتنا حقيقيَّة موضوعيًّا هو استسلامٌ لإغراء التمييز بين الأنواع، وهو انحياز غير مبرَّر إلى النوع الذي ينتمي إليه الفرد.

تعني كلمة "موضوعيّ" أنَّ الأمرَ مستقلٌ عن الرأي البشريِّ. فمثلًا، تنطبق قوانين الطبيعة سواء اعترفنا بها أم لم نعترف، لذا فهي قوانين موضوعيَّة. أمَّا كلمة "شخصيّ" فتعني أنَّ الأمرَ معتمدٌ على الرأي البشريِّ، فمثلًا ما يتعلَّقُ بالذَّوق، كأنْ تحبَّ القهوةَ أو لا تحبَّها، لذا فهي أمورٌ نسبيَّةٌ تستندُ إلى الشخص، فمن هنا فهي شخصيَّة.

تشارلز داروين (Charles Darwin)



لذا، إذا لم يكن الله موجودًا لَمَا كان هناك أيُّ أساس لنحسبَ أنَّ أخلاقيّاتِ القطيع التي تطوّرت بالإنسان العاقل هي أخلاقيّاتٌ حقيقيّةٌ موضوعيًّا. فإنِ أخرجتَ الله من الصورة لما تبقّى لك سوى مخلوقٍ يشبه القرد على جزء ضئيل جدًّا من تراب شمسيٍّ محاطٍ بأوهام العَظَمة الأخلاقيَّة.

التمييز ما بين الأنواع (Speciesism)

التمييز بين الأنواع هو "تحيُّز أو توجُّه من المحاباة لمصلحة اهتمامات أعضاء النوع الذي ينتمي إليه الفرد، وضدَّ اهتمامات أعضاء الأنواع الأخرى". صاغ هذا التعبيرَ عالِمُ النفس والفيلسوف البريطانيُّ ريتشارد دي. رايدر (Richard D. Ryder) في عام ١٩٧٠، واستَخدَمَ هذا التعبير لاحقًّا الكثيرُ من نشطاء حقوق الحيوان، بمَن فيهم بيتر سينغر (Peter Singer).

الواجبات الأخلاقيَّة الموضوعيَّة تستلزم الله

ثانيًا، فلنتناول الواجبات الأخلاقيَّة. تقليديًّا كانت الواجبات الأخلاقيَّة تُعدُّ نابعةً من وصايا الله، مثل الوصايا العشر، لكنْ إذا لم يكن الله موجودًا، فهل يبقى أيُّ أساسٍ لواجبات أخلاقيَّة موضوعيَّة؟ في وجهة النظر الإلحاديَّة البشر هم مجرَّد حيوانات، وليست للحيوانات التزامات أخلاقيَّة أحَدُها نحو الآخر. فحين يقتل أسدٌ حمارًا وحشيًّا، فهو لا يرتكب جريمة قتل في حقِّ الحمار الوحشيِّ. وحين يُجامع قِرشٌ أبيض كبير الأنثى بعنفٍ، فهو لا يغتصبها- إذ ليس هناك بعدٌ أخلاقيٌّ لهذه السلوكيَّات، وهي ليست ممنوعةً ولا إلزاميَّة.



"آسف أيُّها الضابط! أنا لا أحبُّ البروتين النباتيّ"

ومن ثمَّ فإذا لم يكُنِ الله موجودًا، لماذا نظنُّ أنَّ علينا أيّة التزامات أخلاقيَّة لفعل أيِّ شيء؟ مَن أو ما الذي يفرض هذه الواجبات الأخلاقيَّة علينا؟ من

أين تأتي؟ من الصعب أن نرى سبب كَوْنِ هذه الالتزامات أكثر من انطباعٍ شخصيٍّ ناتج عن التكيُّف المجتمعيّ والأبويّ.

قد لا تكون بعض التصرُّفات مثل سفاح القربى والاغتصاب ملائمة من الناحية البيولوجيَّة والاجتماعيَّة، لذا فقد أصبحتْ من المحرَّماتِ في مسار تقدُّم البشر، لكنَّ ذلك الأمر لا يساعد بتاتًا على إظهار أنَّ الاغتصابَ أو سفاح القربى خطأ حقًّا، وسلوكٌ مثل هذا يحدث طَوال الوقت في المملكة الحيوانيَّة، ولا يكون المغتصبُ الذي يسير عكس أخلاقيَّات القطيع قد ارتكبَ أيَّ شيء أخطر من مجرَّد التصرُّف بطريقةٍ غير متماشية مع العصر، مثل الرجل الذي يُصدرُ أصواتًا عاليةً بينما يتناوَلُ طعامَه. إذا لم يكن هناك أيُّ مشرِّعٍ أخلاقيٍّ، إذًا ليس هناك أيُّ قانون أخلاقيٍّ موضوعيٍّ علينا طاعته.

ناقش

حاوِلِ التفكيرَ في حُجَّة للملحد للدِّفاع بها عن فكرة أنَّ الجِماعَ القسريَّ هو خطأ أخلاقيًّا للبشر لكنْ ليس لسمك القرش. فكِّر كيف ستُجيب.

وضوحُ الحُجّة

الآن من المهمِّ إلى أقصى حدٍّ فَهْمُ الأمر الذي أمامنا فهمًا واضحًا. أضمنُ لك ضمانًا أكيدًا أنَّك إنْ شاركْتَ هذه الحُجَّة الأخلاقيَّة مع شخصٍ غير مؤمن، سيقول لك غاضبًا: "أتقول أنَّ كلَّ الملحدين سيِّئون؟" وسيظنُّون أنَّك متعصِّبٌ ومُصدرٌ للأحكام، لذا نريد مساعدتهم على رؤية أنَّ في هذا سوءَ فهمٍ كاملًا للحُجَّة.

ليس السؤال: أينبغي لنا أن نؤمنَ بالله لنَحيا حياةً أخلاقيَّة؟ فما من سبب لاعتقاد أنَّ غير المؤمنين لا يستطيعون أن يحيَوا حياةً ندعوها نحن طبيعيًّا حياةً جيِّدةً ولائقة.

إذًا ليس السؤال: أيمكننا الاعتراف بالقيم والواجبات الأخلاقيَّة الموضوعيَّة دون الإيمان بالله؟ فما من سبب لاعتقاد أنَّ عليك الإيمان بالله من أجل الاعتراف أنَّ علينا أن نحبَّ أولادنا مثلًا.

أيضًا **ليس** السؤال: أيمكننا صياغة نظامٍ من الأخلاقيَّات دون الإشارة إلى الله؟ فإذا أدرك غير المؤمن القيمة الداخليَّة للبشر، فما من سبب لاعتقاد أنَّه لا يستطيع الإتيان بقانون أخلاقيٍّ يتَّفق معه المؤمن عمومًا (بالتأكيد، لن يضعَ في الحسبان أيَّ التزام أخلاقيٍّ علينا نحوَ الله).

بل السؤال هو: إذا لم يكن الله موجودًا، هل توجد قيمٌ وواجبات أخلاقيَّة موضوعيَّة؟ فليس السؤال بشأن ضرورة **الإيمان** بالله لتكون هناك أخلاقيَّات موضوعيَّة، لكنْ بشأن ضرورة **وجود** الله لتكون هناك أخلاقيَّات موضوعيَّة.

يتعلَّق الأمر بوجود الله

لا تؤكِّد الحُجَّة الأخلاقيَّة أنَّ الإيمان بالله ضروريٌّ لوجود أخلاقيَّات موضوعيَّة، بل أنَّ وجود الله ضروريٌّ.

صُدمتُ بالكيفيَّة التي يخلطُ بها بعضُ الناس هذين السؤالَين، بمَن فيهم الفلاسفة المحترفون. مثلًا، شاركتُ في مناظرة في كلِّيَّة فرانكلين آند مارشال (Franklin and Marshall College) مع الفيلسوف پول كيرتز (Paul Kurtz)، وهو مهتمٌّ بالفلسفة الإنسانيَّة[†]، في موضوع "الصلاح دون الله هو أمرٌ صالح بما يكفي"، وكان جدالي أنَّه إذا كان الله غير موجود، لَما كانت هناك قيم أو واجبات أو مساءلة أخلاقيَّة على تصرُّفات الفرد.

ولدهشتي، لم يفهم الپروفيسور كيرتز نقطتي بتاتًا، وكان ردُّه:

> "إذا كان الله ضروريًّا، فكيف يمكنُ أن يسلك ملايين الناس الذين لا يؤمنون بالله سلوكًا أخلاقيًّا رغم ذلك؟ في رأيك، لا يمكنهم أن يفعلوا ذلك، إذًا فإلهك غير ضروريٍّ...الكثير من الناس متفائلون بشأن الحياة، وعاشوا حياةً كاملة...ووجدوا الحياة مُنعشة...وذات مغزى غنيٍّ، وهم غير قلقين بشأن ما إذا كانت هناك حياة بعد الموت أم لا؛ فالأمر المهمُّ هو ممارسة الحياة هنا والآن".[٢]

تُظهر نقطة كيرتز فقط أنَّ **الإيمان** بالله ليس ضروريًّا لممارسة حياة أخلاقيَّة

† الفلسفةُ الإنسانيَّةُ منظومةٌ فكريَّةٌ تنادي بقيمة الإنسان والإنسانيَّة، وتعطي الفكر والعقل مكانًا مرتفعًا، وتؤمن بأنَّ العقلَ قادرٌ على النهوض بالمجتمعات إذا عَمِل، وأنَّ الإنسان ليس حبيس التقليد الموروث (الناشر).

متفائلة، لكنَّها لا تفعل أيَّ شيء لتدحض دعواي أنَّه إذا لم يكن الله موجودًا لكانَتِ الأخلاقيَّات مجرَّد وهمٍ بشريٍّ.

وأكرِّر هنا: **الإيمان** بالله ليس ضروريًّا لوجود أخلاقيَّات موضوعيَّة، لكنَّ الله ضروريٌّ لوجودها.

معضلة "يوثيفرو"

الردُّ الآخر الذي ستحصل عليه من غير المؤمنين هو ما يُسمَّى بمعضلة يوثيفرو (Euthyphro)، والمُسمَّى تيمُّنًا بشخصيَّة من شخصيَّات حوارات أفلاطون، والأمر كالتالي: هل يعدُّ أمرٌ ما جيِّدًا لأنَّ الله أراده؟ أم أنَّ الله يشاء هذا الأمرَ لأنَّه أمرٌ جيِّد؟ فإذا قلتَ إنَّ أمرًا ما جيِّدٌ لأنَّ الله أراده، يصيرُ الخيرُ اعتباطيًّا؛ إذ كان يمكن أن يريد الله أن تكون الكراهية جيِّدة، ومن ثمَّ نكون ملزَمين أخلاقيًّا أن يكره أحدنا الآخر. يبدو ذلك جنونيًّا، فبعض القيم الأخلاقيَّة، على الأقلِّ، تبدو ضروريَّة. لكنَّك إن قلتَ إنَّ الله يريدُ أمرًا لأنَّ هذا الأمر جيِّد، لكانَ ما هو صالح وما هو سيِّئٌ مستقلًّا عن الله، وفي تلك الحالة تكون القيم والواجبات الأخلاقيَّة موجودة باستقلال عن الله، وهو الأمر الذي يناقض المقدِّمة الأولى.

ناقش

كيف تفسِّر حقيقة أنَّ الملحدين فقط يعرفون أنَّ إلحاق الأذى بإنسان بريء هو خطأ، ويمكنهم أن يعيشوا حياةً جيِّدة، دون الإيمان أنَّ الله هو المصدر المُطلق للقيم والواجبات؟

الإجابة عن "معضلة يوثيفرو"

لا نحتاجُ إلى دحض أيٍّ من شطرَي "معضلة يوثيفرو"؛ لأنَّ المعضلة المُقدَّمة خاطئة بسبب وجودِ بديل ثالث، وهو أنَّ الله يريدُ أمرًا لأنَّ الله نفسُه صالح. ماذا أعني بذلك؟ أعني أنَّ طبيعةَ الله نفسِه هي مقياس الصلاح، ووصاياه لنا هي تعبيرات عن طبيعته. باختصارٍ، واجباتنا الأخلاقيَّة تحدِّدها أوامرُ إلهٍ عادل ومحبٍّ.

ومن ثمَّ فالقيم الأخلاقيَّة ليست مستقلَّة عن الله؛ لأنَّ طبيعة الله نفسه هي ما تُعرِّف ما هو صالح، فالله بصورة أساسيَّة رحيمٌ وعادل وحنَّان ونزيهٌ...إلخ، وطبيعته

هي المقياس الأخلاقيُّ الذي يُعرِّف الصالح والسيِّئ، وأوامره تعكس بصورة أساسيَّة طبيعته الأخلاقيَّة، لذا فهي ليست أوامر اعتباطيَّة. حين يسأل الملحدُ: "لو كان الله ليأمر بالإساءة إلى الأطفال، هل كنَّا سنُلزَم بالإساءة إلى أطفالنا؟" فسؤاله يشبه: "لو كانت هناك دائرة مربَّعة الشكل، هل ستكون مساحتها مربَّعَ أحدِ جوانبها؟". لا توجد إجابة لأنَّ ما يفترضه السؤال يستحيل منطَقيًّا.

تقدِّم إلينا إذًا "معضلة يوثيفرو" خيارًا خاطئًا ويجب ألَّا ننخدع به، فما هو صالح/سيِّئ أخلاقيًّا تُحدِّده طبيعة الله، وما هو صائب/خاطئ أخلاقيًّا تُحدِّده إرادتُه؛ فالله يريدُ أمرًا ما لأنَّ الله صالحٌ، وكوْن أمرٍ ما صائبًا هو لأنَّ الله يريدُه.

"معضلة يوثيفرو"

١. هل كوْن أمرٍ ما جيِّدًا بسبب أن الله يريدُه؟ إذن فالأمر الصالح اعتباطيٌّ.

٢. هل يريدُ الله أمرًا ما لأنَّ هذا الأمر جيِّد؟ إذن القيمة الأخلاقيَّة مستقلَّة عن الله.

الحلُّ: يريدُ الله أمرًا ما لأنَّ الله صالحٌ.

الأفلاطونيَّة الأخلاقيَّة الإلحاديَّة: القيم الأخلاقيَّة موجودةٌ ببساطة

يستدعي ذِكْرُ أفلاطون إلى الذهن ردًّا ممكنًا آخرَ على المقدِّمة الأولى؛ حيث اعتقد أفلاطون أنَّ الصالح موجودٌ بنفسه على أنَّه نوع من الفكرة ذاتيَّة الوجود (إذا وجدتَ هذا الأمر صعب الفهم، فلا تقلق: لأنَّك لستَ الوحيدَ الذي يجده صعبًا)، ولاحقًا ساوى المفكِّرون المسيحيُّون هذا الصالح الذي تحدَّث أفلاطون بشأنه بطبيعة الله الأخلاقيَّة، لكنَّ أفلاطون كان يعتقد أنَّ الصالح موجودٌ فقط بذاته، لذا ربَّما يقول بعض الملحدين إنَّ القيم الأخلاقيَّة كالعدل والرحمة والمحبَّة وغيرها هي موجودةٌ فحسب دون أيِّ أساس، ويمكننا تسمية هذه النظرة الأفلاطونيَّة الأخلاقيَّة الإلحاديَّة، وهي تؤمن بأنَّ القيم الأخلاقيَّة الموضوعيَّة موجودةٌ، لكنَّها ليست مُسبَّبة في الله. ماذا يمكننا أن نقولَ بشأن هذه النظرة؟

رجل القشّ

دافعَ ببلاغة عن هذا التوجُّه من جهة القيم والواجبات الأخلاقيَّة المشروحة في النصِّ فلاسفة معاصِرون بارزون مثل روبرت آدمز (Robert Adams) ووليَم آلستون (William Alston) وفيليب كوين (Philip Quinn)، لكنْ يواصل الملحدون استخدام "معضلة يوثيفرو" القديمة نفسها. مثلًا، في دليل كامبردج المرافق عن الإلحاد (٢٠٠٧)، لا تشير المقالةُ عن الله والأخلاقيَّات، والذي كتبه متخصِّصٌ بارز في علم الأخلاق، لا إلى عمل أولئك العلماء ولا إلى الحلِّ المشروح هنا، لكنَّه يهاجم فقط فكرةَ أنَّ الله صنع القيم الأخلاقيَّة اعتباطيًّا- وهي مغالطة رجل القشِّ والتي لا يدافع عنها أحَدٌ تقريبًا.

الإجابة على الأفلاطونيَّة الأخلاقيَّة الإلحاديَّة

أوَّلًا، تبدو الأفلاطونيَّة الأخلاقيَّة الإلحاديَّة مُبهمة، فماذا يعني أن نقولَ مثلًا إنَّ العدالةَ، بوصفها قيمة أخلاقيَّة، هي موجودة فحسب؟ من الصعب فَهْم ذلك، فمن اليسير أن نفهم معنى أنَّ شخصًا ما عادلٌ، لكنَّ من المحيِّر أن يقول أحدُهم إنَّه في غياب أيِّ شخص تكون العدالة نفسها موجودةً؛ لأنَّ القيم الأخلاقيَّة تبدو خصائصَ للأشخاص، ومن الصعب فهم إمكانيَّةِ وجودِ العدالة بوصفها أمرًا موضوعيًّا.



ثانيًا، لا يقدِّم هذا الرأي أيَّ أساس للواجبات الأخلاقيَّة. لنفترضْ جدلًا أنَّ القيم الأخلاقيَّة مثل العدالة والولاء والرحمة والتسامح وما شابهها هي موجودة فحسب، فكيف يمكن أن يفرض علينا ذلك أيَّ التزام أخلاقيّ؟ لماذا يكون عليَّ واجبٌ أخلاقيٌّ لأكون رحيمًا مثلًا؟ مَن أو ما الذي يضع واجبًا كهذا عليَّ؟ لاحظ أنَّه بناءً على هذه النظرة يُفترضُ أنَّ الرذائل الأخلاقيَّة كالطمع والكراهية والكسل والأنانيَّة هي أيضًا موجودة بذاتها بوصفها أمورًا موضوعيَّة. إذًا لماذا يُفترَض أن ننحاز في حياتنا إلى مجموعة من تلك الأمور الموجودة موضوعيًّا بدلَ الانحياز إلى المجموعة أخرى؟ ليس للأفلاطونيَّة الأخلاقيَّة الإلحاديَّة، بافتقارها إلى مُشرِّعٍ أخلاقيٍّ، أيُّ أساسٍ يؤيِّد الالتزام الأخلاقيّ.

ثالثًا، من المُستبعد جدًّا أن تكون عمليَّة التطوُّر العمياء قد لفظتْ بصورةٍ دقيقةٍ ذلك النوع من المخلوقات التي تتوافق مع مجال القيم الأخلاقيَّة القائم موضوعيًّا؛ إذ يبدو هذا مصادفةً لا تُصدَّق إذا فكَّرتَ في الأمر، كما لو كان المجال الأخلاقيُّ يعلم أنَّنا آتون. غير أنَّ الأمرَ الأكثر معقوليَّة، كما قال سورلي، هو الاعتقاد أنَّ كلا المجالَين الطبيعيّ والأخلاقيّ هما تحت سلطة الله الذي أعطانا الاثنين: قوانين الطبيعة والقانون الأخلاقيّ، وذلك أكثر معقوليَّة من الاعتقاد أنَّ هذين المجالَين المستقلَّين هما متناغمان مصادفةً.

الإصرار الأعمى للفلسفة الإنسانيَّة: أيُّ أمر يساهم في ازدهار الإنسان هو صالحٌ

ماذا يفعل الملحد إذًا عند هذه النقطة؟ يريد أغلبهم تأكيد الحقيقة الموضوعيَّة للقيم والواجبات الأخلاقيَّة، لذا يتبنَّون نوعًا من الفلسفة الإنسانيَّة ويتوقَّفون عند ذلك، ويجزمون أنَّ أيَّ أمرٍ يُسهِمُ في ازدهار الإنسان هو صالحٌ، وأيُّ أمر ينتقص منه سيِّئ، وتلك هي نهاية القصَّة.

الردُّ على الإصرار الأعمى للفلسفة الإنسانيَّة

عندما نحسبُ أنَّ ازدهار الإنسان فقط هو نقطةُ التوقُّف النهائيَّة، فهذا أمرٌ سابقٌ لأوانه، بسبب **اعتباطيَّة** نقطة توقُّف مثل هذه وعدم **معقوليَّتها**.

أوَّلًا، هي اعتباطيَّة. بافتراض الإلحاد، ما السبب من وراء الظنِّ أنَّ ما يساعد على ازدهار الإنسان هو أكثر قيمةً مقارنةً بما يساعد على ازدهار النمل أو الفئران؟ لماذا الظنُّ أنَّ إلحاق الضرر بفرد آخر من نوعنا هو أمرٌ خاطئ؟ حين طرحتُ هذا السؤال على خبير علم الأخلاق والتر سينوت أرمسترونغ (Walter Sinnott-Armstrong) من كلِّيَّة دارتموث (Dartmouth) في مناظرتنا عن وجود الله، أجاب "هو ببساطة خطأ، على نحو موضوعيٍّ، ألا توافقُني في هذا؟"[٣] أوافق دون شكٍّ أنَّ الإضرارَ بإنسانٍ آخر هو أمرٌ خاطئ **حقًّا**، لكنِّي أشرتُ إلى أنَّ هذا ليس هو السؤال، بل السؤال هو: كيف له أن **يكون** خاطئًا إنْ كان الإلحادُ صحيحًا؟ حين طرحتُ هذا السؤال على الفيلسوفة لويز أنتوني (Louise Antony) من جامعة ماساتشوستس (University of Massachusetts) في مناظرتنا بعنوان "هل الله ضروريٌّ من أجل الأخلاقيَّات؟" ردَّت عليَّ قائلة: "أتساءل إذا كان لديك أيُّ أصدقاء!" ابتسمتُ فقط- لكنَّ النقطة لا تزال قائمة، إنْ أردتَ أم لم ترد، فبافتراض وجهة النظر الإلحاديَّة، يبدو انتقاءُ الازدهار الإنسانيِّ بوصفه أمرًا مميَّزًا أخلاقيًّا أمرًا اعتباطيًّا.

ثانيًا، عدم معقوليَّتها. سيقول الملحدون مرَّاتٍ إنَّ الخصائص الأخلاقيَّة مثل الصلاح والسوء مرتبطة بالضرورة بحالات طبيعيَّة معيَّنة، فمثلًا، يرتبط السوء بالضرورة برجلٍ يضرب زوجته، ويرتبطُ الصلاح بالضرورة بأمٍّ ترعى طفلها، وسيقول الملحدون إنَّه بمجرَّد أن تأخذ الخصائص الطبيعيَّة البحتة مكانها، ستأتي معها بالضرورة الخصائص الأخلاقيَّة. لكنْ بافتراض الإلحاد يبدو هذا غير معقول، فلماذا الظنُّ أنَّ هذه الخصائص الأخلاقيَّة غير الطبيعيَّة الغريبة مثل "الصلاح" و"السوء" موجودة حتَّى، فضلًا عن فكرة ارتباطها بالضرورة بطريقة أو بأخرى بحالات طبيعيَّة مختلفة؟ لا يمكنني رؤية أيِّ سببٍ يجعلني أظنُّ أنَّه، بافتراض

الإنسانيَّة

الإنسانيَّة هي الرأي بأنَّ الإنسان هو مقياس كلِّ الأشياء، ولا سيَّما أن يأخذَ الإنسان مكانَ الله ليكونَ مرتَكَزَ القيم الأخلاقيَّة، وهكذا تُحدَّد الواجبات الأخلاقيَّة بحسب ما يعزِّز ازدهار الإنسان.

النظرة الإلحاديَّة من نحو العالم، يمكن أن يحدِّد وصفٌ كامل للخصائص الطبيعيَّة الموجودة في موقف ما أيَّة خصائص أخلاقيَّة لذلك الموقف أو يقرِّر هذه الخصائص.

لقد اتَّخذ هؤلاء الفلاسفة الإنسانيُّون نهج "قائمة التسوُّق" من نحو الأسئلة الأخلاقيَّة؛ فلأنَّهم يؤمنون بالإنسانيَّة يلتقطون لأنفسهم من هنا وهناك الخصائص الأخلاقيَّة التي يحتاجون إليها لأداء الغرض. لجعل وجهة نظرهم معقولة، هناك حاجةٌ إلى نوعٍ من التفسير بشأن سبب ارتباط الخصائص الأخلاقيَّة بحالات طبيعيَّة معيَّنة. مرَّة أخرى، من غير الكافي للمؤمن بالفلسفة الإنسانيَّة أن يؤكِّد أنَّنا بالفعل نرى أنَّ للبشر قيمةً أخلاقيَّةً جوهريَّةً، لأنَّه لا خلاف على هذا الأمر، ففي الواقع تلك هي المقدِّمة الثانية للحُجَّة الأخلاقيَّة! ما نريده من المؤمن بالفلسفة الإنسانيَّة هو سببٌ ما يجعلنا نظنُّ أنَّ للبشر أهمِّيَّةً أخلاقيَّةً إنْ كان الإلحاد صحيحًا، ففي صورتها الحاليَّة تُعدُّ إنسانيَّتهم مجرَّد إيمان أخلاقيٍّ أعمى.

على النقيض من ذلك، الله هو نقطة توقُّف طبيعيَّة بوصفها أساسًا للقيم والواجبات الأخلاقيَّة الموضوعيَّة. فما لم نكن عدميِّين أخلاقيًّا، يجب أن نصل إلى نقطة توقُّفٍ ما، والله بوصفه الحقيقة المطلقة هو مكان طبيعيٌّ للتوقُّف. الأكثر من ذلك، الله جوهريًّا مستحقٌّ للعبادة، لذا بالتأكيد هو تجسيدٌ للصلاح الأخلاقيِّ التامّ. ومرَّة أخرى، الله جوهريًّا هو أعظم كِيان يمكن تصوُّره، والكِيان المثِّلُ للصلاح ومصدره هو أعظم من كِيانٍ يشارك مجرَّد مشاركة في الصلاح، لذا فلا يوصَف الإيمان بوجود إله بهذا النوع من الاعتباطيَّة وعدم المعقوليَّة التي يعانيها الإصرار الأعمى للفلسفة الإنسانيَّة.

المقدِّمة الثانية
توجد بالفعل قيم وواجبات أخلاقيَّة موضوعيَّة

يقودنا ذلك إلى مقدِّمتنا الثانية: **توجد بالفعل قيم وواجبات أخلاقيَّة موضوعيَّة**. في البداية كنتُ أظنُّ أنَّ هذه المقدِّمة ستكون الأكثر إثارة للجدل في الحُجَّة.

لكنّي أجدُ في مناظراتي مع الفلاسفة الملحدين أنّه ما من أحد تقريبًا ينكرُها. قد تُدهَش إذا علمتَ أنَّ الدراسات المَسْحيَّة في الجامعات تكشف، على عكس الانطباع السائد، أنَّ الأساتذة أكثر ميلًا إلى الإيمان بالقيم الأخلاقيَّة الموضوعيَّة من الطلَّاب، وأنَّ أساتذة الفلسفة أكثر ميلًا إلى الإيمان بالقيم الأخلاقيَّة الموضوعيَّة من الأساتذة في التخصُّصاتِ الأخرى عمومًا.

الخبرة الأخلاقيّة

ليس لدى الفلاسفة الذين يفكِّرون في خبرتنا الأخلاقيَّة أيُّ سبب للارتياب في تلك الخبرة أكثر من الخبرة التي تحدث بالحواسِّ الخمس. أومن بما تخبرني به حواسِّي الخمس، أي أنَّ هناك عالمًا مادِّيًّا، ورغم أنَّ حواسِّي ليست معصومة، فذلك لا يقودني إلى اعتقاد أنَّه ما من عالم خارجيٍّ حولي. بالمثل، في غياب سببٍ للارتياب في خبرتي الأخلاقيَّة، ينبغي لي قبول ما تخبرني به، أي أنَّ بعض الأمور صالحة أو سيِّئة، صائبة أو شرِّيرة على نحو موضوعيّ.

يتَّفق معظمنا أنَّنا في الخبرة الأخلاقيَّة نُدرك حقًّا القيم والواجبات الأخلاقيَّة. حين كنتُ أتحدَّث منذ عدَّة سنوات في جامعة كنديَّة، لاحظتُ في حرم الجامعة ملصقًا علَّقه مركز الاعتداء الجنسيِّ والمعلومات، وكان المكتوب: "الاعتداء الجنسيُّ: ليس لأي شخصٍ الحقُّ في الإساءة إلى طفلٍ أو امرأةٍ أو رجلٍ". يدركُ معظمنا أنَّ الاعتداءَ الجنسيَّ على شخص آخر خاطئٌ، وتصرُّفاتٌ مثل الاغتصاب والتعذيب والإساءة إلى الأطفال ليست فقط سلوكًا غير مقبول اجتماعيًّا، بل هي أعمال بغيضة أخلاقيًّا. وعلى المنوال نفسه، المحبَّة والكرم وبذل الذات هي حقًّا أمورٌ صالحة، والناس الذين لا يمكنهم رؤية ذلك هم فقط معاقون، وهو ما يساوي شخصًا أعمى جسديًّا، وما من سببٍ لجعْل اعتلالهم يشكِّك في ما هو واضحٌ وضوحَ الشمس.

ناقش

ما رأيك في حقيقة أنَّ الأساتذة أكثر ميلًا من الطلَّاب إلى الإيمان بالقيم الأخلاقيَّة الموضوعيَّة، وأنَّ أساتذة الفلسفة أكثر ميلًا من الأساتذة في التخصُّصات الأخرى إلى الإيمان بالقيم الأخلاقيَّة الموضوعيَّة؟ إلامَ يشير هذا الأمر بشأن هذه المجموعات الثلاث من الناس؟ كيف يمكن أن يكونَ العمر هو أحَدَ العوامل؟ التعليم؟ الثقافة الشعبيَّة؟

لقد وجدتُ أنّه رغم تمسُّك الناس بالنسبيّة، فيمكن أن يقتنع ٩٥٪ سريعًا أنّ القيم الأخلاقيّة الموضوعيّة موجودةٌ بالفعل؛ فكلُّ ما عليك فعله هو تقديم بعض الإيضاحات وجعْلهم يقرِّرون بأنفسهم. اسأل عن رأيهم في الممارسة الهندوسيّة المسمّاة السوتي (Suttee)، أي حرق الأرامل أحياء مع جثمان أزواجهنّ، أو العادة الصينيّة القديمة لإصابة النساء بالعرج مدى حياتهنّ بواسطة ربط أقدامهن بإحكام منذ الطفولة لتُشابه أزهار اللوتس. يمكنك إيصال نقطتك بفاعليّة خاصّة باستخدام الأعمال الوحشيّة الأخلاقيّة المُرتَكَبة بِاسْم الدين. فلتسألهم عمّا يظنُّون في الحملات الصليبيّة أو محاكم التفتيش في العصور الوُسطى، اسألهم إنْ كانوا يعتقدون أنّ من المقبول أن يسيئ رجالُ الدين جنسيًّا إلى الأولاد الصغار، وأن تحاول المؤسَّسة التستُّرَ على مثل هذه الممارَسات. إذا كنت تتعامل مع شخصٍ يسأل بأمانة، فأنا أضمن لك أنّه في كلّ مرّة تقريبًا سيوافق ذلك الشخص أنّ هناك قيمًا وواجبات أخلاقيّة موضوعيّة.

دون شكّ، ستجد أحيانًا متشدّدين، لكنّ موقفهم عادة ما يُرى أنّه موقفٌ متطرّفٌ لدرجة منفّرة للآخرين. مثلًا، في اجتماع لجمعيّة أدبيّات الكتاب المقدّس (Society of Biblical Literature) منذ بضع سنوات، حضرتُ حلقة نقاش عن "سُلطان الكتاب المقدَّس والمثليّة الجنسيّة" والتي أيَّد فيها كلُّ قادة النقاش مشروعيّة النشاط المثليّ، وصرفَ أحد قادة النقاش النظرَ عن حظر الكتاب المقدّس لنشاط مثل هذا على أساس أنّ هذا الحظر يعكس السياق الثقافيّ الذي كُتب فيه. وحيث إنّ هذا الأمر ينطبق على كلّ أوامر الكلمة المقدَّسة (إذ لم تُكتب في الفراغ)، فقد خلُص إلى أنّه "لا توجد في الكلمة المقدَّسة حقائق أخلاقيّة معياريّة غير مرتبطة بزمن". وفي المناقشة من مكاني في صفوف الحاضرين، أشرتُ إلى أنّ هذا الرأيَ يقود إلى النسبيّة الثقافيّة الاجتماعيّة، وهو ما يجعل من المستحيل انتقاد **أيّ مجتمع** في ما يخصُّ قيمه الأخلاقيّة، **بما في ذلك** تلك القيم الموجودة في مجتمع يضطهد مثليّي الجنس!

أجاب بضباب من كلام لاهوتيٍّ مراوغ قائلًا إنَّه ما من مكانٍ حتَّى خارج الكلمة المقدَّسة نجد فيه قيمًا أخلاقيَّة غير مرتبطة بزمن. فقلتُ "لكنَّ ذلك هو **بالفعل** ما نعنيه بالنسبيَّة الأخلاقيَّة، وفي الواقع بناءً على رأيك هذا لا يوجد محتوى لمفهوم صلاح الله، فقد يكون هو أيضًا ميتًا، ونيتشه أدرك أنَّ موت الله يؤدِّي إلى العدميَّة". عند هذه النقطة تدخَّل قائد آخر من قادة النقاش مستخدمًا ذلك التفنيد القاضي: "حسنًا، إن كنتَ ستستخدم الازدراء، ربَّما من الأفضل ألَّا نناقش الأمر".

جلستُ، لكنَّ النقطة لم تفقد صداها لدى الحاضرين، فقد وقف الرجل التالي وقال: "لحظة من فضلك، فأنا حائرٌ الآن. أنا قسٌّ، ويأتيني الناس دائمًا سائلين ما إذا كان الأمر الذي فعلوه خطأً وما إذا كانوا في حاجة إلى غفران. مثلًا، أليست الإساءة إلى الأطفال خطأً دائمًا؟"، لم أستطع تصديق ردِّ إحدى قائدات النقاش، إذ أجابت: "ما يُعدُّ إساءةً يختلف من مجتمع إلى آخر، لذا لا يمكننا حقًّا استخدام كلمة **إساءة** دون ربطها بسياقٍ تاريخيٍّ".

ردَّ القسُّ مُصرًّا: "فلتسمِّها ما شئتِ، لكنَّ الإساءة إلى الأطفال تضرُّ الأطفال، أليس من الخطأ الإضرار بالأطفال؟" ورُغمَ ذلك، فقد ظلَّت غير معترفة بالأمر! ويعطي هذا النوع من صلابة القلب في النهاية نتائجَ عكسيَّة على مَن يتبنَّى النسبيَّة الأخلاقيَّة، ويكشف في أذهان أغلب الناس إفلاس وجهة النظر تلك.

ناقش

بِمَ تفسِّر ذلك الأمر الذي يسمح للبشر (بل يشجِّعهم) أن يعيشوا في تَضارُب منطقيٍّ؟ حين يواجِهونَ حُجَّة منطقيَّة مثل الحُجَّة المتناولة في هذا الفصل، لماذا يقولون بكلِّ سهولة "لا يهمُّ" ويواصلون ما يعملونه باستمرار دون أن يتغيَّروا؟

اعتراضات اجتماعيَّة بيولوجيَّة على الخبرة الأخلاقيَّة

السؤال هو إذًا: هل لدينا أيُّ سبب جوهريٍّ للارتياب في خبرتنا الأخلاقيَّة؟ لقد نادى بعضُ الأشخاص أنَّ التعليلات الاجتماعيَّة البيولوجيَّة لأصول الأخلاق تقوِّض خبرتنا الأخلاقيَّة، وستذكر أنَّه بحسب هذه التعليلات، غُرستْ فينا معتقداتُنا الأخلاقيَّة بالتطوُّر والتكيُّف الاجتماعيِّ. فهل يعطينا هذا سببًا لعدم الثقة في خبرتنا الأخلاقيَّة؟

الردُّ على الاعتراضات الاجتماعيّة البيولوجيّة

من الواضح أنَّ التعليلَ الاجتماعيَّ البيولوجيَّ لا يفعل أيَّ شيء ليقوِّض **حقيقة** المعتقدات الأخلاقيَّة؛ لأنَّ حقيقة المعتقد مستقلَّة عن **كيفيَّة وصولك إلى اعتناق** ذلك المعتقد، فقد تكون قد اكتسبتَ معتقداتك الأخلاقيَّة باستخدام لعبةِ الحظِّ أو بقراءة أوراق الشاي، وقد تظلُّ هذه المعتقداتَ حقيقيَّة. فإذا كان الله موجودًا تكون القيم والواجبات الأخلاقيَّة موجودة، بغضِّ النظر عن كيفيَّة وصولنا إلى تعلُّمها. ما يُثبتُه التعليل الاجتماعيُّ البيولوجيُّ في أحسن الأحوال هو أنَّ **إدراكنا** للقيم والواجبات الأخلاقيَّة قد تطوَّر، لكنْ إنْ كانت القيم الأخلاقيَّة تُكتشف بالتدريج، ولا تُبتَكَر، فإدراكنا التدريجيُّ والقابل للخطأ لتلك القيم لا يقوِّض حقيقتها الموضوعيَّة، تمامًا مثل أنَّ إدراكنا التدريجيَّ والقابل للخطأ للعالم المادِّيِّ لا يقوِّض حقيقته الموضوعيَّة.

لكنْ ربَّما لا يقوِّض التعليلُ الاجتماعيُّ البيولوجيُّ **حقيقة** معتقداتنا الأخلاقيَّة، لكنَّه يقوِّض **تسويغَنا** لاعتناق هذه المعتقدات، فإنْ كانت معتقداتك الأخلاقيَّة مبنيَّة على قراءة أوراق الشاي، فقد يحدث الأمر مصادفةً ويتَّضح أنَّ معتقداتك صحيحة، لكنْ لن يكونَ لديك أيُّ مسوِّغٍ لاعتقاد أنَّها صحيحة، ومن ثمَّ فلن تعلم إنْ كانت صحيحة أم لا.

على المنوال نفسه، الاعتراض هو أنَّه إنْ كانت معتقداتنا الأخلاقيَّة تشكَّلتْ بالتطوُّر، فلا يمكننا الوثوق بهذه المعتقدات؛ إذ يهدف التطوُّر إلى البقاء لا إلى الحقيقة. وبذلك ستكون معتقداتنا الأخلاقيَّة مختارة لقيمتها الداعمة للبقاء وليس لحقِّها، ومن ثمَّ لا يمكننا الوثوق بخبرتنا الأخلاقيَّة، ومن ثَمَّ لا نعرف ما إذا كانت المقدِّمة الثانية صحيحة أم لا.

هناك مشكلتان في هذا الاعتراض في ما يتعلَّقُ بعلمِنا بالمقدِّمة الثانية. أوَّلًا، يفترض هذا الاعتراض أنَّ الإلحاد صحيحٌ. إذا لم يكن الله موجودًا، فمعتقداتنا الأخلاقيَّة مختارة بالتطوُّر، وذلك بناءً على قيمتها في ما يخصُّ

البقاء، وليس من أجل حقِّها. وقد دفعتُ أنا شخصيًّا بهذه النقطة في الدفاع عن المقدِّمة الأولى. إذا كان الله غير موجود، كان التعليل الاجتماعيُّ البيولوجيُّ صحيحًا، وكانت معتقداتنا الأخلاقيَّة خادعة، لكنْ لاحظ أنَّ ذلك ليس السبب الذي يجعلنا نعتقد أنَّ التعليلَ الاجتماعيَّ البيولوجيَّ صحيح حقًّا. في الواقع، إذا كان الله موجودًا، فعلى الأرجح سيريد أن تكون لنا معتقدات أخلاقيَّة صحيحة في الأساس، ومن ثمَّ إمَّا سيوجِّه العمليَّة التطوُّريَّة لتنتج هذه المعتقدات وإمَّا سيغرسها فينا (رومية ٢: ١٥)، وبعيدًا عن افتراض الإلحاد، ليس لدينا أيُّ سبب لإنكار ما تخبرنا به خبرتنا الأخلاقيَّة.

مغالطة المنشأ
(The Genetic Fallacy)

تحاولُ هذه المغالطة إبطال رأي ما بإظهار الكيفيَّة التي وصل بها الشخص إلى هذا الرأي. مثلًا، "السبب الوحيد الذي يجعلك تؤمن بالديمقراطيَّة هو أنَّك نشأتَ في بلد ديمقراطيٍّ، ومن ثمَّ رأيُك بأنَّ الديمقراطيَّة هي أفضل شكل للحكم هو رأي خاطئ". اعتراضًا على حقيقة البصيرة الأخلاقيَّة، يقع التعليل الاجتماعيُّ البيولوجيُّ في مغالطة المنشأ.

ثانيًا، يناقضُ الاعتراض نفسه، فبافتراض المذهب الطبيعيِّ، تكون كلُّ معتقداتنا، وليست فقط معتقداتنا الأخلاقيَّة، نتيجةً للتطوُّر والتكيُّف الاجتماعيِّ، ومن ثمَّ يقود التعليل التطوُّريُّ إلى الشكِّ في شأن المعرفة عمومًا، لكنَّ هذا الأمر يناقض نفسه؛ لأنَّنا في هذه الحالة علينا الشكُّ في التعليل التطوُّريِّ نفسه، ما دامَ هو أيضًا نِتاجَ التطوُّر والتكيُّف الاجتماعيِّ! وبذلك يقوِّض هذا الاعتراض نفسه بنفسِه.

وبالنظر إلى التسويغ المقدَّم دعمًا للمقدِّمة الثانية من خبرتنا الأخلاقيَّة، فإنَّه يحقُّ لنا أن نعتقد أنَّ هناك قيمًا وواجبات أخلاقيَّة موضوعيَّة.

الخلاصة

نستنتجُ من المقدِّمتين أنَّ الله موجود، وتُتمِّمُ الحُجَّة الأخلاقيَّة الحُجَّة الكونيَّة وحُجَّة التصميم بأنَّها تُخبرُنا بطبيعة خالق الكون، إذ تعطينا كائنًا شخصيًّا موجودًا بالضَّرورة، وهو شخصٌ صالح على نحوٍ مثاليٍّ، كما أنَّ طبيعته هي مقياس الصلاح، وأوامره تشكِّل واجباتنا الأخلاقيَّة.

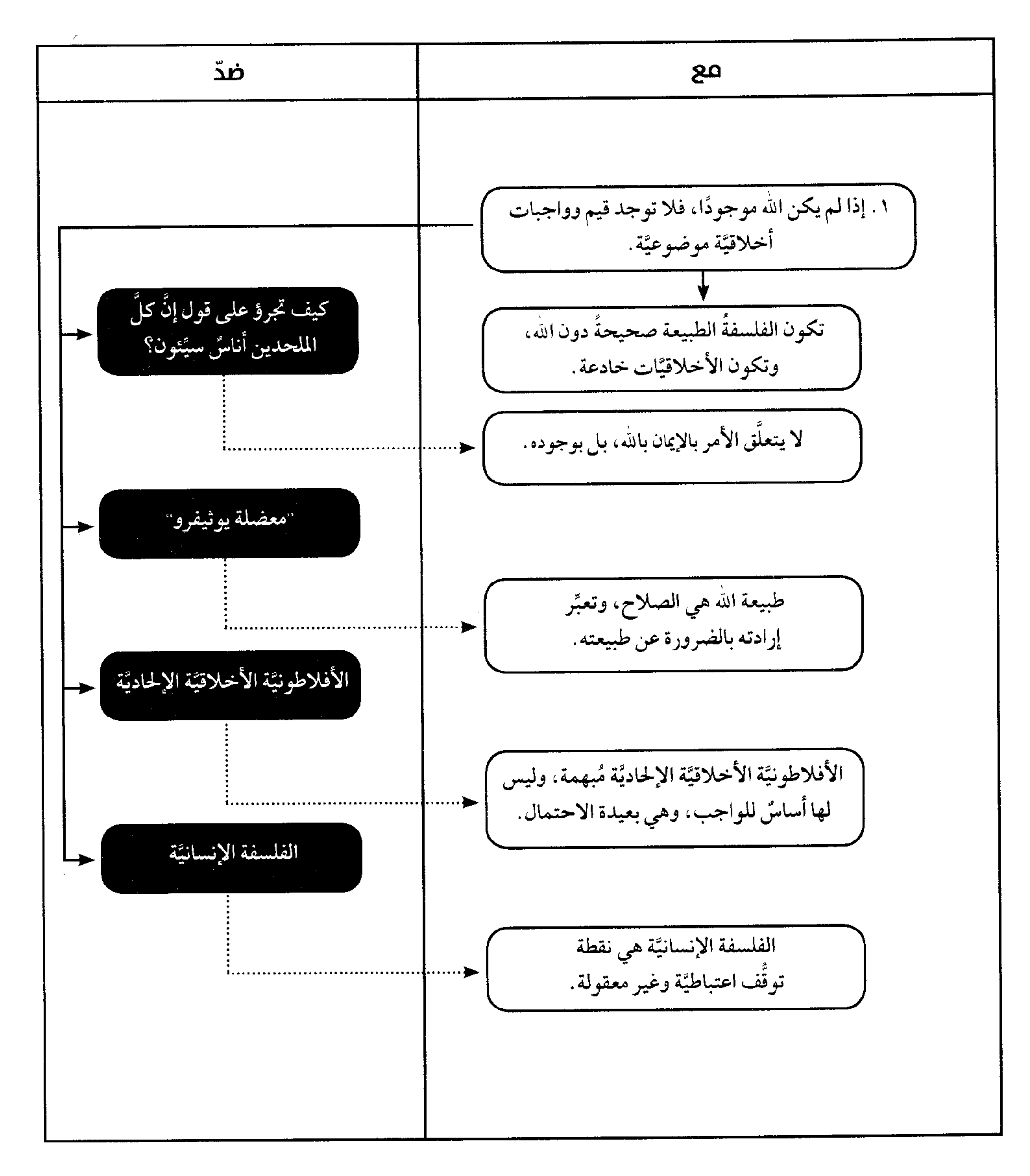
من خبرتي أقول إنَّ الحُجَّة الأخلاقيَّةَ هي الأكثر فاعليَّة بين كلِّ الحُجج في تأييد وجود الله. وأقول هذا على مضض؛ لأنَّ الحُجَّة المفضَّلة لديَّ هي الحُجَّة

الكونيَّة، لكنَّ الحُجَّة الكونيَّة وحُجَّة الضبط الدقيق لا تلمِسان الناس حيث يعيشون، أمَّا الحُجَّة الأخلاقيَّة فلا يمكن تنحيتها جانبًا بسهولة؛ ففي كلِّ يوم تصحو فيه تجيبُ عن سؤال ما إذا كانت هناك قيمٌ وواجبات أخلاقيَّة بالطريقة التي تحيا بها، فلا مفرَّ من هذه الحُجَّة.

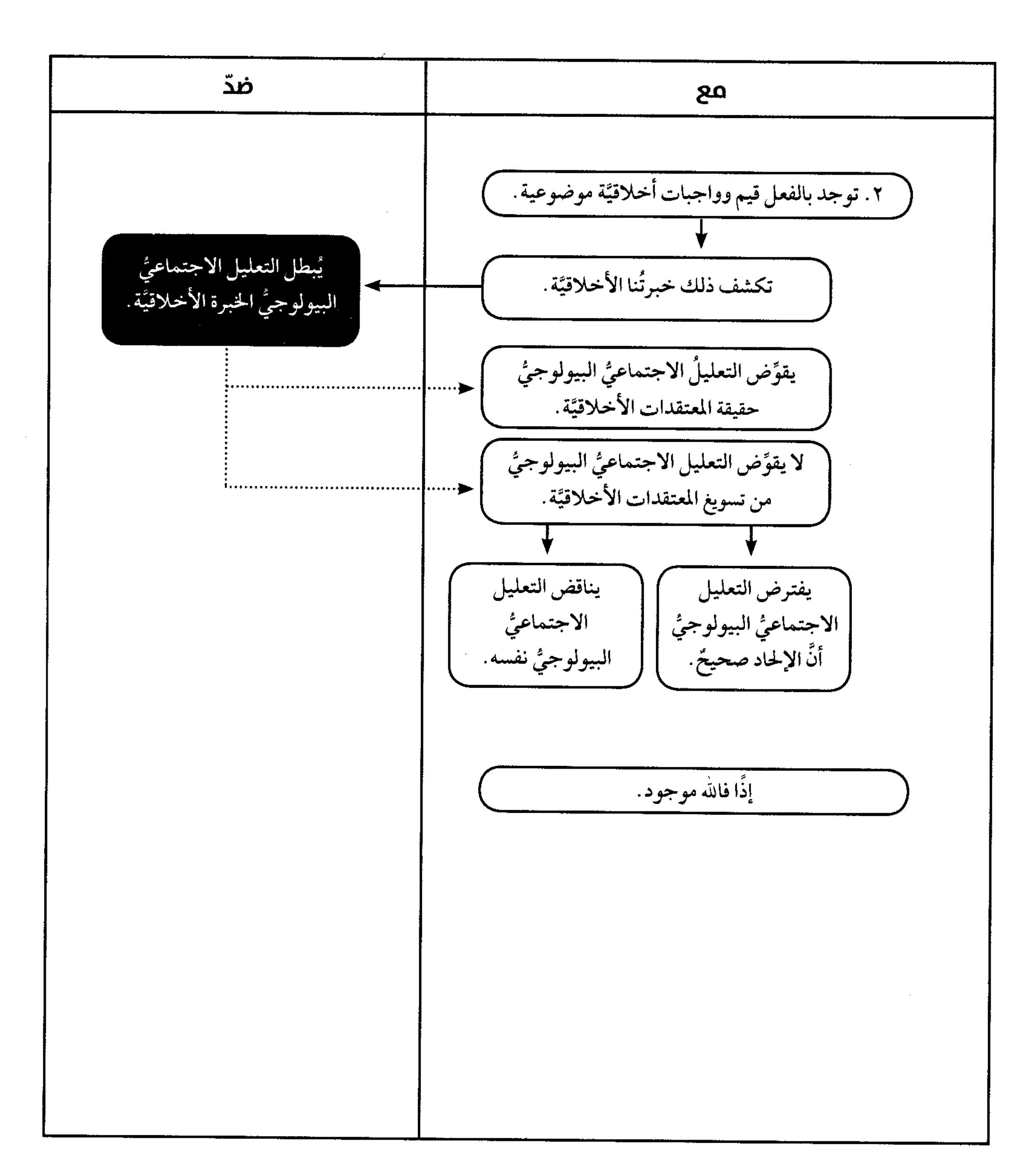
والآن، للإجابة عن السؤال الذي استَهْلَلنا به هذا الفصل: لا، لا يمكننا حقًّا أن نكون صالحين دون الله، لكنْ إذا كنَّا نستطيع إلى حدٍّ ما أن نكون صالحين، فيستتبعُ ذلك أنَّ الله موجود.

"لأنَّهُ الأُمَمُ الّذينَ ليس عِندَهُمُ الناموسُ، مَتَى فعَلوا بالطَّبيعَةِ ما هو في الناموسِ، فهؤُلاءِ إذ ليس لهُمُ الناموسُ هُم ناموسٌ لأنفُسِهِم، الذينَ يُظهِرونَ عَمَلَ الناموسِ مَكتوبًا في قُلوبهِم، شاهِدًا أيضًا ضَميرُهُمْ وأفكارُهُمْ فيما بَينَها مُشتَكيَةً أو مُحتَجَّةً" (رومية ٢: ١٤-١٥).

الحُجَّة الأخلاقيَّة



الحُجَّة الأخلاقيَّة





الفصل السابع

ماذا عن الألم؟

"بل نفتخر أيضًا في الضيقات، عالمين أنَّ الضيق ينشئ صبرًا، والصبر تزكيةً، والتزكيةَ رجاءً" (رومية ٥: ٣-٤).

رأينا في الفصول الأربعة السابقة أربعَ حُججٍ قويَّة مؤيِّدة لوجود الله مبنيَّة على أسباب فلسفيَّة وعلميَّة وأخلاقيَّة، وتقدِّم هذه الحُجج معًا تأييدًا قويًّا للإيمان بالله، لكنْ نحتاج بالتأكيد لأن نضعَ في الحسبانِ الأدلَّة من الجانب الآخر أيضًا، فهل يمكن أن يقدِّمَ غير المؤمن حُججًا بالقوَّة نفسها لإظهار أنَّ الله **غير** موجود؟

"ما من دليل على وجود الله!"

في الواقع، لا توجد حقًّا الكثيرُ من الحُجج ضدَّ وجود الله؛ فالشكوى الرئيسيَّة لدى الملحد هي أنَّه لا يوجد أيُّ دليل **يؤيِّد** وجود الله، لكنَّك إذا أتقنتَ الحُجج الأربع اللاتي ناقشناها للتوِّ، فلن تنطبق تلك الشكوى عليك.

فغير المؤمنين ليسوا معتادين أن يلتقوا مسيحيِّين قادرين حقًّا على تقديم أسباب للرَّجاء الذي فيهم. فحين يقول غير المؤمن: "ما من دليل على وجود الله"، يمكنك إيقافه في الحال إذا قلتَ: "يا للهول! لديَّ على الأقلِّ أربع حُجج جيِّدة تظهر وجود الله". وعند تلك النقطة سيكون عليه أن يقول: "مثل ماذا؟" وتستطيعُ حينها أن تنطلق من هنا!

ستجد أنَّ غير المؤمنين في الغالب غير جاهزين لمناقشة هذه الأمور حتَّى إنَّ

كلَّ ما يستطيعون فعله للردِّ على الحُجج هو تكرار أنفسهم: "ما من دليلٍ على وجود الله". وصَف أحد المدوِّنين مناظرتي مع المُلحد البريطانيِّ لويس ولپيرت (Lewis Wolpert) في سنترال هول، وستمنستر (Central Hall, Westminster)، لندن كالتالي:

"ولپيرت: ما من دليلٍ على وجود الله!

كريغ: هناك **بالفعل** دليلٌ على وجود الله، وها هو...

ولپيرت: ما من دليلٍ على وجود الله!

كريغ: هناك **بالفعل** دليلٌ على وجود الله، وها هو...

ولپيرت: ما من دليلٍ على وجود الله!

للأسف، ليس هذا الوصف بعيدًا عن الحقيقة! يبدو الأمر أحيانًا كما لو أنَّ غير المؤمنين مصابون بالصَّمم. لقد تعلَّموا تكرار «ما من دليلٍ على وجود الله!» مثل تعويذة، ظانِّين كما يبدو أنَّ قَولها مِرارًا وتَكرارًا يجعلها حقيقيَّة بطريقة ما، لكنَّه في الحقيقة غطاءٌ للكسل الفكريِّ، ولنقص الاشتراك في المناقشة، فالأمر هو فقط وسيلة لقوْل: «أنا غير مقتنع بحُججك»".

لذا إذا أجابك غير المؤمن عن حُججك قائلًا: "ليس ذلك دليلًا على وجود الله!" فقط قُل بأدبٍ: "حسنًا، أظنُّك لا تجِدُ حُجَجي مقنعةً. بالتأكيد تعتقد أنَّ بعضَ المقدَّمات التي استخدمتُها خاطئة، فما المقدِّمة التي ترفضها؟ ولماذا؟".

صرخ أحدُ الملحدين الذين كنت أتحدَّث إليهم عند تلك النقطة قائلًا: "أرفضها جميعًا"، فأجبتُه "أنت بالتأكيد لا ترفض كلَّ المقدِّمات، فهل ترفض أنَّ «الكون موجود» أم أنَّ «دقَّة الكون راجعة إلى الضرورة الفيزيائيَّة أو الصدفة أو التصميم»؟" فأدرك أنَّ تعليقه كان مستَهتِرًا. لذا حاوِل أن تجعلَ غير المؤمن يشترك في النقاش بشأن مقدِّمات محدَّدة.

يؤكِّد كلُّ ذلك أهمِّيَّة حفْظ هذه الحُجج الموجزة؛ فسيساعدك ذلك على التزام مسارك. سيميلُ غير المؤمن في ردِّه على سؤالك: "أيَّ مقدِّمة ترفض؟ ولماذا؟" إلى قَولِ شيءٍ مثل: "أعتقد أنَّ الدين موجود فقط في رأسك" أو "لقد أضرَّ الدينُ المجتمعَ أكثر من أيِّ شيء آخر"، لا تتشتَّتْ، بل قُل: "أتفهَّم أنَّك تشعر بذلك، لكنَّك قلتَ إنَّه ما من دليلٍ على وجود الله، لذا أريد معرفةَ المقدِّمات التي ترفضها في حجَّتي، ومعرفةَ أسبابِك من وراء هذا الرفض".

ناقش

هل تعتقد أنَّ من المفيد الدخول في مناقشات مع عبارات مثل: "أعتقد أنَّ الدِّين موجود فقط في رأسك" أو "لقد أضرَّ الدينُ المجتمعَ أكثر من أيِّ شيء آخر"؟ وإنْ كان الأمر هكذا، فتحت أيِّ أحوال يمكن الدخول في هذه المناقشات؟ وكيف؟ أو لِمَ لا؟

حاول جعْله ينخرطُ في المناقشة؛ فقد تصل في النهاية إلى نقطة حيث يمكنك أن تقول له: "لا أعتقد أنَّك حقًّا ترفض الله بسبب غياب الدليل، بل أشعر بأنَّ هناك رفضًا وجدانيًّا أعمق لله، فما السبب الحقيقيُّ لرفضك لله؟" عند تلك النقطة تكون قد انتقلتَ إلى ما وراء الدفاعيَّات نحو مشورة شخصيَّة.

ما أقوله هنا هو إنَّ استعدادك ببعض الحجج سيُبطل تمامًا السبب الأساسيَّ لعدم الإيمان لدى الملحد، ألا وهو أنَّه ليس هناك دليلٌ على وجود الله.

دون شكٍّ، حتَّى لو لم يكن هناك دليلٌ على وجود الله، فليس ذلك إثباتًا أنَّ الله **غير** موجود. أخبرَني عالمٌ أستراليٌّ في علم الأدلَّة الجنائيَّة قابلتُه بينما كنتُ أحاضر في سيدني أنَّ هناك قولًا يعشقه متخصِّصو علم الجريمة: **غياب الدليل ليس دليلًا على غياب الأمر**؛ فقد يظلُّ المشتبهُ به هو القاتلَ حتَّى إنْ لم يكن هناك دليلٌ على ذلك. ولاستبعاده من قائمة المتَّهمين، فإنَّك تحتاج إلى دليل البراءة (أو حُجَّة الغياب)، وهو دليل إيجابيٌّ على أنَّه لم يرتكب الجريمة. لاستبعاد وجود الله، يحتاج الملحد إلى أكثر من مجرَّد غياب الدليل، إذ يحتاج إلى دليل إيجابيٍّ على الغياب.

ناقش

ما الأسباب الوجدانيَّة التي يمكن أن تجعلَ شخصًا يرفض الله ولا يكون لديه اهتمامٌ بالحُجج المنطقيَّة؟

إعادة تعريف الإلحاد ليعني غياب الإيمان

في أغلب الأحيان يعترف الملحدون أنفسهم بأنْ ليس لديهم دليلٌ على غياب الله، لكنَّهم يحاولون تقديم الأمر في صورة مختلفة، فيقولون لك: "لا يمكن أن يُثبتَ أيُّ شخص صحَّة طرحٍ سلبيٍّ مطلق*" (مثل "الله غير موجود") ويعتقدون أنَّ ذلك يعفيهم بطريقة ما من الاحتياج إلى دليل ضدَّ وجود الله.

الحقيقةُ أنَّك تستطيع بالفعل إثبات صحَّة طرح سلبيٍّ مطلق (فكلُّ ما عليك فعله هو إظهار أنَّ الطرح المقدَّم يناقض ذاته)، لكنَّ الأهمَّ من ذلك هو أنَّ هذه الدعوى إنَّما هي اعترافٌ أنَّ من المستحيل إثبات الإلحاد! فالإلحاد يتضمَّن طرحًا سلبيًّا مطلقًا. وإنْ كنتَ لا تستطيع إثبات طرح سلبيٍّ مطلق، يكونُ الإلحاد بناءً على ذلك غير قابل للإثبات، ويتَّضح أنَّ الملحد هو مَن يؤمن برأيٍ لا يوجد له دليل، بل لا يمكن أن يوجد له دليل. ينبغي لهذه الحُجَّة أن تكون جزءًا من ترسانة الدفاعيَّات لدى المسيحيِّ.

ما يفعله الكثير من الملحدين عند هذه النقطة هو إعادة تعريف الإلحاد، فلا يكون في ما بعد الرأي بأنَّ الله غير موجود بل يصبح فقط غياب الإيمان بالله، ويكون كلُّ مَن يفتقر إلى الإيمان بالله ملحدًا.

ليس هذا فقط معاكسًا للمعنى التقليديِّ للكلمة، لكنَّه بالفعل تعريف متعذِّر؛ لأنَّه بحسب هذا التعريف الجديد لا يكون الإلحاد بعد وجهة نظر أو موقفًا، بل هو مجرَّد وصف للحالة النفسيَّة لشخصٍ ما، وهي حالة الافتقار إلى إيمانٍ بالله. بذلك ليس الإلحاد صحيحًا ولا خاطئًا، بل حتَّى الرُّضَّع يتَّضحُ أنَّهم ملحدون! لكن هل يمكنك تخيُّل المحادثة التالية ما بين أُمَّين؟

---

* التعبير في اللغة الإنكليزيَّة هو "Universal Negative". والطرح السلبيُّ هو الطرح الذي ينفي وجودَ شيء ما. مثلًا عند قول: "لا يمكن أن يطير العصفور بجناح واحد". الطرح المطلق، على الجانب الآخر، هو الطرح الذي يفترض صحَّته في كلِّ الأحوال، وفي كلِّ زمانٍ ومكان. مثلًا، إذا قلنا: "لا يمكن أن يطير العصفور بجناح واحد بتاتًا"، هذا طرح مطلق؛ لأنَّ الادِّعاء هو أنَّه لا يوجد مكان أو زمان أو حال يمكنها أن تغيِّرَ هذه الحقيقة. لذا فحينما نقول مصطلح "طرح سلبيٍّ مطلق"، فنحن نقول إنَّ هذا الطرح ينفي وجود شيء ما في كلِّ الأحوال والأزمنة والأمكنة (الناشر).

كلمات أساسيَّة

مذهب التأليه: "الله موجود"

مذهب الإلحاد: "الله غير موجود"

مذهب اللاأدريَّة: "قد يكون الله موجودًا وقد يكون غير موجود".

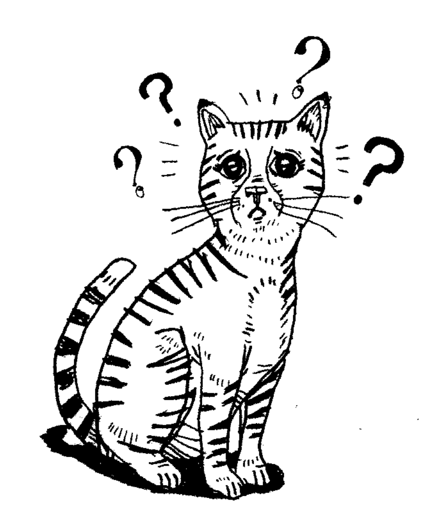
بروك: "يا جولي، سمعتُ أنَّكِ وضعتِ توأمَين! تهانينا!"

جولي: "نعم، أشكركِ! لكنْ، للأسف، إنَّه لأمر حزينٌ..."

بروك: "ما الحزين في الأمر؟"

جولي: "حسنًا، كلاهما ملحدان!"

ولدى وَضْعِ هذا التعريف تكون قطَّتنا مُلحدة أيضًا، رُغمَ أنَّها لم تفكِّر قطُّ في هذا السؤال!



هل قطَّتي مُلحدة؟

مع كلِّ ذلك، فإنَّنا نظلُّ متسائلين ما إذا كان الله موجودًا أم لا، ولتسمِّ ذلك "إلحادًا" أو أيَّة كلمة أخرى تريدها، لكنْ ما نريد معرفته هو ما إذا كان الله موجودًا، وأيُّ شخص يقول إنَّ الله غير موجود يحتاج لأن يكون لديه دليلٌ ما أو حُجج تؤيِّد موقفه.

حُجَّة الألم

يحاول بالفعل الملحدون عميقو التفكير تقديمَ حجج ضدَّ وجود الله، ودون

شكٍّ أهمُّ هذه الحجج هي مشكلة الألم، فحين تفكِّر في مدى الألم وعمقه في العالم، سواء بسبب كوارث طبيعيَّة أم بسبب وحشيَّة الإنسان نحو أخيه الإنسان، ينبغي لك الاعتراف أنَّه من الصعب الإيمان بالله، إذ يبدو أنَّ الكمَّ الهائل من الألم في العالم بكلِّ تأكيد يدلُّ على غياب الله.

في ١٩٨٥م حين كنتُ أنا وجان نعيش خارج باريس، جاءتني مشكلة الألم بطريقة قويَّة بواسطة حادثَين عُرضا على التليفزيون الفرنسيِّ. ففي مدينة مكسيكو، كان زلزال رهيب قد ضرب ودمَّر منطقة فيها بنايات سكنيَّة شاهقة، وبينما كانت فرق الإنقاذ تبحث في الأنقاض عن ناجين لاحظوا ولدًا في سنِّ العاشرة كان عالقًا حيًّا في مكان ما في تجاويف بناية منهدمة. وفي الأيَّام التالية شاهد العالمُ كلُّه بألمٍ محاولات الفِرق لإزالة الأنقاض للوصول إلى الولد، كانوا قادرين على التواصل معه لكنَّهم لم يستطيعوا الوصول إليه. كان جدُّه، والذي كان قد عَلِقَ معه قد مات بالفعل، وكان الولد يصرخ "أنا خائف!" بعد نحو أحد عشر يومًا سادَ صمتٌ. فبينما كان الولد وحيدًا وخائفًا، وعالقًا دون طعام وماء، مات الولد قبل أن تتمكَّنَ فِرقُ الإنقاذ من تحريره.

في ذلك العام، اجتاح انهيارٌ وحليٌّ قريةً في كولومبيا، وبينما أتى المنقذون لمساعدة الناجين، صادفوا طفلة صغيرة عالقة حتَّى ذقنها في مياه موحلة، ولسببٍ أو لآخر لم يستطيعوا تحريرها أو نزع المياه، وكلُّ ما استطاعوا فعله هو الوقوف هناك في عجز مشاهدين إيَّاها وهي تموت، وكلَّ مساء في الأخبار كنَّا نرى مشاهد من تدهور الطفلة الصغيرة، وكان ذلك أكثر مشهد مُحزن رأيتُه، فقد كانت واقفة هناك غير قادرة على الحركة، تبصق المياه التي كانت تتدفَّق باستمرار إلى فمها، وبمرور الأيَّام أصبحت منهكةً أكثر وأكثر، وتكوَّنتْ هالات سوداء تحت عينيها، كانت تموت أمام أعيننا بينما كنَّا نشاهد التليفزيون، وفي النهاية أعلن مذيعُ نشرة المساء تقريرًا أنَّها انتهت.

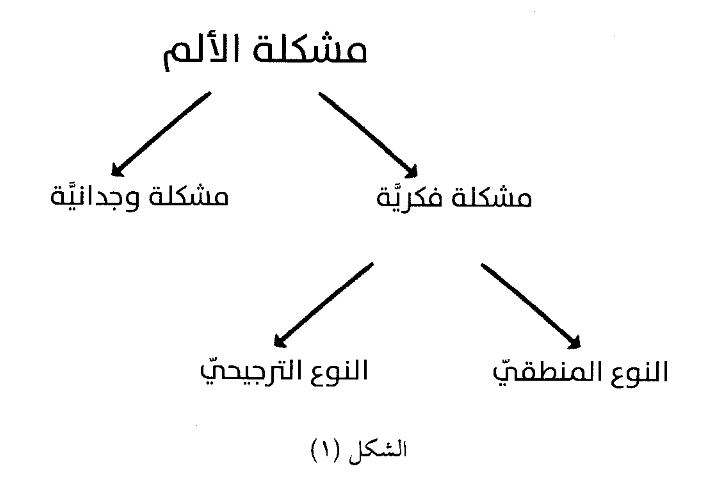
مزَّق هذان الحدثان قلبي، وفكَّرتُ قائلًا: "**يا الله! كيف يمكنك السماح**

بأن يموت هذان الطفلان هكذا؟ إنْ كان لزامًا أن يموتا فليكُن! لكن كان يمكنك أن تدَعَ الولدَ يُقتل في الحال بانهيار البناية، أو تدعَ الطفلة الصغيرة تغرق فجأة، لماذا هذا الموت المتعرِّج الطويل الذي بلا مسوِّغ؟ سأكون أمينًا معك، حين أرى مثل هذه الأمور تحدث، يُصعِّب ذلك من الإيمان بالله.

لكنْ كما قدَّم إليَّ زميلٌ ملاحظة حكيمة، قائلًا إنِّي بوصفي فيلَسوفًا، فأنا مدعوٌّ لأقول ما **أعتقده** بشأن سؤال ما، وليس ما **أشعر به** حِيال ذلك السؤال. ورغم صعوبة مشكلة الألم على المستوى الوجدانيّ، فليس هناك سبب في حدِّ ذاته للاعتقاد أنَّ الله غير موجود.

أنواع مشكلة الألم

لذا ففي تعاملنا مع هذا الموضوع المشحون عاطفيًّا، من المصيريّ أن نميِّز عددًا من الاختلافات لكي نحتفظ بجلاء تفكيرنا (الشكل ١).



الشكل (١)

أوَّلًا وقبل كلِّ شيء علينا أن نميِّز ما بين المشكلة **الفكريَّة** التي يطرحها الألم، والمشكلة **الوجدانيَّة** التي يعرضُها؛ فالمشكلة الفكريَّة تختصُّ بمعقوليَّةِ أن نعتقدَ أنَّه يمكن أن يوجَد الله والألم معًا. أمَّا المشكلة الوجدانيَّة فتختصُّ بنُفور الناس من الله الذي يمكنُ أن يسمح بالألم.

من المهمّ أن يكونَ الفرقُ بين المشكلتَين جليًّا؛ إذ ما من شكٍّ أنَّ الإجابة عن المشكلة الفكريَّة ستبدو جافَّة وغير مُكترِثةٍ بالشخص الذي يصارع المشكلةَ الوجدانيَّة. وفي الغالب ستبدو الإجابة عن المشكلة الوجدانيَّة سطحيَّةً وضعيفة لأيِّ شخص يتأمَّل في الألم بوصفه سؤالًا فلسفيًّا مجرَّدًا.

إنَّ اقتناعي هو أنَّ الألمَ لأغلب الناس في العالم هو مسألةٌ وجدانيَّةٌ وليست فكريَّة، ويولد عدمُ إيمانهم لا من **التفنيد** بل من **الرفض**؛ إذ لا يريدون أن تكونَ لهم أيَّة علاقةٍ بإله يسمَحَ لهم أو لغَيرِهم بأن يتألَّموا هذا الألمَ الرهيب. لكنْ من أجل دعم دعواي بأنَّ الألم يطرح بصورةٍ أساسيَّة مشكلة وجدانيَّة، نحتاج إلى فحص المشكلة الفكريَّة بالتفصيل لإظهار فشل كونِها دليلًا على الإلحاد.

المشكلة الفكريَّة للألم

الآن ونحن نناقش المشكلة الفكريَّة للألم، من المهمّ أن نتذكَّر الجهةَ التي يقع عليها عبء الإثبات هنا؛ ففي الفصول السابقة تطرَّقنا لحجج تؤيِّد وجود الله لذلك كان على المؤمن عبء الإثبات، لكنَّ الآن الدَّور هو للمُلحد؛ فنحن نتطرَّق لحُجج مؤيِّدة **للإلحاد**، لذلك نريد أن نسمع من المُلحد بعضَ الحُجج ضدَّ وجود الله، وهكذا يحملُ الملحدُ الآن على كاهِلِه عِبْءَ الإثبات، والأمر متروكٌ له ليعطيَنا حُجَّة تقود إلى الخُلاصة "إذًا الله غير موجود".

ناقش

هل اختبرتَ ألمًا صعبًا؟ كيف يؤثِّر اختبارك للألم (أو النقص النسبيُّ لاختبارك للألم) في الطريقة التي تفكِّر بها في مشكلة الألم؟

كثيرًا ما يسمح المؤمنون لغير المؤمنين بأن ينقلوا عبءَ الإثبات إلى كاهلِ المؤمن، إذ يطالب غير المؤمن قائلًا: "أعطني تفسيرًا جيِّدًا لماذا يسمح الله بالألم"، ثمَّ يجلس لاعبًا دور من يقدِّم شكوكًا في كلِّ المساعي التفسيريَّة التي يقدِّمها المؤمن، وينتهي الأمر بالمُلحد وهو غير مُضطرٍّ إلى إثبات أيِّ شيء، وقد تكون هذه استراتيجيَّة ماهرة في المناظرة من جهة المُلحد، لكنَّها غير مشروعة فلسفيًّا، وغير أمينة فكريًّا.

لا تسمحْ للمُلحد بأن يتهرَّب من مسؤوليَّاته الفكريَّة؛ فهو من يدَّعي أنَّ وجودَ الله والألم معًا مستحيلٌ أو بعيد الاحتمال، لذا فالأمر متروكٌ له ليُعطيَنا حُجَّته داعمًا مقدِّماته. وهنا يأتي دور المؤمن ليلعب دور المُشكِّك مُمتحنًا ما إذا كان المُلحد قد أظهر أنْ ليس عند الله، أو من غير الممكن أن يكون عنده، سببٌ جيِّدٌ للسماح بالألم في العالم. صَمِّم أنْ يتحمَّل المُلحد نصيبَه من عبء الإثبات حين يحين دورُه ليقدِّم قضيَّته ضدَّ الله.

إنَّ للمشكلة الفكريَّة للألم نوعَين: يحاول النوع المنطقيُّ إظهارَ أنَّ وُجودَ الله والألم معًا هو أمرٌ مستَحيلٌ منطقيًّا[†]، أمَّا النسخة الترجيحيَّة فتحاول إظهار أنَّ وُجود الله والألم معًا هو أمر بعيد الاحتمال جدًّا.

والآن قبل أن تبدأ في الكلام مع غير المؤمن بشأن مشكلة الألم، تحتاج إلى اكتشاف أيِّ النسختين يدعمُ، لذا اسأله: "هل تقول إنَّ من **المستحيل** لله والألم أن يوجَدا معًا في العالم؟ أم هل تقول إنَّه مجرَّد أمرٍ **بعيد الاحتمال**؟"، إذا كان مثل معظم المُلحدين فعلى الأرجح لم يفكِّر في الأمر من قبل، لذا لن تكون لديه أدنى فكرة. قد تحتاج إلى مساعدته لاستيضاح ما يؤمن هو نفسه به وذلك بشَرْح النسختَين. وبناء على ما يؤمن به، ستقرِّرُ ردَّ فعلك.

النسخة المنطقيَّة: "من المستحيل منطقيًّا أن يوجد الله والألم معًا".

بحسب النسخة المنطقيَّة من المشكلة، من **المستحيل منطقيًّا** لله والألم أن يوجَدا معًا، فهُما كالقوَّة التي لا تقاوَم والجسم الثابت (غير المتحرِّك)، فإذا وُجِدَ أحَدُهما فُقِدَ الآخر، وما دام الألم موجودًا بالتأكيد، فالاستِنتاجُ هو أنَّ الله غير موجود.

مفتاح هذه الحُجَّة هو دعوى المُلحد أنَّ من المستحيل أن يوجَدَ الله والألم معًا؛ إذ يقول المُلحد إنَّ العبارتَين التاليتين غير متَّسقتَين منطقيًّا:

---

† يكون الأمر مستحيلًا منطقيًّا إذا كان يُنافي إحدى قواعد المنطق. فمثلًا، إذا قلنا إنَّ شيئًا هو موجود وغير موجود، فهذا استحالة منطقيَّة؛ لأنَّ الكلامَ متناقض، فإما أن يكون الشيءُ موجودًا وإمَّا ألَّا يكونَ موجودًا، ولا يمكن أن يجتمعَ الوجود والعدم في الشيء نفسه في اللحظة ذاتها (الناشر).

١. يوجد إلهٌ كلِّيُّ المحبَّة وكلِّيُّ القوَّة.

٢. الألم موجودٌ.

والسؤال الواضح الآن هو: لماذا نظنُّ أنَّ هاتَين العبارتَين غير متَّسقتَين منطقيًّا؟ ما من تناقضٍ مباشر بينهما (فليست إحداهما عكس الأخرى)، لذا إذا اعتقد المُلحدُ أنَّ هناك تناقضًا ضمنيًّا بينهما[‡]، فلا بدَّ أنَّه يفترض بعض الافتراضات الخفيَّة والتي ستخدم غرض إظهار التناقض وجعله صريحًا. والسؤال هو: ما تلك الافتراضات الخفيَّة؟

هناك على ما يبدو افتراضان يضعُهما المُلحد، وهما:

٣. إذا كان الله كُلِّيَّ القدرة، يمكنه خلْق أيِّ عالَم يريده.

٤. إذا كان الله كلِّيَّ المحبَّة، فهو يفضِّل عالمًا دون ألم.

الحُجَّة هنا هي أنَّ الله كلِّيُّ المحبَّة وكلِّيُّ القدرة، ومن ثمَّ يستطيع، وكذلك يريد خَلْقَ عالم دون ألم، ونتيجةُ ذلك هي ألَّا يكونَ هناك ألم في العالم. لكنَّ ذلك يتعارض مع رقم ٢ أنَّ الألم موجود، لذلك فالله غير موجود.

لكي تُظهر هذه الحُجَّة عدم اتِّساق منطقيًّا ما بين العبارتَين ١ و٢ ينبغي

[‡] يظهر التناقض المباشر بين تصريحَين بصورةٍ تتيسَّر لعقولنا بسرعة، فمثلًا إذا نظر شخصان إلى الشكل نفسه، وقال أحدهما إنَّ الشكل هو دائرة، فيما قال الآخر إنَّه مستطيل، فسنرى أنَّ هناك تناقضًا مباشرًا؛ لأنَّ مجرَّد سماع هذا الكلام يقودنا إلى استنتاج التناقض، فنقول إنَّ هذا تناقض مباشر. أمَّا التناقض الضمنيُّ فيمكن ألَّا يدرك بصورةٍ مباشرة، بل يتطلَّب فحصًا وتمحيصًا أعمق للكلام. مثلًا، إذا قلنا إنَّ إبراهيمَ هو زوجُ فريدة وأمَّا فريدة فليست زوجةَ إبراهيم. قد تُشعرُنا هذه الجملة بأنَّ هناك شكلًا من أشكال التناقض، لكن يمكن أن نرى أيضًا أنَّ من الممكن ألَّا يكون هناك تناقضٌ. مثلًا، "فريدة" المذكورة في الشطر الثاني يمكن ألَّا تكون هي "فريدة" زوجة إبراهيم (المذكورة في الشطر الأول)؛ لأنَّ الجملة، في هذه الحالة، تتكلَّم عن امرأتَين تحملان الاسمَ نفسَه، وإحداهما فقط هي زوجة سمير. وهكذا تكون الجملة صحيحة ودون تناقض. لكنْ يمكن أن يكونَ هناك تناقض إذا اتَّضح لنا أنَّ الكلام هو عن "فريدة" واحدة؛ لأنَّه لا يمكن أن تكون فريدةُ زوجةَ سمير، وألا تكون زوجته في الوقت نفسه. وخلاصة القول إنَّه سيكون هناك تناقض إذا تبيَّن لنا أنَّ الجملة تتكلم عن "فريدة" واحدة. بينما يظهرُ التناقض الضمنيُّ، كما في المثل السابق، حينما نتفحَّص كلامًا قد يبدو (أو لا يبدو) للوهلة الأولى أنَّ فيه تناقضًا، ونكتشف أنَّ فيه تناقضًا فعليًّا بعد دراسته (الناشر).

لكلا الافتراضَين اللذين يفترضهما المُلحدُ أن يكونا صحيحَين بالضرورة[§]، لكن هل هما كذلك بالفعل؟

فكِّر في ٣، **أنَّه إذا كان الله كُلِّيَّ القدرة، يمكنه خلْق أيِّ عالَم يريده**، هل ذلك صحيح بالضرورة؟ حسنًا، الإجابة لا إذا كان من الممكن أن تكون للناس إرادةٌ حرَّة! من المستحيل منطقيًّا **جَعْلُ** شخصٍ ما يفعل شيئًا ما **بِحُرِّيَّة**، إذ يشبه هذا الاستحالة المنطقيَّة نفسها في صُنع مربَّع مستدير أو عازب متزوِّج. كَوْن الله كلِّيَّ القدرة لا يعني أنَّ في وُسعِه صُنعَ ما هو مستحيل منطقيًّا- في الواقع، لا يمكن أن يطرأ أيُّ "شيء" واقعيٌّ يمكن القول عنه إنَّه مستحيل منطقيًّا (لأنَّه ببساطة لا يمكن تحقيقه)، الاستحالة المنطقيَّة هي مجرَّد تركيب غير متَّسق للكلمات.

(إذا أصرَّ غير المؤمن أنَّ كِيانًا كلِّيَّ القدرة **يستطيع** أن يفعْلَ ما هو مستحيلٌ منطقيًّا، فإنَّ مشكلةَ الألم تتلاشى فورًا؛ لأنَّ الله قادرٌ في هذه الحالة أن يكونَ هو والألم موجودَين معًا، حتَّى إنْ كان ذلك مستحيلًا منطقيًّا!)

ما دامَ من الممكن أن تكونَ للناس إرادة حرَّة، يتَّضح أنَّ ٣ ليست صحيحة بالضرورة؛ لأنَّه إذا كانت للناس إرادة حرَّة فقد يرفضون فعْل ما يرغبُ فيه الله، وبذلك يكون هناك عددٌ من العوالم الممكنة التي لا يستطيع الله خلقها؛ لأنَّ الناسَ فيها لا يريدون التعاون مع رغبات الله. في الحقيقة، على قدر ما نعلم، يمكن أن يكونَ في أيِّ عالَم فيه أشخاصٍ أحرار مع القدر ذاته من الخير الذي في هذا العالم، القدر نفسه من الألم. هذا الحدس ليس صحيحًا بالضرورة أو حتَّى محتملًا، لكنَّه **ممكنٌ منطقيًّا**، فهو يُظهر أنَّه ليس بالضرورة صحيحًا أنَّ في وُسع الله خلْق أيِّ عالم يريده. من ثمَّ فافتراض ٣ هو غير حقيقيٍّ بالضرورة، وعلى هذا الأساس وحده تكون حُجَّة المُلحد وهميَّةً منطقيًّا.

لكنْ ماذا عن افتراض ٤، أنَّه إذا كان الله كلِّيَّ المحبَّة، فهو يفضِّل عالمًا دون ألم؟ هل هذا حقيقيٌّ بالضرورة؟ لا يبدو كذلك، إذ يمكن أن تكونَ لله

§ يكون الكلامُ صحيحًا بالضرورة إذا كان صحيحًا في كلِّ زمان ومكانٍ وحالٍ، وتحت كلِّ المعطيات (الناشر).

أسبابٌ ذات أولويَّة سامية للسماح بالألم في العالم، ونعلم كلُّنا حالاتٍ نسمح فيها بالألم من أجل تحقيق خيرٍ أعظم (مثل اصطحاب أطفالنا إلى طبيب الأسنان). قد يُصرُّ المُلحد على أنَّ كيانًا كلِّيَّ القوَّة لن يكون محدودًا بهذا الشكل، إذ يمكنه تحقيق الخير الأعظم مباشرةً، دون السماح بأيِّ ألم، إلَّا أنَّ من الواضح أنَّه بافتراض حرِّيَّة الإرادة قد يكون هذا غير ممكن، فيُمكن أن يتحقَّق بعض الخير، مثلًا الفضائل الأخلاقيَّة، فقط بواسطة التعاون الحرِّ للناس، وقد يكون وضْعُ عالَمٍ فيه ألم، مع وضع كلِّ شيء في الحسبان، أفضلَ إجمالًا من عالم ليس فيه ألمٌ. وعلى أيَّة حال، هو على الأقلِّ أمرٌ ممكنٌ، وذلك كافٍ لهدم دعوى المُلحد أنَّ الافتراض ٤ حقيقيٌّ بالضرورة.

النقطة هنا هي أنَّ المُلحد في تأكيده على الافتراضَين ٣ و٤ يكون قد أخذ على عاتقه عبء إثباتٍ لا يُحتمل؛ إذ سيكون لزامًا عليه إظهار استحالة الإرادة الحرَّة، وأنَّ من المستحيل أن يكون عالمٌ فيه ألم أفضلَ من عالم دون ألم.

يمكننا الدفع بالحجَّة إلى خطوة أبعد، إذ يمكننا جعْل الله والألم **بالفعل** متَّسقين منطقيًّا، وكُلُّ ما علينا فعله هو تقديم عبارة تتَّسق مع وجود الله، ونتيجة ذلك هي أنَّ الألم موجود، وإليكم هذه العبارة:

٥. لم يكن ممكنًا أن يخلق الله عالمًا آخرَ بالقدر نفسه من الخير، ولكن بقدر أقلَّ من الألم مقارنةً بعالمنا، ولدى الله أسبابٌ جيِّدة للسماح بالألم الموجود.

والفكرة هنا هي أنَّه بافتراض حرِّيَّة الإنسان، تكون خيارات الله محدودة، وقد تكون فكرة عالمٍ بالقدر نفسه من الخير الموجود في العالم، لكنْ بقدر أقلَّ من الألم، خِيارًا غير متاح، ومع ذلك فلدى الله أسبابٌ جيِّدة ليسمح بالألم الذي يسمح به. إذا كانت العبارة ٥ صحيحة **بصورة محتملة** فهي تُظهر إمكانيَّة وجود الله والألم معًا، وبالتأكيد من المعقول أن تكون العبارة ٥ صحيحة بصورة محتملة.

حرِّيَّة الإرادة

يُسمَّى مفهوم الحرِّيَّة الذي نناقشه هنا الحرِّيَّة التحرُّريَّة (Libertarian Freedom)، ويقول بعض الفلاسفة إنَّ جوهر التحرُّريَّة هو القدرة على الاختيار ما بين تصرُّف "أ" أو "لا أ" تحت الظروف نفسها. ويمكن قول إنَّ تحليلًا أفضل للحرِّيَّة التحرُّريَّة يرى جوهرَها في غياب أيِّ مسبِّب خارجيٍّ يُحدِّد أو يصنَعُ اختيارَ الشخص بعيدًا من إرادة الشخص نفسه. ويعني ذلك أنَّ أسبابًا بخلاف الشخص نفسه لا تحدِّد كيف يختار هذا الشخصُ في مجموعة معيَّنة من الأحوال؛ فالأمر متروكٌ له بشأن كيفيَّة الاختيار. ويختلف هذا التصوُّر عن الحرِّيَّة اختلافًا كبيرًا عن تصوُّر الحرِّيَّة التوافقيَّة (Voluntarist Freedom أو Compatibilist Freedom)، والذي يعرِّف الحرِّيَّة من ناحية التصرُّف الطوعيِّ (أو غير المُكره عليه)، وبهذا يتوافق كَونَ التصرُّف مُحدَّدًا سببيًّا مع كونه "حرًّا". مفهوم الحرِّيَّة العامل في هذا الفصل هو الحُرِّيَّة التحرُّريَّة، والتي تمنع تحديد الله للكيفيَّة التي سنختار بها بحرِّيَّة.

لذلك يُسعدني إعلان أنَّه بعد قرون من المناقشة، أُغلِقتِ الكتب المكتوبة عن النسخة المنطقيَّة من مشكلة الألم، ومن المعتَرف على نطاق واسع ما بين الفلاسفة الملحدين والمسيحيِّين على حدٍّ سواء أنَّ النسخة المنطقيَّة لمشكلة الألم أظهرت فشلها؛ فعبء الإثبات الذي تُلقيه على عاتق الملحد، أيْ محاولة إظهار استحالة وجود الله والألم معًا، هو عبء أثقل من أن يُحتمل.

النسخة البرهانيَّة: "من غير المحتمل أن تكون لدى الله أسبابٌ جيِّدة للسماح بالألم"

لكنَّنا لسنا خارج نطاق الخطر بعد! إذ ننتقل الآن إلى المشكلة البرهانيَّة للألم، والتي لا تزال موضوعًا نشطًا. الفكرة الإلحاديَّة هنا هي أنَّ الألم في العالم يجعل من **غير المحتمل** أن يكون الله موجودًا، لا سيَّما يبدو الأمر بعيدَ الاحتمال جدًّا أن تكون لدى الله أسبابٌ جيِّدة للسماح بالألم في العالم، إذ يبدو أنَّ الكثير جدًّا من الألم موجود دون مسوِّغ أو ضرورة، فبالتأكيد كان يمكن أن يقلِّل الله من الألم في العالم دون تقليل الصلاح العامِّ، ومن ثمَّ يقدِّم الألم الذي في العالم برهانًا على عدم وجودِ إله.

هذه النسخة من الحُجَّة أقوى كثيرًا من النسخة المنطقيَّة. وما دامت خلاصتها أبسط (أي أنَّه من غير المحتمل أن يكون الله موجودًا)، فإنَّ عبءَ الإثبات أخفُّ. إذًا ماذا يمكن أن يُقال في الردِّ على هذه الحُجَّة؟ سأتناول ثلاث نقاط.

المحدوديَّات البشريَّة

أوَّلًا، لسنا في مكان يسمح لنا بأن نقول إنَّه من غير المحتمل ألَّا تكونَ لدى الله أسباب جيِّدة للسماح بالألم في العالم.

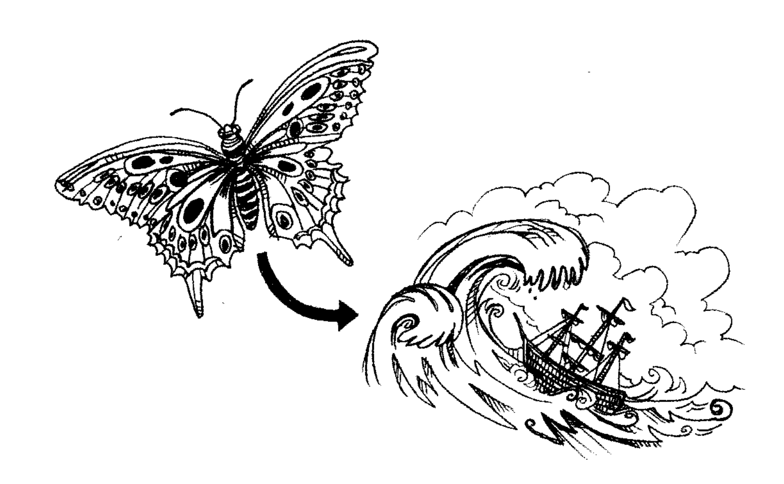
مفتاح الحُجَّة البرهانيَّة هو ادِّعاء المُلحد أنَّه ليست لدى الله أسبابٌ جيِّدة للسماح بالألم الواقع. ندركُ جميعًا أنَّ الكثير من الألم الواقع في العالم يبدو

دون مسوِّغ، إذ لا نرى هدفًا ولا ضرورة له، وسيعتمد نجاحُ حُجَّة المُلحد على ما إذا سُمح لنا باستنتاج أنَّه إنْ **بدى لنا** أنَّ الألم دون مسوِّغ فهو **بالفعل** دون مسوِّغ. نقطتي الأولى هي أنَّنا لسنا في مكان يسمح لنا بالوصول إلى هذا النوع من الحُكم بأيَّة درجة من اليقين.

وبصفتنا أشخاصًا محدودين، فإنَّ إطار محدوديَّتِنا هو المكان والزمان والذكاء والبصيرة، لكنَّ الله يرى نهاية التاريخ منذ بدايته، وهو يأمر بعنايته التاريخَ لغاياته هو بواسطة القرارات والتصرُّفات الحرَّة للناس، ومن أجل تحقيق أهدافه قد يكون عليه أن يسمح بقدر كبير من الألم في الطريق؛ فالألم الذي يبدو لنا أنَّه دون هدف ضمن إطارنا المحدود، يظهر أنَّه مسموح به ضمنَ الإطار الأوسع لله، وبصورة لها أسبابها.

وسأقدِّم توضيحَين لهذه النقطة، واحدًا من العِلم المُعاصر والآخر من الثقافة الشعبيَّة.

التوضيح الأوَّل: اكتشف العلماء في ما يُسمَّى بنظريَّة الفوضى أنَّ الأنظمة واسعة النطاق، مثلًا الحالة الجوِّيَّة أو أعداد الحشرات، حسَّاسة على غير العادة لأصغر الاضطرابات، فقد تبدأ فراشةٌ ترفرف على غُصنٍ في غرب أفريقيا سلسلة من قُوى تؤدِّي في النهاية إلى إعصارٍ على المحيط الأطلسيِّ، ومع ذلك فمن المستحيل لأيِّ شخصٍ يشاهد تلك الفراشة فوق ذلك الغصن أن يتوقَّع مثل هذه النتيجة، فليست لدينا أيَّة طريقة لمعرفة كيف يمكن أن يُحدثَ ما يبدو تغييرًا ضئيلًا في حدثٍ ما تغييرًا جذريًّا في العالم كلِّه.



التوضيح الثاني: فيلم "أبواب منغلقة" (Sliding Doors)، بطولة غوينيث پالترو (Gwyneth Paltrow)، ويحكي قصَّة فتاة تهرول على سلالم مترو الأنفاق لتلحق بالقطار، وبينما تقترب من القطار ينقسم الفيلم ضمن مسارَين مُحتملَين لحياتها، في حياةٍ منهما تنغلق أبواب القطار في وقت قصير جدًّا قبل أن تتمكَّن من الركوب، وفي الحياة الأخرى تتمكَّن من الركوب قبل أن تنغلقَ الأبواب. وبناءً على هذا الحدث الذي يبدو تافهًا، يتباعد مسارا حياتها بصورةٍ متزايدة، ففي أحَدِهما تكون ناجحةً ومزدهرةً وسعيدةً جدًّا، وفي الأخرى تصادف الفشل والبؤس والتعاسة، وكلُّ ذلك بسبب فرقٍ بسيط جدًّا في الوصول إلى أبواب القطار!

فضلًا عن ذلك، يتعلَّق ذلك الفرق بما إذا كانت هناك طفلة صغيرة تلعب بدميتها على السلالم ويشدُّها أبوها بعيدًا أو يعيقُ لحظيًّا مسار الفتاة بينما تُهرع على السلالم للحاق بالقطار. لا يمكننا التوقُّف عن التساؤل بشأن الأمور الصغيرة الأخرى التي لا حصر لها والتي قادت إلى ذلك الحدث: ما إذا كان الأب وابنته قد تعطَّلا عن مغادرة البيت ذلك الصباح لأنَّ الفطور الذي أعدَّته أمُّها لم يعجبها، وما إذا كان الرجل غافلًا عن ابنته لانشغال أفكاره بشيء كان قد قرأه في الصحف، وهكذا.

لكنَّ أكثر الأجزاء إمتاعًا كانت نهاية الفيلم: في الحياة السعيدة الناجحة، تُقتل الفتاة فجأة في حادث، بينما تتحوَّل الحياة الأخرى، ويتَّضح أنَّ حياة الصعاب والألم هي الحياة الجيِّدة حقًّا! من الواضح أنَّ نقطتي ليست أنَّ الأمور تتحوَّل دائمًا إلى الأفضل في هذه الحياة الأرضيَّة، لا، نقطتي هنا أبسط كثيرًا: لو أدركنا التعقيد المذهل للحياة، لعلمنا أنَّنا لسنا في موقف يسمح لنا بالحُكم أنَّه ليست لدى الله أسبابٌ جيِّدة للسماح بحالة ما من الألم تصيب حياتنا.

كلُّ حدثٍ يرسلُ معه مجموعة من الأمواج عبْر التاريخ، حتَّى إنَّ سبب الله للسماح به قد لا يبزغ قبل قرون لاحقة، وربَّما في بلد آخر. يمكن فقط أن يكونَ إلهٌ كُلِّيُّ المعرفة مُلِمًّا بتعقيدات توجيه عالَم من الناس الأحرار نحو أهدافه المُتصوَّرة. فقط فكِّر في الأحداث التي لا تُحصى ولا تُعدُّ المشاركِة في الوصول إلى حدث تاريخيٍّ واحد، مثل انتصار الحلفاء في يوم النصر¶! ليست لدينا أدنى فكرة عن أيِّ ألم قد يوجد كي يُحقِّق الله هدفًا معيَّنًا مقصودًا بواسطة التصرُّفات التي يختارها البشرُ بحُرِّيَّة، ويجب ألَّا نتوقَّع تمييزَ أسبابِ الله للسماح بالألم، فليس مفاجئًا أن يبدو لنا الكثير من الألم بلا هدف أو ضرورة، إذ نحن مغمورون بهذه التعقيدات.

ولا يعني هذا أنَّنا نختبئ خلف غموض اختلقناه، بل هو إشارةٌ إلى محدوديَّاتنا المتأصِّلة، والتي تجعل من المستحيل لنا أن نقول، حين نواجَه بمثال ما للألم، إنَّه ليست لله أسبابٌ جيِّدة للسماح بحدوثه. يُدرك غير المؤمنين أنفسُهم تلك المحدوديَّات في سياقات أخرى، فمثلًا، أحد الاعتراضات الحاسمة على مذهب المنفعة (نظريَّة الأخلاق القائلة إنَّ علينا فعلَ أيِّ شيء يجلب السعادة العظمى للعدد الأعظم من الناس) هو أنَّه ليست لدينا أدنى فكرة عن الناتج النهائيِّ لتصرُّفاتنا، فقد يقود خيرٌ قصير المدى إلى بؤس لا

¶ يوم النصر (D-Day) هو السادس من حَزيران/يونيو من عام ١٩٤٤م، وكان يومًا تاريخيًّا وحاسمًا للحلفاء في الحرب العالميَّة الثانية في مواجهةِ ألمانيا النازيَّة (الناشر).

يوصف، بينما قد يجلبُ تصرُّفٌ ما، يبدو كارثيًّا على المدى القصير، الخيرَ الأعظم؛ فليست لدينا أدنى فكرة.

ما إن نتأمَّلُ في تدبير الله للتاريخ البشريِّ كلِّه، حتَّى نرى أنَّ تخميننا، بوصفنا مراقبين محدودين بشأن احتماليَّة أن يكون لله سببٌ جيِّد للألم، هو محاولةٌ يائسةٌ؛ فببساطة نحن لسنا في موقف يسمح لنا بأن نقيِّم احتمالاتٍ كهذه بأيِّ قدرٍ من اليقين.

ناقش

أمِن المفيد لك شخصيًّا فَهْمُ أنَّه قد تكونُ لله أسبابٌ جيِّدةٌ وراء السماح بحدثٍ مؤلم ما وإنْ بدا تافهًا بلا سبب؟ يرجى أن تشرحَ موقَفَك.

النطاق الكامل للبرهان

ثانيًا، من جهة النطاق الكامل للبرهان، يكون وجود الله مُرجَّحًا.

دائمًا ما تكون الاحتمالات نسبيَّةً من جهة خلفيَّة المعلومات. فمثلًا، لنفترض أنَّنا أُعطينا معلوماتٍ أنَّ إبراهيم طالب جامعيٌّ وأنَّ ٩٠٪ من طلَّاب الجامعة يدخِّنون. فبالنظر إلى تلك المعلومات يكون من المُحتمل كثيرًا أن يكونَ إبراهيم مدخِّنًا. لكنْ لنفترضِ الآن أنَّنا أُعطينا معلومات إضافيَّة بأنَّ إبراهيم طالبٌ في كلِّيَّة ويتون (Wheaton College) وأنَّ ٩٠٪ من طلاب ويتون لا يدخِّنونَ. فبالنظر إلى هذه المعلومات الجديدة يصيرُ من المُستبعد جدًّا الآنَ أنْ يكونَ إبراهيم مدخِّنًا. أكرِّر هنا: تعتمدُ الاحتمالات على خلفيَّة المعلومات.

يقول الآن المُلحدُ إنَّ وجود الله مُستبعَدٌ، فعليك أن تسأل فورًا: "مُستبعد من جهة ماذا؟" ما خلفيَّة المعلومات؟ الألم في العالم؟ إذا كان ذلك هو كلُّ خلفيَّة المعلومات التي تفكِّر فيها، فلا عجب أن يبدوَ وجود الله مُستبعدًا عندك! (رغم أنَّه يمكن أن تكونَ المظاهر خادعة، كما وضَّحتُ للتوِّ!)، فإنَّ هذا ليس سؤالًا مهمًّا هنا، بل السؤال المهمُّ هو ما إذا كان وجود الله مُرجَّحًا من جهة النطاق **الكامل** من البرهان. وأنا مقتنعٌ أنَّه مهما كان عدم الاحتماليَّة الذي قد يُلقي به الألم على وجود الله، فإنَّ الحُجج المؤيِّدة لوجود الله تفوقها وزنًا.

لاحظ تحديدًا الحُجَّة الأخلاقيَّة؛ إذ يتكوَّن الكثير من الألم في العالم من أعمال شرِّيرة يرتكبها الناس بعضهم نحو الآخر، لكنْ حينها يمكننا مناقشة الأمر كالتالي:

١. إذا كان الله غير موجود فالقيم الأخلاقيَّة الموضوعيَّة غير موجودة.

٢. الشرُّ موجود.

٣. إذًا، القيم الأخلاقيَّة الموضوعيَّة موجودة (فبعض الأمور شرِّيرة!).

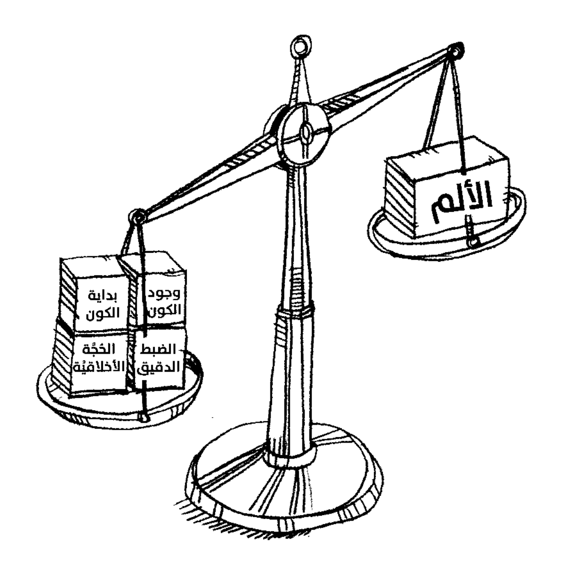
٤. إذًا الله موجود.

رغم أنَّ الألم يشكِّكُ في وجود الله على مستو سطحيٍّ، فإنَّه بعد التمحيص، يُثبتُ وجود الله، إذ بعيدًا عن الله لا يكون الألم أمرًا سيِّئًا فعليًّا. فإذا آمن المُلحد بأنَّ الألم سيِّئ أو كان يجب ألَّا يكون موجودًا، فإيمانه يستند ههنا إلى أحكام أخلاقيَّة مُمكنةٍ فقط إذا كان الله موجودًا.

ما تحتاج إلى فهمه هو أنَّ معظم الذين يكتبون عن مشكلة الألم يفترضون ضمنيًّا أنَّه ما من حُجج جيِّدة مؤيِّدة لوجود الله، لذا فالسؤال عندهم هو ما إذا كان الألم يجعل من الإلحاد أمرًا مُرجَّحًا حاسبين أنْ **ما من شيء على الكفَّة الأخرى من الميزان**، لكنِّي أعتقد أنَّ هناك حُججًا ذات ثقلٍ كبير مؤيِّدة لله على الجانب الآخر من الميزان. إذًا يمكنني الاعتراف أنَّ وجود الله مُستبعدٌ من جهة الألم في العالم فقط، لكنِّي أشير إلى أنَّ الحُجج المؤيِّدة لوجود الله تفوق ذلك وزنًا.

ناقش

إذا لم يكن الله موجودًا، يكون حينها الألم مؤلمًا لكنَّه ليس سيِّئًا بالمعنى الأخلاقيِّ، فلماذا إذًا يدركُ حتَّى الملحدون أنَّ الأحداث المأساويَّة سيِّئة؟ (تذكَّر هذا الموضوع من الفصل السادس).



الألم أكثر منطقيَّة في ضَوء التعاليم المسيحيَّة

ثالثًا، تتضمَّن المسيحيَّة تعاليم تزيد من احتماليَّة وجود الله والألم معًا.

إذا كان إلهُ المسيحيَّة موجودًا، فليس من المُستبعد أن يوجد الألم أيضًا، بل في الواقع يتَّضح أنَّ مشكلة الألم أسهل في التعامل معها واضعين في الحسبان إله المسيحيَّة، مقارنة بفكرة الله المجرَّدة؛ إذ تتضمَّن المسيحيَّة تعاليم معيَّنة تزيد من احتماليَّة الألم، فما هذه التعاليم؟ فلأذكُرْ أربعةً منها:

١. **ليس الغرض الأساسيُّ من الحياة هو السعادة**، بل معرفة الله. أحد الأسباب التي تجعل مشكلة الألم تبدو محيِّرة بهذه الدرجة هو الميل الطبيعيُّ للناس إلى افتراض أنَّه إذا كان الله موجودًا فغرضه للحياة البشريَّة هو السعادة في هذه الحياة، فدورُ الله هو توفير بيئة مريحة لكائناته البشريَّة الأليفة.

لكنْ بناءً على وجهة النظر المسيحيَّة هذا خطأ؛ فلسنا حيوانات الله الأليفة، وليس الهدف من الحياة البشريَّة السعادة في حدِّ ذاتها، بل معرفة الله- والتي ستجلب في النهاية الاستيفاء البشريَّ الحقيقيَّ والأبديَّ. قد يكون الكثيرُ من الألم في الحياة بلا هدف تمامًا مقارنة بهدف إنتاج السعادة البشريَّة،

لكنَّه قد لا يكون بلا هدف من جهة إنتاجِ معرفةٍ أعمقَ بالله.

في آلام البشر الأبرياء فرصةٌ لاعتماد أعمق على الله والثقة به، إمَّا من جانب المتألِّم وإمَّا من أولئك الذين حوله. ودون شكّ، سيعتمد تحقيق الغرض الذي يريده الله من آلامنا على استجابتنا، فهل نستجيب بغضب ومرارة من نحو الله، أم نتحوَّل إليه بإيمان للحصول على قوَّةٍ للتحمُّل؟

ناقش

أيَّما تميل إلى تثمينه أكثر: السعادة الوقتيَّة أم معرفة الله؟ كيف يؤثِّر ذلك في أفعالك وردود فعلك؟

لأنَّ الهدفَ النهائيَّ لله من نحو البشريَّة هو معرفة شخصه- والتي يمكنها وحدها أن تجلب سعادةً أبديَّةً للناس- فلا يمكن أن يُرى التاريخ في منظوره الصحيح بعيدًا عن ملكوت الله؛ فهدف التاريخ الإنسانيِّ هو ملكوت الله، ورغبة الله هي أن يجذبَ بحُرِّيَّة أكبر عدد من الناس يمكنه أن يجذبهم نحو ملكوته الأبديِّ، وقد يكون الألم جزءًا من الوسيلة التي يستخدمها الله ليجذب أناسًا بحريَّة نحو ملكوته.

إنَّ قراءتنا لكُتيِّب الإرساليَّات مثل "إرساليَّة العالم" (Operation World) لباتريك جونستون (Patrick Johnstone) تكشف لنا أنَّه في الدول التي تحمَّلت صعابًا شديدة تنمو المسيحيَّة بأعظم معدَّلاتها، بينما تتَّسم منحنيات النموِّ في الغرب المرفَّه بالتَّسطيح تقريبًا (نموٌّ لا يُذكَر)، فلننظُر مثلًا إلى التقارير التالية:[1]

الصين:

> يُقدَّر عدد الصينيِّين الذين فقدوا حياتهم إبَّان الثورة الثقافيَّة للزعيم الصينيِّ ماو تسي دونغ (Mao Zedong) نحو ٢٠ مليونًا. وقد وقف المسيحيُّون راسخين في ما حُسِبَ على الأرجح الاضطهادَ الأصعبَ والأوسعَ انتشارًا بين الاضطهادات التي اختبرتها الكنيسة في كلِّ العصور. وقد نقَّى الاضطهادُ الكنيسةَ

الصحة والغنى؟

إنجيل "الصحة والغنى" (أو الازدهار) وإنجيل التفكير الإيجابيِّ اللذان يُنادى بهما في العديد من الكنائس الضخمة والطوائف هما إنجيلان مزيَّفان* يقودان الناس إلى السقوط. وهذا النوع من الإنجيل لا ينفع ولا يأتي بنتيجة في دارفور أو في العراق أو في ألفِ مكانٍ آخر. وإذا كان هذا الإنجيل لا يأتي بنتيجة هناك، فهو ليس بشارة صحيحة. وهنا نحتاج لأنْ نفهَمَ أنَّ خُطَّةَ الله للتاريخ الإنسانيِّ قد تتضمَّن آلامًا رهيبةً لنا، ربَّما لا نستطيع توقُّع هدفها أو سببها أو رؤيته؛ فليس رجاؤنا في السعادة الدنيويَّة بل في ذلك اليوم حين يمسح الله كلَّ دمعةٍ من أعيُنِنا.

* يقصدُ الكاتب بتعبير "الإنجيل المزيَّف" أنَّ هذه تشويهاتٌ للتَّعليم المسيحيِّ القويم (الناشر).

ووطَّنها. ومنذ عام ١٩٧٧م ليس لنموِّ الكنيسة في الصين أيُّ نظير في التاريخ؛ إذ يقدِّر الباحثون أنَّه كان هناك ما بين ٣٠ و٧٥ مليونَ مسيحيٍّ في عام ١٩٩٠م، وقد صار ماو تسي دونغ عن غير قصد أعظم مبشِّر في التاريخ.

السلڤادور:

اجتاحَ الفقرُ الأُمَّة نتيجة الحرب الأهليَّة التي استمرَّت مدَّة اثنتَي عشرة سنة، مع الزلازل وانهيار سعر البُنِّ، وهو أهمُّ صادرات البلد. وبات يعيش أكثر من ٨٠٪ من السُّكانِ في فقر مدقع، وقد جُمع حصادٌ روحيٌّ مذهل من كلِّ طبقات المجتمع في وسط كراهيَّة الحرب ومرارتها، وقد شكَّلَ الإنجيليُّون في عام ١٩٦٠م ٢,٣٪ من إجماليِّ عددِ السكَّان، لكنَّهم اليوم نحو ٢٠٪.

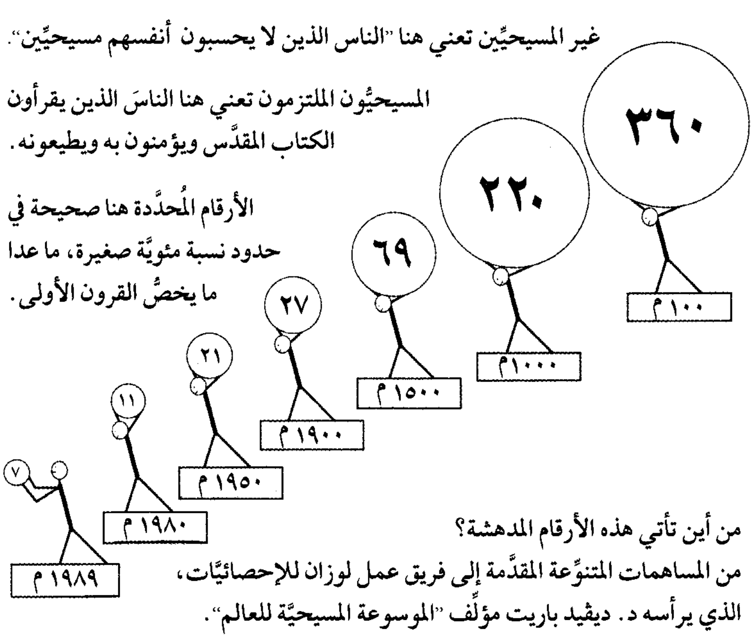
إثيوبيا:

إثيوبيا في حالة صدمة، إذ يصارع سكَّانها مع صدمة ملايين الوَفَيَاتِ جرَّاءِ القمع والمجاعة والحرب. وقد صقلتْ موجتان من الاضطهاد العنيف الكنيسةَ ونقَّتها، لكنْ كان هناك الكثير من الشهداء، وقد أتى الملايين إلى المسيح، وبينما كان البروتستانت أقلَّ من ٠,٨٪ من تعداد السكَّان في ١٩٦٠م، باتوا بحلول عام ١٩٩٠م نحو ١٣٪ من تعداد السكَّان.

يمكن مضاعفة أمثلة مثل هذه، فقد كان تاريخ البشر تاريخًا من المعاناة والحرب، ورغم ذلك فقد كان أيضًا تاريخًا من تقدُّم ملكوت الله. الشكل ٢ خريطةٌ صدرت في ١٩٩٠ من المركز الأميركيِّ لإرساليَّات العالم موثِّقةً نموَّ عدد المسيحيِّين الملتزمين على مرِّ القرون.

المهمَّة المتناقصة

التناقص المستمرُّ، عبْر القرون، لعدد غير المسيحيِّين لكلِّ مسيحيٍّ ملتزم.



Lausanne Statistics Task Force, headed by David Barrett, Ph.D., the author of the World Christian Encyclopedia

الشكل (٢): نسبة المسيحيِّين الملتزمين إلى غير المسيحيِّين على مرِّ التاريخ. لا تضمُّ أيُّ الفئتَين المسيحيِّين الاسميِّين. وحتَّى لو أُدرجوا مع غير المسيحيِّين سيكون هناك اليوم نحو تسعة من غير المؤمنين لكلِّ مؤمن ملتزم في العالم.

وعلى حدِّ تعبير جونستون (Johnstone)، فإنَّنا "نعيش في زمن أكبر حشدٍ للناس إلى ملكوت الله شهده العالم حتَّى الآن".[٢]

ليس مستبعدًا أن يكون هذا النموُّ المذهل في ملكوت الله راجعًا جزئيًّا إلى وجود الألم في العالم.

٢. **الجنس البشريُّ في حالة من العصيان ضدَّ الله وضدَّ أهدافه.** فبدلًا من الخضوع لله وعبادته، يتمرَّد الناسُ على الله ويذهبون كلٌّ في طريقه، ومن ثَمَّ يجدون أنفسهم بعيدين عن الله، ومُذنِبين أخلاقيًّا أمامه، متلمِّسين طريقَهم

في ظلمةٍ روحيَّة، وساعين وراء آلهة زائفة من صنعهم. إنَّ الشرَّ الإنسانيَّ الرهيب في العالم هو شهادة عن فساد الإنسان في الحالة التي يعيشها من بُعدٍ روحيٍّ عن الله. ولا يُدهَش المسيحيُّ من الشرِّ الأخلاقيِّ في العالم، بل على العكس هو يتوقَّعه؛ إذ يشير الكتاب المقدَّس إلى أنَّ الله أسلَم الإنسانيَّة إلى الخطيَّة التي اختارت الخطيَّة بحُرِّيَّة، وهو لا يتدخَّل ليوقفَ الأمرَ، بل يدَعُ فساد الإنسان يأخذ مجراه (رومية ١: ٢٤، ٢٦، ٢٨)، ويؤدِّي هذا إلى إبراز المسؤوليَّة الأخلاقيَّة للبشر أمام الله، كما يُبرز أيضًا خُبثنا واحتياجنا إلى المغفرة والتطهير الأخلاقيِّ.

"لذلك أسلمهم الله أيضًا في شهوات قلوبهم إلى النجاسة، لإهانة أجسادهم بين ذواتهم. الذين استبدلوا حقَّ الله بالكذب، واتَّقوا وعبدوا المخلوق دون الخالق، الذي هو مبارك إلى الأبد. آمين. لذلك أسلمهم الله إلى أهواء الهوان... وكما لم يستحسنوا أن يبقوا الله في معرفتهم، أسلمهم الله إلى ذهن مرفوض ليفعلوا ما لا يليق" (رومية ١: ٢٤-٢٦، ٢٨).

٣. **لا ينحصر هدفُ الله في هذه الحياة، بل يمتدُّ إلى ما بعد القبر نحو حياةٍ أبديَّة.** بحسب المسيحيَّة، ليست هذه الحياة إلَّا البهوَ الضيِّقَ المؤدِّيَ إلى القاعة العظيمة لأبديَّة الله. ويَعِدُ الله بالحياة الأبديَّة كلَّ مَن يضعُ ثقتَه في المسيح ربًّا ومخلِّصًا. وحين يطلبُ الله إلى أولادَه أن يحملوا آلامًا رهيبةً في هذه الحياة، فذلك فقط مع رجاءٍ من فرحٍ سماويٍّ ومكافأة تفوق كلَّ إدراك.

مرَّ الرسول بولس بحياةٍ من الآلام التي لا تُصدَّق؛ إذ تخلَّل حياتَه بوصفه رسولًا مرورُه بعدَّة "شدائد، في ضرورات، في ضيقات، في ضربات، في سجون، في اضطرابات، في أتعاب، في أسهار، في أصوام" (٢كورنثوس ٦: ٤-٥)، ومع ذلك كتب،

> "لذلك لا نفشل...لأنَّ خفَّة ضيقتنا الوقتيَّة تنشئ لنا أكثر فأكثر ثقل مجد أبديًّا ونحن غير ناظرين إلى الأشياء التي تُرى، بل إلى التي لا تُرى. لأنَّ التي تُرى وقتيَّة، وأمَّا التي لا تُرى فأبديَّة" (٢كورنثوس ٤: ١٦-١٨).

عاش بولس هذه الحياة من منظور الأبديَّة، إذ فهم أنَّ طول هذه الحياة المحدودة، هو حرفيًّا متناهي الصغر مقارنة بالأبديَّة التي سنُمضيها مع الله. وكلَّما أمضَينا وقتًا أطوَلَ في الأبديَّة، تقلَّص ألم هذه الحياة إلى لحظة متناهية

الصغر إذا ما قورنت بالأبديَّة. لذلك دعا بولس ألم هذه الحياة "خفَّة ضيقتنا الوقتيَّة"، ولم يكُن متبلِّدَ المشاعر في ما يخصُّ مصاعب أولئك الذين يعانون معاناةً رهيبةً في هذه الحياة، بل على العكس فقد كان واحدًا منهم، لكنَّه كان يرى أن تلك الآلام كانت ببساطةٍ مغمورةً بمحيطِ الفرح والمجد الأبديَّين اللذين سيعطيهما الله للواثقين به.

قد يكون هناك ألم في العالم لا يخدم أيَّ خَيرٍ أرضيٍّ بتاتًا، وهو ألم بلا هدف من وجهة النظر البشريَّة، لكنَّ الله يسمح به ببساطة كي يكافئ بغمرٍ في الآخرة أولئك الذين يمرُّون بمثل ذلك الألم، في إيمان وثقة بالله.

٤. **معرفة الله هي خيرٌ لا يُقاس.** الفقرة المُشار إليها من كتابات بولسَ الرسولِ تخدم غرضَ هذه النقطة أيضًا؛ إذ يتخيَّل بولسُ كما لو أنَّ هناك ميزانًا يوضع على إحدى كفَّتَيه الألم في هذا العالم، بينما يوضع على الكفَّة الأخرى المجدُ الذي سيُنعم به الله على أولاده في السماء. ووزنُ هذا المجد عظيمٌ حتَّى إنَّه لا يُقاسُ بالألم؛ لأنَّ معرفةَ الله، الذي هو موضع الخير والمحبَّة اللانهائيَّين، هي خيرٌ لا يقارنُ به شيءٌ، وهي استيفاءُ الخبرة الإنسانيَّة، ولا يمكن حتَّى أن يُقارن بها ألم هذه الحياة، ومن ثمَّ فمَن يعرفِ الله، أيًّا كان ما يعانيه وأيًّا كان مدى شناعة ألمه، يقدرْ أن يقولَ ببساطةٍ: "الله صالحٌ من نحوي!"؛ وذلك بفضل حقيقة معرفته بالله، الخير الذي لا يُقاس.

تزيد هذه التعاليم المسيحيَّة الأربعة من احتماليَّة وجود الله ووجود الألم في العالم معًا، ومن ثَمَّ تقلِّل من أيِّ عدم احتماليَّة قد يُلقي بها الألم على وجود الله.

قد يردُّ المُلحد عند تلك النقطة قائلًا إنَّه ما من سبب لاعتقاد أنَّ هذه التعاليم المسيحيَّة الأربعة صحيحة. انتبه! ها هو يحاول ثانيةً نقْلَ عبء الإثبات! إنَّ الملحدَ هو مَن يقول إنَّ الألم يجعل من وجود الله أمرًا مستبعدًا، لذا فمن المنطقيِّ لك أن تقول: "ليس إله المسيحيَّة!"، يحتاج المُلحد إلى إظهار أنَّ إله المسيحيَّة غير مُرجَّح من جهة الألم في العالم، لذا يحتاج إلى إظهار

إمَّا أنَّ هذه التعاليم خاطئة وإمَّا أنَّ وجود الله مُستبعدٌ حتَّى عندما نضعُ في الحسبان حقيقة هذه التعاليم. ويقع عبءُ الإثبات على عاتقه في الحالتَين، فلا تسمحْ بأنْ يُلقى بالعبء عليك.

فلنعُدْ إذًا إلى الحادثَين اللذين صوَّرا لي بقوَّة مشكلة الألم: الولد المكسيكيُّ الذي مات ببطءٍ من انهيار بنايةٍ، والطفلة الكولومبيَّة التي غرقت في آثار الانهيار الوحليِّ. بدايةً، ارتبطَ الحادثان بكوارث طبيعيَّة تتشابك مع الخطيَّة الأخلاقيَّة للبشريَّة، فقد وقعَتْ أميركا اللاتينيَّة بأكملها ضحيَّةً لطبقة عُليا ظالمة وغير مكترثة، والتي في شهوتها للقوَّة والغِنى استغلَّت الجماهير، تاركةً إيَّاهم فقراء ومحرومين. وألم هذين الطفلين راجعٌ بصورة غير مباشرة إلى هذه المنظومة الفاسدة وغير المسيحيَّة؛ لأنَّه لو كانت المجتمعاتُ التي عاش فيها هذان الطفلان مجتمَعاتٍ تتَّبعُ المبادئَ المسيحيَّة، لما كانت أسرتاهُما مُجبرتَين على العيْش في إسكانٍ غير آمن موجود في المكان الخاطئ وقد بُني بصورة سيِّئة، حتَّى إنَّه تهاوى تحت ضغط زلزال أو مطر. في عالم خالٍ من الخطيَّة، يمكن القَول إنَّ هذه المآسي قد لا تحدث، ولكنْ إن وضعنا في الحسبان التعليمَ المسيحيَّ عن الخطيَّة والحالة الساقطة للإنسانيَّة، فهذه المآسي ليست مفاجئة.

لماذا سمح الله لهذين الطفلين بأن يعانيا هكذا؟ لَسْنا في موقف يسمح لنا بالمعرفة، ربَّما بالموت المأساويِّ لهذا الطفل كان الله يعلم أنَّ السلطات المكسيكيَّة ستُصدم، لدرجةٍ تجعلُها تقرِّر وَضْعَ معاييرَ إنشائيَّةٍ حديثة لمقاومة الزلازل، وبذلك تنقذُ حياة كثيرين في المستقبل. ربَّما ترك الأمر يحدث إذ كان **يجب** أن تُصدم السلطات، وربَّما سمح به بهدف أن يرى شخصٌ آخرُ يواجه الموت أو المرض في المستشفى التقارير على التليفزيون، ويُلهم بشجاعة الولد ليواجه تحدِّيَه بإيمان وشجاعة. ربَّما سمحَ الله للطفلة الكولومبيَّة أن تغرق ببطء لأنَّه كان يعلم أنَّه حينئذٍ فقط ستتحوَّل عائلتها- أو شخصٌ آخر- إليه بإيمان من أجل حياة أبديَّة، أو ربَّما كان يعلم أنَّه فقط عبر حادث رهيب كهذا ستنتقل عائلتها بعيدًا إلى مكانٍ آخر حيث يمكن حينها أن يتأثَّروا- هم أو حتَّى أجيال تالية- أو يكونوا سببَ تأثيرٍ

تعاليم عن الله والألم

تزيد هذه التعاليم من احتماليَّة وجود الله والألم معًا:

١. ليس الغرضُ الأساسيُّ من الحياة هو السعادة، بل معرفة الله.

٢. الجنسُ البشريُّ في حالة من العصيان ضدَّ الله وأهدافه.

٣. لا ينحصر هدفُ الله في هذه الحياة، بل يمتدُّ إلى ما وراء القبر إلى الأبديَّة.

٤. معرفة الله هي خيرٌ لا يُقاس.

في شخصٍ آخرَ من أجل المسيح. فحينما نضع محدوديَّاتنا المتأصِّلة في الحسبان، فلا يسعنا سوى التخمين. لا يمكن إذًا أن يُثبتَ المُلحد أنَّ من المستحيل ولا من المُستبعد أن تكونَ لله أسبابٌ جيِّدة للسماح بوقوع مثل هذه الأحداث.

تصير المشكلة عند المُلحد أكثر حدَّة حين نفكِّر أنَّه ربَّما لا يوجد أيُّ سببٍ أرضيٍّ يجعل الله يسمح بتلك الكوارث، فقد لا تجلبُ تلك الكوارث أيَّ خيرٍ أرضيٍّ بتاتًا، فربَّما تكون الكوارث ببساطة نتيجة ثانويَّة بائسة لقوانين طبيعيَّة جيولوجيَّة، وكان الطفلان في هذه الحالة ضحيَّتين سيِّئي الحظِّ، لكن حين غادر الولدُ والبنتُ هذه الحياة أخيرًا آخذين خطوة نحو الحياة التالية، احتضنهما يسوعُ بين ذراعَيه بمحبَّةٍ، ومسح دموعهما، وملأهما بسعادة مجيدة تفوق كلَّ تعبيرٍ، قائلًا: "نِعِمَّا يا طفليَّ، ادخلا فرح سيِّدكما"، وفي تلك الأبديَّة من الفرح، سيعرفان ثقلَ مجدٍ يفوق كلَّ مقارنة بما قد سألهما أن يعانياه هنا.

باختصارٍ، لا يُمكن أن تُختبرَ النسخة البرهانيَّة من مشكلة الألم بنجاح؛ إذ تتطلَّب أحكامًا احتماليَّة تفوق قدرتنا بمراحل، وتُخفق في أن تضعَ في الحسبان النطاقَ الكاملَ للبرهان، كما أنَّها تتقلَّص في قوَّتها حين يتعلَّق الأمر بإله المسيحيَّة. وما دامت النسخة المنطقيَّة والنسخة البرهانيَّة للمشكلة لا تحقِّقان الموافقة، فيسعُنا أن نقولَ إنَّ المشكلة الفكريَّة للألم تُخفق في دحض الله.

الردُّ على الحُجَّة البرهانيَّة

١. لسنا في موقف يسمح لنا بأن نقول إنَّه من غير المحتمل أن يفتقر الله إلى أسباب جيِّدة للسماح بالألم في العالم.

٢. من جهة النطاق الكامل للبرهان، يكون وجود الله مُرجَّحًا.

٣. تتضمَّن المسيحيَّة تعاليم تزيد من احتماليَّة وجود الله والألم معًا.

المشكلة الوجدانيَّة للألم

لكن حين أقول "تُخفق" فأنا أعني "تُخفق فكريًّا"؛ فقد يظلُّ ألمُ الألم والشكُّ المزعج قائمين، ويعيدنا ذلك إلى المشكلة الوجدانيَّة للألم، وكما قلتُ قبلًا إنَّ الألمَ لأغلب الناس ليس حقًّا مشكلة فكريَّة، بل وجدانيَّة.

ربَّما تفكِّر قائلًا: **لماذا نتناول إذًا كلَّ هذه المادَّة الفكريَّة إذا لم تكن هي المشكلة فعلًا؟** هناك سببان: أوَّلًا، **يظنُّ** الناس أنَّ مشكلتهم فكريَّة، لذا فبتناولها نستطيع احترام رأيهم ومساعدتهم أن يروا المشكلةَ الحقيقيَّة، ثانيًا، يمكن أن يساعدَ ما شاركتُه كثيرًا حين يدعوك الله لتعبُرَ في ألم ما.

إذًا ماذا يمكن أن يُقال لأولئك الذين يصارعون مع المشكلة الوجدانيَّة للألم؟ من ناحيةٍ، قد لا يكون أهمُّ شيء هو ما يقوله المرء؛ فقد يكون الأمر الأهمُّ هو أن يكون الشخص متاحًا فقط بوصفه صديقًا محبًّا ومستمعًا متعاطفًا، لكنَّ بعض الناس يحتاجون إلى مشورةٍ، وقد نحتاج نحن أنفسنا إلى التعامل مع هذه المشكلة حين نعاني. هل لدى الإيمان المسيحيِّ الموارد للتعامل مع هذه المشكلة أيضًا؟

بكلِّ تأكيد! إذ يخبرنا الإيمان المسيحيُّ بأنَّ الله ليس بالخالق البعيد أو أساس الوجود اللاشخصيِّ، بل هو أبٌ محبٌّ يتشارك معنا في معاناتنا وأوجاعنا.

لقد تحمَّل المسيحُ على الصليب ألمًا تفوق كلَّ إدراك: فقد حمل عقاب خطايا العالم بأسره، ولا يمكننا بتاتًا أن ندركَ ذلك الألم؛ فمع أنَّه كان بريئًا، فقد مرَّ طواعيةً بمعاناة لا يُسبر غورُها من أجلنا. لماذا؟ لأنَّه يحبُّنا بهذا القدر، فكيف يمكننا رفْض ذاك الذي تنازل عن كلِّ شيء من أجلنا؟

حين يسألنا الله أن نجتاز في ألم يبدو غير مستحقٍّ ودون هدف وغير ضروريّ، يمكن أن يساعدَ التأمُّل في صليب المسيح ليعطيَنا القوَّة والشجاعة اللازمتين لتحمُّل الصليب المطلوبِ أن نحملَه.

ذكرتُ سابقًا أنَّ معرفة الله هي خيرٌ لا يُقاس ولا يمكن حتَّى أن تُقارن معاناتنا به، لكنَّ القليل جدًّا منَّا يفهم هذه الحقيقة فعلًا، وهنا أقولُ إنَّ أحدَ زملائي كان يعرف سيِّدة فهمَتْ هذه الحقيقة. اعتاد توم زيارة نزلاء في دور الرعاية في محاولة منه أن يجلبَ بعض البهجة والمحبَّة إلى حياتهم. وفي أحَدِ الأيَّام التقى سيِّدةً لم يقدر أن ينساها قَطّ:

> "بينما اقتربتُ من نهاية المدخل رأيتُ سيِّدة مسنَّة جالسة على كرسيٍّ متحرِّك، وكان وجهُها هو الرعب المُطلق، وأخبرني تحديقُها الفارغ وبؤبؤا عينَيها بلونهما الأبيض بأنَّها عمياء، وأخبرني جهازُ السمع التعويضيُّ فوق إحدى أذنَيها بأنَّها تقريبًا صمَّاء، وكان جزءٌ من وجهها يلتهمه السرطان، وكانت هناك قرحة مشوَّهة تغطِّي جزءًا

من أحد خدَّيها، كما أزاحت أنفها جانبًا مُسقطةً إحدى عينَيها ومشوِّهةً لفكِّها حتَّى إنَّ رُكنَ فمها صار الآن في الأسفل. ونتيجةً لذلك كان لعابُها يسيل باستمرارٍ...علمتُ أيضًا لاحقًا أنَّ هذه السيِّدة في التاسعة والثمانين من العمر، وأنَّها كانت طريحة الفراش وعمياء وتقريبًا صمَّاء ووحيدة على مدى خمس وعشرين سنة تقريبًا.

لا أعلم لماذا تحدَّثتُ إليها؛ إذ بدت أقلَّ احتمالًا للاستجابة عن أغلب الناس الذين رأيتُهم في ذلك المدخل، لكنِّي وضعتُ وردة في يدها وقلتُ: «إليكِ هذه الوردة! كلُّ عام وأنتِ طيِّبة بمناسبة عيد الأمِّ». رَفَعَتِ الوردة إلى وجهها وحاوَلَت استنشاقها، ثمَّ تحدَّثَتْ، وكانت كلماتُها صادرة جليًّا من ذهن صافٍ رُغمَ تشوُّشها، حيثُ قالت: «أشكرك، إنَّها جميلةٌ، لكنْ هل يمكن أن أعطيها لشخص آخر؟ فلا أستطيع رؤيتها لأنِّي عمياء».

قلتُ: «بالتأكيد!»، ودفعتُها في كرسيِّها عائدَين إلى المدخل إلى مكانٍ حيث اعتقدتُ أنِّي سأجد مرضى آخرين، ووجدتُ أحدهم فأوقفتُ الكرسيَّ، فأمسَكَتِ السيِّدة الوردة وقدَّمتها قائلة: «إليكَ هذه الوردة، إنَّها من يسوع».

أصبح توم وتلك السيِّدة صديقَين على مدى الأعوام التالية، وبدأ توم يُدرك أنَّه لم يعد يساعدها، لكنَّها كانت هي مَن تساعده. وبدأ يدوِّن تعليقات عمَّا تقوله، وبعد أسبوع مُجهد، ذهب توم إليها وسألها: «فيمَ تفكِّرين بينما تمكثين هنا طوال اليوم؟» فأجابت: «أفكِّر في يسوعي».

جلستُ هناك وفكَّرتُ للحظة بشأن الصعوبة التي أشعر بها في أن أفكِّر في يسوع حتَّى مدَّة خمس دقائق، وسألتُ، ما تفكِّرينه في يسوع؟» فأجابت ببطء وتأنٍّ بينما كنتُ أكتب، وهذا ما قالته:

«أفكِّر كم كان صالحًا من نحوي، فقد كان صالحًا لحياتي إلى أبعد حدٍّ...أنا من ذلك النوع من الناس الراضين في أغلب الأحوال... قد يظنُّ بعض الناس أنِّي غير مواكبة للعصر، لكنِّي لا أبالي؛ إذ أفضِّل أن يكونَ عندي يسوع، فهو كلُّ العالم عندي».

ثمَّ بدأت تنشد ترنيمة قديمة:

يسوع هو كلُّ العالم عندي،
حياتي وفرحي وأيضًا كلُّ سعدي.
هو قوَّتي في كلِّ الأيام،
ومن دونه أسقط ولا قِيام.
حين أكون حزينًا أذهب إليه،
فهو مصدر بهجتي أتَّكلُ عليه.
في حُزني هو مَن يُسعدني،
وهو صديقي مَن بيده يمسكُني.

ناقش

كيف تؤثِّر فيك قصَّة هذه السيِّدة؟ ماذا يعني توم بقَوله "لديها قوَّة"؟

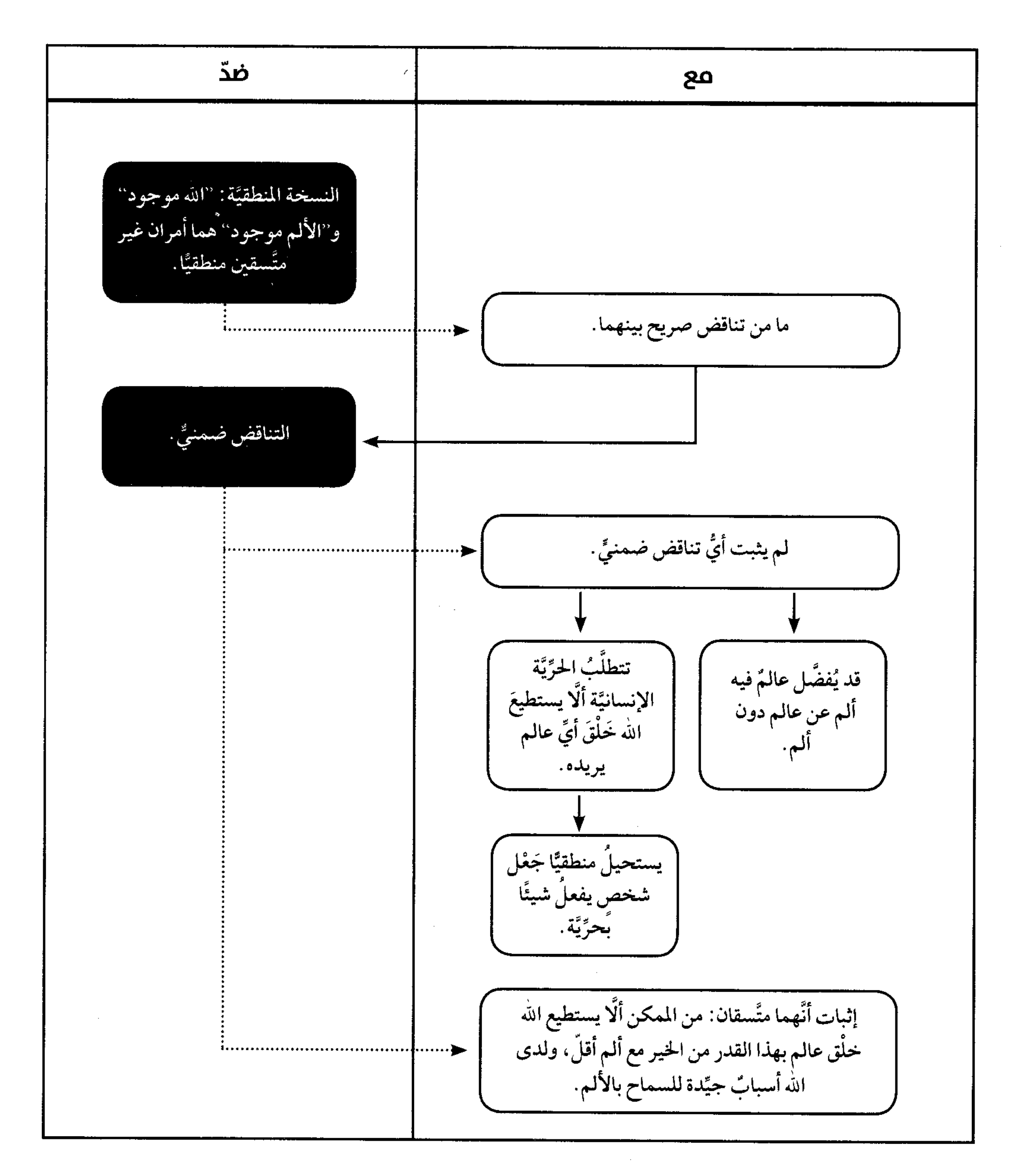
ليس هذا خيالًا. ومع أنَّه أمرٌ لا يُصدَّق، فأمامَنا إنسانٌ عاشَ هكذا، وأنا عرفتُها. فكيف أمكنها أن تفعلَ ذلك؟ مرَّت الثواني وزحفت الدقائق، وكذلك الأيَّام والأسابيع والشهور والسنين الملآنة بالألم دون رفقة إنسان ودون تفسير لسبب حدوث كلِّ ذلك- ومع ذلك كانت جالسةً هناك تنشد الترانيم. كيف أمكنها أن تفعلَ ذلك؟

أعتقد أنَّ الإجابةَ هي أنَّ لديها شيء ليس لدينا منه الكثير: لديها قوَّة. فبينما كانت ترقد في ذلك الفراش غير قادرة على الحركة ولا على الرؤية والسمع والكلام مع أحد، كانت لديها قوَّة غير معقولة".[٣]

المفارقة إذًا هي أنَّه حتَّى لو كانت مشكلة الألم هي أعظم اعتراض على وجود الله، فأهمُّ ما في الأمر هو أنَّ الله هو الحلُّ الوحيد لمشكلة الألم. فإذا كان

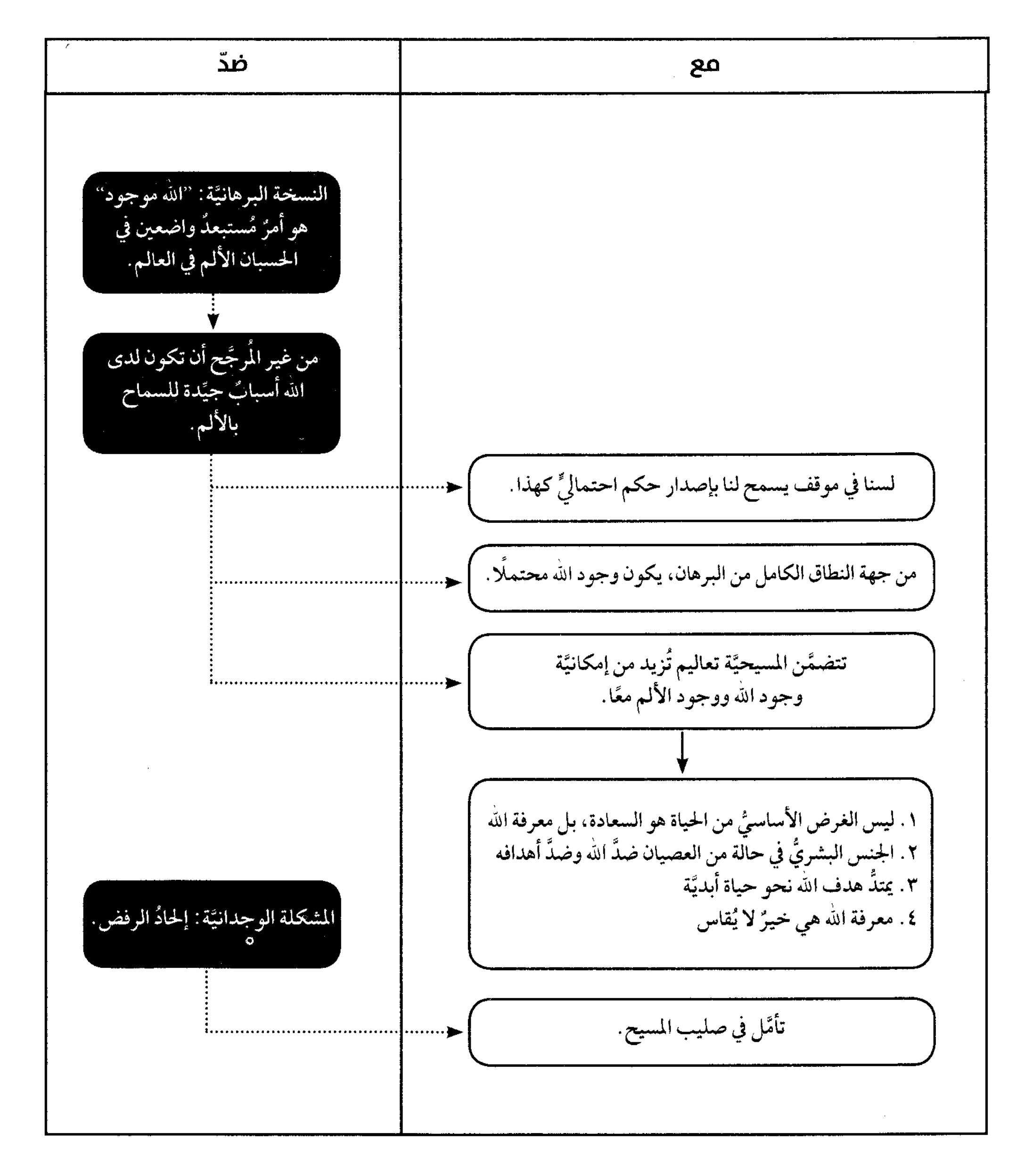
الله غير موجود، فنحن محبوسون دون رجاء في عالم حافلٍ بألم بلا هدف ولا عتق. فالله هو الحلُّ النهائيُّ لمشكلة الألم؛ لأنَّه يعتقنا من الشرِّ ويأخذنا إلى فرح أبديٍّ من خيرٍ لا يُقاس: الرفقة مع شخصه الكريم.

مشكلة الألم



ضدّ
مع
النسخة المنطقيَة: "الله موجود" و"الألم موجود" هما أمران غير متَّسقين منطقيًّا.
ما من تناقض صريح بينهما.
التناقض ضمنيٌّ.
لم يثبت أيُّ تناقض ضمنيٍّ.
قد يُفضَّل عالمٌ فيه ألم عن عالم دون ألم.
تتطلَّبُ الحرِّيَّة الإنسانيَّة ألَّا يستطيعَ الله خَلْقَ أيِّ عالم يريده.
يستحيلُ منطقيًّا جَعْل شخص يفعلُ شيئًا بحرِّيَّة.
إثبات أنَّهما متَّسقان: من الممكن ألَّا يستطيع الله خلْق عالم بهذا القدر من الخير مع ألم أقلّ، ولدى الله أسبابٌ جيِّدة للسماح بالألم.

مشكلة الألم


ضدّ
مع
النسخة البرهانيّة: "الله موجود" هو أمرٌ مُستبعدٌ واضعين في الحسبان الألم في العالم.
من غير المُرجَّح أن تكون لدى الله أسبابٌ جيّدة للسماح بالألم.
لسنا في موقف يسمح لنا بإصدار حكم احتماليٍّ كهذا.
من جهة النطاق الكامل من البرهان، يكون وجود الله محتملًا.
تتضمّن المسيحيّة تعاليم تُزيد من إمكانيّة وجود الله ووجود الألم معًا.
١. ليس الغرض الأساسيُّ من الحياة هو السعادة، بل معرفة الله
٢. الجنس البشريُّ في حالة من العصيان ضدَّ الله وضدَّ أهدافه
٣. يمتدُّ هدف الله نحو حياة أبديَّة
٤. معرفة الله هي خيرٌ لا يُقاس
المشكلة الوجدانيّة: إلحادُ الرفض.
تأمَّل في صليب المسيح.

فاصلٌ شخصيّ

رحلة إيمانِ فيلسوف

الجزء الثاني

بينما كنَّا نقترب، أنا وجان زوجتي، من إكمال دراستي لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة بيرمنغهام في إنكلترا، كان مسارُنا المستقبليُّ مبهمًا؛ إذ كنتُ قد تقدَّمتُ لشغل عدد من الوظائف لتدريس الفلسفة في جامعات أميركيَّة، لكنِّي لم أتلقَّ أخبارًا، ولم نعلم ماذا نفعل أو إلى أين نذهب.

كنَّا نجلس في مساء أحد الأيَّام إلى مائدة العشاء في بيتنا الصغير في بيرمنغهام حين قالت لي جان فجأةً: "حسنًا، إن لم تكُن هناك مشكلة ماليَّة، ماذا كنتَ لتودَّ أن تفعل بعد الآن؟"

ضحكتُ إذ تذكَّرتُ كيف كان الربُّ قد استخدم سؤالها ليرشدنا في الماضي، ولم تكن لديَّ صعوبة في الردِّ، فقلتُ: "إن لم تكُن هناك مشكلة ماليَّة، ما أودُّ فعله حقًّا هو الذهاب إلى ألمانيا والدراسة على يد فولفهارت پانينبيرغ (Wolfhart Pannenberg)".

"ومَن يكون؟"

"إنَّه لاهوتيٌّ ألمانيٌّ مشهور دافع عن قيامة المسيح تاريخيًّا" واستكملتُ شرحي قائلًا: "إذا استطعتُ الدراسة معه، يمكنني تطوير دفاعيَّات تاريخيَّة لقيامة يسوع".

أضرمَ هذا الأمر نيرانًا في جان. وبينما كنتُ في الجامعة في اليوم التالي،

انسلَّتْ هي إلى المكتبة وبدأتْ تبحث عن منح للدراسة في جامعات ألمانيَّة. لكن ثبتَ أنَّ معظم الخيوط لم تعد صالحة، والصالحة منها لم تكن منطبقة على حالتنا، لكنَّها وجدتْ منحتَين ممكنتَين، ولك أن تتخيَّل مدى دهشتي حين وضعَتْهُما أمامي!

كانت إحداهما من وكالة حكوميَّة تُدعى "خدمة التبادل الأكاديميّ الألمانيّ" (Deutscher Akademischer Austausch Dienst)، واختصارها (DAAD)، وقد كانت تقدِّم منحًا للدراسة في جامعات ألمانيَّة، وللأسف كانت قيمة المنحة قليلة ولا تسدِّدُ كلَّ المصروفات. بينما الأخرى كانت من مؤسَّسة تُدعى (Alexander Von Humboldt-Stiftung)، وهي مؤسَّسة كان من الواضح أنَّها أشبه بمحاولة مرتبطة بالسياسات الثقافيَّة (Kulturpolitik)، وتهدف إلى تجديد صورة ألمانيا في حقبة ما بعد الحرب. وكانت هذه المؤسَّسة تقدِّم منحًا كريمة لجلْب علماء ومثقَّفين أجانب لإجراء بحوث لعامٍ أو اثنين في معامل وجامعات ألمانيَّة.

تحمَّست جدًّا حين قرأتُ المعلومات من المنحةِ الثانية؛ إذ سيدفعون لدورةٍ تقويةٍ للغة الألمانيَّة للباحث ولزوجته مدَّة أربعة أشهر في معهد غوته قبل بداية البحث، وسيساعدون في العثور على سكنٍ، وسيدفعون لزيارات إلى جامعة أخرى إذا تطلَّبَ البحث ذلك، كما سيدفعون لمؤتمرات وسيرسلون مصروفًا خاصًّا من وقت إلى آخر، وسيرسلونك في رحلة في نهر الراين- كان الأمر لا يُصدَّق! بل كانوا يسمحون لمتلقِّي المنحة بتقديم نتائج بحوثهم في صورة أطروحة دكتوراه لنَيل درجة علميَّة من جامعة ألمانيَّة يعمل الباحث بها.

كان من الواضح من المواد الطبوعة المُرسلة إليَّ من المؤسَّسة مقدِّمة المنحة أنَّ الغالبيَّة العُظمى من الباحثين كانوا علماء فيزياء وكيمياء وأحياء (علماء في العلوم الطبيعيَّة)، لكن كان مذكورًا أنَّه مُرحَّبٌ بالمتقدِّمين من أيِّ مجال، لذا قرَّرنا التقديم في مجال اللاهوت واقتراح أن يكون الموضوع البحثيُّ هو اختبار البرهان التاريخيِّ لقيامة يسوع! وقرَّرنا اختيار درجة الدكتوراه في اللاهوت في الوقت نفسه.

بدأنا بعدها الصلاة نهارًا وليلًا أن يعطيَنا الله هذه المنحة. ومرَّاتٍ كنتُ أصدِّق الله في أمر كهذا، لكن بعدها كنتُ أفكِّر في هذه اللجنة المكوَّنة من ثمانين عالمًا ألمانيًّا في العاصمة الألمانيَّة بون، والذين يقيِّمون استمارات التقديم ويصلون إلى هذا المُقترح البحثيّ عن البرهان التاريخيّ لقيامة يسوع، وكنتُ أُحبط!

كان الأمر سيستغرق قرابة تسعة شهور لتُقيِّم المؤسَّسة استمارات التقديم. وفي الوقت نفسه، كان عقد الإيجار سينتهي، لذا كنَّا نحتاج إلى الانتقال من منزلنا في بيرمنغهام، فقلتُ لجان: "حبيبتي، لقد ضحَّيتِ كثيرًا من أجلي في أثناء دراستي، فلنفعَلْ أمرًا تودِّين أنتِ فعله، فماذا تودِّين حقًّا؟"

قالت: "دائمًا ما أردتُ تعلُّم اللغة الفرنسيَّة؛ فقد اضطُررتُ إلى إلغاء دروس الفرنسيَّة في الجامعة إذ كنتُ مريضة وقتها، وكثيرًا ما شعرتُ شعورًا سيِّئًا لأنّي لم أتعلَّم الفرنسيَّة".

فقلتُ: "حسنًا، فلنذهبْ إلى فرنسا ونلتحقْ بمدرسة للُّغةِ الفرنسيَّة!"

بدأنا نبحث عن الأماكن الممكنة، وكان الاختيار الواضح هو معهد "أليانس فرانسيز" (Alliance Française) وهو المدرسة الرسميَّة للُّغات في فرنسا، لكنَّ الاختيار الأكثر تشويقًا كان "المركز التبشيريّ" (Centre Missionnaire) في ألبيرڤيل (Albertville)، وهذا المركز هو مدرسة مسيحيَّة للُّغات تقع في جبال الألب الفرنسيَّة لتدريب المبشِّرين الأجانب المُرسلين إلى بلاد تتحدَّث الفرنسيَّة. وكانوا يشدِّدون على تعلُّم التحدُّث بالفرنسيَّة بلهجة ونطق صحيحَين، مع تعلُّم القراءة والكتابة، علاوة على كلِّ المُعجم الكتابيّ واللاهوتيّ والذي يمكن فقط لمدرسة مسيحيَّة أن تقدِّمه.

راسلَنا المركزَ التبشيريَّ لنسأل إن كان من الممكن أن ندرسَ هناك، لكنَّهم للأسف راسلونا قائلين إنَّ على المتقدِّمين أن يكونوا مُرسَلين رسميًّا مع هيئة إرساليَّة، وعلاوةً على ذلك، ستتكلَّف الدراسة بضعة آلاف من الدولارات،

ولم يكن لدينا نقود؛ فقد أنفقنا تقريبًا كلَّ المال المُعطى لنا من أحد رجال الأعمال لندرس الدكتوراه في بيرمنغهام.

فراسلتُهم ثانيةً شارحًا موقفنا الماليَّ، كما شرحتُ أنَّه رغم أنَّنا لسنا مُرسَلين على المستوى الرسميِّ، فإنَّنا نريد خدمة الربِّ، وأرفقتُ خطابَ تزكية من أحد الشيوخ في الكنيسة التي كنَّا نذهب إليها في بيرمنغهام، ثمَّ نسيتُ الأمر تمامًا. مرَّ الوقتُ، ولم تتحقَّق أيٌّ من جهودنا للحصول على وظيفة، وكنَّا قد شَحنَّا كلَّ مقتنياتِنا إلى منزل والديَّ في إلينوي، وكان علينا الانتقال من منزلنا في بيرمنغهام في غضون أسبوع، ولم يكُن لدينا مكانٌ نذهب إليه.

أتذكَّر سَيْري في ذلك اليوم مُحبطًا نحو صندوق البريد حيث وجدتُ خطابًا من المركز التبشيريِّ، وفتحتُه بقليلٍ من الحماسة، وبدأتُ أقرأ، ثمَّ اتَّسعتْ عيناي بينما قرأت الكلمات التالية: "لا يهمُّ حقًّا إن كنتما مُرسَلَين ما دمتُما تريدان خدمة الربِّ. ومن جهة النقود، فقط ادفعا ما تستطيعان، وسنثق بالله من أجل الباقي". أمرٌ لا يُصدَّق!

مرَّة أخرى، شعرنا كما لو أنَّ الله اقتلعنا بمعجزة ونقلنا إلى بلدٍ آخر لنفعل مشيئته، وعرفنا لاحقًا أنَّ المركَز كان قد رفض استمارات مُرسلين كانوا سيدفعون التكلفة، وقَبِلَنا نحن بدلًا منهم. ذهبنا إلى فرنسا بإحساسٍ عميق من التكليف الإلهيِّ، لذا ركَّزنا بقوَّة على دراسات اللغة، وكان الأمر صارمًا على نحوٍ بالغ في تدريباتٍ وتكرارٍ مستمرٍّ وبجهودٍ مُضنِية. ومع نهاية الشهور الستَّة، كنتُ أعظ بالفرنسيَّة في كنيستنا الصغيرة، ونالت جان فرح قيادة جيراننا الفرنسيِّين إلى الإيمان بالمسيح.

كان تدريبنا لدراسة اللغة الفرنسيَّة سينتهي في شهر آب/أغسطس، وقبل شهر من ذلك، لم نكن قد سمعنا بعد بقرار المؤسَّسة الألمانيَّة التي تقدَّمْنا لنَيلِ منحتِها، فبدأنا نشعرُ بالقلق. (ومنذ ذلك الحين صاغتْ جان مقولةً تعبِّر بجدارة عن حياتنا: "دائمًا ما يصل الربُّ في الموعد تمامًا!")، ثمَّ تلقَّينا رسالةً

من المؤسَّسة الألمانيَّة، وكانت المشكلة الوحيدة هي أنَّ الرسالةَ كان بالألمانيَّة. ولم تكُن ألمانيَّتي البسيطة التي تعلَّمتُها في المدرسة الثانويَّة كفيلة بمهمَّة اكتشاف فحوى الرسالة.

لذا أخذنا الرسالة سريعًا إلى القرية إلى مكتبة صغيرة لبيع الكتب، حيث وجدنا قاموسًا من الفرنسيَّة إلى الألمانيَّة. وبينما وقفنا هناك نترجم الرسالةَ ببطء إلى الفرنسيَّة، وفينا أملٌ على عكس الاحتمالات المتوقَّعة، لم نكن قادرين على احتواء حماستنا. "إنَّه لمن دواعي سرورنا أن نخبرك بأنَّك فزتَ بمنحة من المؤسَّسة لدراسةٍ تاريخيَّة قيامة يسوع تحت إشراف الأستاذ الدكتور فولفهارت بانينبيرغ في جامعة ميونيخ". وبناءً على ذلك كانت الحكومة الألمانيَّة تدفع لي في السنتين اللاحقتين لأدرس البرهان التاريخيَّ لقيامة يسوع! أمرٌ لا يُصدَّق بتاتًا.

وصلتُ أنا وجان إلى ألمانيا في يوم بارد من أيَّام شهر كانون الثاني/يناير لنبدأ دراستنا للُّغة في معهد غوته في غوتينغن (Göttingen) وهي مدينة صغيرة فيها جامعة، وتقع بالقرب من الحدود الشرقيَّة لألمانيا. وكنَّا قد اخترنا غوتينغن؛ لأنَّ الناس هناك يتحدَّثون الألمانيَّة الرسميَّة في مقابل اللهجة المحلِّيَّة. وكم هو مُدهشٌ الكمُّ الذي يمكنك تعلُّمه في أربعة أشهر حين تنغمس في اللغة! وبينما كانت تلوح في الأفق دراستي ما بعد الدكتوراه في ميونيخ، كان فينا دافعٌ قويٌّ جدًّا لتعلُّم الألمانيَّة، ووظَّفنا طالبةً جامعيَّة تُدعى هايدي لتساعدنا في ما يختصُّ بالنُّطق، وبعد شهرَين قرَّرنا أن نتحدَّث أحدنا إلى الآخر بالألمانيَّة فقط حتَّى الثامنة مساءً، وحينها يمكننا الرجوع إلى الإنكليزيَّة. يا له من أمر غريب! إذ حتَّى لو كنتَ تعرف معنى الكلمات، تجد أنَّ جملة مثل (Ich liebe dich) لا تنجح في إيصال الشعور إلى شخصٌ لغتُه الأمُّ ليست الألمانيَّة.

في نهاية الشهور الأربعة، كنتُ قد انتهيتُ من الدورة الدراسيَّة المتقدِّمة حاصلًا على أعلى درجة، وكانت جان قادرة على التحدُّث بحُرِّيَّة مع أصحاب المحالِّ التجاريَّة والناس في بلدتنا رغم أنَّ معرفتها بالألمانيَّة حين بدأنا لم تكن

تتعدّى الأرقام. وفي إحدى الأمسيّات في أثناء تناوُلِ العشاء في معهد غوته أدهَشَتْني بما فعلته. وقبل أن أرويَ ما جرى عليّ أن أقولَ إنَّ هناك مثلًا ألمانيًّا يقولُ: "Ohne Fleiss, Kein Preis!" (لا مكافأةَ دون تعب). أمَّا ما جرى فهو الآتي: في أثناء تناوُلِ الوجبة طلبَتْ جان إلى شابٍّ تركيٍّ جالسٍ إلى جوارها (باللغة الألمانيّة) أن يمرِّر اللحمَ إليها، لكنّه بيَّن لها أنَّ الطبقَ فارغٌ، وقدَّم إليها طبق الأرزِّ بدلَ ذلك، وهنا ردَّتْ بحسم قائلةً: "Danke, nein! Ohne Fleisch, Kein Reis!" (لا، شكرًا! لا أرزَّ دون لحم)، الأمر الذي جعلني على وشك الانفجار ضحكًا! فها هي تُلقي بالنكات بالألمانيّة!

ينبغي أن أعترف أنَّ الأمر كان يبدو جنونيًّا إلى حدٍّ ما إن نُمضي تسعة أشهر في تعلُّم الفرنسيّة قبل الاتّجاه إلى ألمانيا لدراسات ما بعد الدكتوراه، لكنَّ تدبيرَ الله كان مدهشًا. ففي اليوم الأوَّل حين ذهبتُ إلى قسم اللاهوت في جامعة ميونيخ للتشاور مع الأستاذ الدكتور پانينبيرغ، أخذني إلى مكتبة القسم، وسحب ثلاثة كتب من على الرفِّ قائلًا: "لِمَ لا تبدأ بهذه؟"، ولدهشتي كان كتابان من الثلاثة بالفرنسيّة! فقلتُ في نفسي: "**مجدًا لك يا ربّ!** كان من المطلوب ألَّا أقول بتاتًا لپانينبيرغ إنّي لا أعرفُ الفرنسيّة"؛ إذ كان ذلك أشبه بقَولِ إنّي لستُ مؤهَّلًا لإجراء البحث! لقد كان الله يعلم ما يفعله.

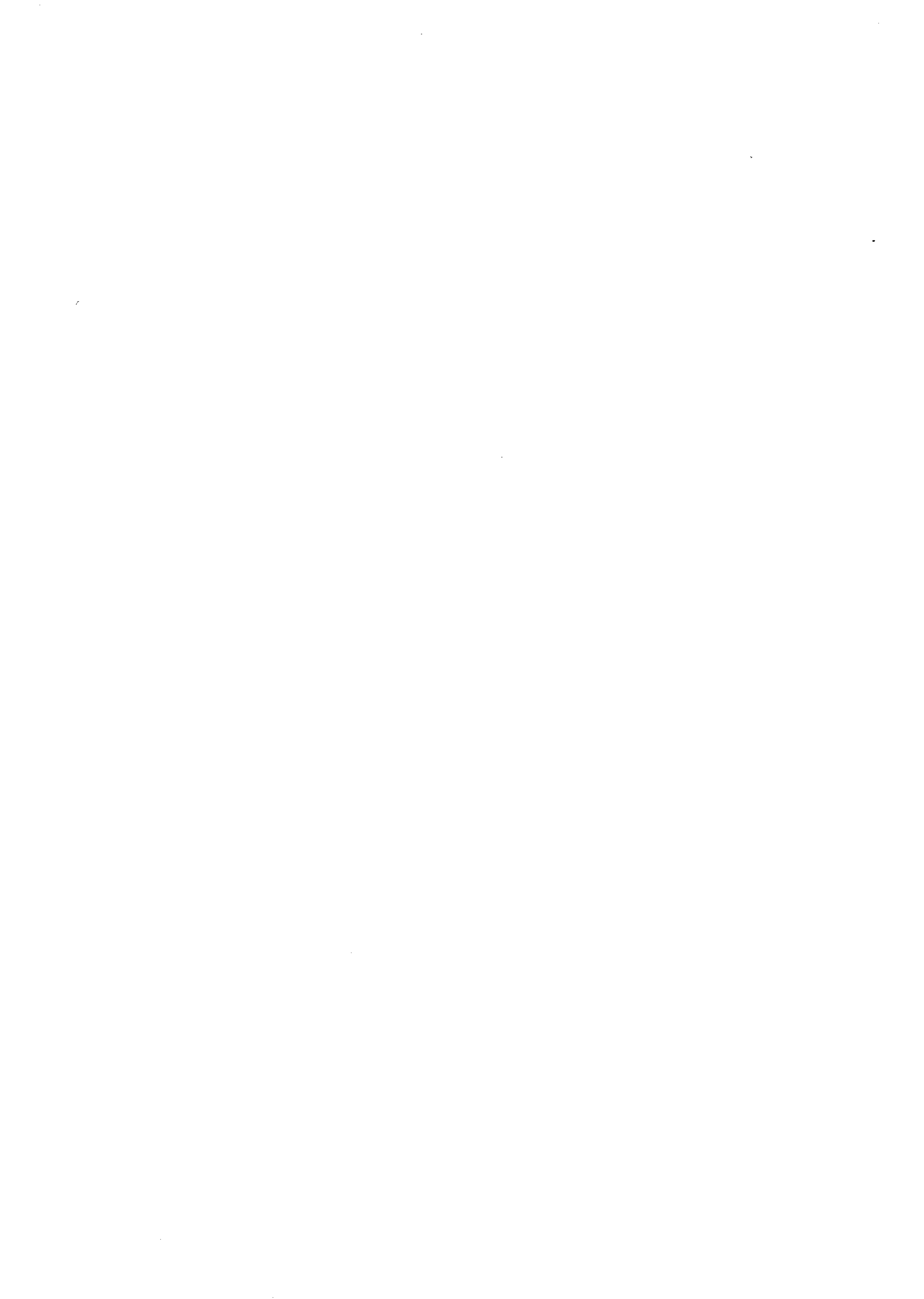
كانت دراستي لدرجة الدكتوراه في اللاهوت تحت إشراف الپروفيسور پانينبيرغ أصعبَ أمرٍ قمتُ به في حياتي؛ فقد كان عليَّ أيضًا اجتياز اختبار تأهيليٍّ في اللغة اللاتينيّة لنَيلِ الدرجة العلميّة، الأمر الذي تطلَّب منّي دراسة اللاتينيّة باللغة الألمانيّة! لكنْ في نهاية وقتنا في ميونيخ كنتُ قد تعلَّمتُ الكثير جدًّا عن قيامة يسوع حتّى إنّي كنتُ قد قطعتُ مسافات بعيدة مقارنةً بما كنتُ عليه حين أتَينا أوَّل مرَّة. وبوصفي مسيحيًّا، كنتُ بالتأكيد أومنُ بقيامة يسوع، وكانت الدفاعيّات الشهيرة الخاصّة بها مألوفة لديَّ، لكنّي دُهِشتُ كثيرًا لمّا اكتشفتُ نتيجةً لبحثي كيف يمكن استخدام حُجَّة تاريخيّة قويّة للقيامة.

وكانت نتيجة ذلك البحث ثلاثة كتب، كان أحدها أطروحة الدكتوراه الثانية لي، وهي دكتوراه في اللاهوت من جامعة ميونيخ.[1]

منذ ذلك الحين كانت لديَّ الفرصة لمناظرة بعض من العلماء المهمِّين- علماء العهد الجديد المشكِّكين، مثل جون دومينيك كروسان (John Dominic Crossan)، وماركوس بورغ (Marcus Borg)، وغيرد لوديمان (Gerd Lüdemann)، وبارت إيرمان (Bart Ehrman)، علاوة إلى الكتَّاب الحاصلين على أعلى مبيعات مثل جون شيلبي سبونغ (John Shelby Spong)، وكانت المناظراتُ تتعلَّق بتاريخيَّة قيامة يسوع. وأقول بكلِّ موضوعيَّة إنِّي صُدمتُ بمدى وهن هؤلاء العلماء البارزين حين يتعلَّق الأمر ببرهان قيامة يسوع. (يمكنك قراءة هذه المناظرات أو الاستماع إليها بزيارة الموقع الإلكترونيِّ www.reasonablefaith.org لتكوين رأيك الخاصّ).

في كثير من الأحيان، ستكون هناك اعتباراتٌ فلسفيَّة وراء جذور شكِّهم وليست اعتبارات تاريخيَّة. لكنَّ هؤلاء الرجال ليسوا مدرَّبين في الفلسفة، لذلك يرتكبون أخطاءً فادحة تتَّسم بقلَّة الخبرة- أخطاءً يمكن أن يكتشِفَها الفيلسوفُ المتمرِّسُ. أشعر بالشكر أنَّ الربَّ في تدبيره قادنا أوَّلًا إلى دراسة الدكتوراه في الفلسفة قبل التحوُّل إلى دراسة قيامة يسوع؛ إذ إنَّ الفلسفة، لا التاريخ، هي ما يقوِّي شكَّ المتطرِّفين فكريًّا من النقَّاد.

في الفصول الثلاثة التالية أريد أن أريَكم الكيفيَّة التي يمكنكم بها أن تمتدَّ حُجَّتكم إلى ما وراء الإيمان بوجود إله إلى الإيمان بالله إلهِ الكتاب المقدَّس، المُعلَن عنه بيسوع. وسيتطلَّب ذلك تركيزَنا في البحث بشأن يسوع التاريخيِّ.



الفصل الثامن

مَن كان يسوع؟

"فقال لهم: «وأنتم، مَن تقولون إنِّي أنا؟»" (مرقس ٨: ٢٩).

حين كنتُ طالبًا في كلِّيَّة ترينيتي في منتصف سبعينيَّات القرن العشرين، رأيتُ مقالةً مُعلَّقة على لوحة إعلانات عن كتاب سيظهر قريبًا بعنوان "**خرافة الله المتجسِّد**" *(The Myth of God Incarnate)*، والذي يصف كيف كان الأستاذ جون هِك في جامعة بيرمنغهام قد جمَّع فريقًا من سبعة علماء يقولون إنَّ المسيح الإلهيَّ الذي نقرأ عنه في الأناجيل هو خرافة. وقالوا أيضًا إنَّ يسوع الناصريَّ، في الحقيقة، لم يدَّعِ قطُّ أنَّه ابن الله أو الربُّ أو أنَّه شخصيَّة إلهيَّة من أيِّ نوعٍ، وبناءً على ذلك نحتاج إلى التخلُّص من هذه المعتقدات الكاذبة والبالية.

أتذكَّر شعوري بالغَيظ وبالإحباط بسبب المقالة، وقلتُ في نفسي: **لماذا لا يجيبُ علماءُ العهد الجديد عن هذه الأشياء؟ ولماذا لا يُعترض على هذه الأمور في الصحافة؟** لم أكُن أدرك حينها إلَّا القليل بشأن ثورة حقيقيَّة في عِلم العهد الجديد، وأنَّها ستنتشر وتقلِبُ بعد وقتٍ قصيرٍ من ذلك الحين مثل هذا التشكيك، وستؤكِّد أنَّ الأناجيل موثوق بها تاريخيًّا بوصفها مصادر عن حياة يسوع المسيح وما قاله. لا يزال النقَّاد الراديكاليُّون يحصلون على تساهل من صحافة اليوم لما لديهم من كلام يستفزُّ اهتمام الجماهير، لكنَّهم يُهمَّشون بصورة متزايدة في الوسط الأكاديميِّ إذ وصل العِلم إلى تقديرٍ جديد للموثوقيَّة التاريخيَّة لوثائق العهد الجديد. ونريد في الفصلَين التاليَين أن نلقيَ نظرةً على

بعضٍ من الدليل الذي سيمكّنك من تكوين حُجَّة تؤكّد تصريحات يسوع الشخصيَّة الراديكاليَّة وقيامته، ومن ثَمَّ تأييد الإيمان به.

التمهيد للمشهد

حدثٌ من دون سياق هو حدثٌ مبهمٌ، لا سيَّما في ما يتعلَّق بادّعاء أنَّ معجزة ما حدثت. فإنْ نُظِر إلى المعجزةُ بمعزلٍ عن سياقها، فإنَّها لا تكون سوى شذوذٍ علميٍّ، أو استثناءٍ عن الطبيعة، لذا ينبغي لحدثٍ مثل قيامة يسوع أن يُستكشف في سياقه التاريخيِّ إذا أردنا فهمه بصورة صحيحة.

إذًا ما السياق المناسب لفهم قيامة يسوع؟ إنَّه الحياة الفريدة ليسوع نفسه وما صرَّح به، إذ تأتي القيامة بوصفها ذروةً لحياة يسوع الاستثنائيَّة وخدمته، لذا فقبل النظر إلى المعقوليَّة التاريخيَّة لقيامة يسوع، فلنُمهِّدْ للمشهد بالسؤال عمَّن كان يسوعُ يظنُّ نفسه.

صدارة وثائق العهد الجديد

نواجه في الحال مشكلةً، فحيث إنَّ يسوع نفسه لم يترك وراءه أيَّة كتابات وضعَها بنفسه، فنحن معتمدون على سجلَّاتِ آخرين لمعرفة ما قاله يسوع وما فعله*، وهذا الموقف ليس بغريب في ما يخُصُّ شخصيَّات قديمة، فمثلًا، لم يخلِّف الفيلسوف الإغريقيُّ الشهير سقراط وراءه أيضًا أيَّة كتابات وضعها بنفسه، ونعتمد على تلميذه أفلاطون في معظم معرفتنا عن حياة سقراط وتعليمه. وبالطريقة نفسها، نعتمد على سجلَّاتِ أتباع يسوع لمعرفة حياته وتعليمه.

* يتعامل الكاتب هنا مع الأدلَّة التاريخيَّة عن يسوع ليس من وجهة نظر إنسان مسيحيّ، مع أنَّ الكاتبَ مسيحيٌّ مؤمن بحقيقة يسوع التاريخيَّة وبالإيمان المسيحي التاريخيِّ القويم، لكنَّه يتعامل مع الأدلَّة التاريخيَّة بصفة مؤرِّخ. ففي قول الكاتب: "...حيث إنَّ يسوع نفسه لم يترك وراءه أيَّة كتابات وضعها بنفسه"، فهو لا يقصد أن يُنكِرَ أيَّة حقيقة جوهريَّة عن الوحي الإلهيِّ للكتاب المقدس أو علاقة الوحي بالسيِّد المسيح، بل يذكر الحقيقة التاريخية أنَّ ما لدينا من كتابات عن حياة الربِّ يسوع المسيح لم تأتِنا بصورة سيرة ذاتيَّة كتبها هو نفسه، بل أتتنا في الأناجيل التي خَطَّتْها أقلامُ مَن تبعوا السيِّد المسيح (الناشر).

ومع أنَّ الموقف غير مستغرب، فإنَّه يثير سؤالًا: كيف نعرف أنَّ هذه السجلَّات دقيقة؟ فقد يكون أتباع يسوع **قالوا** إنَّه قال وفعل أمورًا معيَّنة لم يكن قد فعلها حقًّا، فما دام المسيحيُّون الأوائل قد آمنوا بأنَّ يسوع هو الله، فربَّما ألَّفوا أقوالًا وقصصًا بشأن تصريح يسوع بأنَّه إلهيٌّ، وبذلك لا ينبغي أن نُدهَش أنَّ يسوع يقدِّمُ في الأناجيل تصريحاتٍ ويفعل أمورًا توحيَ بألوهيَّته. وربَّما كان يسوع التاريخيُّ الذي عاش حقًّا مختلفًا جدًّا عن الشخصيَّة الإلهيَّة التي نقرأ عنها في الأناجيل، فكيف يمكننا معرفة ما إذا كانت هذه السجلَّات دقيقة تاريخيًّا؟

حتَّى الحقبة المعاصرة كان هذا النوع من الأسئلة غير قابل للإجابة أساسيًّا، ولكنْ مع ظهور النقد النصِّيِّ والدراسة المعاصرة للتاريخ، بدأ المؤرِّخون يطوِّرون أدوات لحلِّ هذه الأسئلة، ولم يعُدْ يسوعُ اليوم مجرَّد شخصيَّة في نافذة من زجاج ملوَّنٍ، لكنَّه شخصٌ تاريخيٌّ حقيقيٌّ من دم ولحمٍ، تمامًا مثل يوليوس قيصر أو الإسكندر الأكبر، ويمكن أن تُفحص حياته بوسائل التاريخ القياسيَّة، ويمكن أن تُدرسَ الكتابات التي يحويها العهد الجديد باستخدام الضوابط التاريخيَّة نفسها التي نستخدمها في فحص مصادر تاريخيَّة قديمة مثل "**الحرب البيلوبونيسيَّة**" *(Peloponnesian War)* لثوسيديديس (Thucydides) أو "**الحوليَّات**" *(Annals)* لتاسيتس (Tacitus).

والآن أوَّل ما نحتاج إلى فعله للفحص التاريخيِّ عن يسوع هو تجميع مصادرنا؛ فقد أشير إلى يسوع الناصريِّ في نطاقٍ من المصادر القديمة في العهد الجديد وخارجه، بما في ذلك مصادر مسيحيَّة ورومانيَّة ويهوديَّة.[1] ونجدُ أنَّ الأمر هائلٌ حين تفكِّر في مدى الغموض الذي كانت عليه شخصيَّة يسوع؛ فقد كانت لديه حياة عامَّة مدَّة ثلاث سنوات بوصفه معلِّمًا جليليًّا متجوِّلًا، ومع ذلك لدينا معلومات عن يسوع أكثر من المعلومات التي لدينا عن معظم الشخصيَّات **العظيمة** القديمة.

أهمُّ هذه المصادر التاريخيَّة جُمِّع إلى العهد الجديد، وتميل الإشارات إلى يسوع خارج العهد الجديد إلى **تأكيد** ما نقرأه في الأناجيل، لكنَّها لا تخبرنا بأيِّ شيء **جديد** حقًّا، ومن ثمَّ يجب أن يكون التركيز في استقصائنا على الوثائق الموجودة في العهد الجديد.

أجد أنَّ الكثير من العامَّة لا يفهمون هذه العمليَّة، إذ يظنُّون أنَّه إذا فحصتَ كتابات العهد الجديد نفسها بدلَ النظر إلى مصادر من خارج العهد الجديد، تكون بصورةٍ ما تحتجُّ في إطارِ منطقٍ دائريٍّ[†]، مستخدمًا الكتاب المقدَّس لتُثبتَ الكتابَ المقدَّس. وإذا اقتبستَ فقرة من العهد الجديد، فيظنُّون أنَّك بشكل ما تخلُص إلى ما هو في حاجة إلى إثباتٍ، مفترضًا موثوقيَّة العهد الجديد.

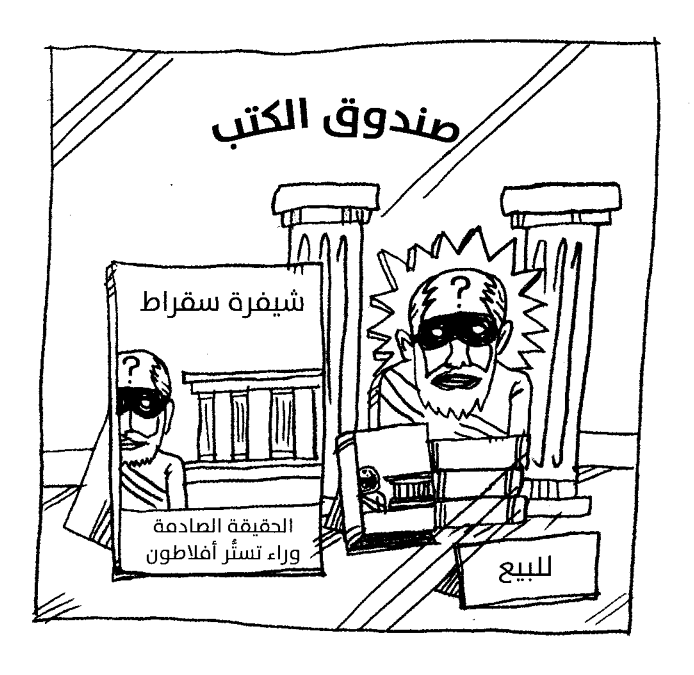
لكنْ ليس ذلك ما يفعله المؤرِّخون بتاتًا عن فحص العهد الجديد؛ إذ لا يتعاملون مع الكتاب المقدَّس بوصفه كتابًا مقدَّسًا موحى به محاولين إثبات صحَّته بالاقتباس منه، بل يتعاملون معه تمامًا مثل أيَّة مجموعةٍ أخرى من الوثائق القديمة، فاحصين ما إذا كانت هذه الوثائق محلَّ ثقةٍ تاريخيًّا.

من المهمِّ فهم أنَّه لم يكُن هناك في الأصل كتابٌ يُدعى "العهد الجديد"، بل كانت هناك فقط هذه الوثائق المنفصلة التي سُلِّمتْ وانتقلت من القرن الأوَّل، مثل إنجيل لوقا وإنجيل يوحنَّا وأعمال الرسل ورسالة بولس إلى أهل كورنثوس المدينة اليونانيَّة...إلخ، إلى أن جَمَّعتِ الكنيسة رسميًّا بعد قرنَين كلَّ هذه الوثائق ضمنَ غلافٍ واحد، صار يُعرف بالعهد الجديد.

اختارت الكنيسة فقط المصادر الباكرة، والتي كانت الأقرب ليسوع وللتلاميذ الأصليِّين، لتضمَّها إلى العهد الجديد تاركةً المصادر اللاحقة، والتقارير الثانويَّة مثل أناجيل الأبوكريفا المنحولة، والتي كان الجميع يعلَمون

† المنطق الدائريُّ هو مغالطةٌ منطقيَّةٌ تحدث حينما يضعُ المتحدِّث استنتاجه في أحد معطياته. مثلًا، إذا قال أحدهم إنَّه نبيٌّ مرسَل من الله، وينبغي أن تصدقوني لأنِّي نبيٌّ مرسل من الله- فهذا منطق دائريٌّ؛ لأنَّ المتحدِّثَ افترض صحَّة طرحه لإثبات صحَّةِ الطرح نفسه (الناشر).

أنّها ملفّقة. ومن ثمَّ ضُمِّنت أفضل المصادر التاريخيّة في العهد الجديد. أولئك الذين يصرّون على البرهان المأخوذ فقط من كتاباتٍ من خارج العهد الجديد لا يفهمون ما يسألوننا لنفعله، إذ يطالبون بأن نتجاهل المصادرَ الأوّليّة الأبكر عن يسوع لمصلحة مصادر لاحقة ثانويّة وأقلّ موثوقيّة، الأمر الذي يمثّل جنونًا في ما يتعلّق بالمنهجيّة التاريخيّة.



هذا مهمٌّ لأنَّ كلَّ عمليّات إعادة البناء الراديكاليّة ليسوع التاريخيّ التي نراها في أخبار اليوم مبنيّةٌ على كتابات لاحقة خارج العهد الجديد، ولا سيّما ما يُسمّى بأناجيل الأپوكريفا، فما المقصود بأناجيل الأپوكريفا؟ إنّها أناجيل منحولة، أي انتَحلَ مؤلّفوها أسماء الرسل، مثل إنجيل توما وإنجيل بطرس وإنجيل فيلبُّس وما إلى ذلك، وبدأت في الظهور في النصف الثاني من القرن الثاني للميلاد، ويدَّعي بعض المُراجِعين‡ أنَّ هذه الكتابات من خارج

‡ المقصود بالمراجعين هنا الأفراد الذين ينادون بإعادة النظر في الإيمان المسيحيّ وفي المصادر الذي استندَتْ إليها الكنيسة في تاريخيّة فهمها للمسيح والمسيحيّة (الناشر).

الكتاب المقدَّس هي المفتاح لإعادة بناء يسوع التاريخيِّ بصورة صحيحة.

يشير الأستاذ لوك جونسون (Luke Johnson)، وهو عالم بارز من علماء العهد الجديد في جامعة إموري (Emory University)، إلى أنَّ كلَّ الفيض الحديث من الكتب التي تدَّعي أنَّها تكشف يسوع الحقيقيَّ تتبع النموذج المتوقَّع نفسَه:

١. يبدأ الكتاب بالتبويق بشأن المؤهِّلات العلميَّة للكاتب وبحثه المعجزيِّ الفائق.

٢. يدَّعي الكاتب أنَّه يعرض تفسيرًا جديدًا، وربَّما مقموعًا، عمَّن كان يسوع حقًّا.

٣. يُقالُ إنَّ الحقيقةَ عن يسوع مُكتشفة بواسطة مصادر من خارج الكتاب المقدَّس تمكِّننا من قراءة الأناجيل بطريقة جديدة على خلاف معناها الظاهريِّ.

٤. هذا التفسير الجديد استفزازيٌّ، بل مثيرٌ أيضًا، فمثلًا يقول إنَّ يسوع تزوَّج بمريَمَ المجدليَّةِ، أو كان قائدًا لعبادة مُهلوِسة، أو كان فيلسوفًا ريفيًّا ساخرًا.

٥. ومن ثمَّ، يُفهم ضمنًا أنَّ المعتقدات المسيحيَّة التقليديَّة معتقدات مقوَّضة، وتحتاج إلى إعادة النظر فيها.[٢]

إذا سمعتَ عن كتبٍ تتَّبع هذا النموذج المألوف، فينبغي لك إيقاظ عقلك الناقد! فأنت على وشك أن تُخدَعَ؛ لأنَّ الحقيقةَ هي أنْ ليس هناك مصدرٌ تاريخيٌّ ذو مصداقيَّة من المصادر خارج العهد الجديد يشكِّك في صورة يسوع التي رسمتها الأناجيل؛ فأناجيل الأپوكريفا هي كتابات لاحقة مشتقَّة تشكَّلتْ من لاهوت القرن الثاني وما بعده. معنى ذلك أنَّه رغم كلِّ هذا الهرج والمرج، فالوثائق التي يحتويها العهد الجديد هي مصادرنا الأوَّليَّة عن حياة يسوع.

لذا حاول ألَّا تفكِّر في العهد الجديد بوصفه كتابًا واحدًا، بل بصفة ما كان عليه في الأصل: مجموعة من الوثائق المنفصلة والتي جاءتنا من الإخبار بهذه القصَّة الرائعة في القرن الأوَّل عن يسوع الناصريّ. وينبغي أن يكون السؤال إذًا: ما مدى موثوقيَّة هذه الوثائق تاريخيًّا؟

عبء الإثبات

نواجه هنا السؤال الحيويَّ نفسه عن عبء الإثبات: فهل يجب أن نفترضَ موثوقيَّةَ الأناجيل ما لم تثبت عدم موثوقيَّتها؟ أم يجب أن نفترضَ عدم موثوقيَّة الأناجيل ما لم تثبت موثوقيَّتها؟ هل الأناجيل بريئة إلى أن تثبت إدانتها؟ أم مدانة إلى أن تثبت براءتُها؟ يفترض العلماء المشكِّكون تقريبًا دائمًا أنَّ الأناجيل مُدانة حتَّى تَثبُتَ براءتُها، بمعنى أنَّهم يفترضون عدم موثوقيَّة الأناجيل إلى أن تثبت صحَّتُها في ما يخُصُّ حقيقة معيَّنة. ولا أُبالغُ هنا، فهذه فعلًا طريقة النقَّاد المشكِّكين.

لكنْ أودُّ هنا أن أسردَ خمسة أسباب لاعتقادي أنَّ هذا الافتراض التشكيكيَّ خاطئٌ.

١. **لم يكن هناك وقتٌ كافٍ كي تزيل التأثيراتُ الخرافيَّةُ الحقائقَ التاريخيَّة المحوريَّة**. يقول بعض العامَّة: "كيف يمكن أن تعرفَ أيَّ شيء حدث منذ ألفَي عام؟" وما يخفقون في فهمه هو أنَّ الفجوة الزمنيَّة الحرجة ليست هي الفجوة ما بين البُرهان واليوم، بل ما يهمُّ هو الفجوة ما بين البُرهان والأحداث الأصليَّة التي يتعلَّق بشأنها البرهان. فإذا كانت الفجوة ما بين الأحداث والبرهان قصيرة، لَما كان من المهمِّ مدى بُعد الحدث والبرهان في الماضي، إذ لا يصبح البرهان الجيِّد برهانًا فقيرًا لمجرَّد مرور الزمن! ما دامَتِ الفجوة الزمنيَّة ما بين الحدث وبرهان ذلك الحدث قصيرة، تصيرُ المدَّة الزمنيَّة إلى يومنا هذا أمرًا غير مرتبطٍ بالموضوع.

السؤال إذًا هو عن مدى قُرب مصادر حياة يسوع من الزمن الذي عاش فيه، وسأقول أمرًا بشأن هذا في غضون دقيقة.

الشكل (١). تأتي مصادرنا الأوَّليَّة عن حياة يسوع من القرن الأوَّل الميلاديِّ، ومعظمها في إطار ٦٠ عامًا من صلب يسوع. وفي المقابل، كُتبتْ أناجيل الأپوكريفا على الأقلِّ بعد ما يزيد على ١٠٠ عامٍ من الصَّلب.

٢. **لا تُقارَن الأناجيل بالحكايات الشعبيَّة أو "الأساطير الشعبيَّة" المعاصرة.** فمثلًا حكاياتُ كحكايات پول بَنيان (Paul Bunyan) وپيكوس بِل (Pecos Bill) أو الأساطير الشعبيَّة المعاصرة مثل **"المسافر المختفي"** (Vanishing Hitchhiker) نادرًا ما تتعلَّق بأفرادٍ تاريخيِّين فعليِّين، لذا فهي ليست مثل روايات الأناجيل، وهي عن أناسٍ حقيقيِّين عاشوا بالفعل، وأحداث حقيقيَّة وقعتْ حقًّا، وأماكن حقيقيَّة كانت موجودة، فهل تعلم أنَّ في وُسعك أن تقرأ عن أناسٍ مثل بيلاطس البنطيِّ ويوسُف بن قيافا، بل حتَّى يوحنَّا المعمدان في كتابات المؤرِّخ اليهوديِّ فلاڤيوس يوسيفوس؟

٣. **كان النقل اليهوديُّ للتقاليد المقدَّسة متطوِّرًا وموثوقًا به بدرجة عالية.** في ثقافة شفهيَّة مثل تلك الثقافة في أمَّةِ العهد القديم القرن الأوَّل كانت القدرة على حفظ قطع كبيرة من التقليد الشفهيِّ واستبقائها مُقدَّرة جدًّا، وكانت مهارة متطوِّرة جدًّا، ومنذ الصغر كان الأطفال في المنزل والمدرسة الابتدائيَّة وفي المجمع يُعلَّمون أن يحفظوا التقليدَ المقدَّس بأمانة، ومن المتوقَّع أنَّ التلاميذ مارسوا حرصًا مماثلًا مع تعاليم يسوع، ومقارنةُ النقل اليهوديِّ للتقاليد بلعبة الأطفال "التليفون الخربان" هي تشويه جسيم.

٤. **كانت هناك قيودٌ كبيرة على تجميل التقاليد بشأن يسوع، مثل وجود شهود عيان وإشراف الرسل.** إذ كان أولئك الذين قد رأوا يسوع وسمعوه

أناجيل الأپوكريفا

ما يُسمَّى بأناجيل الأپوكريفا هي أناجيل انتَحلَ مؤلِّفوها أسماء الرسل إبَّان القرون ما بعد المسيح، وليس فيها ما هو أقدم من النصف الثاني من القرن الثاني للميلاد. ورغم أنَّها ليست مصادر ذات قيمة كبيرة بوصفها مصادر لحياة يسوع، فإنَّ لها دلالة لمؤرِّخي تاريخ الكنيسة الذي يريد أن يتعلَّم عن الحركات المتنافسة المختلفة، والتي كثيرًا ما تأثَّرتْ بالفلسفة الغنوصيَّة الوثنيَّة، والتي تعاملت معها الكنيسة المسيحيَّة إبَّان بضعة القرون الأولى للميلاد. وتتضمَّن بعضُ أناجيل الأپوكريفا:

إنجيل بطرس

إنجيل توما

إنجيل العبرانيِّين

إنجيل الطفولة لتوما

إنجيل يهوذا

إنجيل فيلبُّس

لا يزالون في المشهد وكان من الممكن سؤالهم بشأن ما قد قاله يسوع وفعله، والأكثر من ذلك، ظلَّت التقاليد بشأن يسوع تحت إشراف الرسل الأصليِّين، وكانت تلك العوامل أشبه بالمراجعة الطبيعيَّة ضدَّ الميل إلى الاستفاضة في حقائق في اتِّجاهٍ معاكس للاتِّجاه الذي حُفظ بواسطة أولئك الذين كانوا قد عرفوا يسوع. في الحقيقة، في حالة الأناجيل سيكون من الأدقِّ أن يكون الحديث بشأن "التاريخ الشفهيِّ" لا عن "التقليد الشفهيِّ"، إذ كان شهود العيان والرسل الأحياء لا يزالون موجودين.

٥. **لدى كُتَّاب الأناجيل سجلٌّ رفيع في الموثوقيَّة التاريخيَّة.** فحين يُراجَع كتَّاب الأناجيل، نجد أنَّ التناقضات هي الاستثناء لا القاعدة، والنتيجة الطبيعيَّة لمراجعة كهذه هي ظهور موثوقيَّة الأناجيل.

ولمَّا لم تكُنْ لديَّ المساحة لمناقشة كلِّ هذه النقاط الخمس، فلأَقُلْ شيئًا ما بشأن النقطتَين الأولى والخامسة.[٣]

وقت غير كافٍ لإزالة الحقائق المحوريَّة

أوَّلًا لم يكن هناك وقتٌ كافٍ لكي تزيل التأثيراتُ الخرافيَّةُ الحقائقَ التاريخيَّة المحوريَّة. لا يظنُّ أيُّ عالم معاصر أنَّ الأناجيل هي أكاذيب وقحة ونتيجة لمؤامرة ضخمة؛ فالأماكن الوحيدة حيث تجد نظريَّات المؤامرة مثل هذه هي المواقع الإلكترونيَّة للملحدين وفي الكتب والأفلام التي تهدف إلى الاستفزاز. فحين تقرأ صفحات العهد الجديد، لا تجد أيَّ شكٍّ أنَّ هؤلاء الناس آمنوا بإخلاصٍ بحقيقةِ ما كانوا ينادون به، ولكنْ منذ القرن التاسع عشر فسَّر العلماء المشكِّكون الأناجيل بوصفها **أساطير**، فمثلما حدث مع قصص "روبن هود" أو الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة، انتقلت القصص عن يسوع على مرِّ العقود، وفي أثناء انتقالها تشوَّشتْ وضُخِّمت وأخذَتْ شكل الأسطورة، إلى أن فُقِدتِ الحقائقُ الأصليَّة، وحُوِّل المعلِّم اليهوديُّ إلى ابن الله القدُّوس.

غير أنَّ إحدى المشكلات الكبرى مع فرضيَّة الأسطورة، والتي لا يتناولها النقَّاد المشكِّكون تقريبًا، هي أنَّ الفجوة الزمنيَّة ما بين موت يسوع وكتابة الأناجيل هي أقصر من أن يكون أمرٌ مثل هذا قد حدث.

شرَح هذه النقطة جيِّدًا إيه. أن. شيروين-وايت (A. N. Sherwin-White) في كتابه "**المجتمع الرومانيُّ والقانون الرومانيُّ في العهد الجديد**" *(Roman Society and Roman Law in the New Testament)*، والأستاذ شيروين وايت **ليس لاهوتيًّا**، بل مؤرِّخٌ محترف متخصِّص في التاريخ اليونانيِّ-الرومانيِّ لأزمنة ما قبل المسيح والأزمنة المعاصرة له. وبحسب شيروين-وايت، فإنَّ مصادر التاريخ اليونانيِّ والرومانيِّ هي منحازة عادةً وتبعد جيلًا أو جيلَين، بل قرونًا عن الأحداث التي تسجِّلها. ومع ذلك، فهو يقول إنَّ المؤرِّخينَ يُعيدون بثقةٍ بناءَ مسار التاريخ الرومانيِّ واليونانيِّ. فمثلًا، كتبَ السيرتَين الأولَيَين للإسكندر الأكبر آريانوس (Arrian) وبلوتارخس (Plutarch) بعد أكثر من أربع مئة سنة على موت الإسكندر، ورغم ذلك، فلا يزال المؤرِّخون الكلاسيكيُّون يحسبونَهُما محلَّ ثقة، ولم تتطوَّر الأساطير الخرافيَّة بشأن الإسكندر الأكبر إلَّا في القرون **ما بعد** هذين الكاتبَين. وبحسب شيروين-وايت، تُمكِّننا كتابات هيرودوت من تحديد المعدَّل الذي تراكم وَفقَه الأسطورة، وتُظهر الاختبارات أنَّه حتَّى لو كانت المدَّة الزمنيَّة الفاصلة هي جيلَين، فهي مدَّةٌ قصيرةٌ جدًّا لا تسمح بالميول الخرافيَّة لأن تزيل اللبَّ الأساسيَّ للحقائق التاريخيَّة.

حين يتحوَّل البروفيسور شيروين-وايت إلى الأناجيل، يجد أنَّ تشكيك النقَّاد المتطرِّفين هو تشكيكٌ لا مسوِّغَ له؛ إذ يتَّفق كلُّ المؤرِّخين أنَّ الأناجيل دُوِّنت وانتشرت إبَّانَ الجيل الأوَّل بعد الأحداث، بينما كان شهود العيان لا يزالون على قيد الحياة. وحتَّى تكونَ الأناجيلُ أسطوريَّةً في صُلبها، كان هناك احتياج إلى أجيال أكثر بين الأحداث التي تسجِّلها وتاريخ تأليفها.

في الحقيقة، إضافةُ فجوةٍ زمنيَّةٍ من جيلَين إلى موت يسوع سنة ٣٠ ميلاديَّة

هيرودوت

يونانيٌّ من القرن الخامس ق.م كتب عملًا طويلًا عنوانه "أيستوريي" (Istoriai)، وهي كلمة يونانيَّة تعني "استقصاءات" أو "بحوث"، وتُسمَّى عامَّة التواريخ، وتأتي كلمة تاريخ الإنكليزيَّة (History) من عنوان هذا العمل. كان هيرودوت أوَّل كاتب يحاول جمع معلومات تاريخيَّة عن الحرب ما بين الإغريق والفُرس والتي اندلعت أيَّام والدَيه. وقال إنَّه سافر وحاور شهودَ عِيانٍ من بابل إلى صقليَّة، رغم أنَّه كان يحبُّ أيضًا ضمَّ القصص النابضة بالحياة أكثر من القصص المعقولة، ولا نعلم إنْ كان حقًّا قد ذهب إلى الأماكن التي وصفها. ورغم أنَّ عملَ هيرودوت ليس موثوقًا به ١٠٠٪، فإنَّه ملآنٌ بالأدلَّة للمؤرِّخ المعاصر الدقيق. ولم تتسبَّب التأثيرات الخرافيَّة في إزالة الحقائق التاريخيَّة المحوريَّة عن حرب الإغريق والفُرس.

يصل بك إلى القرن الثاني حين بدأت أناجيل الأپوكريفا في الظهور، وهي تحتوي على كلِّ أنواع القصص الخرافيَّة عن يسوع في محاولة لملء السنين ما بين صباه وبداية خدمته مثلًا، لذلك فإنَّها تُعدُّ هي مُرشَّحًا أفضل للأساطير التي يسعى إليها النقَّاد، لا أناجيل الكتاب المقدَّس.

تصيرُ هذه النقطة أكثر تدميرًا للشكوكيَّة حين ندرك أنَّ الأناجيل نفسها تستخدم **مصادر** ترجع إلى الوراء إلى مسافةٍ أقرب للأحداث في حياة يسوع، فمثلًا، قصَّة معاناة يسوع وموته والمعروفة عادةً بقصَّة الآلام، لم تُكتَب على الأرجح في الأصل بواسطة البشير مرقس، بل استخدم البشير مصدرًا لهذه الرواية. وإنجيل مرقس هو الإنجيل الأقدم ومن المؤكَّد أنَّ مصدره أقدَمُ من ذلك. في الواقع، يقول رودلف پيش (Rudolf Pesch)، وهو ألمانيٌّ خبيرٌ في إنجيل مرقس، إنَّه لا بدَّ أن يكونَ مصدرُ قصَّة الآلام عائدًا إلى سنة ٣٧ ميلاديَّة على الأقلِّ، وذلك بعد موت يسوع بسبع سنوات فقط.

أو مرَّة أخرى، حين يقدِّم بولس الرسول في رسائله معلوماتٍ تتعلَّق بيسوع بشأن تعليمه والعشاء الأخير وخيانته وصلبه ودفنه وظهورات القيامة. كُتبتْ رسائل بولس قبل الأناجيل حتَّى، وبعضٌ من معلوماته، مثلًا ما يسلِّمه في رسالته الأولى إلى الكنيسة في كورنثوس بشأن ظهورات القيامة الخاصَّة بيسوع، أُرِّخت في إطار خمس سنوات على موت يسوع، وفي حالات كهذه يصير من الاستهتار التحدُّث بشأن خرافات.

موثوقيَّة كُتَّاب الأناجيل

والآن إلى نقطتي الخامسة: لدى كُتَّاب الأناجيل سجلٌ مؤكَّد من الموثوقيَّة التاريخيَّة. مرَّة أخرى فلننظُرْ إلى مثال واحد، وهو البشير لوقا الذي كان كاتب العمل المكوَّن من جزأين: إنجيل لوقا وسفر أعمال الرسل، وهذان عملٌ واحد، رغم أنَّهما منفصلان في الكتاب المقدَّس اليوم؛ وذلك فقط لأنَّ الكنيسةَ جمَّعت الأناجيل الأربعةَ معًا في العهد الجديد.

لوقا هو كاتب هذا الإنجيل، وهو يكتب بوصفه مؤرِّخًا؛ ففي مقدِّمة عمله يكتب:

> "إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصَّة في الأمور المتيقَّنة عندنا، كما سلَّمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخدَّامًا للكلمة، رأيتُ أنا أيضًا إذ قد تتبَّعتُ كلَّ شيء من الأوَّل بتدقيق، أن أكتب على التوالي إليك أيُّها العزيز ثاوفيلس، لتعرف صحَّة الكلام الذي عُلِّمتَ به" (لوقا ١: ١-٤).

وهذه المقدِّمة مكتوبة باليونانيَّة الكلاسيكيَّة، والتي كان يستخدمها المؤرِّخون اليونانيُّون العظماء. وبعد ذلك يتحوَّل البشير لوقا إلى يونانيَّة أكثر شيوعًا، لكنَّه نبَّه القارئ أنَّ في وُسعه، إذا أراد، أن يكتب بصفة مؤرِّخ مثقَّفٍ، ويتحدَّثَ بشأن استقصائه الطويل عن القصَّة التي هو بصدد أن يحكيها، ويؤكِّد لنا أنَّها مبنيَّة على معلومات من شهود عيان، وأنَّها بذلك هي الحقيقة.

والآن، مَن هذا الكاتب الذي نسمِّيه البشير لوقا؟ من الواضح أنَّه هو شخصيًّا لم يكن شاهد عِيان عن حياة يسوع، لكنَّنا نكتشف حقيقة مهمَّة عنه من سفر أعمال الرسل. فبدايةً من الأصحاح السادس عشر من هذا السِّفر حين يصل بولس إلى ترواس، وهي في تركيا اليوم، يبدأ الكاتب فجأة في استخدام ضمير المتكلِّم: "**فأقلعنا** من ترواس وتوجَّهنا بالاستقامة إلى ساموثراكي"، "**فأقمنا** في هذه المدينة أيَّامًا"، "**خرجنا** إلى خارج المدينة عند نهر، حيث جرت العادة أن تكون صلاة"...إلخ. والتفسير الأوضح هو أنَّ الكاتب كان قد انضمَّ إلى بولس في رحلته التبشيريَّة إلى المدن المحيطة بالبحر الأبيض المتوسِّط، وفي النهاية يذهب بصحبة بولس عائدًا إلى أورشليم. ومعنى هذا أنَّ كاتب إنجيل لوقا وسفر أعمال الرسل هو في الواقع شخصٌ على اتِّصال مباشرٍ بشهود عِيان شهدوا على حياة يسوع وخدمته في أورشليم.

لقد حاول النقَّاد المشكِّكون فعل كلِّ ما يمكنهم فعله لتجنُّب هذه

الخُلاصة؛ إذ يقولون إنّه لا ينبغي لاستخدام ضمير المتكلّم في سفر أعمال الرسل أن يؤخَذَ حرفيًّا، فقد كان أسلوبًا أدبيًّا شائعًا في قصص الرحلات البحريَّة القديمة، رُغم أنَّ الكثير من الفقرات في سفر أعمال الرسل ليست عن رحلات بولس البحريَّة، بل على اليابسة! الأهمُّ من ذلك أنَّك حين تختبر هذه النظريَّة يتَّضح أنَّها مَحضُ خَيال، فلم يكن هناك أسلوبٌ أدبيٌّ في عالم الرحلات البحريَّة القديم يُستخدم فيه ضمير المتكلِّم؛ فقد ظهر أنَّ الأمر كلَّه ليس سوى خيال في شكل علم! لا يمكن تفادي خُلاصة أنَّ إنجيلَ لوقا وسفرَ أعمال الرسل كتبه مرافقُ سَفَرٍ كان مع بولس الرسول، وكانت لديه الفرصة ليجري مقابلات مع شهود عيان عن حياة يسوع بينما كان في أورشليم.

الروايات الفريدة في إنجيل لوقا

روايات الميلاد التي تركِّز على المطوَّبة مريَمَ وأقاربها (لوقا ١: ٥-٢: ٤٠)

قصَّة يسوع في صباه (لوقا ٢: ٤١-٥٢)

رفْض يسوع في بلدته الناصرة (لوقا ٤: ١٤-٣٠)

قصَّة النساء اللاتي كُنَّ يسافرن مع يسوع، وينفقن على خدمته (لوقا ٨: ١-٣)

إذًا مَن كان شهود العيان هؤلاء؟ ربَّما يمكننا الحصول على بعض الأدلَّة باستبعاد كلِّ شيء موجود في الأناجيل الأخرى بخلاف إنجيل لوقا لنرى ما هو فريدٌ بشأن هذا الإنجيل. وحين تفعل هذا ستكتشف أنَّ الكثير من الروايات الفريدة للبشير لوقا لها علاقة بنساءٍ كُنَّ يتبعنَ يسوع- نساءٍ مثل يونَّا وسوسنة، وبصورة كبيرة أيضًا نقرأ قصصًا من المطوَّبة مريم العذراء.

هل كان الكاتب محلَّ ثقةٍ في الحصول على الحقائق؟ يُمكِّننا سفر أعمال الرسل من الإجابة عن هذا السؤال إجابةً حاسمةً؛ فسفر الأعمال يتداخل مع التاريخ العلمانيِّ للعالم القديم، والدقَّة التاريخيَّة لسفر أعمال الرسل ليسَتْ محلَّ جدل، حيث ثبتَ حديثًا من جديد بواسطة كولين هيمَر (Colin Hemer)، وهو عالمٌ كلاسيكيٌّ اتَّجه إلى دراسات العهد الجديد. ففي كتابه "**سفر الأعمال في مشهد التاريخ الهلنستيِّ**"[٤]، يتناول هيمَر سفر أعمال الرسل بدقَّة شديدة مستخرجًا ثروةً من التفصيل التاريخيِّ، يتراوح ما بين ما كان يعدُّ معلومات شائعة، مرورًا بتفاصيل معروفةٍ فقط لدى شخصٍ محلِّيٍّ. ومرَّة أخرى، تظهر دقَّة لوقا من إبحار سفينة الإسكندريَّة حاملة الحنطة، إلى التضاريس الساحليَّة لجزر البحر الأبيضِ المتوسِّط، إلى الألقاب الغريبة للمسؤولين المحلِّيِّين- وكان لوقا مصيبًا في جميعها.

بحسب الپروفيسور شيروين-وايت: "إنَّ تأكيد تاريخيَّة سفر الأعمال هو تأكيد غامرٌ، وأيُّ محاولة لرفض تاريخيَّته حتَّى في أمور متعلِّقة بالتفصيل تبدو محاولةً عبثيَّة الآنَ".[٥] ويظلُّ حُكم السِّير وليَم رامزي (William Ramsay) قائمًا حيث قال: "لوقا هو مؤرِّخٌ من الطراز الأوَّل ...هذا الكاتب يجب أن يوضع في مصاف أعظم المؤرِّخين".[٦]

وإذا وضعنا في الحسبان عناية لوقا والموثوقيَّة الظاهرة؛ علاوة على تواصله مع شهود عِيان إبَّان الجيل الأوَّل بعد الأحداث، فإنَّ هذا الكاتب يُعدُّ محلَّ ثقة.

استنادًا إلى الأسباب الخمسة التي سردتُها، أعتقد شخصيًّا أنَّ من الواجب علينا افتراض الموثوقيَّة التاريخيَّة لما تقولُه الأناجيل بشأن يسوع إلَّا إذا ثبتَ أنَّها مخطئة. وعلى أيَّة حال، لا يمكننا على الأقلِّ أن نفترض أنَّها خاطئة إلى أن تثبت صحَّتها، فالواجب هو تبنِّي مَوقفٍ محايد.

معايير الأصالة

والآن إذا تبنَّينا بالفعل موقفًا من الحياد في تناولنا للأناجيل، كيف ننتقل إلى ما وراء الحياديَّة إلى تأكيد أنَّ حدثًا ما هو تاريخيٌّ بالفعل؟ لقد طوَّر العلماءُ عددًا ممَّا يُسمَّى "معايير الأصالة" لتُمكِّننا من فعل ذلك.

إنَّه أمرٌ غاية في الأهمِّيَّة أن تُذكَرَ هذه المعايير وتُفهَم جيِّدًا؛ فقد أُسيءَ استخدامها إساءةً هائلةً في الكثير من الأحيان. والمعايير هي حقًّا مؤشِّراتُ الموثوقيَّة التاريخيَّة. فإذا أَظهرتْ قصَّةٌ في الأناجيل أحد هذه المعايير، بافتراض ثباتِ كلِّ العوامل الأخرى، تكون هذه القصَّة على الأرجح تاريخيَّة أكثر من احتماليَّة كونها تاريخيَّة دون هذه المعايير. وبكلمات أخرى، يزيدُ وجودُ أحد هذه العلامات من احتماليَّة أن يكون الحادثُ المُسجَّل تاريخيًّا.

ناقش

هل من المنطقيِّ افتراض أنَّ المصادر ليست محلَّ ثقة إلَّا حين تثبت دقَّتها؟ على سبيل التجربة الفكريَّة، فكِّر في ما تعرفه عن حياة والدَيك قبل أن تولد، واستبعد كلَّ شيء قاله أبواك أو أيُّ فرد من أفراد العائلة لك؛ لأنَّهم جميعًا منحازون، ويمكنك فقط أن تكون واثقًا ممَّا تستطيع التحقُّق بشأنه من برهان مثل كشف حساب بنكيٍّ ووثائق قانونيَّة ورسائل وشهادة شهود حياديِّين. في هذه الحالة، ماذا تعرف حقًّا عن والديك؟

ما علامات الأصالة التاريخيَّة تلك؟ إليك قائمةً ببعض أهمِّ هذه العلامات:

١. **الملاءمة التاريخيَّة**: يلائم الحادثُ الحقائق التاريخيَّة المعروفة للزمان والمكان.

٢. **مصادر باكرة ومستقلَّة**: الحادث متَّصل بمصادر متعدِّدة قريبة من الزمن الذي يُقال إنَّ الحادث وقع فيه، ولا يعتمد بعضها على بعض أو على مصدر مُشترك.

٣. **الإحراج**: الحادث غير ملائم أو له نتائج عكسيَّة على الكنيسة الأولى.

٤. **التبائن**: لا يماثل الحادث أفكارًا يهوديَّة سابقة أو أفكارًا مسيحيَّة لاحقة أو لا يماثل أيًّا منهما.

٥. **الساميَّة**: تظهر في القصَّة آثارٌ من اللغة العبريَّة أو الأراميَّة (التي كان يتكلَّمها أبناء البلد الذين عاصروا يسوع).

٦. **التماسُك**: يُلائم الحادث الحقائق المؤكَّدة بالفعل بشأن يسوع.

لاحظ بعض الأمور في ما يتعلَّق بهذه "المعايير": أوَّلًا كُلُّها علامات **إيجابيَّة** للمصداقيَّة التاريخيَّة، أي أنَّه يمكن استخدامها فقط **لتأييد** تاريخيَّة حادث ما، وليس **لنَفيِه**، فإذا **لم تكُن** القصَّة مُحرجة أو متباينة أو موجودة في مصادر باكرة مستقلَّة (مثلًا)، فذلك بالتأكيد لا يعني أنَّ الحادث ليس تاريخيًّا.

الطريقة الوحيدة التي يمكنك بها استخدام المعايير استخدامًا مُبرَّرًا لنفي المصداقيَّة التاريخيَّة هي بالافتراض المسبَّق أنَّ الأناجيل غير موثوقٍ بها إلى أن تَثبُتَ موثوقيَّتُها، فهنا نعود ثانيةً إلى أمر عبء الإثبات! إذا تبنَّينا موقفًا من الحياديَّة في تناول الأناجيل، فإنَّ الإخفاقَ في إثبات تاريخيَّةِ حادثٍ ما يتركُنا في موقفٍ من الحياديَّة؛ حيث إنَّنا سنعرفُ فقط ما إذا كان الحادث تاريخيًّا أم لا.

ثانيًا، لا تفترِضُ المعاييرُ مسبَّقًا الموثوقيَّة العامَّة للأناجيل، إذ تنطبق المعايير على حوادث معيَّنة لا على السِّفر كلِّه، فيمكن أن تكتشفَ هذه المعايير شذراتٍ تاريخيَّة من المعلومات في أيِّ مصدر، حتَّى في أناجيل الأپوكريفا، وذلك يعني أنَّه من أجل الدفاع عن المعقوليَّة التاريخيَّة لحدثٍ ما في حياة يسوع، لنقُل مثلًا دفْنه، لا تحتاج إلى الدفاع عن المعقوليَّة التاريخيَّة لأحداث أخرى مثل ميلاده في بيت لحم، وإطعامه للخمسة الآلاف، ودخوله أورُشليم في أحَد الشعانين وهكذا؛ إذ يمكن تقييم أحداث محدَّدة بمفردها باستخدام هذه المعايير.

ناقش

بِمَ تفسِّر كوْن الإحراج واحدًا من علامات الأصالة التاريخيَّة؟ هل يمكنك التفكير في أيَّة فقرةٍ في الأناجيل كان يمكن أن يُسقطَها المُحرِّر إنْ كان مهتمًّا بجَعْل أبطال الأناجيل يبدون في أفضل حال؟

لذا إذا كان نقاشك على أساس المعايير أنَّ يسوعَ قال تصريحًا راديكاليًّا معيَّنًا، وأشار غيرُ المؤمن إلى أقوال **أخرى** يظنُّ أنَّها غير أصليَّة، فذلك لا يهمُّ؛ لأنَّك لا تحاول إثبات عصمة الكتاب المقدَّس في هذه اللحظة، بل تحاول فقط إظهار أنَّ يسوع صرَّح بهذا التصريح الراديكاليِّ المحدَّد، وما إذا كان صرَّح بتصريح **آخر** هو ببساطة أمرٌ غير ذي صلة.

قبل أن نطبِّق هذه المعايير على أحداث عن يسوع وعلى أقواله في الأناجيل، تجدر الإشارةُ إلى مشكلة عامَّة تواجه النقَّاد الذين ينكرون أنَّ يسوع صرَّح أصلًا بأيٍّ من هذا؛ فنحن نعلَمُ من رسائل بولس أنَّه في أوَّل عشرين سنة من موت يسوع كان يُعدُّ اللهَ المتجسِّدَ، وكان معاصِروه يعبدونه على هذا الأساس (فيلبِّي ٢: ٥-٧)، ومن المتعذِّر تفسير كيف كان يمكن أن ينسِبَ يهودٌ موحِّدين ألوهيَّة إلى إنسانٍ كانوا قد عاصروه إنْ لم يكن قد صرَّح هو نفسُه بأمر مثل هذا؛ فالتوحيد هو قلب الإيمان اليهوديِّ، وقد كان تجديفًا القَوْل إنَّ إنسانًا هو الله، ورغم ذلك فهذا هو بالضبط ما أعلنه المسيحيُّون الأوائل وآمنوا به بشأن يسوع! فلا بدَّ أنَّ تصريحًا مثل هذا كان متأصِّلًا في تعليم يسوع نفسه، وفي الواقع، نجد بالفعل في تعاليم يسوع وأنشطته تصريحاتٍ شخصيَّةً بنَوعيها واضحة وضمنيَّة توحي بألوهيَّته.

تصريحات واضحة

يوجد في الأناجيل عددٌ من المرّات التي وَصَفَ بها يسوعُ نفسَه وصفًا صريحًا، وذلك على نحو يقدِّم فكرةً ثاقبةً للطريقة التي فهم بها نفسَه. وحتّى وقتٍ قريب كان العلماء مشكّكين جدًّا في أصالة تصريحات كهذه؛ ففي كتاب **خرافة الله المتجسِّد،** أكَّد اللاهوتيُّون السبعة الذين كان يرأسهمَ البروفيسور هِك أنَّ معظم علماء العهد الجديد في ذلك الوقت كانوا متَّفقين أنَّ يسوع لم يُصرِّح قَطُّ أنَّه المسيَّا أو ابن الله، ولم يطالب بأيِّ لقبٍ إلهيٍّ يُنسب إليه في الأناجيل، أمَّا اليوم فلا يوجد هذا الإجماع المُشكِّك، بل على العكس، فقد يكون إجماع العلماء في ما يختصُّ باستخدام يسوع للألقاب الشخصيَّة قد انقلب نحو الاتِّجاه المعاكس.

فلنلقِ نظرة على أصالة ثلاثة من تصريحات يسوع الصريحة: تصريحاته أنَّه المسيح المنتظر (المسيَّا)، ابن الله الفريد، وابن الإنسان. وبينما ننظر إلى كلِّ لقب سأُظهِر أوَّلًا باستخدام معايير الأصالة أنَّ يسوع صرَّح بهذا التصريح، ثمَّ سأناقش مدلولَ تصريح كهذا على الكيفيَّة التي كان يسوعُ يرى بها نفسَه.

المسيح المنتظر (المسيَّا)

كان الرجاءُ القديمُ للعبرانيِّينَ هو المسيح المنتظر (المسيَّا)، أو الممسوح المُرسَل من الله، وقد انتعش هذا الرجاء في القرن السابق لميلاد يسوع، حيث كانت أهمُّ فكرةٍ مسيانيَّة هي فكرةَ سليلٍ للملك داوُد سيصبح ملكًا على الأمَّة العبرانيَّة والأمم، وسيكون أكثر من مجرَّد ملك مقاتل، إذ سيكون راعيًا روحيًّا للأمَّة العبرانيَّة.

والكلمة اليونانيَّة للمسيَّا هي "كريستوس" (Christos)، أو المسيح، وربَط المسيحيُّون الأوائل هذا اللقب إلى حدٍّ كبير بيسوع حتَّى إنَّه صار عمليًّا اسم علَمٍ: "يسوع المسيح"، ويظهِرُ التعبير المُستخدم لوصف أتباعه "المسيحيِّين" مدى محوريَّة اعتقادهم أنَّ يسوع هو المسيَّا الموعود.

إحدى مخطوطات البحر الميت

"[لأنَّ السما]وات والأرض ستستمع إلى مسيحه [وكلَّ مـ]ا فيها لن يتحوَّل بعيدًا عن وصايا القدِّيسين. . .سيُكرِمُ الأتقياء على عـ[ر]ش الملكوت الأبديِّ، مُطلقًا مساجين أحرارًا، فاتحًا أعين العُميان، ومقيمًا المُنـ[حنين]. . .وسيصنع الربُّ أمورًا مجيدة لم تُفعل من قبْل، تمامًا مثلما قال، إذ سيشفي الجرحى، وسيُحيي الموتى، وسيعلن البشارة إلى البائسين".

(4Q521) (تشير الأقواسُ إلى فجوات في الوثيقة)

بماذا صرَّح يسوع؟

السؤال هو: من أين أتَوا بهذه الفكرة؟ إن لم يكن يسوع نفسه قد ادَّعى أنَّه المسيَّا، فما الذي كان ليَحثَّ أتباعَه أن يدعوه كذلك؟ في الواقع هو لم يُعِدْ توطيدَ عرش داود في أورشليم، بل ذلك صُلب على يد أعدائه بدلَ ذلك، وحتَّى المُعتقد أنَّ الله أقامه من بين الأموات لم يكن ليقودَ أتباعه ليروه بوصفه المَسيَّا المنتَظَر؛ فما من ارتباط ما بين القيامة والمسيانيَّة. أمَّا إذا كان صلب يسوع هو نتيجة مباشرة لتصريحه أنَّه المسيَّا، فإنَّ قيامته قادت أتباعه ليرَوا أنَّه المسيَّا المُقام.

"فليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح يسوع أيضًا:
الذي إذ كان في صورة الله، لم يحسب خلسة أن يكون معادلًا لله.
لكنَّه أخلى نفسه، آخذًا صورة عبد، صائرًا في شبه الناس" (فيلبِّي ٢: ٥-٧).

الأكثر من ذلك، هناك برهان جيِّد أنَّ يسوع بالفعل كان يعتقد أنَّه المسيَّا، مثلًا، هناك قصَّة الاعتراف الشهير لبطرس:

> "ثمَّ خرج يسوع وتلاميذه إلى قرى قيصريَّة فيلبُّس. وفي الطريق سأل تلاميذَه قائلًا لهم: «مَن يقول الناس: إنِّي أنا؟» فأجابوا: يوحنَّا المعمدان. وآخرون: إيليًّا. وآخرون: واحد من الأنبياء، فقال لهم: «وأنتم، مَن تقولون: إنِّي أنا؟» فأجاب بطرس وقال له: أنت المسيح" (مرقس ٨: ٢٧-٣٠).

هل هذا حدث تاريخيٌّ؟ حسنًا، من الطبيعيِّ للناس في ذلك الوقت أن يهتمُّوا بما صرَّح به يسوعُ عن نفسه. وتخبرُنا قصصٌ مستقلَّة أنَّ يوحنَّا المعمدان وُوجِه بسؤال مشابه (لوقا ٣: ١٥-١٦، يوحنَّا ١: ١٩-٢٧)، وما من شكٍّ أنَّ التلاميذ الذين كانوا قد تركوا عائلاتهم ووظائفهم ليتبعوا يسوع كانوا سيسألون أنفسهم مَن كانوا يتبعون! وردُّ بطرس عن سؤال يسوع مؤكَّدٌ بصورةٍ مستقلَّة في يوحنَّا ٦: ٦٩، حيث يقول بطرس: "ونحن قد آمنَّا وعرفنا أنَّك أنت المسيح ابن الله الحيّ".

قصَّة أخرى توضِّح إدراك يسوع لذاته بوصفه المسيَّا هي قصَّة ردِّ يسوع على يوحنَّا المعمدان في السجن (متَّى ١١: ٢-٦؛ لوقا ٧: ١٩-٢٣)، ويعتقد كثير من العلماء أنَّ هذه القصَّة تأتي من مصدر قديمٍ جدًّا يشترك فيه إنجيلا البشيرَين

دخولُ أورشليم

"ولمَّا قَرُبوا مِنْ أورُشَليمَ إلَى بَيتِ فاجي وبَيتِ عنيا، عِندَ جَبَلِ الزَّيتونِ، أرسَلَ اثنَينِ مِنْ تلاميذه، وقالَ لهُما: «اذهَبا إلى القريةِ التي أمامَكُما، فللوقتِ وأنتُما داخِلانِ إليها تجِدانِ جَحشًا مَربوطًا لَمْ يَجلِسْ علَيهِ أحَدٌ مِنَ الناسِ. فحُلَّاه وأتيا بهِ. وإنْ قالَ لكُما أحَدٌ: لماذا تفعَلانِ هذا؟ فقولا: الرَّبُّ مُحتاجٌ إليهِ. فللوقتِ يُرسِلُهُ إلَى هنا». فمَضَيا ووجَدا الجَحشَ مَربوطًا عِندَ البابِ خارِجًا علَى الطريقِ، فحَلَّاه. فقالَ لهُما قَوْمٌ مِنَ القيامِ هناكَ: «ماذا تفعَلانِ، تحُلّانِ الجَحشَ؟». فقالا لهُمْ كما أوصَى يَسوعُ. فترَكوهُما. فأتَيا بالجَحشِ إلَى يَسوعَ، وألقَيا علَيهِ ثيابَهُما فجَلَسَ علَيهِ. وكثيرونَ فرَشوا ثيابَهُمْ في الطريقِ. وآخَرونَ قَطَعوا أغصانًا مِنَ الشَّجَرِ وفَرَشوها في الطريقِ. والذينَ تقَدَّموا، والذينَ تبِعوا كانوا يَصرُخونَ

يتبع



"أنت فيلسوفٌ تابعٌ للفلسفة التشاؤميَّة ولديك طموحات سياسيَّة!...لا، انتظر لحظةً! أنت..."

متَّى ولوقا. حيث يسأل يوحنَّا يسوعَ: "أنت هو الآتي أم ننتظر آخر؟"، وتدعم هنا خاصِّيَّة الإحراجِ تاريخيَّةَ هذا الحدث؛ إذ يبدو كأنَّ يوحنَّا المعمدان يشكُّ في يسوع، وتعبير "الآتي" يعود بالذاكرة إلى نبوَّة يوحنَّا عن "هو الذي يأتي بعدي" والتي سجَّلَها بصورةٍ مستقلَّة كلٌّ من البشيرَين مرقس ويوحنَّا (مرقس ١: ٧؛ ويوحنَّا ١: ٢٧)، وردُّ يسوع على يوحنَّا هو مزيجٌ من النبوَّات من إشعياء ٣٥: ٥-٦ و٢٦: ١٩ و٦١: ١، والتي تذكرُ الأخيرة بينها بوضوح أنَّه مسيح الله. "اذهبا وأخبرا يوحنَّا بما رأيتما وسمعتما: إنَّ العمي يبصرون، والعرج يمشون، والبرص يطهرون، والصم يسمعون، والموتى يقومون، والمساكين يبشَّرون، وطوبى لمن لا يعثر فيَّ"، وربَّما يكونُ اللافت للنظر من بين كلِّ الأمور هو أنَّ هذه العلامات نفسها أُدرِجتْ بوصفها علامات على مجيء المسيَّا في واحدة من مخطوطات البحر الميِّت من الطائفة اليهوديَّة التي كانت تعيش في قمران في زمن يسوع (4Q521).

باختصارٍ، نرى أنَّ المعايير الخاصَّة بالإحراج والملاءمة التاريخيَّة والتماسك ما بينها وبين موادَّ أصليَّة أخرى، فضلًا عن وجودها في مصدرٍ باكر جدًّا- تقدِّمُ أساسًا جيِّدًا لرؤية هذا الحادث بوصفه تاريخيًّا.

قائلينَ: «أوصَنَّا! مُبارَكٌ الآتي باسم الرَّبِّ! مُبارَكَةٌ مَملكَةُ أبينا داوُدَ الآتيَةُ باسم الرَّبِّ! أوصَنَّا في الأعَالي!». فدَخَلَ يَسوعُ أورُشَليمَ والهَيكلَ، ولَمَّا نَظَرَ حَوْلهُ إلَى كُلِّ شَيءٍ إذ كانَ الوقتُ قد أمسَى، خرجَ إلَى بَيتِ عنيا مع الاثنَيْ عشَرَ" (مرقس ١١: ١-١١).

والأكثر إقناعًا من **كلمات** يسوع هي **أفعاله**، والتي تكشف إدراكَه لكونه المسيَّا؛ فقد كان دخوله أورشليمَ منتصرًا وجالسًا على حمار تأكيدًا دراميًّا مثيرًا لمكانته المسيانيَّة. ويقصُّ إنجيلا البشيرَين مرقس ويوحنَّا القصَّة بصورة مستقلَّة (مرقس ١١: ١-١١؛ يوحنَّا ١٢: ١٢-١٩)، ويتَّفقان على لبِّ القصَّة كالآتي: قبل صَلْب يسوع بأسبوع، دخل أورشليم راكبًا على جحش، وحيَّته حشودُ الاحتفال بالفصح بصيحات "أوصنَّا! مباركٌ الآتي باسم الربِّ!" تحسُّبًا لمجيء ملكوت داود.

في امتطائه للجحش ودخوله أورشليم، يحقِّق يسوع عن عمْدٍ نبوَّة زكريَّا ٩: ٩:

> "ابتهجي جدًّا يا ابنة صهيون، اهتفي يا بنت أورشليم. هوذا ملكك يأتي إليك. هو عادل ومنصور وديع، وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان".

لذا يصرِّحُ يسوع هنا عن عمْدٍ وبتحدٍّ أنَّه الملك الموعود.

لقد ارتاب العلماءُ المشكِّكون أحيانًا في تاريخيَّة دخول يسوع الانتصاريِّ؛ إذ كان من شأن مسيرة عامَّة مثل هذه أن تؤدِّي إلى القبض الفوريِّ على يسوع على يد الرومان. لكنَّ هذا الاعتراض ضعيفٌ جدًّا؛ فرَجُلٌ يتحرَّك ببطء راكبًا على حمار ودون أيِّ مظهر مسلَّح ما كان ليبدو مهدِّدًا بأيِّ شكل من الأشكال، ولم يكُن دخوله الانتصاريُّ أمرًا يتوقَّعه الرومان ولا أمرًا كان يمكن أن يفهموه. وفي الغالب اندمجَتْ مسيرتُه في وسط الحشد بمجرَّد وصولها إلى أورشليم. وبحسب مرقس ١١: ١١، بوصول يسوع إلى هناك، ينظر حوله ثمَّ يغادر، فهو لا يفعل أيَّ شيء مُستفزٍّ للسُّلطات الرومانيَّة يؤدِّي إلى القبض عليه.

وفي سِياقٍ متَّصل، يعترف كلُّ النقَّاد تقريبًا أنَّ يسوعَ سبَّب في الأسبوع التالي فعلًا نوعًا من الاضطراب في هيكل أورشليم، الأمر الذي أدَّى إلى توقُّف مؤقَّت للأنشطة التجاريَّة هناك. وتقول الجملة الأخيرة من نبوَّة زكريَّا

"ولا يكونُ بَعدُ تجّارٌ في بيت الربِّ القدير في ذلِكَ اليومِ" (زكريَّا ١٤: ٢١- الترجمة العربيَّة المشتركة)، فها هو يسوع يُحقّق عن عمْدٍ هذه النبوّات، مؤكِّدًا سلطانَه على أقدس مكانٍ يهوديٍّ.

يظهر الهيكلُ ثانيةً في محاكمة يسوع؛ إذ نجد تقارير مستقلّة أنَّ يسوع تنبَّأ بشأن خراب الهيكل (مرقس ١٤: ٥٨؛ يوحنَّا ٢: ١٩)، الأمر الذي سعت به السلطات اليهوديَّة إلى الانقلاب عليه؛ ففي الأدبيَّات اليهوديَّة الموجودة في زمن يسوع يُعرف بأنَّ الله هو مَن بنى الهيكل، وهو من يهدِّد بتدميره. وفي مخطوطات البحر الميِّت يُدعى المسيَّا ابنَ الله، مَن سيَبني الهيكل (4Q174). ويُتَّهمُ يسوع عند محاكمته أنَّه صرَّح بفعْل الأمر ذاته، ويُثيرُ رفضُه الإجابة عن هذه الاتِّهامات رئيسَ الكهنة الذي يسأل: "أأنت المسيح ابن المبارَك؟" (مرقس ١٤: ٦١)، ويُظهرُ هذا الاتِّهام أنَّ محاكمة يسوع كانت لتصريحاته المسيانيَّة.

كانت السلطات الرومانيَّة في ذلك الوقت تحتفظ لنفسها بالحقِّ في الحُكم بعقوبة الإعدام، فلم تستطع السلطات اليهوديَّة إعدام يسوع، لكن كان ممكنًا عرضُ تصريحات يسوع بأنَّه المسيَّا إلى السلطات الرومانيَّة بوصفها خيانة، لتسويغ إعدامه. وتشهدُ مصادر مستقلَّة أنَّ اللوحة المعلَّقة على الصليب فوق رأس يسوع مُسجِّلةً تهمته، وكان مكتوبًا عليها "ملك اليهود" (مرقس ١٥: ٢٦؛ يوحنَّا ١٩: ١٩)، ويدعمُ معيارُ التباينِ أيضًا أصالة التُّهمة، إذ لم يكُن "ملك اليهود" لقبًا استخدمته الكنيسة الأولى إطلاقًا للإشارة إلى يسوع، ويرى العلماء التاريخيُّون على أنَّ هذه التهمة ضدَّ يسوع مؤكَّدة على نحو راسخ، حتَّى إنَّه يمكن حسبانُها حجرَ أساسٍ تاريخيًّا.

هذا التداخل للكثير من العوامل، والتي يُصدَّقَ على كلٍّ منها بمعايير كالمصادر المستقلَّة والملاءمة التاريخيَّة والتبايُن وما إلى ذلك- يقدِّم إقناعًا قويًّا تراكميًّا أنَّ يسوع كان بالفعل يرى نفسه حقًّا المسيَّا اليهوديَّ.

ماذا كان يسوعُ يعني؟

في تصريح يسوعَ بكَونه المسيَّا، لم يقُل بالضرورة أيَّ أمر فائق لما هو بشريٌّ، إذ عادةً يحسبُ العلماءُ المسيَّا أنَّه مجرَّد شخصيَّة إنسانيَّة، لكنْ ينبغي ذِكْرُ أنَّ صورة المسيَّا في العديد من الوثائق اليهوديَّة ما قبل المسيحيَّة هي صورةٌ لشخصيَّة سامية بصورة استثنائيَّة. وفي مزامير سليمان غير الموجودة في الكتاب المقدَّس يُدعى "الربَّ المسيَّا" الذي "سيضرب الأرض بكلمة فمه إلى الأبد... و[سيكون] هو نفسه دون خطيَّة...ولن يضعف في أيَّامه" (١٧: ٣٢-٣٧). ونقرأ أيضًا في إشعياء: "لأنَّه يولَد لنا ولدٌ ونُعطى ابنًا، وتكون الرياسة على كتفه، ويُدعى اسمه عجيبًا، مشيرًا، إلهًا قديرًا، أبًا أبديًّا، رئيس السلام" (إشعياء ٩: ٦).

ناقش

ما الأمر الذي تتعلَّمه عن يسوع من هذا الفصل، ويفيدك شخصيًّا؟ ما الأمر الذي قد تعلَّمتَه ويمكنك مشاركته مع شخصٍ غير مسيحيٍّ تعرفه؟

وهُنا يُعطى اللقب "إلهًا قديرًا" للمسيَّا، مَن لن يكون لمُلكه نهاية كما يواصل إشعياء، ويُصوَّر المسيَّا في كتابات سِفر أخنوخ غير الموجودة في الكتاب المقدَّس على أنَّه شخصيَّة إلهيَّة، وأنَّه كان موجودًا مع الربِّ "قبل تكوين العالم وإلى الأبد" (١أخنوخ ٤٨: ٦)، ومن ثمَّ ففكرة المسيَّا بوصفه شخصيَّة سماويَّة إلهيَّة كانت موجودة في زمن يسوع.

حين نأتي إلى فهم يسوع لذاته، لاحظ أنَّ يوحنَّا المعمدان يوصَف بأنَّه تحقيقُ نُبوَّتَي ملاخي وإشعياء عن مبعوثٍ صارخ في البرِّيَّة:

> "هأنذا أرسل ملاكي فيهيِّئ الطريق أمامي. ويأتي بغتة إلى هيكله السيِّدُ الذي تطلبونه" (ملاخي ٣: ١)؛

> "صوت صارخ في البرية: «أعدُّوا طريق الربِّ. قوِّموا في القفر سبيلًا لإلهنا»" (إشعياء ٤٠: ٣).

في متَّى ١١: ١٠ ولوقا ٧: ٢٧، يُحدِّد يسوعُ نفسُه هُوِيَّةَ يوحنَّا المعمدان

بوصفه ملاكَ ملاخي ٣: ١. إذًا مَن الذي يأتي بعد المُرسَل، بحسب هذه النبوَّات؟ إنَّه الربُّ- الله نفسه! ويواصل يسوعُ ليتكلَّم عن نفسِه بوصفه ابنَ الإنسان الذي أتى بعد يوحنَّا المعمدان (متَّى ١١: ١٩؛ لوقا ٧: ٣٤)، وكما سنرى، ابن الإنسان هو شخصيَّة بشريَّة-إلهيَّة يمكنها تحقيق النواحي الإلهيَّة والنواحي البشريَّة أيضًا لتوقُّعات يوحنَّا، ومن ثمَّ يمكن أن تكونَ تصريحات يسوع عن كونه المسيَّا حافلةً بدَلالةٍ إلهيَّة، إذا اتَّسق مثل هذا الفهم للذات مع باقي البُرهان الذي سنختبره.

ابن الله

بماذا صرَّح يسوع؟

لقد رأينا بالفعل أنَّه في محاكمة يسوع، تحدَّاه رئيس الكهنة بشأن كونه ابن الله، وهذا تصريحٌ يقدِّمه يسوعُ كثيرًا في الأناجيل، وسننظر إلى ثلاثة أمثلة فقط.

أوَّلًا فكِّر في المثل الذي قاله يسوع عن الكرَّامين الأشرار (مرقس ١٢: ١-٩)، وفي هذا المثل يرمزُ الكرمُ إلى الأمَّة العبرانيَّة (إشعياء ٥: ١-٧)، وصاحبُ الكرم إلى الله، والكرَّامون هم القادة الدينيُّون من اليهود، والعبيدُ هم الأنبياء الذين أرسَلَهم الله. يضربُ الكرَّامون عبيدَ صاحب الكرم ويرفضونهم، وفي النهاية يقرِّر صاحبُ الكرم أنَّ لديه واحدًا فقط باقيًا ليرسله: ابنه الحبيب الوحيد، ويقول "إنَّهم يهابون ابني"، لكنْ بدلَ ذلك يقتل الكرَّامون الابن لأنَّه وارث الكرم.

حتَّى العلماء المشكِّكون يعترفون بأصالة هذا المثل، فهو أيضًا موجودٌ في أحد مصادرهم المفضَّلة، وأعني به إنجيل توما (٦٥)، لذا فهذا المثل مُصدَّق عليه بصورة مستقلَّة. والأكثر من ذلك، يعكس هذا المثل ليس فقط الخبرة الفعليَّة لأصحاب الأراضي الغائبين عن أراضيهم في العالم القديم، بل يوظِّفُ أيضًا صورًا وأفكارًا نموذجيَّة موجودة في الأمثال اليهوديَّة: الأمَّة العبرانيَّة ككرْمٍ، والله كصاحب الكرْم، وكرَّامين متمرِّدين غير مستحقِّين، وشخصيَّة الابن وما إلى ذلك، لذا فهذا المثل يتوافق جيِّدًا مع السياق اليهوديِّ. ويحوي

"وابتَدأَ يقولُ لهُمْ بأمثالٍ: «إنسانٌ غَرَسَ كرمًا وأحاطَهُ بسياجٍ، وحَفَرَ حَوْضَ مَعصَرَةٍ، وبَنَى بُرجًا، وسَلَّمَهُ إلَى كرَّامينَ وسافَرَ. ثُمَّ أرسَلَ إلَى الكَرّامينَ في الوقتِ عَبدًا ليأخُذَ مِنَ الكَرّامينَ مِنْ ثَمَرِ الكرمِ، فأخَذوهُ وجَلَدوهُ وأرسَلوهُ فارِغًا. ثُمَّ أرسَلَ إليهِمْ أيضًا عَبدًا آخَرَ، فرَجَموهُ وشَجّوهُ وأرسَلوهُ مُهانًا. ثُمَّ أرسَلَ أيضًا آخَرَ، فقَتَلوهُ. ثُمَّ آخَرينَ كثيرينَ، فجَلَدوا مِنهُمْ بَعضًا وقَتَلوا بَعضًا. فإذْ كانَ لهُ أيضًا ابنٌ واحِدٌ حَبيبٌ إليهِ، أرسَلهُ أيضًا إليهِمْ أخيرًا، قائلًا: إنهُم يَهابونَ ابني! ولكنَّ أولئكَ الكَرّامينَ قالوا فيما بَينَهُمْ: هذا هو الوارِثُ! هَلُمّوا نَقتُلهُ فيكونَ لنا الميراثُ! فأخَذوهُ وقَتَلوهُ وأخرَجوهُ خارِجَ الكَرمِ. فماذا يَفعَلُ صاحِبُ الكَرمِ؟ يأتي ويُهلِكُ الكَرّامينَ، ويُعطي الكَرمَ إلَى آخَرينَ" (مرقس ١٢: ١-٩).

المثلُ أيضًا فروقًا دقيقةً متأصِّلة في إعادة الصياغة الأراميَّة لإشعياء ٥، والتي كانت مُستخدَمة في زمن يسوع. وعلاوة على ذلك، هناك نواحٍ من المثل تجعل من غير المُحتمل أن يكونَ قد أُنتج لاحقًا في الكنيسة؛ فمثلًا القلق المذكور في المثل بشأن مَنْ يجب أن يستحوذ على الكرْم بعد أن يؤخذَ من الكرَّامين الحاليِّين لم يكن موضع اهتمامِ المسيحيِّين الأوائل؛ فقد دمَّرتْ رُوما أورشليم في عام ٧٠م، ولا يتناسب غيابُ قيامةِ الابن القتيل في المثل مع إيمان المسيحيِّين الأوائل بقيامة يسوع.

والآن، ماذا يخبرنا هذا المثل عن فهم يسوع لذاته؟ يخبرنا أنَّه كان يعتقد أنَّه ابن الله الوحيد، متميِّزٌ عن كلِّ الأنبياء، المُرسَل الأخير من قِبل الله، بل وارث عرش الأمَّة العبرانيَّة نفسِها! لاحِظْ أنَّك لا تستطيع إلغاء شخصيَّة الابن من المثل حاسبًا إيَّاها إضافةً لاحقةً زائفة، إذ سيفقد حينها المثلُ ذروتَه أو هدفه، والأكثر من ذلك أنَّنا نجد ليس فقط أنَّ تفرُّد الابن معلنٌ بصراحةٍ في المثل، بل هو أيضًا مفهومٌ ضمنًا بصورة أصيلةٍ ضمنَ خُطَّة الكرَّامين لقتْل الوارث من أجلِ حِيازةِ الكرم. إذًا يكشفُ لنا هذا المثلُ أنَّ يسوع كان يؤمن بأنَّه ابن الله الوحيد، وكان يعلِّم ذلك أيضًا.

يُصرِّح يسوعُ بوضوحٍ أنَّه ابنُ الله في متَّى ١١: ٢٧ (انظر أيضًا لوقا ١٠: ٢٢): "كلُّ شيء قد دُفع إليَّ من أبي، وليس أحد يعرفُ الابنَ إلَّا الآبُ، ولا أحد يعرف الآبَ إلا الابنُ ومن أراد الابن أن يعلن له". ومرَّة أخرى هناك مسوِّغٌ جيِّد كي نحسبَ ذلك قَولًا أصيلًا ليسوع، فهو قَوْل ليسوع من مصدرٍ يشتركُ فيه متَّى ولوقا وبذلك فهو قوْلٌ باكرٌ، وقد ظهر أيضًا أنَّ هذا القوْل يرجع إلى نسخة أراميَّة أصليَّة تدعمُ أصالته، والأكثر من ذلك أنَّ من المُستبعَد أن يكون المسيحيُّون الأوائل قد ابتَكَروا هذا إذ يقول إنَّه لا سبيلَ لمعرفة الابن- "وليس أحد يعرفُ الابنَ إلَّا الآبُ"- الأمر الذي يستبعد حتَّى أتباع يسوع من معرفته، لكنَّ قناعة كنيسة ما بعد القيامة هي أنَّ في وُسعِنا معرفة الابن (فيلبِّي ٣: ٨-١١)، وبذلك يُستبعد أن يكون هذا القوْل نتاج لاهوتٍ لاحق للكنيسة.

إذًا ماذا يخبرنا هذا القوْل بشأن فكرة يسوع عن نفسه؟ يخبرنا بأنَّه كان يعتقد أنَّه الابنُ الحصريُّ لله والإعلان **الوحيد** عن الله الآب للبشر! فكِّر في الأمر! كان يسوع يعتقد أنَّه ابن الله بمعنًى مُطلقٍ ومتفرِّدٍ، وأنَّ له السلطان الحصريَّ ليعلن للناس أنَّ الله الآب هو أبوه.

وأخيرًا، قولٌ عظيم آخر يكشف عن فهم يسوع لكوْنه ابن الله هو تصريحُه في ما يُخصُّ تاريخ مجيئه الثاني: "وأمَّا ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد، ولا الملائكة الذين في السماء، ولا الابن، إلا الآب" (مرقس ١٣: ٣٢)، ويبدو مُستبعَدًا أن يكون هذا القول نتاجًا لاحقًا للاهوت مسيحيٍّ؛ إذ ينسبُ جهلًا للابن، ويقضي معيارُ الإحراج هنا بأصالة الإشارة إلى جهل الابن. ويظهرُ مدى الإحراج الذي يتضمَّنه هذا القول في حقيقة أنَّ البشيرَ لوقا يسقِطُها، لكنَّ البشيرَ متَّى يعرضُها (متَّى ٢٤: ٣٦)، كما اختارَ أيضًا مُعظم نُسَّاخ إنجيل متَّى تَرْكَ الآية في النصِّ (وهي محفوظة في أفضل المخطوطات)، وحِفْظُ مرقس لهذا القول رغم تركيزه على قوَّة يسوع التنبُّؤيَّة ومعرفته المسبَّقة إنَّما هو شهادةٌ على أمانته في تسليم التقاليد المتعلِّقة بيسوع. وهنا نرى ثانيةً وَعْيَ يسوع بكَونه ابن الله الفريد.

ماذا قصد يسوع؟

على أساس هذه الأقوال الثلاثة ليسوع، لدينا برهان جيِّد أنَّ يسوع كان يعتقد أنَّه ابن الله الفريد. غير أنَّ علينا من جديدٍ ألَّا نتسرَّع؛ فمع أنَّ قرَّاء الأناجيل من الأمم ميَّالون على الأغلب إلى تفسير تعبير "ابن الله" من ناحية المركز الإلهيِّ، فإنَّ ذلك لم يكُن المعنى المتداوَلَ لهذا اللقب في السياق اليهوديِّ؛ فقد كان يُشار إلى الملوك اليهود على أنَّهم أبناء الله. وفي الأدبيَّات اليهوديَّة كان يمكن أن يوصَفَ رجلٌ بارٌّ بأنَّه ابن الله.

لكنْ إن وضَعْنا في الحسبان **تفرُّدَ** تصريحِ يسوع **وحصريَّته**، فإنَّ هذا الاستخدام العام يُعدُّ بلا صِلة؛ فقد رأينا أنَّ يسوع كان يعتقد أنَّه ابن الله بمعنى

كتابات يهوديَّة منحولة

هناك عددٌ من الكتابات اليهوديَّة التي ترجع إلى وقت قصير قبل زمن المسيح، أو نحو زمن المسيح، وكُتبتْ تحت أسماء أنبياء وملوك مشهورين. وهذه الأعمال غير مُتضمَّنة في العهد القديم، لكنَّها قيِّمة للمؤرِّخ، نتيجة ما تقدِّمه من لمحة عن طريقة التفكير والحياة الدينيَّة اليهوديَّة في زمن المسيح. ومن الكتابات المنحولة نذكرُ:

شهادات الآباء الاثني عشر: القرن الثاني قبل الميلاد

١أخنوخ: القرن الثاني قبل الميلاد

مزامير سليمان: القرن الأول قبل الميلاد

٤عزرا: القرن الأوَّل للميلاد

٢باروخ: القرن الثاني للميلاد

متفرِّدٍ ميَّزه حتَّى عن الأنبياء من قبله، فماذا كان هذا المعنى؟ نقول إنَّ الإجابة هي أنَّ يسوع كان ربَّما يعتقد أنَّه ابن الله الفريد بمعنى أنَّه هو المسيَّا الموعود. ويتحدَّث سفر عزرا غير المضمَّن في الكتاب المقدَّس (٤عزرا ٧: ٢٨-٢٩) بشأن المسيَّا بوصفه ابن الله، لكنَّه لا يقول إنَّه خالدٌ: "سيُعلن ابني المسيَّا... وسيبتهج أولئك الباقون أربع مئة سنة. وبعد هذه السنين سيموت ابني المَسيَّا، وكلُّ من لهم نسمة بشرٍ". وتُظهر مخطوطات البحر الميّت أيضًا أنَّ المسيَّا كان يُعتقَد أنَّه ابن الله. ويمكن أن يكونَ تفرُّد بنويَّة يسوع هو نتيجة لتفرُّد المسيَّا.

"بل إنِّي أحسِبُ كُلَّ شَيءٍ أيضًا خَسارَةً مِنْ أجلِ فضلِ مَعرِفَةِ المَسيحِ يَسوعَ ربِّي، الذي مِنْ أجلِه خَسِرتُ كُلَّ الأشياءِ، وأنا أحسِبُها نُفايَةً لكَيْ أربَحَ المَسيحَ، وأوجَدَ فيهِ، وليس لي برِّي الذي من النّاموسِ، بل الذي بإيمانِ المسيحِ، البِرُّ الذي من اللهِ بالإيمانِ. لأعرِفَهُ، وقوَّةَ قيامَتِه، وشَرِكَةَ آلامِه، مُتَشَبِّهًا بموتِه، لَعَلِّي أبلُغُ إلَى قيامَةِ الأمواتِ" (فيلبِّي ٣: ٨-١١).

على الجانب الآخر، ينبغي أن يُذكَر بكلِّ أمانة أنَّ هذه النصوص اليهوديَّة لا تقترب حتَّى من نوع الحصريَّة والحقيقة المطلقة التي يُصرِّح بها يسوع في الأقوال التي اختبرناها للتوِّ؛ فما من شيء في مخطوطات البحر الميِّت يقترح أنَّ المسيَّا هو ابن الله **الوحيد**، فقد يؤدِّي كوْن يسوع المسيَّا إلى تمييزه عن كلِّ الأنبياء من قبله، ويجعله وارثًا لعرش الأمَّة العبرانيَّة، كما صُرِّح في المثل الذي قاله عن الكرْم. لكنَّ كونه مجرَّد مسيَّا بشريًّا لن يعطيَه أن يعرفَ الآب حصريًّا، ولن يجعل منه الإعلان المطلق لله، بحسب التصريح الوارد في متَّى ١١: ٢٧. وفوق ذلك، يكشفُ القوْل في إنجيل مرقس ١٣: ٣٢ ليس فقط المعنى الذي لدى يسوع بالبنوَّة الفريدة، بل يقدِّمُ أيضًا مقياسًا تصاعديًّا من الإنسان إلى الملائكة إلى ابن الآب. فالمعنى الذي لدى يسوع عن كَونه ابن الله تضمَّن معنى من القُرب إلى الآب يسمو فوق قُرب أيِّ بشرٍ (مثلًا ملك أو نبيٍّ) أو حتَّى أيِّ كيان ملائكيٍّ.

تصوُّرٌ سامٍ كهذا بشأن ابن الله، ليس غريبًا على يهود القرن الأوَّل؛ فالعهد الجديد نفسه يشهدُ عن هذه الحقيقة (كولوسِّي ١: ١٣-٢٠؛ عبرانيِّين ١: ١-١٢)، وبالمثل في ٤عزرا ١٣، يرى عزرا رؤيا لرجلٍ يظهر خارجًا من البحر ويعرِّفه الله بوصفه "ابني" (١٣: ٣٢، ٣٧)، ويُصوَّر الابن في هذا السِّفر بوصفه شخصيَّة سماويَّة موجودة مسبَّقًا، ويُعلَن على الأرض في الوقت المناسب ويتقدَّم ليُخضِع كلَّ الشعوب.

إذًا لدينا الغموض نفسه مع لقب "ابن الله" الذي واجهناه في تناوُل لقب "مسيًّا"، فلهذَين اللقبَين معانٍ مختلفة كثيرة، لذا فهُما غامضان حين يُتناولان خارج السياق. فمن أجل فهْم المعنى الذي قدَّمه يسوعُ في أوصاف مثل هذين عن ذاته، فإنَّنا نحتاج إلى النظر إلى تعاليم يسوع وأفعاله، وقبل أن نفعل ذلك هناك لقب آخر يستدعي انتباهنا، وهو اللقب الأهمُّ.

ابن الإنسان

ماذا صرَّح يسوعُ؟

من المُرجَّح أنَّ يسوع صرَّح أنَّه ابن الإنسان، وكان هذا هو الوصف الذاتيُّ المفضَّل لدى يسوع، وهو اللقب الأكثر تكرارًا في الأناجيل (أكثر من ثمانين مرَّة)، ومع ذلك فمن اللافت للنظر أنَّ هذا اللقب جاء مرَّة واحدة فقط خارج الأناجيل في باقي العهد الجديد (أعمال ٧: ٥٦)، وما يُظهرُه ذلك هو أنَّ تسمية يسوع "ابن الإنسان" لم تكُن لقبًا ظهر في المسيحيَّة لاحقًا وكُتب بأثر رجعيٍّ في التقاليد عن يسوع. وعلى أساس معيارَيِ التبايُن والمصادر المستقلَّة، يمكننا أن نقول بثقة إنَّ يسوع دعا نفسه "ابن الإنسان".

ماذا قصدَ يسوع؟

يصبح إذًا السؤالُ الأساسيُّ هو معنى الجملة. يقول بعض النقَّاد إنَّ يسوع في تسميته لنفسه "ابن الإنسان" كان يقصد فقط "شخصًا بشريًّا" تمامًا مثلما أشار نبيُّ العهد القديم حزقيال إلى نفسه بأنَّه "ابن إنسان"، إلَّا أنَّ هناك فارقًا مصيريًّا مع يسوع؛ إذ لم يشِر يسوعُ إلى نفسه بأنَّه "ابن إنسان" بل "**ابن الإنسان**"، واستخدام يسوع لهذه الجملة مع "ال" التعريف هو استخدامٌ منسجمٌ في كلِّ الأناجيل.

باستخدام يسوع "ال" التعريف، فهو يوجِّه الانتباه إلى الشخصيَّة البشريَّة-الإلهيَّة التي وردت في دانيال ٧: ١٣-١٤، ويصف دانيال رؤياه بالطريقة التالية:

"كُنتُ أرَى في رؤَى اللَّيلِ وإذا مع سُحُبِ السماءِ مِثلُ ابنِ إنسانٍ أتَى وجاءَ إلَى القَديمِ الأيّامِ، فقَرَّبوهُ قُدَّامَه. فأُعطيَ سُلطانًا ومَجدًا وملكوتًا لتَتَعَبَّدَ لهُ كُلُّ الشُّعوبِ والأُمَمِ والألسِنة. سُلطانُهُ سُلطانٌ أبديٌّ ما لن يَزولَ، وملكوتُهُ ما لا يَنقَرِضُ".

يرِد في مصادر مستقلّة أنَّ يسوع كان يؤمن بظهور الشخصيَّة الموصوفة في رؤيا دانيال (مرقس ٨: ٣٨، ١٣: ٢٦-٢٧؛ متَّى ١٠: ٣٢-٣٣ مقابل لوقا ١٢: ٨-٩، متَّى ٢٤: ٢٧، ٣٧، ٣٩ مقابل لوقا ١٧: ٢٤، ٢٦، ٣٠). في رؤيا دانيال يظهر الشخصُ كأنَّه كائنٌ بشريٌّ (ابنُ إنسانٍ)، لكنَّه يأتي على سحب السماء، ويُعطى له سلطانٌ ومجدٌ يليقان بالله وحده.

تتحدَّث كتاباتٌ يهوديَّة أخرى من خارج الكتاب المقدَّس على نحوٍ مشابهٍ بشأن ابن الإنسان، ويصف سِفر أخنوخ ابنَ الإنسان الموجود من قَبلُ (١أخنوخ ٤٨: ٣-٦، و٦٢: ٧) الذي "سيخلع الملوك من عروشهم وممالكهم" (١أخنوخ ٤٦: ٥) وسيجلس "على عرش مجده" (١أخنوخ ٦٩: ٢٩). لقد ذكرتُ أيضًا الرؤيا الشبيهة في ٤عزرا ١٣ التي يرى فيها عزرا "شيئًا مثل هيئة إنسانٍ خارجٍ من قلب البحر" والذي يصفه العليُّ بوصفه "ابني" (٤عزرا ١٣: ٣٧) وهو موجودٌ مسبَّقًا مع العليِّ.

ليس القصد من وراء ذِكْرِ هذه الفِقرات أنَّ الناس في ذلك الوقت الذين كانوا يستمعون إلى يسوع كانوا ليميِّزوا تلميحاته لأعمال وأفكار مثل هذه- فمن الواضح أنَّهم لم يميِّزوا ذلك- بل المقصود أنَّ فَهْم ابن الإنسان كما في دانيال بوصفه شخصيَّة إلهيَّة-بشريَّة يتناسب مع الأفكار اليهوديَّة للقرن الأوَّل، لذا يمكن أن تكون في ذِهنِ يسوع. وباستخدام يسوعَ للتعبير غير المباشر "ابن الإنسان" للإشارة إلى نفسه، كان يمنع إعلانًا سابقًا لأوانه عن وضعه المسيانيِّ الفائق للبشر.

يعترف بعض العلماء أنَّ يسوع كان يؤمن بشخصٍ يأتي في نهاية الأيَّام يُدعى ابن الإنسان، لكنَّهم يقولون إنَّ يسوع كان يتكلَّم عن شخص آخر!

وهذا التفسير هو وهمٌ كامل؛ إذ يتطلَّب منَّا هذا التفسير قوْل إنَّ كل الأقوال المتَّصلة بابن الإنسان التي استخدمَها يسوع للإشارة إمَّا إلى نفسه وإمَّا إلى شخصيَّة أرضيَّة تتألَّم هي أقوال زائفة. وإذا كانت واحدة فقط من هذه الأقوال أصليَّة، يكون هذا التفسير باطلًا. فمثلًا، متَّى ٨: ٢٠: "للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار، وأمَّا ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه" يُعدُّ عمومًا قَولًا أصليًّا، لكنَّ الواضح أنَّه لا يشير إلى شخصٍ كونيٍّ ما يأتي في نهاية الزمان.

الأكثر من ذلك أنَّ هذا التفسير غير قادر على استيعاب تصريح يسوع بسلطانه المُطلق؛ فهناك نوعٌ ما من إجماع العلماء، كما سنرى، أنَّه كان ليسوع توجُّه من السلطان الذي لا يفوقه سلطانًا، فقد وضع نفسه في مكان الله بكلماته وأفعاله، لكن ليس منطقيًّا افتراضُ أنَّه كان يعتقد أنَّ شخصًا آخر كان سيأتي ليَدينَ العالم- شخصًا سيكون في الحقيقة مزمعًا أن يَدينَ يسوعَ نفسَه. لا يتوافق إدراكُ يسوع للسلطان الذي لا يفوقه سلطان مع وجهة النظر بأنَّه كان يعتقد أنَّ شخصًا آخر كان هو ابن الإنسان الآتي.

هذه الألقاب الثلاثة التي اختبرناها حتَّى الآن تأتي معًا بطريقة جديرة بالملاحظة في محاكمة يسوع، إذ يسجِّل البشير مرقس:

> "فقام رئيس الكهنة في الوسط وسأل يسوع قائلًا: «أما تجيب بشيء؟ ماذا يشهد به هؤلاء عليك؟» أمَّا هو فكان ساكتًا ولم يجب بشيء. فسأله رئيس الكهنة أيضًا وقال له: «أأنت المسيح ابن المبارَك؟» فقال يسوع: «أنا هو . وسوف تبصرون ابن الإنسان جالسًا عن يمين القوَّة، وآتيًا في سحاب السماء» فمزَّق رئيس الكهنة ثيابه وقال: «ما حاجتنا بعد إلى شهود؟ قد سمعتم التجاديف! ما رأيكم؟ فالجميع حكموا عليه أنَّه مستَوجِب الموت" (مرقس ١٤: ٦٠-٦٤).

هنا في مرّة واحدة يؤكّد يسوع أنّه المسيّا وابن الله وابن الإنسان الآتي، ويضاعف من جريمته بإضافة أنّه سيُجلَس عن يمين الله، وهو تصريحٌ مجدِّف حقًّا على مسامع اليهود، ويوضّح مشهدُ المحاكمة بصورة جميلة كيف أنّ في فهْم يسوع لذاته تندمج كلُّ التصريحات المتنوّعة معًا، آخذةً بذلك دلالاتٍ تتجاوز أيَّ لقب مُفرد يؤخَذ خارج السياق.

تصريحات ضمنيّة

لقد تراجع إذًا تشكُّكُ العلماء الأوائل بخصوص تصريحات يسوع الواضحة تراجعًا جليًّا بينما حصلنا على بعض الأفكارِ الثاقبة من جهة اليهوديّة الفلسطينيّة في القرن الأوّل. وفوق ذلك، يمكننا الحصول على أفكارٍ ثاقبةٍ إضافيّة من نحو فهم يسوع لذاته باختبار تعليمه وسلوكه.

يؤمن معظم العلماء بأنّ يسوعَ فيما علّم به وبالطريقة التي كان يتصرّف بها كان يصرّح تصريحات تشير ضمنًا إلى الأمر نفسه كما في الألقاب "المسيّا" و"ابن الله" و"ابن الإنسان". وبكلمات أخرى تؤدّي الألقاب فقط دَورًا في التعبير صراحةً عمّا كان يسوع بالفعل قد عبّر عنه في تعليمه وسلوكه عن نفسه بصورة ضمنيّة. لذا فلنراجعْ بعضًا من التصريحات الشخصيّة الضمنيّة ليسوع، المقبولة بصورة واسعة بين علماء العهد الجديد، بعيدًا تمامًا عن السؤال الخاصّ بالألقاب.

وَعْظ يسوع عن الملكوت

إحدى الحقائق المسلَّم بها بشأن يسوع هي أنّ محور وعظه كان مجيء ملكوت الله، وكما سنرى كان يسوع يقود خدمة من الشفاءات المعجزيّة وإخراج الشياطين لتكونَ علامات للناس عن حلول ملكوت الله.

يظهر إذًا سؤال بشأن دور يسوع في ذلك الملكوت، فهل كان مجرَّد منادٍ بذلك الملكوت أم كان له دورٌ أهمُّ من ذلك؟ نواجه هنا القَوْل المهمَّ ليَسوع في

ما يخصُّ دور تلاميذه الاثني عشر في الملكوت الآتي: "الحقَّ أقولُ لكم: إنَّكم أنتم الذين تبعتموني، في التجديد...تجلسون أنتم أيضًا على اثني عشر كرسيًّا تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر" (متَّى ١٩: ٢٨؛ لوقا ٢٢: ٢٨-٣٠). من المرجَّح أن يكونَ هذا القَوْل أصليًّا، ليس فقط لأنَّ البادي أنَّه يتصوَّر ملكوتًا أرضيًّا لم يتمَّ فَورًا، بل أيضًا لسبب صعوبة تصوُّر كرسيٍّ ليهوذا الإسخريوطيِّ الذي كان معروفًا أنَّه قد سقط. وليست مصادفة أن يدعو يسوعُ **اثني عشر** تلميذًا؛ إذ يتطابق هذا مع أسباط بني إسرائيل الاثني عشر.

والآن إذا كان الاثنا عشر تلميذًا سيجلسون على كراسيَّ يَدينون أسباط بني إسرائيل الاثني عشر، فمَن سيكون الملك على كلِّ الأمَّةِ؟ الإجابة الواضحة هي يسوع نفسه؛ فبالتأكيد لن يكونَ أقلَّ من واحد من التلاميذ أو خارج بني إسرائيل، لكنَّه سيكون فوق التلاميذ ملكًا على بني إسرائيل. فباختصار كان يسوع يعتقد عن نفسه أنَّه المسيَّا الملك على بني إسرائيل، ومن ثمَّ ففهْمُ يسوعَ المسيانيُّ عن نفسه هو أمرٌ ضمنيٌّ في تصريحه بحلول ملكوت الله في شخصه وخدمته، وذلك بالبُعد تمامًا عن تصريحاته الواضحة.

سلطان يسوع

توجُّه يسوع الشخصيُّ من تصرُّف وتحدُّث بسلطان إلهيٍّ واضحٌ بطرق كثيرة.

تعليمه

أوَّلًا، يتَّضحُ سلطانُه في **محتوى** تعليمه وفي أسلوبه. وتظهر هاتان الناحيتان بصورة خاصَّة في الموعظة على الجبل، وقد كان الأسلوب النمطيُّ للمعلِّم اليهوديِّ لتقديم التعليم هو في الاستشهاد بمعلِّمين مثقَّفين آخرين استشهادًا على نطاق واسع، بحيث يقدِّم هؤلاء أساسًا لسلطان تعليمه هو، أمَّا يسوع فقد كان يفعل العكس تمامًا، حيث كان يبدأ قائلًا: "قد سمعتُم أنَّه قيل للقدماء..." مستشهدًا بناموس موسى، ثمَّ يسترسل قائلًا: "وأمَّا أنا فأقول لكم..." معطيًا

"وقيل: «مَن طلَّق امرأته فليعطها كتاب طلاق». وأمَّا أنا فأقول لكم: إنَّ مَن طلَّق امرأته إلَّا لعلَّة الزنى يجعلها تزني، ومن يتزوَّج مطلَّقة فإنَّه يزني»" (متَّى ٥: ٣١-٣٢).

تعليمه هو، وبذلك كان يسوع يساوي سلطانه بالسلطان الذي للناموس المُعطى إلهيًّا، ولذلك ليس غريبًا أن يعلّق متّى قائلًا: "فلمَّا أكمل يسوع هذه الأقوال بُهتت الجموع من تعليمه، لأنَّه كان يعلّمهم كمَن له سلطان وليس كالكتبة" (متّى ٧: ٢٨-٢٩).

ليس فقط أنَّ يسوعَ وضعَ سلطانَه الشخصيَّ على قدم المساواة مع سلطان الناموس الإلهيِّ، بل الأكثر من ذلك أنَّه **عدَّل** من الناموس بسلطانه هو. ورغم أنَّ العلماء اليهود المتجدِّدين قد حاولوا تقريب تعاليم يسوع من تقليد اليهوديَّة، فإنَّ وضعَ يسوع لسلطانه الشخصيِّ فوق الناموس الإلهيِّ المُعطى من موسى هو الصخرة التي تتحطَّم عليها في النهاية كلُّ هذه المحاولات. لاحِظْ، مثلًا، تعليم يسوع عن الطلاق في متّى ٥: ٣١-٣٢ (وقارن بما جاء في مرقس ١٠: ٢-١٢)، إذ يستشهد يسوعُ هنا صراحةً بتعليم الناموس (تثنية ٢٤: ١-٤) ويقدِّم، على أساس سلطانه هو، تعليمَه هو عن هذا الأمر مقابل ما هو في تعليم الناموس. وفي إنجيل مرقس يصرِّح يسوع أنَّ موسى لا يمثِّل الإرادة الكاملة لله بشأن هذا الأمر ويصحِّح الناموس في جرأة على أساس سلطانه هو عمَّا هي إرادة الله حقًّا، لكن ليس لإنسان أو نبيٍّ أو معلِّمٍ أو كاريزماتيٍّ هذا النوع من السلطان.

استخدامه لتعبير "الحقَّ أقول لكم"

ثانيًا، يعبِّر استخدام يسوع لكلمات "الحقَّ أقول لكم" عن سلطانه، فهذا التعبير متفرِّد تاريخيًّا ويحسب الجميع أنَّه الطريقة التي كان يحدِّد يسوعُ بها كلمته الرسميَّة عن أمرٍ ما. ويعترض الكاتب اليهوديُّ آحاد هعام (Ahad Ha'am) قائلًا: "لا يمكن أن تقبلَ الأمَّة العبرانيَّة بأيَّةِ حماسةٍ دينيَّة على أنَّها كلمة الله. كلمات إنسانٍ يتحدَّث باسمه هو- ولا يقول: «هكذا يقول الربُّ»، بل «أقولُ لكم أنا». فهذه «الأنا» كافية وحدَها لإقصاء اليهوديَّة بعيدًا عن الأمم إلى الأبد".[٧]

طرده للأرواح الشرِّيرة

ثالثًا، يتَّضحُ سلطان يسوع جليًّا في دوره في إخراج للشياطين. فرُغم مدى الحرج الذي قد يمثِّله هذا للكثير من اللاهوتيِّين المحدثين، فمن الأكيد تاريخيًّا أنَّ يسوع كان يؤمن بأنَّ لديه القدرة على إخراج الشياطين، وكانت هذه علامةً للناس عن سلطانه الإلهيِّ، وقد صرَّح قائلًا: "ولكن إنْ كنتُ بإصبعِ الله أُخرج الشياطين، فقد أقبَلَ عليكم ملكوت الله" (لوقا ١١: ٢٠)، وهذا القول المُعترف به من جهة علماء العهد الجديد بوصفه قولًا أصليًّا لهو قول لافت للنظر لسببَين: أوَّلًا، يُظهر هذا القول تصريحَ يسوع بالسلطان الإلهيِّ على قوى الشرِّ الروحيَّة، وثانيًا يُظهر إيمان يسوع بأنَّ فيه قد جاء ملكوتُ الله، إذ يقول: "قدرتي على الحُكم على قوى الظلام الروحيَّة تُظهر أنَّ فيَّ أنا يكون ملكوتُ الله موجودًا بالفعل فيما بينكم". وفي تصريحه أنَّ فيه جاء ملكوتُ الله بالفعل، كما هو ظاهرٌ بوضوحٍ في إخراجه للشياطين، يضع يسوعُ نفسَه في مكانِ الله.

ناقش

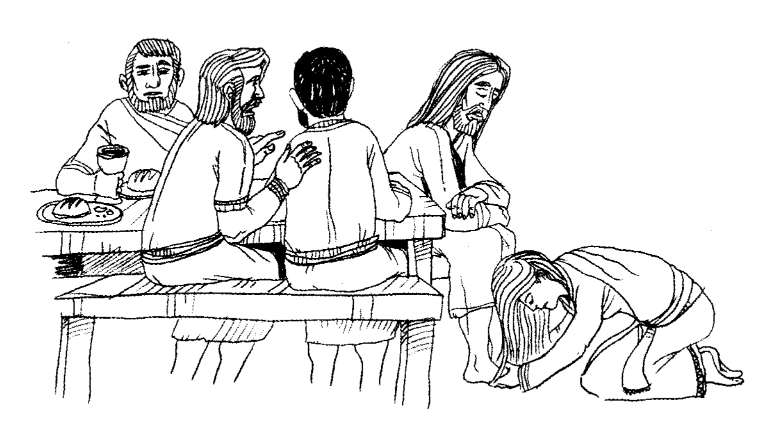
إذا سمعتَ معلِّمًا يقول: "لقد قرأتم في الكتاب المقدَّس [هذا الأمر]، أمَّا أنا فأقول لكم [هذا الأمر]"، فكيف سيكون ردُّك؟ ماذا يمكن أن يفعلَ هذا المعلِّم، إنْ كان هناك أمرٌ ما يمكنه فعله، ليقنعك أنَّ له السلطان لتعديل ما يعلِّم به الكتابُ المقدَّس؟

تصريحه بغفران الخطايا

أخيرًا، يأتي إحساس يسوع بالسلطان الإلهيِّ بوضوح في تصريحه بغفران الخطايا، فالكثير من أمثال يسوع، والتي يعترف الجميعُ أنَّها قيلت على لسانِ يسوعَ التاريخيِّ، تُظهر أنَّه تولَّى صلاحيَّة غفران الخطايا. ففي أمثال يسوعَ، كالابن الضالِّ والخروف الضالِّ، يصفُ الأشخاصَ الذين هاموا بعيدًا عن الله وضلُّوا في الخطيَّة. وفي الفكر اليهوديِّ شخص كهذا كان ضالًّا إلى غير رجعةٍ على نحوٍ ميؤوس منه حتَّى إنَّه حُسبَ مَيتًا، لكنَّ يسوعَ وسَّع الغفران ليصلَ إلى أشخاص مثل أولئك، ورحَّب بعودتهم إلى القطيع. والمشكلة هي أنَّه ليس لأحد سوى اللهِ السلطانُ ليصرِّح بمثل هذا الإعلان، فما من نبيٍّ كان يمكنه افتراض أنَّه يتحدَّث بالنيابة عن الله في هذا الأمر، أمَّا يسوع فكان "يتحدَّث بإدراكٍ بوصفه صوتَ الله في أمورٍ تخصُّ الله فقط".[٨]

ما كان يعلِّمه يسوعُ في أمثاله كان يعيشه في الحياة الحقيقيَّة. وواحدُ من أكثر الملامح راديكاليَّة ليسوع التاريخيِّ كان ممارسته في دعوة الزناة والعشَّارين (جامعي الضرائب) والمنبوذين الآخرين إلى شركة معه حول مائدة العشاء، وكان هذا توضيحًا حيًّا لغفران الله لهم ولدعوته إيَّاهم للشركة في ملكوت الله. ففي شركة المائدة مع الفاسقين والنَّجِسين كان يسوعُ يتصرَّف في مكان الله ليرحِّب بهم في ملكوت الله، لذا فليس غريبًا أنَّ السلطات الدينيَّة كانت ترى في هذا النشاط المتجرِّئ تجديفًا! (قارن ردَّ الفعل على تصريح يسوع في مرقس ٢: ١-١٢ أنَّ له سلطانًا بوصفه ابن الإنسان أن يغفر الخطايا).

ومن ثمَّ يعترفُ معظمُ نقَّاد العهد الجديد أنَّ يسوع التاريخيَّ كان يتصرَّف ويتحدَّث بإدراك ذاتيٍّ بشأن سلطانٍ إلهيٍّ، والأكثر من ذلك أنَّه كان يرى في شخصه مجيء ملكوت الله الذي طال انتظارُه، وكان يدعو الناس إلى الشركة فيه.



"يتصرَّفُ هذا الرجلُ كما لو كان يظنُّ نفسَه إلهًا".

معجزات يسوع

كان يسوع يُخرجُ الشياطين، كما كان أيضًا يصنعُ المعجزات. تذكَّر ردَّه على تلميذي يوحنَّا المعمدان: "اذهبا وأخبرا يوحنَّا بما تسمعان وتنظران: العمي

يبصرون، والعرج يمشون، والبرص يُطهَّرون، والصمُّ يسمعون، والموتى يقومون، والمساكين يُبشَّرون. وطوبى لمن لا يعثر فيَّ" (متَّى ١١: ٤-٦). من الواضح أنَّ يسوع كان مؤمنًا بأنَّ لديه القدرة على شفاء الناس، بل إقامة الموتى.

وفوق ذلك، نجد أنَّ قصصَ المعجزات مُقدَّمة على نطاق واسع في كلِّ مصادر الإنجيل ممَّا يشير إلى أنَّه من غير المحتمل ألَّا تكون متأصِّلة في حياة يسوع. فإجماع عِلْم العهد الجديد اليوم هو أنَّ يسوع صنع بالفعل "معجزات"- أيًّا كانت الطريقة التي تريد بها شرح هذه المعجزات. ويخلُصُ العالمُ البارز جون ماير (John Meier) في نهاية دراسته الطويلة والتفصيليَّة لمعجزات يسوع، أنَّه كان ليسوع صيتٌ أنَّه قادرٌ أن يشفي بصورة معجزيَّة: "له تأييدٌ تاريخيٌّ تقريبًا مثل أيِّ تصريحٍ آخر يمكننا تقديمه بشأن يسوع التاريخ".[٩]

لمعجزات يسوع مدلولٌ أعمق؛ إذ كانت تُعدُّ، مثل إخراجه للشياطين، علامات على حلول ملكوت الله، وبذلك كانت معجزات يسوع مختلفة جوهريًّا عن العجائب التي كان يصنعها السحرة الوثنيُّون أو أتقياء اليهود. كما كانت تختلف عن تلك التي كان يصنعها أتقياء اليهود في حقيقة أنَّ يسوع لم يُصلِّ قَطُّ لتَحدُث المعجزة، فقد يعبِّر أوَّلًا عن شكره لله الآب، لكنَّه بعد ذلك يصنع المعجزة بنفسه، ويفعل ذلك باسمه هو لا بِاسْم الله. الأكثر من ذلك، لم يقُم أيٌّ من صانعي المعجزات اليهود الآخرين بخدمة نبويَّة، ولا صرَّحوا بتصريحاتٍ مسيانيَّة ولم يجلبوا أيَّ تعليم جديد بالاقتران مع معجزاتهم، ومن ثمَّ لا يمكن أن يُختزَلَ فَهْمُ يسوعَ عن ذاته ببساطة إلى فكرة إنسانٍ يهوديٍّ تقيٍّ كاريزماتيٍّ آخر.

دور يسوع بوصفه قاضيًا

نادى يسوع بأنَّ توجُّهات الناس من نحوه ستمثِّل العامل المحدِّد للكيفيَّة التي سيَدينهم الله بها في يوم الدينونة، فقد نادى قائلًا: "وأقول لكم: كلُّ من اعترف بي قدَّام الناس، يعترف به ابنُ الإنسان قدَّام ملائكة الله. ومَن أنكرني قدَّام الناس، يُنكَر قدَّام ملائكة الله" (لوقا ١٢: ٨-٩). وما من شكٍّ لديَّ أنَّ

يسوع يشير هنا إلى نفسه بوصفه ابنَ الإنسان، لا إلى شخصٍ آخر، ولكنْ حتَّى إنْ كانت الإشارة إلى شخصٍ آخر، فالفكرة هنا هي أنَّه بغضِّ النظر عمَّن يكون ابن الإنسان، فيسوع يصرِّح أنَّ الناس سيُدانون أمامه على أساس استجابتهم ليسوع. فكِّر في الأمر: مصير الناس الأبديُّ مُحدَّدٌ بالكيفيَّة التي يستجيبون بها ليسوع! ما من شكٍّ في الأمر: إنْ لم يكُنْ يسوع هو الله، لَحُسِبَ تصريحه هذا بأنَّه أضيق تعصُّبٍ وأكثره بُغضة؛ إذ يقول يسوعُ إنَّ خلاص الناس يعتمد على اعترافهم بيسوع نفسه.

خاتمة

يمكن أن تطولَ المناقشة بشأن تصريحات يسوع الشخصيَّة دون توقُّف، لكنِّي أعتقد أنَّه قيل ما يكفي للإشارة إلى الفكرة الراديكاليَّة ليسوع عن ذاته؛ فهو رجلٌ يَعتقد أنَّه المسيَّا الموعود وابن الله الوحيد وابن الإنسان المُشار إليه في دانيال، والذي ستُعطى له كلُّ سيادة وسلطان، والذي صرَّح بأنَّه يتصرَّف ويتحدَّث بسلطان إلهيٍّ، والذي حسبَ نفسه صانع معجزات، وآمن بأنَّ مصير الناس الأبديَّ يتعلَّق بما إذا كانوا يؤمنون به أم لا. وهناك اليوم عمليًّا إجماعٌ أنَّ يسوع أتى إلى المشهد بسلطان لم يُسمَع به من قبل، تحديدًا بسلطان الله، بتصريحٍ لسلطان يقف في مكان الله. إنَّ تصريحات يسوع الشخصيَّة وأنشطته الراديكاليَّة، والتي تبلغ ذروتها في محاكمته وصلبه- تكوِّنُ كلُّها السياق التاريخيَّ المناسب لتقييم البرهان على قيامة يسوع. ويُجمع المؤرِّخون على أنَّ يسوع الناصريَّ، والذي أَدانته السلطات اليهوديَّة لعلَّةِ التجديف، وسُلِّم إلى السلطات الرومانيَّة بذريعة الخيانة، لقيَ مَوتَه بالصلْب، لكن ماذا حدث بعد ذلك؟

قضيَّة الفهم الراديكاليِّ ليسوع لذاته

١. **كان ليسوع فهمٌ لذاته أنَّه بشريٌّ-إلهيٌّ.**

أ. عبادة يسوع من قِبل يهودٍ موحِّدين بوصفه الله المتجسِّد في إطار عشرين عامًا من موته، تتطلَّب إيجاد سببٍ كافٍ في تصريحات يسوع نفسه.

ب. تصريحات واضحة

١. المسيح المنتظَر (المسيَّا).

أ. يتطلَّب الإيمان في الكنيسة الأولى بأنَّ يسوع هو المسيَّا سببًا كافيًا.

ب. اعتراف بطرس (مرقس ٨: ٢٧-٣٠).

ج. إجابة يسوع على يوحنَّا المعمدان (متَّى ١١: ٢-٦؛ لوقا ٧: ١٩-٢٣).

د. دخول يسوع الانتصاريُّ (مرقس ١١: ١-١١؛ يوحنَّا ١٢: ١٢-١٩).

ه. تصرُّف يسوع في الهيكل (مرقس ١١: ١٥-١٧).

و. إدانة يسوع من السنهدريم (مرقس ١٤: ٦١-٦٥).

ز. صلب يسوع على أنَّه "ملك اليهود" (مرقس ١٥: ٢٦).

٢. ابن الله

أ. مثل الكرم (مرقس ١٢: ١-٩).

ب. "ولا أحد يعرف الآب إلّا الابن" (متّى ١١: ٢٧).

ج. "فلا يعلم بهما أحدٌ...ولا الابن" (مرقس ١٣: ٣٢).

د. الاعتراف في أثناء محاكمة يسوع (مرقس ١٤: ٦٠-٦٤).

٣. ابن الإنسان.

أ. اللقب المفضَّل ليسوع.

ب. الإشارة إلى الشخص البشريّ-الإلهيّ الوارد في دانيال ٧: ١٣-١٤.

ج. الاعتراف في أثناء محاكمة يسوع (مرقس ١٤: ٦٠-٦٤).

ج. تصريحاتٌ ضمنيَّة

١. وعْظ يسوع عن ملكوت الله (متّى ١٩: ٢٨).

٢. سلطان يسوع.

أ. محتوى تعليم يسوع وأسلوبه (متّى ٥: ٣١-٣٢).

ب. "الحقَّ أقول لكم" (مرقس ٨: ١٢، ٩: ١).

ج. دور يسوع في إخراج الشياطين (لوقا ١١: ٢٠).

د. تصريح يسوع عن غفران الخطايا (مرقس ٢: ١-١٢).

٣. معجزات يسوع (متّى ١١: ٤-٥).

٤. دور يسوع بوصفه قاضيًا (لوقا ١٢: ٨-٩).

الفصل التاسع

هل قام يسوع من الأموات؟

"لماذا تطلبن الحيَّ بين الأموات؟" (لوقا ٢٤: ٥).

ضمن دراستي للدكتوراه في ميونيخ الألمانيَّة، حضرتُ العديد من المحاضرات والندوات التي قدَّمها الأستاذ الدكتور پانينبيرغ. وفي صباح أحد الأيَّام فاجأنا بإعلانه عن محاضر ضيف، وهو عالمٌ يهوديٌّ كنديٌّ يُدعى فينحاس لاپيد (Pinchas Lapide) وكان وقتها يعلِّم في تلِّ أبيب. وحين أعلن پانينبيرغ أنَّ موضوع الأستاذ لاپيد في هذا الصباح هو قيامة يسوع، انتابني شعورٌ من الاستسلام لما اعتقدتُ أنَّه سيحدث؛ إذ فهمتُ أنَّنا بصدد استقبال الهراء القديم نفسه الذي يُكرِّره دون كللٍ اللاهوتيُّون المتحرِّرون* في ألمانيا: قصَّة القبر الفارغ هي أسطورة لاحقة، ولم يؤمن بولس بأنَّ المسيح قام من بين الأموات بصورة مادِّيَّة حقيقيَّة، وقصص ظهور القيامة في الأناجيل هي نتاج دفاعيَّات ما ضدَّ الدوسيتيَّة† ...إلخ. ولكنْ بينما كان لاپيد يحاضر، فقد أدهشني أنَّه لم يكن يتبع حثيثًا الخطَّ الرسميَّ، لكنَّه كان يدافع تاريخيًّا عن تصريحات يسوع المسيانيَّة (أنَّه المسيح المنتظر)، ومعقوليَّة رواية القبر الفارغ، وما إلى ذلك. ثمَّ

---

* يقصد باللاهوت المتحرِّر هنا ما هو معروف ودارجٌ في اللاهوت الليبراليّ. وهو تيَّار في أوساط المفكِّرين اللاهوتيِّين يتميَّز المنتَمون إليه برفضهم للفكر الكنسيِّ التاريخيِّ (لأسباب متعدِّدة)، وإعادة صياغة المعتقدات المسيحيَّة بطريقة يرَون أنَّها تواكب بصورة أفضل عصرهم وفلسفتهم، فتصبح المسيحيَّة هي التي تتشكَّل بحسب الزمان والفلسفات العصريَّة وليس العكس (الناشر).

† هرطقة مسيحيَّة قديمة (الناشر).

أعلن في نهاية محاضرته أنَّ استنتاجه هو أنَّ أفضل تفسير للبرهان هو أنَّ اللهَ إلهَ الأمَّةِ العبرانيَّةِ أقامَ يسوعَ من الأموات، وحينها كنتُ على وَشَك السقوط من الكرسيِّ! لا يوجد شيءٌ يوضِّح المعقوليَّة التاريخيَّة لقيامة يسوع مثل حقيقة أنَّ هذا العالم اليهوديَّ كان مقتنعًا استِنادًا إلى البرهان أنَّ الله، إله العبرانيِّين الذي يعبده، أقام يسوع الناصريَّ من الأموات.

في هذا الفصل أريد تلخيص العناصر المصيريَّة في حُجَّة تاريخيَّة لقيامة يسوع، حتَّى يمكنك مشاركتها مع أيِّ شخصٍ يسألك عن سبب إيمانك بالله، إله الكتاب المقدَّس. وستتضمَّن الحُجَّةُ التاريخيَّةُ لقيامة يسوع خطوتَين: **أوَّلًا**، تحديد البرهان المطلوب شرحه، **وثانيًا** استنتاج أيِّ تفسير للبرهان هو التفسير الأفضل.

يبدو لي أنَّه يمكن تلخيص البرهان في ثلاث حقائق مُثبَتة ومستقلَّة: (١) القبر الفارغ الذي وُضِعَ يسوعُ فيه، (٢) ظهورات يسوع حيًّا بعد موته، و(٣) أصل إيمان التلاميذ بقيامته. علاوة على ذلك، أعتقد أنَّ أفضل تفسير لهذه الحقائق الثلاث هو أنَّ "الله أقام يسوع من الأموات" وسأسمِّي هذا "فرضيَّة القيامة". وسيُقدَّم مدلولُ قيامة يسوع أو معناها بواسطة السياق الذي تَحدُثُ فيه؛ إذ تأتي القيامة بوصفها إثباتًا لتصريحات يسوع الشخصيَّة الراديكاليَّة والتي أُدين بسببها حاسبين إيَّاه مجدِّفًا.

لننظر أوَّلًا إلى البرهان المطلوب تفسيره، ثمَّ إلى أفضل تفسير لذلك البرهان.

البرهان على قيامة يسوع

إذا أمكن إثبات الحقائق الثلاث المذكورة آنفًا- القبر الفارغ، وظهورات ما بعد الموت، وأصل الإيمان بقيامة يسوع- وإن لم يكُن هناك تفسيرٌ طبيعيٌّ معقولٌ يفسِّر جميع هذه الحقائق بالقوَّة التي تفسرها بها "فرضيَّة القيامة"، يكون من المسوَّغ لنا استنتاج قيامة يسوع بوصفها أفضل تفسير للحقائق. لذا فلنختبر البرهانَ المؤيِّد لكلٍّ من هذه الحقائق الثلاث.

حقيقة القبر الفارغ

سألخّص هنا خمسة خطوط من البرهان المؤيِّد لحقيقة أنَّ قبر يسوع وُجد فارغًا في يوم الأحد بعد صلْبه، وأنَّ مَن وجد القبرَ فارغًا هو مجموعةٌ من النساء اللاتي كُنَّ يتبعن يسوع.

القيامة

في زمن يسوع كان واضحًا ما لا تعنيه الكلمات المختلفة لكلمة قيامة في اليونانيَّة والأراميَّة...إلخ. فلم تعنِ القيامةُ حياةً بعد الموت في شكلٍ لاجسديٍّ؛ ولم تعنِ خلودَ النفسِ سواء في العذاب أم الفردوس، ولم تعنِ التناسخ، بل كانت القيامةُ تعني إبطالَ الموت، والاستعادة إلى نوعٍ ما من الخلود الجسديِّ. كان الكثير من الوثنيِّين يؤمنون بحياةٍ لا جسديَّة بعد الموت، لكنَّهم حسبوا القيامة مستحيلة، وتوقَّع بعض اليهود (وليس كلُّهم) قيامة الأبرار في نهاية الأيَّام- ولكن لم يتوقَّعوا قيامة أيِّ أحد قبل ذلك الحين. وقد يختلفُ الجسدُ المقام عن أجسادنا، لكن كان لزامًا أن يكون جسدًا، فلم يكُن لأيِّ شكلٍ آخر أن يُدعى "مُقامًا": لا الخيال، ولا أيَّة نفس لا جسديَّة، ولا روح على مستوًى أعلى من الإدراك.

برهان دفن يسوع

أوَّلًا، تدعمُ الموثوقيَّةُ التاريخيَّةُ لقصَّة دفنِ يسوعَ القبرَ الفارغ. والآن قد تتساءل، كيف يمكن أن تُثبتَ حقيقةُ دفنِ يسوع أنَّ قبرَه كان فارغًا؟ والإجابة هي: إذا كانت قصَّة الدفن دقيقة، يكون موقع قبر يسوع معروفًا في أورشليم لدى اليهود والمسيحيِّين على حدٍّ سواء، إذ كان كلا الطرفَين موجودَين حين وُضع يسوعُ في القبر، ولكن في هذه الحالة لا بدَّ أنَّ القبر كان فارغًا حين بدأ التلاميذ في الوعْظ بأنَّ يسوع قد قام.

لماذا؟ أوَّلًا، لم يكن يستطيعُ التلاميذ الإيمانَ بقيامة يسوع لو كان جسده لا يزال راقدًا في القبر، ولكان الأمر مخالفًا لما كان يؤمنُ به اليهود آنذاك، بل لكان الأمر محضَ غباء، الإيمان بأنَّ الرجل قام من الأموات بينما كان معروفًا أنَّ جسده لا يزال في القبر. ثانيًا، حتَّى لو كان التلاميذُ

يَعِظون بقيامة يسوع رغم أنَّ القبر لم يكن فارغًا، فمن النادر أن يصدِّقهم أحدٌ؛ فإحدى أكثر الحقائق اللافتة للنظر عن الإيمان المسيحيِّ الأوَّل بقيامة يسوع هي أنَّ هذا الإيمان ازدهرَ في المدينة نفسها حيث كان يسوع قد صُلب علانية. فطالما كان ناس أورشليم يعتقدون أنَّ جسدَ يسوع موجود في القبر لكان القليل جدًّا منهم سيكون مستعدًّا لتصديق أنَّ يسوع قام من الأموات؛ لأنَّ الكلامَ سيكون مجرَّد كلامٍ فارغ عندهم. وثالثًا، حتَّى إنْ صدَّقوا هذا، كانت السلطات اليهوديَّة ستكشف المسألة كلَّها ببساطة بالإشارة إلى قبر يسوع، أو ربَّما حتَّى إخراج الجثَّة لتكونَ دليلًا دامغًا أنَّ يسوع لم يقُم.

إنَّه لمن الوهميِّ والمعاكس للبرهان أن يقترح بعضُ الناس، مثلما قال بعض النقَّاد، أنَّ السلطات اليهوديَّة لم تعبأ بهذه المسألة بشأن أن يكون يسوع قد قام، ولم تُعِرها اهتمامًا أكثر من كونها مجرَّد أمر مزعج لا يستحقُّ إعارته أدنى اهتمام. فقد كانت السُّلطاتُ اليهوديَّةُ معنيَّةً جدًّا بشأن إخماد الحركة المسيحيَّة الناشئة (فكِّر في توظيفهم لشاول الطرسوسيِّ لاضطهاد المسيحيِّين اليهود!)، فلا بُدَّ أنَّهم كانوا سيفحصون القبر.

وحتَّى لو لم يكن ممكنًا تمييز الجثَّة الموجودة في القبر، فقد كان عبء الدليل يقع على عاتق أيِّ شخصٍ يقول إنَّ هذه ليست جثَّة يسوع. لكن لا يبدو أن حدثت أيَّة خصومة بشأن تعرُّفِ جُثَّة يسوع. كما سنرى، نشبَتِ الخصومةُ ما بين غير المسيحيِّين من اليهود والمسيحيِّين اليهود في مكان آخر.

أيضًا إذا كانت قصَّة دفنِ يسوع تاريخيَّة، فإنَّ هذه القصَّة أشبه باستدلالٍ قصير جدًّا لحقيقة القبر الفارغ. لذا يشعر النقَّاد المنكرون للقبر الفارغ بإلحاحِ الاحتجاج ضدَّ الدفن. لكنْ لسوء حظِّهم دفن يسوع في القبر هو أحدُ أفضل الحقائق إثباتًا بشأن يسوع، وبينما لا تسمح لي المساحةُ هنا للدخول في تفاصيل برهان الدفن، فسأشاركُ هنا بنقطتَين فقط:

١. **يرِدُ دفنُ يسوع في مصادر مستقلَّة باكرة جدًّا.** وتقرير دفن يسوع في قبر من يوسُفَ الراميِّ هو جزءٌ من مادَّة المصدر‡ التي يستخدمها مرقس في قصَّة الآلام (قصَّة معاناة يسوع وموته)، ومرقس هو أوَّل الأناجيل الأربعة زمنيًّا، إذًا هذا مصدرٌ باكرٌ جدًّا، والذي يظنُّ معظم العلماء أنَّه مبنيٌّ على شهادة شهود عيان.

وفوق ذلك، يقتبس بولس في ١كورنثوس ١٥: ٣-٥ تقليدًا مسيحيًّا قديمًا كان قد تلقَّاه من التلاميذ الأوائل، ومن المرجَّح أنَّ بولس تلقَّى هذا التقليد في موعد أقصاه وقت زيارته إلى أورشليم في عام ٣٦ ميلاديًّا (بحسب غلاطِيَّة ١: ١٨)، إنْ لم يكُن قبل ذلك في دمشق. وهكذا يعود هذا التقليد إلى إطار زمنيٍّ من خمس سنوات بعد موت يسوع في سنة ٣٠ ميلاديًّا، والتقليد هو تلخيصٌ للوعْظ المسيحيِّ الباكر، ويمكن أن يكونَ قد استُخدِمَ في التعليم المسيحيِّ، وكانت صياغته تجعل منه مناسبًا للحِفْظ، وجاء نصُّه كالآتي:

"أنَّ المسيح مات من أجل خطايانا حسب الكتب،
وأنَّه دُفن،
وأنَّه قام في اليوم الثالث حسب الكتب،
وأنَّه ظهر لصفا ثمَّ للاثني عشر".

لاحظ أنَّ السطرَ الثانيَ لهذا التقليد يشير إلى دفن يسوع.

لكنْ قد نتساءل ما إذا كان الدفْن المذكور في تقليد بولس هو الحدث نفسه الخاصُّ بالدفْن بواسطة يوسُفَ الراميِّ؟ تتَّضح الإجابة عن ذلك السؤال

---

‡ في علم تكوين العهد الجديد هناك من العلماء والمؤرّخين مَن يقولون إنَّ الأناجيل استندت إلى مصادر سبقتها. فمثلًا، الكثير من علماء العهد الجديد يقولون إنَّ إنجيل متى وإنجيل لوقا استندا في تدوينهما لحياة يسوع على إنجيل مرقس، لما بين هذه الأناجيل من توافق شديد في التدوين وفي بعض من الأساليب الأدبيَّة. على النسق نفسه كذلك، يرى بعض العلماء أنَّ مرقس أيضًا استند إلى ما دوِّن من قبلُ عن يسوع. وننوِّه للقارئ أنَّ هذه الافتراضات لا تقلِّل من كون الأناجيل كتابات موحًى بها من الله، بل تساعدنا هذه الافتراضات على فهم بعض الأمور المتعلِّقة بهذه الكتابات وقيمتها التاريخيَّة وجدارتها في تدوين الأحداث.

بمقارنة الصيغة ذات السطور الأربعة المقدَّمة من بولس مع روايات الإنجيل من ناحية، والعظات الموجودة في أعمال الرسل من ناحية أخرى:

اكورنثوس ١٥: ٣ - ٥	أعمال ١٣: ٢٨-٣١	مرقس ١٥: ٣٧-١٦: ٧
المسيح مات ...	ومع أنَّهم لم يجدوا علَّة واحدة للموت طلبوا من بيلاطس أن يُقتل.	فصرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح.
دُفن ...	أنزلوه عن الخشبة ووضعوه في قبر.	فاشترى يوسُفُ كَتَّانًا، فأنزله وكفَّنه بالكَتَّان، ووضعه في قبر.
قام ...	ولكن الله أقامه من الأموات...	"قد قام ليس هو ههنا. هوذا الموضع الذي وضعوه فيه".
ظهر ...	...وظهر أيَّامًا كثيرة للذين صعدوا معه من الجليل إلى أورشليم، الذين هم شهوده عند الشعب.	"لكن اذهبن وقلن لتلاميذه ولبطرس: إنه يسبقكم إلى الجليل. هناك ترونه".

هذا التوافق اللافت للنظر للتقاليد المستقلَّة هو دليلٌ مقنعٌ أنَّ صيغة بولس رباعيَّة الأسطر هي تلخيص أو إطار عامٌّ للأحداث الأساسيَّة لآلام يسوع وقيامته، بما في ذلك دفنه في القبر، وبذلك لدينا برهانٌ من أحد أقدم المصادر المستقلَّة في العهد الجديد لدفن يسوع في القبر.

لكن ليس هذا كلَّ شيء! إذ توجد أيضًا شهادةٌ مستقلَّة أخرى على دفن يسوع بواسطة يوسُف في مصادر غير بشائر متَّى ولوقا ويوحنَّا؛ إذ تشير الاختلافات ما بين قصَّة الدفن الواردة في إنجيل مرقس وتلك الواردة في إنجيلَي متَّى ولوقا أنَّه كانت لديهما مصادرُ غير البشير مرقس وحده.

وفوق ذلك، لدينا مصدرٌ مستقلٌّ آخر للدَّفن في إنجيل يوحنَّا، وأخيرًا

لدينا العِظات الأولى في سفر الأعمال، والتي تحفظ على الأرجح التعليم الأوَّل للرسل. تذكر هذه العظات أيضًا دفن يسوع في القبر، وبذلك لدينا خمسة مصادر مستقلَّة على الأقلِّ لدفن يسوع، وبعضها باكرٌ بصورة ملحوظة.

٢. **من غير المُرجَّح أن يكون يوسُف الراميُّ، وهو عضوٌ في السنهدريم اليهوديِّ الذي أدان يسوع، شخصيَّة من ابتداع المسيحيِّين.** يوصَفُ يوسف بأنَّه رجل غنيٌّ عضوٌ في السنهدريم اليهوديِّ، وكان السنهدريم يشبه المحكمة العليا اليهوديَّة، ويتكوَّن من سبعين من قادة اليهوديَّة، ويمارس مهامَّه في أورشليم. كانت هناك عداوة في الكنيسة الأولى من نحو أعضاء السنهدريم اليهود؛ ففي عيون المسيحيِّين كانوا قد خطَّطوا للقتل القضائيِّ ليسوع، ومثلًا، تذهب العظاتُ في سِفرِ أعمال الرسل إلى مدًى تقول فيه إنَّ القادة اليهود صلبوا يسوع (أعمال ٢: ٢٣، ٣٦، ٤: ١٠)! وبوصفِ يوسُفَ عضوًا في السنهدريم، فهو آخر شخصٍ تتوقَّعه أن يُعنى بشأن يسوع بصورة صحيحة، وبذلك، فدفن يسوع بواسطة يوسف هو أمرٌ مرجَّحٌ جدًّا إذ سيكون من المتعذِّر تفسيره أن يخترع المسيحيُّون قصَّة بشأن عضو يهوديٍّ في السنهدريم يفعل ما هو صحيحٌ ليسوع.

لهذه الأسباب ولأسباب أخرى، يتَّفق معظم نقَّاد العهد الجديد أنَّ يسوع دُفن بواسطة يوسف الراميِّ في قبرٍ، وبحسب الراحل جون إيه. تي. روبنسون (John A. T. Robinson) من جامعة كامبردج، فإنَّ دَفْنَ يسوعَ في القبر هو "أحدُ أقدم الحقائق وأكثرها صحَّة بشأن يسوع"[١]، لكنْ إذا كانت هذه الخلاصة صحيحة، يكون من الصعب جدًّا، كما قد شرحتُ، إنكار حقيقة القبر الفارغ.

التقارير المستقلَّة عن القبر الفارغ

الخطُّ الثاني للبرهان المتعلِّق بالقبر الفارغ هو أنَّه وردَ **بصورة مستقلَّة اكتشافُ قبر يسوع الفارغ في مصادر باكرة جدًّا.** لم تنتهِ قصَّة الآلام في إنجيل مرقس على الأرجح بدفن يسوع، بل باكتشاف النساء لقبر يسوع الفارغ. فقصَّة

إلى المصدر مباشرةً

استخدم كتَّاب الإنجيل مصادر لحياة يسوع، كما يخبروننا هم بأنفسهم، ويُكرِّس قدرٌ كبير من دراسات العهد الجديد لكشف تلك المصادر، إذ تعود بك هذه المصادر إلى مقربة من الأحداث نفسها، وبذلك تقلِّل من احتماليَّة الأسطورة أو التغيير. فالبشير مرقس، مثلًا، كان على الأرجح أحدَ المصادر التي استخدمها متَّى ولوقا، ومن الجليِّ أنَّه كان للبشير مرقس مصدرٌ لقصَّة الآلام، إذ تبرز هذه القصَّة في إنجيله في إطار رواية متَّصلة. وكانت للبشيرَين متَّى ولوقا أيضًا مصادرُ غير مرقس، ويظنُّ البعضُ أنَّه كانت لديهما مجموعة من أقوال يسوع والتي نسب إليها العلماء الاسم العشوائيَّ (Q). على نقيض ذلك، يُظنُّ عادةً أنَّ يوحنَّا مستقلٌّ عن الأناجيل الثلاثة الأخرى. ويقول بولس صراحةً إنَّه في

يتبع

١كورنثوس ١٥: ٣-٥ يسلِّم تقليدًا سابقًا عن يسوع، وهي حقيقة تؤكِّدها الكثير من الخصائص المختلفة عن خصائص بولس في الكتابة. ويظنُّ الكثير من العلماء أنَّ هناك وراء العظات في سفر أعمال الرسل مصادرَ للوعظ المسيحيِّ الأوَّل والتي استخدمها لوقا. وهذه فقط بعضٌ من المصادر الرئيسيَّة التي تكمن وراء وثائق العهد الجديد.

الدفن وقصَّة القبر الفارغ هما في الحقيقة قصَّة واحدة تكوِّن رواية سَلِسة متواصلة، وهما مرتبطتان بروابط نحويَّة ولغويَّة، علاوة على أنَّه من غير المرجَّح أن يكون المسيحيُّون الأوائل قد تناقلوا قصَّة آلام يسوع منتهيةً بدفْنه؛ إذ لا تكتمل قصَّة الآلام دون انتصارٍ في النهاية، لذا تضمَّن مصدر البشير مرقس على الأرجح اكتشاف القبر الفارغ، وربَّما يكون قد انتهى به.

لقد رأينا أنَّ بولس في ١كورنثوس ١٥: ٣-٥ يقتبس من تقليد باكر جدًّا يشير إلى دفن المسيح وقيامته، ورغم أنَّ القبر الفارغ لا يُذكر صراحةً، فإنَّ مقارنة الصيغة رباعيَّة الأسطر بروايات الإنجيل من ناحية وعظات سفر أعمال الرسل من ناحية أخرى تكشف أنَّ السطر الثالث هو في الحقيقة تلخيصٌ لقصَّة القبر الفارغ.

فضلًا عن ذلك، توحي خاصيَّتان أُخريان في تقليد بولس بموضوع القبر الفارغ، فأوَّلًا، يوحي تعبير "دُفن" المتبوع بتعبير "قام" بالقبر الفارغ، ففكرة أن يُدفن رجلٌ ثمَّ يقوم من الأموات ومع ذلك يظلُّ جسده في القبر هي فكرة حديثة على نحو غريب! وليهود القرن الأوَّل، لم يكن هناك أيُّ شكٍّ في أنَّ قبر يسوع كان فارغًا، إذًا حين يقول التقليدُ إنَّ المسيح "دُفن وقام" فإنَّ ذلك يوحي تلقائيًّا بأنَّ قبرًا فارغًا خُلِّف وراءه، وعندما نضع في الحسبان التاريخ القديم لهذا التقليد ومصدره، فمن غير الممكن أن يكون مَن صاغوه يؤمنون بأمرٍ كهذا لو لم يكن القبر فارغًا.

ثانيًا، يوحي تعبيرُ "في اليوم الثالث" بالقبر الفارغ، وباختصار موجز، إذ لم يرَ بالفعل أيُّ شخصٍ يسوع يقوم من الأموات لماذا صرَّح التلاميذ الأوائل أنَّه كان قد قام "في اليوم الثالث"؟ ولِم لَمْ يكن اليوم السابع؟ الإجابة الأكثر ترجيحًا هي أنَّه في اليوم الثالث اكتشفت النساءُ قبر يسوع فارغًا، لذا فمن الطبيعيِّ أن تكون القيامةُ نفسها أُرِّختْ في ذلك اليوم.

إذًا، لدينا برهان مستقلٌّ باكرٌ جدًّا لحقيقة قبر يسوع الفارغ، ولا يمكن استبعاد اكتشاف قبر يسوع الفارغ كما لو كان هذا الاكتشاف تطوُّرًا أسطوريًّا لاحقًا.

لكنَّ هناك المزيد! إذ نجد مرَّة أخرى أسبابًا جيِّدة لتَبيُّن المصادر المستقلَّة عن القبر الفارغ في الأناجيل الأخرى وفي سفر أعمال الرسل. فمن الواضح أنَّ متَّى يستخدم مصدرًا مستقلًّا إذ يُضمِّن قصَّة الحَرَس على القبر، وهو أمرٌ فريدٌ يرِدُ في إنجيله، علاوة على ذلك، يُظهِر تعليقُه بشأن شائعة أنَّ التلاميذ كانوا قد سرقوا جسد يسوع وكيف أنَّه "شاع هذا القول عند اليهود إلى هذا اليوم" (متَّى ٢٨ : ١٥) أنَّ متَّى يردُّ على تقليد سابق. لدى لوقا أيضًا مصدرٌ مستقلٌّ إذ يسرد قصَّة ليست موجودة في إنجيل مرقس عن تلميذين يزوران القبر للتحقُّق من تقرير النساء بأنَّ القبر كان فارغًا، ولا يمكن حسبان القصَّة من تأليف لوقا؛ إذ إنَّ الحادث يرِدُ بصورة مستقلَّة في إنجيل يوحنَّا. ومرَّة أخرى، إذا وضعْنا في الحسبان استقلال يوحنَّا عن الأناجيل الثلاثة الأخرى، يكونُ عندنا تقريرٌ مستقلٌّ آخر عن القبر الفارغ. أخيرًا، في عظات سفر الأعمال نجد إشارات غير مباشرة إلى القبر الفارغ، فمثلًا، يرسمُ بطرس التباين الحادَّ أنَّ داوُد "مات ودُفن، وقبره عندنا حتَّى هذا اليوم"، أمَّا "يسوع هذا أقامه الله" (أعمال ٢ : ٢٩-٣٢، ١٣ : ٣٦-٣٧).

يظنُّ المؤرِّخون أنَّهم وجدوا كنزًا حين تكون لديهم قصَّتان مستقلَّتان للحدث نفسه، وفي حالة القبر الفارغ لدينا ما لا يقلُّ عن ستِّ قصص، وبعضها من بين أقدم الموادِّ الموجودة في العهد الجديد.

قصّة الدفن بحسب بشارة مرقس

"ولمَّا كان المساء، إذ كان الاستعداد، أيْ ما قبل السبت، جاء يوسف الذي من الرامة، مشير شريف، وكان هو أيضًا منتظرًا ملكوت الله، فتجاسر ودخل إلى بيلاطس وطلب جسد يسوع. فتعجَّب بيلاطس أنه مات كذا سريعًا. فدعا قائد المئة وسأله: «هل له زمان قد مات؟» ولمَّا عرف من قائد المئة، وهب الجسد ليوسف. فاشترى كتَّانًا، فأنزله وكفَّنه بالكتَّان، ووضعه في قبر كان منحوتًا في صخرة، ودحرج حجرًا على باب القبر. وكانت مريم المجدليَّة ومريم أمُّ يوسي تنظران أين وُضع" (مرقس ١٥ : ٤٢-٤٧).

بساطة القصَّة الواردة في إنجيل مرقس

خطُّ البرهان الثالث للقبر الفارغ هو أنَّ **قصَّة البشير مرقس بسيطة وخالية من التطوُّر الأسطوريِّ**، فمثل قصَّة الدفْن، تتميَّز القصَّة الواردة في إنجيل مرقس بشأن القبر الفارغ أنَّها بسيطة بساطةً لافتة للنظر وأنَّها غير مزركشة بعناصر لاهوتيَّة محتملة تميِّز ما يمكن أن يكون قصَّة أسطوريَّة لاحقة. مثلًا، القيامة نفسها لا يُدلَى بشهادة عنها ولا توصف، ولا يوجد تأمُّلٌ عن انتصار يسوع على الخطيَّة والموت، ولا يوجد استخدامٌ لألقاب إلهيَّة، ولا اقتباس عن نبوَّة تحقَّقت، ولا وصف للربِّ المُقام. تختلف القصَّة تمامًا عن تأليفٍ خياليٍّ

مسيحيٌّ- فقط قارن الكيفيَّة التي تُصوَّر بها القيامة في المسرحيَّات الحديثة التي تتناول آلام المسيح!

لإدراك مدى تقيُّد رواية البشير مرقس بمنهج عدم المبالغة، عليك فقط قراءة القصَّة في أحد أسفار الأپوكريفا، كإنجيل بطرس[§] مثلًا، والتي تصف خروج يسوع الانتصاريَّ من القبر مثل شخصٍ عملاقٍ يصل رأسُه فوق السحب، مدعومًا بملاكَين عملاقَين، ومتبوعًا بصليبٍ متكلِّم، بينما ينادي عليه صوتٌ من السماء، وكلُّ ذلك بشهادة حارسٍ رومانيٍّ والقادة اليهود وجمهور من المشاهدين! هذه هي الكيفيَّة التي تبدو عليها الأساطير الحقيقيَّة؛ إذ تتلوَّن بتطوُّرات لاهوتيَّة ودفاعيَّة. على النقيض من ذلك، نجد أنَّ قصَّة البشير مرقس غاية في البساطة.

قصَّة القبر الفارغ بحسب بشارة مرقس

"وبعدما مضى السبت، اشترت مريم المجدليَّة ومريم أمُّ يعقوب وسالومة، حنوطًا ليأتين ويدهنَّه. وباكرًا جدًّا في أوَّل الأسبوع أتين إلى القبر إذ طلعت الشمس. وكُنَّ يقلن فيما بينهن: «مَن يدحرج لنا الحجر عن باب القبر؟» فتطلَّعن ورأين أنَّ الحجر قد دُحرج! لأنَّه كان عظيمًا جدًّا. ولما دخلن القبر رأين شابًّا جالسًا عن اليمين لابسًا حلَّة بيضاء، فاندهشن. فقال لهنَّ: «لا تندهشن! أنتن تطلبن يسوع الناصريَّ المصلوب. قد قام! ليس هو ههنا. هوذا الموضع الذي وضعوه فيه. لكن اذهبن وقلن لتلاميذه ولبطرس: إنَّه يسبقكم إلى الجليل. هناك ترونه كما قال لكم» فخرجن سريعًا وهربن من القبر، لأنَّ الرعدة والحيرة أخذتاهنّ. ولم يقلن لأحد شيئًا لأنَّهنَّ كُنَّ خائفات" (مرقس ١٦: ١-٨).

اكتشاف النساء

رابعًا، من الأرجح أن يكون القبر قد اكتُشف فارغًا بواسطة النساء. لاستيعاب هذه النقطة، نحتاج إلى فهم أمرَين بشأن مكانة النساء في المجتمع اليهوديّ.

أوَّلًا، لم تُعدَّ النساءُ شاهداتٍ موثوقًا بهنَّ، وهذا التوجُّه من نحو شهادة النساء واضحٌ في وصف المؤرِّخ اليهوديّ يوسيفوس لقواعد الشهادة المقبولة: "لا تدَع شهادة النساء تُقبل بسبب طيش جنسهنَّ ووقاحته" (الآثار ١٥,٨,٤)، ولا توجد لائحة كهذه في الكتاب المقدَّس، فهي بالأحرى انعكاسٌ للمجتمع الذكوريّ في يهوديَّة القرن الأوَّل.

ثانيًا، كانت النساءُ تحتلُّ مرتبةً متدنِّية في السلَّم الاجتماعيّ اليهوديّ، فبالمقارنة بالرجال، كانت النساء مواطناتٍ من الدرجة الثانية. تأمَّل في هذه

§ إنجيل بطرس هو أحَد الأناجيل المنحولة (أي التي لم تدخل في مجموعة الكتابات القانونيَّة المعترف بها على أنَّها موحى بها من الله). لم يكتبْ الرسول بطرسُ هذا الإنجيل؛ لأنَّ تاريخ كتابته يتراوح ما بين سنة ١٥٠ و٢٠٠ للميلاد، وأمَّا القديس بطرس فقد استُشهِدَ نحو عام ٦٠م (مع اختلاف في التقدير بضع سنوات). لذا من المستحيل أن يكونَ الرسولُ بطرسُ هو كاتِبَه (الناشر).

النصوص الحاخاميَّة: "أن تدَعَ كلماتِ الناموسِ تحترق لهو أفضل من أن تُسلَّم إلى نساءٍ" (سوتاه ١٩أ) ومرَّة أخرى: "سعيدٌ ذاك من لديه أطفال من الذكور، وحزينٌ ذاك مَن أطفاله من الإناث" (كيدوشين ٨٢ب)، وكانت الصلاة اليوميَّة لكلِّ رجلٍ يهوديٍّ تتضمَّن البركة: "مباركٌ أنت، يا ربُّ إلهنا، حاكم الكون، يا من لم تخلقني أمميًّا أو عبدًا أو امرأة" (براخوت ٦٠ب).

لذا، إذا وضعنا في الحسبان وَضعَهنَّ الاجتماعيَّ المتدنِّي وعدم قدرتهنَّ على تقديم شهادة قانونيَّة، من المذهل أنْ تكون النساء هنَّ من اكتشفن القبر الفارغ، وهنَّ الشاهدات الأساسيَّات عنه! لو كانت قصَّة القبر الفارغ أسطورةً، لجُعل التلاميذ الذكور هم مَن يكتشفون القبر الفارغ. والوسيلة الوحيدة لشرح حقيقة أنَّ النساء اللاتي كانت شهادتهنَّ غير ذات قيمة كُنَّ الشاهدات الأساسيَّات على حقيقة القبر الفارغ شرحًا معقولًا هو أنَّهُنَّ حقًّا كُنَّ المكتشفات للقبر الفارغ، شئنا أم أبَينا، كما يعني هذا أنَّ الأناجيل سجَّلتْ بأمانة ما كان حقيقةً تُعدُّ غايةً في الإحراج.

أوَّل ردٍّ يهوديٍّ

أخيرًا، **يوجِبُ أوَّل ردٍّ فعلٍ يهوديٍّ على إعلانِ قيامة يسوع أنَّ القبرَ كان فارغًا.** في إنجيل متَّى نجد محاولة لدحض أوَّل ردٍّ يهوديٍّ على الإعلان المسيحيِّ للقيامة:

> "وفيما هما ذاهبتان إذا قوم من الحرَّاس جاءوا إلى المدينة وأخبروا رؤساء الكهنة بكلِّ ما كان. فاجتمعوا مع الشيوخ، وتشاوروا، وأعطوا العسكر فضَّة كثيرة قائلين: «قولوا إنَّ تلاميذه أتوا ليلًا وسرقوه ونحن نيام. وإذا سُمع ذلك عند الوالي فنحن نستعطفه، ونجعلكم مطمئنِّين» فأخذوا الفضَّة وفعلوا كما علَّموهم، فشاع هذا القول عند اليهود إلى هذا اليوم" (متَّى ٢٨: ١١-١٥).

قصَّة القيامة بحسب إنجيل بطرس

"باكرًا في الصباح السبت، أتى حشدٌ كبيرٌ من أورشليم والمناطق المحيطة ليروا القبر المختوم. لكن في الليل وقبل بزوغ يوم الربِّ، وبينما كان الجنود يحرسون اثنين اثنين في كلِّ هزيع، أتى صوتٌ عظيمٌ في السماء، ورأوا السماوات فُتحت ورَجُلَين يهبطان ويشعَّان بنورٍ عظيم، واقتربا من القبر، والحجر الذي كان قد وُضع على الباب تدحرجَ من تلقاء نفسه وانتقل إلى الجانب، وفُتح القبرُ ودخل الشابَّان فيه.

وحين رأى الجنديَّان ذلك، أيقظا قائد المئة والشيوخ (إذ كانوا هناك أيضًا يحرسون). وحين رَوَيا الأمورَ التي رأياها، وإذا بثلاثة رجال خارجين من القبر، واثنين منهم مُسندين الآخر، وصليبًا يتبعهم، وكان للاثنين رأسان يصلان إلى السماء، وأمَّا رأس ذاك الذي اقتيد بواسطتهما

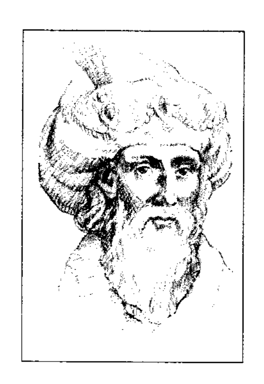
يتبع

فوصل إلى ما بعد السماء، وسمعوا صوتًا من السماوات يقول، «هل بشَّرت الراقدين؟»، وكانت الإجابة التي سُمعتْ من الصليب: «أجل!»" (إنجيل بطرس ٩: ١-١٠: ٥).

والآن ليس اهتمامنا هو بقصَّة متَّى عن الحرَّاس عند القبر بقدر ما هو بملاحظته العابرة في النهاية: "فشاع هذا القول عند اليهود إلى هذا اليوم"؛ إذ تكشف هذه الملاحظة عن اهتمام الكاتب بدحض ما هو منتشرٌ من تفسيرٍ يهوديٍّ للقيامة.

والآن ماذا كان اليهود غير المؤمنين يقولون ردًّا على إعلان التلاميذ أنَّ يسوع قد قام؟ هل قالوا إنَّ هؤلاء الرجال كانوا ممتلئين من خمر جديدة؟ إنَّ جسد يسوع لا يزال قابعًا في القبر في البستان؟ لا، كانوا يقولون: "التلاميذ سرقوا جسده". فكِّر في الأمر! لم تُنكر السلطات اليهوديَّة القبر الفارغ، بل عِوَضًا عن ذلك ورَّطوا أنفسهم في سلسلة يائسة من السخافات محاولين تفسير الأمر. بكلمات أخرى، إنَّ ادِّعاءَ أنَّ التلاميذ سرقوا الجسد يعني أنَّ الجسدَ كان مختَفيًا.

تكوِّن هذه الخطوط الخمسة، إذا ما نُظر إليها معًا، حُجَّةً قويَّةً لحقيقةِ أنَّ قبر يسوع وُجد فارغًا في أوَّل أيَّام الأسبوع بواسطة مجموعة من النساء اللاتي كُنَّ يتبعنَه، ويبدو هذا الأمر مُثبتًا جيِّدًا بوصفه حقيقةً تاريخيَّةً. بحسب جيكوب كريمر (Jacob Kremer) أحد نقَّاد العهد الجديد، الذي تخصَّص في دراسة القيامة: "حتَّى الآن يعتقد معظم العلماء اعتقادًا راسخًا في موثوقيَّة تصريحات الكتاب المقدَّس بشأن القبر الفارغ".[٢]، وفي الواقع، وجد غاري هابيرماس (Gary Habermas) في مسحٍ لأكثر من ٢٢٠٠ منشورًا عن القيامة بالإنكليزيَّة والفرنسيَّة والألمانيَّة منذ ١٩٧٥ أنَّ ٧٥٪ من العلماء يقبلون تاريخيَّة اكتشاف قبر يسوع الفارغ.[٣] ويُعدُّ الدليلُ قاطعًا حتَّى إنَّ عددًا من العلماء اليهود، مثل فينحاس لابيد وجيزا ڤيرمس (Geza Vermes)، صرَّحوا أنَّهم مقتَنِعون على أساس البرهان أنَّ قبر يسوع وُجد فارغًا، لكنَّ هناك المزيد أيضًا.



فلاڤيوس يوسيفوس (Flavius Josephus)

فلاڤيوس يوسيفوس (٣٧-١٠٠م) وُلد في عائلة يهوديَّة كهنوتيَّة باسْم يوسُف بن ماتيتياهو (Joseph ben Mattathias)، وصار قائدًا عسكريًّا للقوَّات اليهوديَّة في الجليل إبَّانَ الثورة اليهوديَّة عام ٦٦م، والتي انتهت بخراب أورشليم عام ٧٠م. وحين حُوصر في كهفٍ من القوَّات الرومانيَّة، أقنع يوسيفوس رجاله أن يلقوا قرعةً ويقتلوا أحدهم الآخر على التوالي، على أن ينتحر آخرُ رجلٍ متبقٍّ، وكان يوسيفوس هو آخر رجلٍ حيٍّ، فسلَّم نفسه فورًا للرُّومان وانضمَّ إليهم. وبعد الحرب أصبح مواطنًا رومانيًّا واتَّخذ اسمه الرومانيَّ. أعماله الأساسيَّة هي تاريخ الثورة اليهوديَّة وتاريخ الشعب اليهوديِّ بعنوان آثار اليهود (Antiquities of the Jews)، وفي عمله الأخير هذا يذكر يسوع الناصريَّ مرَّتين، ويذكر أيضًا يعقوبَ أخا يسوع، ويوحنَّا المعمدان، وقيافا، وبيلاطس، وأشخاصًا آخرين مذكورين في الأناجيل.

حقيقة ظهورات يسوع بعد موته

في ١كورنثوس ١٥: ٣-٨، يكتب بولس:

"فإنَّني سلَّمتُ إليكم في الأوَّل ما قبلتُه أنا أيضا:

أنَّ المسيح مات من أجل خطايانا حسب الكتب،
وأنَّه دفن،
وأنَّه قام في اليوم الثالث حسب الكتب،
وأنَّه ظهر لصفا ثمَّ للاثني عشر.

وبعد ذلك ظهر دفعة واحدة لأكثر من خمسمئة أخ، أكثرهم باقٍ إلى الآن. ولكنَّ بعضهم قد رقدوا وبعد ذلك ظهر ليعقوب ، ثمَّ للرسل أجمعين، وآخر الكلِّ- كأنَّه للسقط- ظهر لي أنا".

ناقش

لو كان لك أن تتكلَّم مع صديقٍ غير مسيحيٍّ عن هذا البرهان للقبر الفارغ، ما سيكون ردُّه باعتقادك؟

يا له من تصريح لافت حقًّا! فلدينا هنا رسالة غير مشكوك في أصالتها لرجلٍ يعرف التلاميذ الأوائل معرفة شخصيَّة، وهو يعلنُ أنَّهم رأوا يسوع حيًّا

بعد موته، وفضلًا عن ذلك، يقول إنَّه هو نفسه أيضًا رأى ظهورًا ليسوع، فماذا نفهم من هذا التصريح؟ هل حقًّا ظهر يسوع حيًّا لأناسٍ بعد موته؟

للإجابة عن هذا السؤال، فلنفكِّرْ أوَّلًا في برهان ظهورات قيامة يسوع، ومرَّة أخرى لن تسمح لي المساحة هنا لأختبر بالتفصيل كلَّ البرهان لظهورات يسوع بعد موته، لكنِّي أودُّ البحث في ثلاثة خطوط من البرهان.

قائمة شهود العيان لدى بولس

أوَّلًا، تضمنُ قائمة بولس لشهود العيان عن ظهورات قيامة يسوع أنَّ هذه الظهورات حدثت. في ١كورنثوس ١٥، يقدِّم بولس قائمة من الشهود على ظهورات قيامة يسوع، فلننظر سريعًا إلى كلِّ ظهور لنرى ما إذا كان من المعقول لحدث مثل هذا أن يقع.

١. **الظهور لبطرس.** ليست لدينا في الأناجيل أيَّة قصَّة تخبرنا بظهور يسوع لبطرس، لكنَّ الظهور مذكورٌ هنا في التقليد المسيحيِّ القديم الذي يقتبسه بولس، والذي نشأ في كنيسة أورشليم والذي يؤكِّده الرسول بولس نفسه. نعلم من غلاطِيَّة ١: ١٨، أنَّ بولس أمضى نحو أسبوعَين مع بطرس في أورشليم بعد مرور ثلاثة أعوام على هدايته في طريق دمشق، لذا فبولس كان يعرف شخصيًّا ما إذا كان بطرس قد صرَّح باختبار كهذا أم لا، كما يُذكرُ الظهورُ لبطرس في تقليد مسيحيٍّ آخر موجود في لوقا ٢٤: ٣٤: "إنَّ الربَّ قام بالحقيقة وظهر لسمعان". وتتَّضح فكرةُ أنَّ لوقا يمرِّر هنا تقليدًا سابقًا بواسطة الطريقة الغريبة التي أُدرجَ بها في قصَّته عن الظهور لتلميذي عمواس. إذًا رغم أنَّه ليست لدينا قصَّة عن الظهور لبطرس، فإنَّها مُثبتةٌ تاريخيًّا بصورة جيِّدة، ونتيجةً لذلك، يتَّفق واقعيًّا كلُّ نقَّاد العهد الجديد أنَّ بطرس رأى يسوع حيًّا من الأموات.

٢. **الظهور للاثني عشر.** ما من شكٍّ أنَّ المجموعة المُشار إليها هنا هي المجموعة الأصليَّة من الاثني عشر تلميذًا الذين كان يسوع قد اختارهم

في خدمته، دون يهوذا بالتأكيد، والذي لم يؤثِّر غيابه في اللقب الرسميّ للمجموعة. وهذا هو أفضل ظهورات قيامة يسوع إثباتًا، وهو متضمَّن أيضًا في الصيغة التقليديَّة الباكرة جدًّا التي يستشهد بها بولس، وكان لبولس نفسه اتِّصالٌ مع أعضاء من الاثني عشر. وعلاوة على ذلك، لدينا قصصٌ مستقلَّة عن هذا الظهور في لوقا ٢٤: ٣٦-٤٢ ويوحنَّا ٢٠: ١٩-٢٠. وما من شكٍّ أنَّ السمة البارزة لقصص الظهور هذه هي الإظهار الجسديُّ ليسوع مُظهرًا جِراحه ومتناولًا الطعام أمام التلاميذ، وغرض الإظهارات الجسديَّة هو بيان أمرَين:

أوَّلًا، أنَّ يسوع قام **جسديًّا**، وثانيًا أنَّه كان **يسوع نفسه** الذي كان قد صُلب. لا يمكن أن يكونَ هناك شكٌّ في أنَّ ظهورًا كهذا قد حدث، إذ يُشهد له في التقليد المسيحيِّ القديم، ويؤكِّده بولس الذي كان له اتِّصالٌ شخصيٌّ بالاثني عشر، ويوصفُ بصورة مستقلَّة من البشيرَين لوقا ويوحنَّا.

٣. **الظهور لخمسمئة أخ.** يأتي الظهور الثالث ليكونَ صدمةً من نوع ما: "وبعد ذلك ظهر دفعة واحدة لأكثر من خمسمئة أخ"! هذا أمرٌ مدهشٌ؛ إذ لا يوجد ذِكرٌ لهذا الظهور بتاتًا في أيِّ موضعٍ آخر في العهد الجديد، وقد يجعلنا هذا نتشكَّك في شأن هذا الظهور. لكن يبدو كان لبولس نفسه اتِّصالٌ شخصيٌّ مع هؤلاء الناس إذ كان يعرف أنَّ بعضهم قد مات، ويتَّضح هذا من تعليق بولس في جملة معترضة قائلًا: "أكثرهم باقٍ إلى الآن، ولكن بعضهم قد رقدوا". لماذا يضيف بولس هذه الملاحظة؟ يردُّ العالِم سي. إتش. دُد (C. H. Dodd)، وهو عالم قدير في العهد الجديد في جامعة كامبردج، قائلًا: "لا يوجد تقريبًا أيُّ غرضٍ من ذِكر حقيقة أنَّ معظم الخمسمئة لا يزالون باقين، إلَّا إذا كان بولس يقول ما معناه إنَّ الشهود موجودون ويمكن مناقشتُهم"[4] لاحظ أنَّه لم يكن ممكنًا أن يقولَ بولس هذا لو لم يكن الحدثُ قد تمَّ. فما كان ليتحدَّى الناس أن يتكلَّموا مع الشهود إنْ لم يكن الحدثُ قد تمَّ أصلًا، أو لم يكن هناك شهودٌ. غير

أنَّ من الجليِّ أنَّه كان هناك شهودٌ لهذا الحدث، وكان بولس يعرف أنَّ بعضهم مات في هذه الأثناء، إذًا لا بدَّ أنَّ الحدث قد تمَّ.

أعتقد أنَّ هذا الظهور ليس مذكورًا في الأناجيل لأنَّه على ما يُرجَّح حدث في الجليل، وعند تجميع خيوط ظهورات القيامة المتنوِّعة في الأناجيل، يبدو أنَّها حدثت أوَّلًا في أورشليم ثمَّ في الجليل، وبعد ذلك في أورشليم ثانيةً، ويكون حينها الظهورُ لخمسمئة حدث خارج الأبواب، ربَّما على منحدر تلٍّ قربَ قرية في الجليل.

في الجليل كان الآلاف قد اجتمعوا ليسمعوا يسوع يعلِّم في خدمته. وحيث إنَّ الأناجيل تركِّز اهتمامها على الظهورات في أورشليم ليست لدينا أيَّة قصَّة لهذا الظهور لخمسمئة، واحتمالٌ مثيرٌ هو أنَّ هذا هو الظهور الذي توقَّعه الملاك عند القبر ووُصف في متَّى (٢٨: ١٦-١٧).

٤. **الظهور ليعقوب.** الظهور التالي هو واحدٌ من أروع الظهورات كلِّها: ظهر يسوعُ ليعقوب، المعروف بِاسْم "أخو الربّ"، وما يجعل الأمر رائعًا هو أنَّ يعقوب وجميع إخوة¶ يسوع الآخرين لم يكونوا يؤمنون بيسوع في حياته (مرقس ٣: ٢١، ٣١-٣٥؛ يوحنَّا ٧: ١-١٠). لم يؤمنوا أنَّه المسيَّا ولا نبيٌّ ولا حتَّى أنَّه شخصٌ مميَّز، وبمعيار الإحراج، ما من شكٍّ أنَّ هذه حقيقة تاريخيَّة في حياة يسوع وخدمته.

لكن بعد القيامة، يظهر إخوة يسوع في الشركة المسيحيَّة في العلِّيَّة في أورشليم (أعمال الرسل ١: ١٤)، ولا يوجد ذِكرٌ آخر عنهم حتَّى أعمال الرسل ١٢: ١٧. وفي قصَّة نجاة بطرس من السجن لمَّا فتحَ له الملاكُ الأبواب المغلَّقة، ماذا كانت الكلمات الأولى لبطرس؟ "أخبِروا **يعقوب**"، ويخبرنا بولس في غلاطِيَّة ١: ١٩ عن زيارته إلى أورشليم والتي استغرقت أسبوعَين بعد نحو ثلاثة أعوام من اختباره في طريق دمشق. ويقول إنَّه

¶ كان الأقارب عند اليهودِ يُدعَونَ إخوة. فربَّما المقصودُ هنا أقرباء يسوع (الناشر).

بجانب بطرس لم يرَ أيًّا من الرسل الآخرين **سوى يعقوبَ** أخي الربِّ، ويلمِّح بولس الرسول هنا على الأقلِّ إلى أنَّ يعقوب صار يُحسب الآن رسولًا. حين زار بولس أورشليم ثانيةً بعد ذلك بأربع عشرة سنة يقول إنَّه كانت هناك ثلاثة "أعمدة" للكنيسة في أورشليم: بطرس ويوحنَّا **ويعقوب** (غلاطِيَّة ٢: ٩)، وأخيرًا، في أعمال الرسل ٢١: ١٨، نرى أنَّ يَعقوب هو الرأس الوحيد لكنيسة أورشليم ومجلس الشيوخ، ولا نسمع المزيد عن يعقوب في العهد الجديد. غير أنَّنا نعلَمُ من يوسيفوس المؤرِّخ اليهوديِّ أنَّ يعقوبَ رُجم حتَّى الموت بصورة غير قانونيَّة بواسطة السنهدريم في وقتٍ ما بعد عام ٦٠م (الآثار ٢٠,٢٠٠).

ليس فقط يعقوب، لكنْ أيضًا إخوة يسوع الآخرين صاروا مؤمنين به، وكانوا فعَّالين في الوعْظ كما نفهم من ١كورنثوس ٩: ٥: "ألعلَّنا ليس لنا سلطان أن نجول بأخت زوجة كباقي الرسل **وإخوة الربِّ** وصفا؟"

والآن، كيف يمكن شرح هذا؟ فمن ناحيةٍ، يبدو من المؤكَّد أنَّ إخوة يسوع لم يؤمنوا به في حياته، ولم يكُن لصلب يسوع إلَّا أن يؤكِّد في ذهن يعقوب أنَّ الادِّعاءات المسيانيَّة ليسوعَ وهميَّة، تمامًا مثلما كان يَظُنُّ. من ناحية أخرى، من المؤكَّد أيضًا أنَّ إخوة يسوع صاروا مسيحيِّين غيورين، وفعَّالين في الخدمة. لكثيرٍ منَّا إخوة، ماذا يتطلَّب الأمر ليجعلك تصدِّق أنَّ أخاك هو الربُّ، حتَّى إنَّك تصيرُ مستعدًّا للموت من أجل هذا الإيمان، مثلما فعل يعقوب؟ هل يمكن أن يكونَ هناك شكٌّ أنَّ سبب هذا التحوُّل الهائل يوجد في حقيقة أنَّه "بعد ذلك ظهر ليعقوب"؟ حتَّى ناقد العهد الجديد المشكِّك هانز غراس (Hans Grass) يعترف أنَّ تحوُّل يعقوب هو أحد الأدلَّة الأكثر تأكيدًا على قيامة يسوع المسيح.[٥]

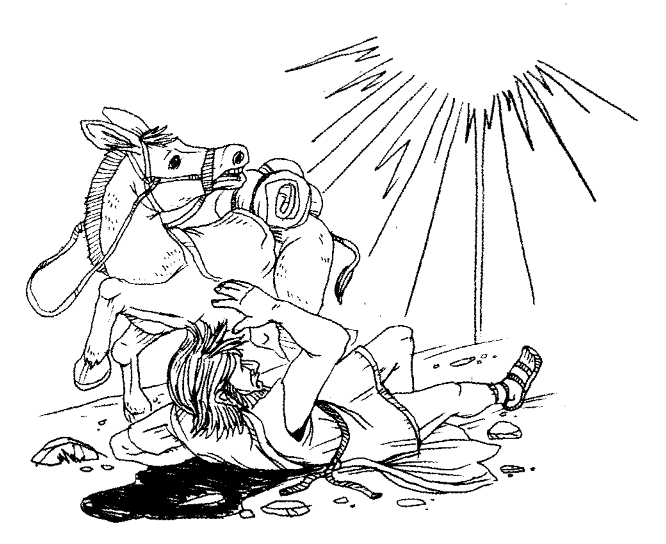


ظهورُ يسوعَ ليعقوب

٥. **الظهور "للرسل أجمعين"**. كان هذا الظهور على الأرجح لدائرة محدودة من المُرسلين المسيحيِّين هي دائرة أوسع بعض الشيء من الاثني عشر، ولمعلومات عن هذه المجموعة انظر أعمال الرسل ١: ٢١-٢٢. مرَّة أخرى، يضمنُ حقيقةَ هذا الظهور اتِّصالُ بولسَ الشخصيُّ بالرسل أنفسهم.

٦. **الظهور لشاول الطرسوسيِّ**. الظهور الأخير هو في الروعة ذاتها للظُّهور ليعقوب: يقول بولس: "وآخر الكلِّ- كأنَّه للسقط- ظهر لي أنا". إنَّ قصَّة ظهور يسوع لشاول الطرسوسيِّ (أو بولس) خارج دمشق مذكورةٌ في أعمال ٩: ١-٩، ثمَّ تُروى بعدها ثانيةً مرَّتين، ومن الثابت أنَّ هذا الحدث قد تمَّ بالفعل بما لا يَدَعُ مجالًا للشكِّ من إشارات بولس له في رسائله.

لقد غيَّر هذا الحدث من حياة شاول بأكملها. كان شاول معلِّمًا فَرِّيسيًّا وقائدًا يهوديًّا مُبجَّلًا، وكان يكره البدعة المسيحيَّة ويفعل كلَّ شيء للقضاء



ظهورُ يسوعَ لشاول

عليها. ويخبرنا أنَّه كان مسؤولًا حتَّى عن **إعدام** المؤمنين بالمسيح، ثمَّ فجأة تخلَّى عن كلِّ شيء، وترك مركزه بوصفه قائدًا يهوديًّا مبجَّلًا، وصار مُرسَلًا مسيحيًّا: دخل في حياة من الفقر والعمل والمعاناة، وجُلد وضُرب ورُجم وتُرك للموت، وانكسرت به السفينة ثلاث مرَّات، وكان في خطر مستمرٍّ، وحرمانٍ وقلق، وأخيرًا ضحَّى التضحية النهائيَّة واستُشهد من أجل إيمانه في روما، وكان كلُّ ذلك لأنَّه في ذلك اليوم خارج دمشق، رأى "يسوع ربَّنا" (١كورنثوس ٩: ١).

باختصارٍ، تشيرُ شهادة بولس إلى أنَّه من المؤكَّد تاريخيًّا أنَّ أفرادًا ومجموعات متنوِّعة من الناس اختبروا جميعًا ظهوراتٍ ليسوع بعد موته ودفنه.

القصص المستقلَّة للأناجيل

علاوة على ذلك، **تقدِّم قصص الأناجيل تقارير مستقلَّة متعدِّدة عن ظهورات يسوع بعد موته**، بل تقدِّمُ حتَّى بعضًا من الظهورات الواردة في قائمة بولس الرسول. إذ يَذكرُ الظهورَ لبطرس بصورة مستقلَّة بولسُ والبشيرُ لوقا (١كورنثوس ١٥: ٥؛ لوقا ٢٤: ٣٤)، ويعترف به النقَّادُ عمومًا، ويوردِ الظهورَ للاثني عشر بصورة مستقلَّة بولس الرسول والبشيرَين لوقا ويوحنَّا (١كورنثوس

١٥: ٥؛ لوقا ٢٤: ٣٦-٥٣؛ ويوحنَّا ٢٠: ١٩-٣١) وهو أيضًا لا خلاف عليه، ويوردُ بصورة مستقلَّة الظهورَ للنساء البشيران متَّى ويوحنَّا (متَّى ٢٨: ٩-١٠؛ يوحنَّا ٢٠: ١١-١٧). ويحظى أيضًا بتصديقٍ من قِبل معيار الإحراج، إذا ما وضعنا في الحِسبان المصداقيَّة المتدنِّية الممنوحة لشهادة النساء، ومن المتَّفق عليه عمومًا أنَّ غياب هذا الظهور من قائمة الظهورات في التقليد الذي يقتبسه بولس هو انعكاسٌ لعدم الراحة المصاحب للاستشهاد بنساء، وأخيرًا، يوردُ بصورة مستقلَّة أنَّ يسوع ظهر للتلاميذ في الجليل البشيرونَ مرقس ومتَّى ويوحنَّا (مرقس ١٦؛ متَّى ٢٨: ١٦-٢٠؛ يوحنَّا ٢١).

تتبعُ الظهوراتُ، إذا ما نظرنا إليها بالتتابع، نموذج أورشليم ثمَّ الجليل، ثمَّ أورشليم ثانيةً، بالتوافق مع سفر التلاميذ بينما عادوا إلى الجليل بعد الفصح (عيد الفطير)، ثمَّ سافروا ثانيةً إلى أورشليم بعد ذلك بشهرَين من أجل يوم الخمسين.

إلامَ ينبغي أن نخلُصَ من هذا البرهان؟ يمكننا، إنْ أردنا، أن نسمِّيَ هذه الظهورات هلوسات (أو تهيئات). لكنْ لا يمكننا أن ننكرَ أنَّها حدثَتْ، وحتَّى الناقد المشكِّك غيرد لوديمان (Gerd Lüdemann) يقول مؤكِّدًا: "يمكن أن نحسبَ من المؤكَّدِ تاريخيًّا أنَّ بطرس والتلاميذ مرُّوا بخبراتٍ بعد موت يسوع ظهر لهم فيها يسوع بوصفه المسيح المُقام".[٦] ويؤكِّد البرهانُ أنَّه في مواقف منفصلة كانت لأفراد ومجموعات مختلفة خبرات لرؤية يسوع حيًّا من الأموات، وهذه الخلاصة لا تقبل الجدل عمليًّا.

الطبيعة الجسمانيّة للظهورات

ثالثًا، **كانت ظهورات القيامة ظهورات جسمانيَّة مادِّيَّة.** حتَّى الآن لا يعتمد البرهانُ الذي قد قدَّمتُه على **طبيعة** ظهورات يسوع بعد موته، فقد تركتُ الأمرَ مفتوحًا لفكرة ما إذا كانت الظهورات خياليَّة أو مادِّيَّة في طبيعتها، وليس من المؤكَّد إلى هذا الحدِّ ما إذا كان من الممكن تفسيرُ مشاهدةِ التلاميذ لظهورات يسوع المُقام بطريقة معقولة على أساسٍ نفسيٍّ بحت، لكنْ إذا كانت الظهورات

مادِّيَّة وجسمانيَّة في طبيعتها، فيكاد أن يكونَ التفسيرُ النفسيُّ البحت أمرًا غير معقول، لذا يستحقُّ الأمرُ اختبارَ ما يمكننا معرفته بشأن طبيعة هذه الظهورات.

١. **يلمح بولس إلى أنَّ الظهورات كانت مادِّيَّة.** ويفعل ذلك بطريقتين، أوَّلًا: يقدِّم تصوُّرًا عن جسد القيامة بوصفه مادِّيًّا، ويدركُ الجميعُ أنَّ بولس يعلِّم ليس فقط عن خلود النفس، بل أيضًا عن قيامة الجسد؛ ففي ١ كورنثوس ١٥: ٤٢-٤٤ يشرحُ الفروقَ ما بين الجسد الأرضيِّ الحاليِّ وجسد القيامة جسد مستقبلنا، والذي سيكون مثل جسد المسيح، ويرسمُ أربعة تباينات أساسيَّة بين الجسد الأرضيِّ وجسد القيامة:

الجسد الأرضيُّ:	أمَّا جسد القيامة:
بائد	خالد
في هوان	مُمجَّد
ضعيف	قويٌّ
طبيعيٌّ/حيوانيٌّ	روحانيٌّ

والآن قد يجعلنا التباين الأخير فقط نظنَّ أن بولس لم يكُن يؤمن بجسد قيامة مادِّيٍّ، لكن ماذا يقصد بالكلمات المُترجَمة هنا إلى "طبيعيٌّ/حيوانيٌّ مقابل روحانيٌّ"؟

الكلمة المُترجَمة إلى "حيوانيّ" (أو طبيعيٌّ) تعني حرفيًّا "شبيهًا بالنفْس"، ومن الواضح هنا أنَّ بولس لا يعني أنَّ جسدنا الحاليَّ مصنوع من النفس، بل يعني أنَّ "الطبيعة البشريَّة تسود هذا الجسد وهو يتعلَّق بها"، وبالمثل حين يقول إنَّ جسد القيامة سيكون "روحانيًّا"، فلا يعني "مصنوعًا من الروح"، بل يقصد أنَّ "الروح تسود هذا الجسد وهو متَّجه نحو الروح". وينطبق المعنى ذاته على كلمة "روحانيّ" المستخدمة حين نقول إنَّ شخصًا ما شخصٌ روحانيٌّ.

في الواقع، انظر إلى الطريقة التي يستخدم بها بولس تلك الكلمات بالضبط في ١كورنثوس ٢: ١٤-١٥:

"ولكنَّ الإنسان الطبيعيَّ لا يقبل ما لروح الله لأنَّه عنده جهالة، ولا يقدر أن يعرفه لأنَّه إنَّما يُحكم فيه روحيًّا، وأمَّا الروحيُّ فيحكم في كلِّ شيء، وهو لا يحكم فيه من أحد".

ولا يعني **الإنسان الطبيعيُّ** "الشخص المادِّيّ"، بل "الشخص المتوجِّه نحو الطبيعة البشريَّة"، ولا يعني **الإنسان الروحيُّ** "الشخص غير الملموس أو غير المنظور" بل "الشخص المتوجِّه نحو الروح". والتباين هو ذاته الموجود في ١كورنثوس ١٥، إذ سيتحرَّر الجسد الأرضيُّ الحاليُّ من عبوديَّته للطبيعة البشريَّة الخاطئة، وسيصير بدلَ ذلك مُمكَّنًا بالكامل وموجَّهًا من روح الله، وهكذا يلمِّح تعليمُ بولس عن جسد القيامة إلى قيامة مادِّيَّة.

ثانيًا، يميِّز بولس، بل العهد الجديد كلُّه، ما بين **ظهور** ليسوع **ورؤيا** ليسوع؛ فظهورات يسوع توقَّفت بعد قليل، أمَّا رؤى يسوع فقد استمرَّت في الكنيسة الأولى، والسؤال الآن هو: ما الفرق بين الظهور والرؤيا؟ تبدو إجابة العهد الجديد واضحةً: الرؤيا، مع أنَّها من الله، فإنَّها في الذهن حقًّا، بينما يحدث الظهور "هناك" في العالم الخارجيِّ.

قارن رؤيا استفانوس ليسوع في أعمال الرسل[٧]، بظهورات قيامة يسوع. فمع أنَّ استفانوس رأى صورة جسمانيَّة محدَّدة، فما رآه هو رؤيا لرجلٍ، وليس رجلًا موجودًا هناك على المستوى المادِّيّ، إذ لم يختبر أيٌّ من الموجودين هناك أيَّ شيء بتاتًا. في المقابل حدثت ظهورات القيامة في العالم "هناك خارجًا" وكان ممكنًا اختبارها من قِبل أيٍّ من الموجودين هناك. كان ممكنًا أن يحسب بولس اختباره في طريق دمشق ظهورًا، وأن يكون محقًّا في هذا، حتَّى وإن حدث بعد صعود يسوع؛ لأنَّ الأمر تضمَّن مظاهر في العالم الخارجيِّ مثل النور والصوت، وهي المظاهر التي اختبرها أيضًا مرافقو بولس بدرجات مختلفة. ومن ثمَّ يشيرُ التمييز ما بين رؤيا يسوع وظهوره أيضًا إلى أنَّ ظهورات القيامة كانت مادِّيَّة.

طبيعيٌّ وروحانيٌّ

في ١كورنثوس ١٥: ٤٤، الكلمة اليونانيَّة المُترجَمة إلى "طبيعيّ/حيوانيّ" هي "سايكيكوس (psychikos) أو "شبيه بالنفْس"، والكلمة المُترجَمة إلى "روحانيّ" هي "نوماتيكوس" (pneumatikos)، ولا يتحدَّث بولس بشأن الأجساد المادِّيَّة مقابل الأجساد الأثيريَّة، بل بشأن الأجساد المنقادة بالنفْس مقابل الأجساد المنقادة بالروح، ويتَّضح هذا حين ننظر إلى ١كورنثوس ٢: ١٤ حيث يستخدم الكلمتين "سايكيكوس" و"نوماتيكوس" ليصف أنواعًا مختلفة من الناس في كورنثوس، وليس التباينُ هنا تباينًا في المادِّيَّة بل في التوجُّه.

٢. **تُظهر قصص الإنجيل أنَّ الظهورات كانت مادِّيَّة وجسمانيَّة.** مرَّة أخرى تجدرُ الإشارةُ إلى نقطتَين.

أوَّلًا، كلُّ ظهور من ظهورات القيامة مذكورٌ في الأناجيل هو ظهور مادِّيٌّ جسمانيٌّ، وشهادة الأناجيل بالإجماع في هذا الصدد شهادةٌ مُبهرةٌ حقًّا؛ فلو لم يكُن أيٌّ من الظهورات مادِّيًّا جسمانيًّا أصلًا، يكون من الغريب حينها أن تكون لدينا شهادة بالإجماع الكامل في الأناجيل بأنَّ **كلَّ** الظهورات كانت مادِّيَّة، دون أيِّ أثرٍ للظهورات الأصليَّة المزعومة غير المادِّيَّة. فسادٌ تامٌّ للتقليد الشفهيِّ مثل هذا في وقت قصيرٍ كهذا، بينما شهود العيان لا يزالون موجودين، لهو أمرٌ غير مرجَّح إلى أبعد حدّ.



"لكنّه حيٌّ روحيًّا! لقد ظهر لي في رؤيا! ورأته مريم أيضًا- أليس كذلك؟ أخبريهم يا مريم!"

ثانيًا، لو كانت كلُّ الظهورات أصلًا رؤى غير مادِّيَّة، لكُنَّا الآن في حَيرة كاملة لشرح نشأة قصص الإنجيل؛ إذ ستكون الظهورات المادِّيَّة جهالة للأمم وحجر عثرة لليهود، ولا يمكن أن يقبل أيٌّ منهم القيامة المادِّيَّة من الأموات، فقد كانت العقليَّة اليونانيَّة تحسبُ موتَ الجسد المادِّيِّ "خلاصًا جيِّدًا"؛ لأنَّ الجسد

الماديَّ كان مُعيقًا للنَّفْس، وكانت العقليَّة اليهوديَّة تستبعد أيَّة قيامة مادِّيَّة إلى المجد والخلود قبْل القيامة العامَّة في نهاية العالم. لذا لكان الجانبان سيشكِّكان في قصصٍ عن ظهورات جسمانيَّة حقيقيَّة لشخص قام من الأموات، لكنَّهما من الجانبَين كانا سيقبلان، وبكلِّ ترحيب، قصصًا لظهورات خياليَّة للموتى. فلو كانت الظهوراتُ الأصليَّة مجرَّد رؤى، يكون من المتعذِّر تفسير كيفيَّة تطوُّر التقليد الذي وقع الإجماعُ عليه بشأن الظهورات المادِّيَّة.

ناقش

لماذا تُعدُّ قيامة يسوع الجسمانيَّة أمرًا مهمًّا للمسيحيِّين؟ ما الفارق لو كان يسوع يعيش كروحٍ دون أيِّ جسد؟



الأساس الوحيد بصراحة لإنكار الطبيعة المادِّيَّة الجسمانيَّة لظهورات يسوع بعد موته هو أساسٌ فلسفيٌّ وليس تاريخيًّا: أنَّ ظهورات كهذه هي معجزاتٌ من أكثر الدرجات إذهالًا، ولا يستطيع الكثيرُ من النقَّاد تقبُّل الأمر، لكنَّنا في هذه الحالة نحتاج إلى إعادة تعقُّب آثارنا لنفكِّر ثانيةً في برهان وجود الله. فإذا كان الله موجودًا، لا يوجد سببٌ جيِّدٌ للتشكُّك في المعجزات؛ فكما صاغ الفيلسوف الأستراليُّ اللاأدريُّ بيتر سليزاك (Peter Slezak) الأمرَ بصورة لطيفة في أثناء نقاشنا، حيث قال إنَّ القيامةَ تُعدُّ عند إله قادرٍ على خلْقِ الكون كلِّه، هي من أسهل الأمور!

لذا فعلى أساس هذه الخطوط الثلاثة من البرهان، يمكننا أن نخلُص إلى أنَّ حقيقة ظهورات يسوع بعد موته لأفراد ومجموعات متنوّعة تحت مجموعة متنوّعة من الأحوال هي حقيقة مُثبَتة تاريخيًّا إثباتًا جيِّدًا، وقد كانت هذه الظهورات مادِّيَّة وجسمانيَّة أيضًا.

حقيقة أصل الإيمان المسيحيّ

الحقيقة الثالثة التي تحتاج إلى شرح هي أصل الإيمان المسيحيّ نفسه؛ إذ نعلم جميعًا أنَّ المسيحيَّة انبثقت في وقتٍ ما في القرن الأوَّل الميلاديّ، فلماذا ظهرت للوجود؟ ما الذي سبَّب بداية هذه الحركة؟ حتَّى علماء العهد الجديد المشكِّكون يدركون أنَّ الإيمان المسيحيَّ يُدين بأصله إلى إيمان التلاميذ الأوائل بأنَّ الله أقام يسوع الناصريَّ من الأموات، بل إنَّهم بنَوا تقريبًا كلَّ شيء على هذا الإيمان.

فلنأخذ مثلًا واحدًا: إيمانَهم بكَونِ يسوع هو المسيَّا (المسيح المنتظر). لم تكن لدى اليهود فكرة مسيًّا يُعدم بخزيٍ من قِبلهم بوصفه مجرمًا بدلَ أن ينتصر على أعداء الأمَّة العبرانيَّة، إذ كان يُفترَض أن يكون المسيَّا شخصًا منتصرًا يحظى باحترام اليهود والأمم على حدٍّ سواء، ويؤسِّس عرش داود في أورشليم. غير أنَّ المسيَّا الذي فشل في التخليص والحكم وهُزِم وأُهينَ وذُبح على يد أعدائه هو تناقضٌ في المصطلحات؛ إذ لا تتحدَّث النصوص اليهوديَّة في أيِّ مكان بشأن "مسيح منتظَر" كهذا. لذا فليست مبالغةً أن يوصَف الصلْبُ بالكارثة في ما يخصُّ إيمانَ التلاميذ، إذ نطق موتُ يسوع على الصليب كلمات النهاية المهينة لأيِّ آمال كانت لديهم أنَّه هو المسيَّا.

ناقش

أيَّ البراهين في هذا الفصل تَجدُها أكثر إقناعًا؟ في اعتقادك، كيف سيكون ردُّ فعل غير المسيحيِّين الذين تعرضُ لهم هذه البراهين المتنوِّعة؟ أيُّها سيكونُ أكثر تأثيرًا فيهم؟

لكنَّ الإيمان بقيامة يسوع قَلَب كارثة الصلْب. ولأنَّ الله أقام يسوع من الأموات، فقد حُسِبَ يسوع المسيَّا حتَّى بعد صلْبه. لذا يعلن بطرس في

أعمال ٢: ٢٣-٣٦: "هذا...أقامه الله...فليعلم يقينًا جميعُ بيت إسرائيل أنَّ الله جعل يسوع هذا، الذي صلبتموه أنتم، ربًّا ومسيحًا". إذ كان على أساس الإيمان بقيامته أنِ استَطاعَ التلاميذ أن يؤمنوا بأنَّ يسوع هو المسيًّا.

لذا ليس مفاجئًا أنَّ الإيمان بقيامة يسوع كان أمرًا شاملًا في الكنيسة المسيحيَّة الأولى، وتُظهر الصيغةُ التقليديَّة المُقتبسة في ١كورنثوس ١٥: ٣-٧، والتي يُعرَّف فيها الإنجيل بأنَّه موت المسيح ودفنه وقيامته وظهوراته، أنَّ هذا الفهم للإنجيل يعود إلى بداية الكنيسة في أورشليم.

لذلك يتعلَّق أصل المسيحيَّة بإيمان التلاميذ الأوائل بأنَّ الله أقام يسوع من الأموات. لكنَّ السؤال هو: كيف يمكن شرح أصل ذلك الإيمان؟ كما يقول آر. إتش. فولر (R. H. Fuller) إنَّه حتَّى أكثر النقَّاد تشكيكًا ينبغي أن يضعوا في المعادلة مجهولًا غامضًا لجعْل الحركة تعمل وتستمر، لكن ما هذا المجهول؟

تلخيص

والآن يمكننا تلخيص نقاطنا الثلاث كلِّها:

أوَّلًا، رَأَيْنا أنَّ اتِّجاهاتٍ متعدِّدة من البرهان التاريخيِّ تُثبت أنَّ قبر يسوع وُجد فارغًا بواسطة مجموعة من النساء اللاتي تبعْنَه.

ثانيًا، رأينا أنَّ العديد من اتِّجاهاتِ البرهان التاريخيِّ تُثبت أنَّه في مناسبات متعدِّدة وفي أماكن مختلفة رأى أفرادٌ ومجموعات متنوِّعة ظهوراتٍ ليسوع حيًّا من الأموات.

وأخيرًا، ثالثًا، رأينا أنَّ أصل الإيمان المسيحيِّ نفسه يعتمد على تصديق التلاميذ الأوائل أنَّ الله أقام يسوع الناصريَّ من الأموات.

أحد الأمور التي أذهلتني بشدَّة بعد أن أكملتُ بحثي في ميونيخ تمثَّل في إدراكي أنَّ هذه الحقائق العظيمة المُثبتة بصورة مستقلَّة تمثِّل **رأي الأغلبيَّة** من نقَّاد العهد الجديد اليوم. أمَّا النقطة الوحيدة للخلاف الخطير هي عن الطبيعة

المادِّيَّة لظهورات القيامة، غير أنَّ وَضْعَ العلمِ الحاليِّ يؤيِّد بقوَّة الحقائق الثلاث كما وصفتُها.

ليست هذه هي نتائج دراسات باحثين ينتمون إلى التيَّار المسيحيِّ المحافظ، بل هي نتائج التيَّار العامِّ لنقد العهد الجديد. وكما رأينا، تقبلُ الغالبيَّة الواسعة من العلماء الذين كتبوا عن الموضوع حقيقة القبر الفارغ، وفعليًّا ما من أحد ينكر أنَّ التلاميذ الأوائل اختبروا ظهورات ليسوع بعد موته، وبنسبةٍ كبيرة جدًّا يتَّفقُ معظم العلماء أنَّ التلاميذ الأوائل على الأقلِّ كانوا يؤمنون بأنَّ الله أقام يسوع من الأموات، والناقد الذي ينكر هذه الحقائق هو مَن يجد نفسه اليوم واقفًا في جهة المُدافع.

لذا لا يُضِلَّنَّك غير المؤمنين الذين يريدون المراوغة بشأن عدم اتِّساق التفاصيل لقصص الإنجيل، إذ لا تعتمد حُجَّتُنا لقيامة يسوع على تفاصيل مثل هذه، حيث تتَّفق الأناجيل الأربعة أنَّ:

> يسوع الناصريَّ صُلب في أورشليم على يد السلطات الرومانيَّة في عيد الفصح، بعد أن قُبض عليه وأُدين بتُهَم التجديف من السنهدريم اليهوديِّ، ثمَّ افتُري عليه أمام بيلاطس الحاكم بتهم الخيانة، ومات في غضونِ بضع ساعات، ودُفن بعد ظهر الجمعة بواسطة يوسُفَ الراميِّ في قبر، حيث خُتِمَ هذا القبر بحجرٍ. بعد ذلك، شاهدت دفنَه تابعاتٌ ليسوع، بمن فيهنَّ مريم المجدليَّة، وقد زُرن قبره باكرًا في صباح الأحد، فوجدنَ القبر فارغًا. ثمَّ ظهرَ يسوعُ حيًّا من الأموات للتلاميذ، بمن فيهم بطرس، وهؤلاء التلاميذ أصبحوا حينها المنادين برسالة قيامته.

تشهد كلُّ الأناجيل لهذه الحقائق، وتفصيلاتٌ أكثر بكثير يمكن إضافتها بذِكرِ المزيد من الحقائق التي يشهد لها ثلاثة أناجيل من الأربعة.

لذا فالتعارضات الثانويَّة لا تؤثِّر في حُجَّتنا، إذ يتوقَّع المؤرِّخون أن يجدوا عدم

اتّساقٍ حتّى في أكثر المصادر موثوقيّة، وما من مؤرّخ يُلقي ببساطة بمصدرٍ لأنّ فيه عدم اتّساق، وإلّا فسنكون مُضطرّين إلى التشكيك في كلّ الروايات التاريخيّة العلمانيّة والتي تحتوي أيضًا على عدم اتّساقٍ من هذا النوع، الأمر الذي يُعدُّ غير معقول بتاتًا. علاوة على ذلك، في هذه الحالة ليست حالة عدم الاتّساق موجودة حتّى في داخل مصدرٍ مفرد، بل هي بين مصادر مستقلّة، لكنْ دون شكٍّ لا يستتبع وجود عدم اتّساقٍ بين مصدرَين مستقلّين أنّ كلا المصدرَين خاطئان؛ ففي أسوأ الأحوال يكون أحدهما خاطئًا إنْ لم يمكن توافقهما.

الأمر الباقي إذًا هو كيف يمكن شرح هذه الحقائق المُثبتة التي قدّمتُها.

شرح البرهان

نأتي إلى الخطوة الثانية في حُجّتنا: تحديد أيّ تفسير للبرهان هو أفضل تفسير. يَزِنُ المؤرّخون عوامل متنوّعة في تقييم الفرضيّات المتنافسة، وبعض أهمّ العوامل هي كما يلي:

١. سيكون للتفسير الأفضل **مدى تفسيريٌّ** أعظم من الشروح الأخرى، بمعنى أنّه سيشرح المزيد من البرهان.

٢. سيكون للتفسير الأفضل **قدرة تفسيريّة** أعظم من الشروح الأخرى، بمعنى أنّه سيجعل البرهان أكثر ترجيحًا.

٣. سيكون التفسيرُ الأفضل **أكثر معقوليّة** من الشروح الأخرى، بمعنى أنّه سيتناسب بصورةٍ أفضل مع ما يوجد من خلفيّة من المعتقدات الصحيحة.

٤. سيكون التفسيرُ الأفضل **أقلّ عرضةً لتهمة التلفيق** من شروحٍ أخرى، بمعنى أنّه لن يحتاج إلى تبنّي معتقدات جديدة كثيرة ليس لها برهانٌ مستقلٌّ.

٥. سيكون التفسيرُ الأفضل **أقلّ عرضةً للدّحض من المعتقدات**

المقبولة بالفعل مقارنةَ بشروحٍ أخرى، بمعنى أنَّه لن يتضارب مع معتقدات مقبولة كثيرة.

٦. سيحقِّق التفسيرُ الأفضل الشروط ١-٥ أفضل كثيرًا من الآخرين لدرجة يصعب معها أن يحقِّق أيُّ واحد من الشروح الأخرى هذه الشروط على نحوٍ أفضل، إذا ما خضع لاستقصاء إضافيٍّ.

حيث إنَّه من الممكن أن تحقِّق فرضيَّةٌ ما بعض الشروط بصورةٍ جيِّدة، لكنْ لا تحقِّق شروطًا أخرى بالجودة نفسها، قد يكون اكتشافُ أيِّ الفرضيَّات هي أفضل تفسيرٍ أمرًا صعبًا ويحتاج إلى مهارة، لكنْ إذا كان المدى التفسيريُّ وقدرة الفرضيَّة على درجة عالية جدًّا، بحيث تبلي بلاءً حسنًا في شرح تنوُّع واسع من الحقائق، فمن المُرجَّح أن تكون هذه الفرضيَّة هي التفسير الصحيح.

فلنطبِّقْ إذًا هذه الاختبارات على الفرضيَّات النمطيَّة التي قُدِّمتْ على مرِّ التاريخ لشرْح القبر الفارغ وظهورات ما بعد الموت وأصل إيمان التلاميذ بقيامة يسوع، ولنرَ إن كانت هذه الفرضيَّات تبلي بلاءً حسنًا في شرح هذه الحقائق مقارنة بفرضيَّة القيامة.

فرضيَّة المؤامرة

بحسب هذه الفرضيَّة، سرقَ التلاميذ جسد يسوع وكذبوا بشأن ظهوراته، وبذلك لفَّقوا القيامة. كان هذا هو أوَّل تفسير مضادٍّ للقبر الفارغ كما رأينا، وأعيد إحياءُ هذا التفسير في القرن الثامن عشر من الربوبيِّين الأوروبِّيِّين، ومع ذلك، فقد تخلَّى اليوم العلمُ الحديث عن هذا التفسير تمامًا. فلنرَ أداء هذه الفرضيَّة عند تقييمها بالمعايير القياسيَّة لاختبار الفرضيَّات التاريخيَّة.

١. **المدى التفسيريُّ.** تُحقِّق فرضيَّة المؤامرة هذا الشرط بصورةٍ جيِّدة؛ إذ تقدِّم تفسيراتٍ للقبر الفارغ (التلاميذ سرقوا الجسد)، وظهورات ما بعد الموت (التلاميذ كذبوا بشأن هذه الظهورات)، وأصل إيمان التلاميذ (المفترض) في قيامة يسوع (كذبوا من جديد).

٢. **القدرة التفسيريَّة.** تبدأ الشكوكُ في الظهور هنا بشأن فرضيَّة المؤامرة، مثلًا بشأن القبر الفارغ. لو كان التلاميذ قد سرقوا جثَّة يسوع، لما كان هناك أيُّ سبب لتلفيق قصَّة بشأن نساء وجدن القبر فارغًا، فلم تكُن قصَّة كهذه من نوع القصص التي سيخترعها رجالٌ يهود، وفضلًا عن ذلك، لا تقدِّم فرضيَّة المؤامرة تفسيرًا جيِّدًا لبساطة القصَّة- فأين نصوص الدليل الكتابيّ، وبرهان النبوَّة المتحقِّقة؟ لماذا لا يوصف يسوع في ظهوره من داخل القبر، كما هي الحال في الكتابات المنحولة اللاحقة مثل إنجيل بطرس؟ ولا تقدِّم هذه الفرضيَّة حتَّى تفسيرًا جيِّدًا للخلاف مع اليهود غير المؤمنين. ولماذا لا نجد حرَّاس رواية البشير متَّى موجودين في قصَّة البشير مرقس؟ حتَّى في قصَّة البشير متَّى نجد الحرَّاس في وقت متأخِّر: كان يمكن أن يكون الجسد قد سُرق قبل وُصول الحرَّاس في صباح السبت، لذا كانوا يحرسون دون أن يدركوا، قبرًا فارغًا! من أجل حُجَّة غياب أكثر إحكامًا ضدَّ سرقة الجسد، انظر مرَّة أخرى إلى إنجيل بطرس المزيَّف، حيث يوضع الحرَّاس فورًا عند دفن الجثَّة.

في ما يتعلَّق بقصص الظهور، تظهر المشكلة ذاتها؛ إذ سيكون متوقَّعًا أنَّ من يلفِّق القصَّة سيصف ظهورات قيامة يسوع على الأرجح من ناحية رؤى العهد القديم لله وأوصاف قيامة نهاية الأيَّام (كما في دانيال ١٢: ٢)، لكن حينها يجب أن يظهر يسوعُ للتلاميذ في مجدٍ باهر، ولماذا لا نجد وصفًا للقيامة نفسها؟ لماذا لا نرى ظهورات لقيافا رئيس الكهنة أو للمجرمين من السنهدريم، كما توقَّع يسوع؟ لكانوا حينها وُسموا بأنَّهم الكَذَبة الحقيقيُّون لو أنكروا أنَّ يسوع ظهر لهم بالفعل!



"حسنًا، ها هي الخطّة: نأخذ الجسد من القبر ونلقي به في مكانٍ ما، ثمّ نرجع ونحكي قصّة ستسبّب لنا القتل على الأرجح. من معي في هذه الخطّة؟"

إلّا أنَّ القدرة التفسيريَّة لفرضيَّة المؤامرة هي دون شكٍّ في أضعف حالاتها حين يتعلَّق الأمر بأصل إيمان التلاميذ بقيامة يسوع؛ إذ إنَّ هذه الفرضيَّة هي حقًّا إنكارٌ لتلك الحقيقة، حيث تسعى إلى شرح مجرَّد مظهر الإيمان لدى التلاميذ، لكنْ كما أدرك النقّاد عمومًا لا يمكنك أن تُنكرَ بمعقوليَّةٍ أنَّ التلاميذ الأوائل على الأقلّ كانوا يؤمنون بإخلاص بأنَّ يسوع قام من الأموات، فقد خاطروا بحياتهم في سبيل تلك القناعة، ولا يمكن تفسير التغيُّر في حياة التلاميذ على نحوٍ يمكنُ تصديقه بواسطة فرضيَّةِ المؤامرة. وقد كان هذا القصور وحده كافيًا في أذهان معظم العلماء لنقضِ فرضيَّة المؤامرة القديمة إلى الأبد.

٣. **المعقوليَّة.** إنَّ نقطة الضعف الحقيقيَّة لفرضيَّة المؤامرة هي عدم معقوليَّتها، فقد تُذكَر هنا اعتراضاتٌ على التعقيد الذي لا يمكن تصديقه لمؤامرة كهذه، أو للحالة النفسيَّة المفترضة للتلاميذ، لكنَّ المشكلة الجوهريَّة التي تصغر أمامها كلُّ المشكلات الأخرى هي أنَّ من المفارقة التاريخيَّة افتراض أنَّ يهود القرن الأوَّل قصدوا تقديم خدعة قيامة يسوع.

تنظر فرضيَّة المؤامرة إلى حال التلاميذ بواسطة مرآةٍ خلفيَّةٍ للتاريخ المسيحيِّ بدلَ أن تنظر بعيون يهوديٍّ يعيش في القرن الأوَّل، فلم يكن هناك أيُّ توقُّعٍ لمسيحٍ يُعدَم في هوانٍ على يدِ الأمم بوصفه مجرمًا، بدلَ أن يؤسِّس عرش داود ويُخضع أعداء الأمة العبرانيَّة. وفضلًا عن ذلك، لم تكُن فكرة القيامة متَّصلة مع فكرة المسيَّا ولا حتَّى متناسبة معها، إذ لم يكُن من المفترض للمسيَّا أن يُقتل. وعلى حدِّ تعبير أن. تي. رايت (N. T. Wright)، فإذا كنتَ يهوديًّا تعيش في القرن الأوَّل، والمسيَّا المفضَّل لديك ورَّط نفسه إلى أن وصل به الأمر إلى الصَّلب، يكون أمامك خِياران: إمَّا أن تعود إلى حيث أتيتَ، وإمَّا أن تجدَ لنفسك مسيحًا آخر، لكنَّ فكرة سرقة جثَّة يسوع والقوْل إنَّ الله أقامه من الأموات هي فكرة يصعب جدًّا أن تكون قد دخلتْ في أذهان التلاميذ.

لقد اقتُرح أنَّ فكرة قيامة يسوع قد تكون نشأت بتأثير الميثولوجيا الوثنيَّة. ففي نهاية القرن التاسعَ عشرَ وبدايات القرن العشرين، جمَّع علماء أديان مقارَنة نظائر للمعتقدات المسيحيَّة في حركات دينيَّة أخرى، وفكَّر بعض الناس في شرْح المعتقدات المسيحيَّة بما فيها الإيمان بقيامة يسوع، نتيجةً لتأثير مثل هذه الأساطير، لكنَّ هذه الحركة انهارت سريعًا وذلك بسبب عاملَين أساسيَّين:

أوَّلًا، وصل العلماءُ إلى إدراك أنَّ النظائر خاطئة، فقد كان العالمُ القديم أشبَه بسلَّة فواكه لأساطير من آلهة وأبطال متنوِّعين، وتتطلَّب دراسات المقارنة في الدين حساسيَّة للتشابهات والفروق، وإلَّا سينتج تشويهٌ أو لغط لا محالة، لكن للأسف أولئك من تحمَّسوا ليجدوا النظائر لقيامة يسوع لم ينجحوا في ممارسة مثل هذه الحساسيَّة المطلوبة.

الكثير من النظائر المزعومة هي في الحقيقة قصصٌ عن استقبال البطل في السماء مثل هرقل (Hercules) ورومولوس (Romulus)، وقصصٌ أخرى هي قصص اختفاء، وهي تنادي بأنَّ البطل تلاشى نحو فلكٍ أعلى مثل بلِيناس الحكيم (Apollonius of Tyana) وإيمبيدوكليس (Empedocles). وأخرى هي

رموز موسميَّة لدورة المحصول، بموت النبات في الموسم الجافّ، وعودته إلى الحياة في الموسم المطير مثل تمُّوز (Tammuz)، وأوزوريس (Osiris) وأدونيس (Adonis). وبعضُها **تعبيراتٌ سياسيَّة** لعبادة الإمبراطور مثل يوليوس قيصر (Julius Caesar) وأغسطس قيصر (Caesar Augustus).

ولا واحدة من هذه تقابل الفكرة اليهوديَّة للقيامة من الأموات، بل في الحقيقة يشكُّ معظم العلماء في ما إذا كانت هناك **أساطير صحيحة** عن موت الآلهة وقيامتها. فمثلًا، في أسطورة أوزوريس والتي كانت إحدى أشهر الأساطير الرمزيَّة الموسميَّة، لا يعود أوزوريس إلى الحياة فعلًا لكنَّه يستمرُّ في الوجود في مملكة الراحلين.

وعمومًا، وصل العلماء إلى إدراك أنَّ الميثولوجيا الوثنيَّة هي ببساطة السياق التفسيريُّ الخاطئ لفهْم يسوع الناصريّ؛ فيسوع وتلاميذه كانوا يهودًا في القرن الأوَّل، وينبغي فهْمهم في ضَوء تلك الخلفيَّة. وانهيار النظائر المزعومة هو فقط دلالة واحدة على أنَّ الميثولوجيا الوثنيَّة هي السياق التفسيريُّ الخاطئ لفهْم إيمان التلاميذ بقيامة يسوع.

ثانيًا، لا توجد صلة سببيَّة بين الأساطير الوثنيَّة وأصل إيمان التلاميذ بقيامة يسوع، فقد كانت الآلهة الموسميَّة مألوفة لدى اليهود (حزقيال ٨: ١٤-١٥) وقد حسبوها مكروهة، لذلك لا توجد آثارٌ لعبادات لآلهة تموت وتقوم في الأمَّة العبرانيَّة في القرن الأوَّل. وعلى أيَّة حالٍ، من غير المُرجَّح أن يكون التلاميذ الأصليُّون قد جاءوا بفكرة أنَّ يسوع الناصريَّ قام من الأموات لسماعهم أساطير وثنيَّة بشأن موت الآلهة الموسميَّة وقيامتها، لذا فقد هجر العلماء المعاصرون هذا المنهاج.

لكن هل يمكن أن يكون التلاميذ قد جاءوا بفكرة قيامة يسوع على أساس تأثيراتٍ يهوديَّة؟ مرَّة أخرى، هذا غير محتمل؛ لأنَّ الفكرة اليهوديَّة عن القيامة تختلف على الأقلِّ في نقطتين أساسيَّتين عن قيامة يسوع.

أوَّلًا، في التفكير اليهوديِّ، دائمًا ما تحدث قيامة المجد والخلود بعد نهاية العالم، ولم تكن لدى اليهود أيَّة فكرة عن قيامة في إطار التاريخ، لذا أعتقد أنَّ التلاميذ واجهوا مشقَّة كبيرة في فَهْم نبوَّاتِ يسوع عن قيامته، فقد كانوا يظنُّونه يتكلَّم عن القيامة في نهاية العالم. انظر مثلًا إنجيل مرقس ٩: ٩-١١:

"وفيما هم نازلون من الجبل، أوصاهم أن لا يحدِّثوا أحدًا بما أبصروا، إلَّا متى قام ابن الإنسان من الأموات. فحفظوا الكلمة لأنفسهم يتساءلون: «ما هو القيام من الأموات؟» فسألوه قائلين: «لماذا يقول الكتبة: إن إيليَّا ينبغي أن يأتي أوَّلًا؟»".

يتنبَّأ يسوع هنا عن قيامته، لكنَّ التلاميذ يسألونه: "لماذا يقول الكتبة: إن إيليَّا ينبغي أن يأتي أوَّلًا؟" ففي يهوديَّة القرن الأوَّل كانوا يؤمنون بأنَّ إيليَّا سيأتي ثانيةً قبل يوم الربِّ العظيم والرهيب يوم الدينونة حين يقوم الأمواتُ. لم يستطع التلاميذ فهْم فكرة قيامةٍ تحدث في إطار التاريخ قبل نهاية العالم، لذا لم تؤدِّ نبوَّات يسوع سوى إلى إرباكهم.

وهكذا عندما نضعُ في حسباننا الفكرة اليهوديَّة للقيامة، لم يكن ممكنًا للتلاميذ بعد صلْب يسوع أن يجيئوا بفكرة أنَّه قام بالفعل، فقد كانوا سيتطلَّعون فقط إلى القيامة في اليوم الأخير، وربَّما كانوا، تماشيًا مع العادة اليهوديَّة، سيحافظون على قبره ليكونَ ضريحًا حيث تبقى عظامُه حتَّى القيامة.

ثانيًا، في التفكير اليهوديِّ كانت القيامة دائمًا قيامة **كلِّ الأبرار الأموات،** فلم تكُن لديهم فكرة قيامة فرد واحد، وعلاوةً على ذلك، لم تكُن هناك صلة بين قيامة المؤمن فردًا والقيامة المُسبَّقة للمسيح المنتظَر، وليس هذا فقط، بل لم يوجد بتاتًا أيُّ إيمان بالقيامة المُسبَّقة للمسيَّا، لذا لا نجد أيَّ مثالٍ على حركات مسيانيَّة أخرى تنادي بأنَّ قائدها الذي أُعدم قام من الأموات. وقد أكَّدَ رايت هذه النقطة قائلًا: "كان تابعو الحركات المسيانيَّة في القرن الأوَّل...مُكرَّسين بحماس وتعصُّبٍ لقضيَّتهم...لكن، لا نسمعُ في أيَّة حالة أخرى، في القرن

الأوَّل قبل الميلاد والقرن الثاني للميلاد، عن أيَّة مجموعة يهوديَّة تقول إنَّ قائدها الذي أُعدم قام ثانيةً من الأموات".[٧]

لم تكُن لدى اليهود فكرة قيامة فرد واحد، ولا سيَّما المسيح المنتظر، لذا فبعد صلْب يسوع، كلُّ ما كان في وُسع التلاميذ فعله هو أن ينتظروا بتَوقٍ القيامة العامَّة للأموات ليروا سيِّدهم من جديد.

ناقش

كيف تساعدك هذه الخلفيَّة التاريخيَّة على فهْم أحداث مثل تلك الموصوفة في إنجيل مرقس ٨: ٣١-٣٢ وأعمال الرسل ١٧: ١٦-١٨، ٣٢؟

لاحظ أنَّ هذه النقطة تقوِّض ليس فقط نظريَّات المؤامرة التي تفترض أنَّ التلاميذ أعلنوا عن قيامة يسوع **بتصنُّع**، بل أيضًا أيَّة نظريَّة تقترح أنَّهم على أساس تأثيراتٍ يهوديَّة أو وثنيَّة جاءوا إلى الإيمان **بإخلاصٍ** بقيامته ووعظوا بها.

٤. **أقلُّ عرضة لتهمة التلفيق.** مثل كلِّ نظريَّات المؤامرة في التاريخ، تُبدعُ فرضيَّة المؤامرة في افتراض أنَّ كلَّ ما يشير إليه البرهان هو في الحقيقة مجرَّد ظهور فقط، ويمكن تفسيرُه بفرضيَّات ليس لها أيُّ برهان. بالتحديد، تُسلِّم الفرضيَّة بدوافعَ وأفكارٍ في أذهان التلاميذ الأوائل وتصرُّفات من جانبهم لا توجد لها ذرَّة من البرهان. ويمكن أن تصيرَ أكثر إبداعًا، إذ تحتاج الفرضيَّات لأن تتضاعف لتتعامل مع الاعتراضات على النظريَّة. فمثلًا، كيف تفسِّر الظهور لخمسمئة أخ، أو دور المرأة في القبر الفارغ وقصص الظهور؟

٥. **أقلُّ عرضةً للدحض من المعتقدات المقبولة مسبَّقًا.** تميل فرضيَّة المؤامرة لأن تُدحَض بواسطة معرفتنا العامَّة بالمؤامرات، وعدم استقرارها وميلها إلى الانحلال. وعلاوة على ذلك، تُدحض بواسطة معتقدات مقبولة مثل إخلاص التلاميذ، وطبيعة التوقُّعات المسيانيَّة اليهوديَّة في القرن الأوَّل، وما إلى ذلك.

٦. **تتفوَّق على الفرضيَّات الأخرى في تحقيق الشروط ١-٥.** من الجليِّ أنَّ فرضيَّة المؤامرة تخفق في تحقيق هذا الشرط؛ إذ هناك فرضيَّات أفضل

(مثل فرضيَّة الهلوَسات)، والتي لا ترفض إيمان التلاميذ بقيامة يسوع بوصف هذا الإيمانِ كذبةً وقحة.

ما من عالم سيدافع عن فرضيَّة المؤامرة اليوم؛ فالمكان الوحيد الذي يمكنك فيه القراءة بشأنٍ أمور كهذه هو في الصحافة الشعبيَّة المثيرة أو فضاءات الإنترنت.

فرضيَّة الموت الظاهريّ

تفسيرٌ آخر هو فرضيَّة الموت الظاهريّ، فقد نادى النقَّاد نحو بداية القرن التاسع عشر بأنَّ يسوع لم يمت بالكامل حين أُنزل من على الصليب، فقد انتعش مجدَّدًا في القبر، وهرب ليقنع تلاميذه أنَّه قام من الأموات. وقد تُخلِّي عن هذه الفرضيَّة اليوم أيضًا بصورةٍ كاملة تقريبًا. لنطبِّق مرَّة أخرى معاييرنا لأفضل تفسير:

١. **المدى التفسيريُّ**. تقدِّم فرضيَّة الموت الظاهريِّ أيضًا تفسيرات للقبر الفارغ ولظهورات ما بعد الموت وأصل إيمان التلاميذ بقيامة يسوع.

٢. **القدرة التفسيريَّة**. تبدأ النظريَّة هنا في الانهيار، فبعض النُّسخ من فرضيَّة الموت الظاهريِّ هي بالفعل تعديلاتٌ في فرضيَّة المؤامرة، فبدلَ سرقة الجسد، يفترضُ أنَّ التلاميذ (ومعهم يسوع نفسه!) تآمروا لتلفيق موت يسوع على الصليب، وفي هذه الحالات تشترك النظريَّة مع فرضيَّة المؤامرة في كلِّ نقاط ضعفها. أمَّا النسخة غير التآمريَّة من النظريَّة فكانت أنَّ يسوع بقي على قيد الحياة بعد الصلْب رُغم ظنِّ الحرَّاس أنَّه ميت. وتقع على عاتق هذه النسخة من الفرضيَّة صعابٌ لا تُقهر: فكيف تفسِّر القبر الفارغ، إذ لا يمكن أن يحرِّكَ رجلٌ الحجرَ ليهرب بينما أُغلِقَ عليه في قبر؟ كيف تفسِّر ظهورات ما بعد الموت، فظهور رجل نصف ميت في حاجة ماسَّة إلى عناية طبِّيَّة من الصعب أن يُنتج في التلاميذ استنتاجًا أنَّه الربُّ المقام وقاهر الموت؟ كيف تفسِّر أصل إيمان التلاميذ بقيامة يسوع، إذ ستقودهم رؤيتهم له ثانيةً إلى استنتاج أنَّه لم يمت؟ فلم يكونوا ليظنُّوا أنَّه قام مُمجَّدًا من الأموات، بعكس الفكر اليهوديِّ (وبعكس ما تراه عيونهم).

٣. **المعقوليَّة.** تفشل النظريَّة هنا أيضًا فشلًا ذريعًا. إذ لا يمكن الشكُّ في أنَّ منفِّذي حكم الإعدام الرومان يعرفون عملهم جيِّدًا في التحقُّقِ من موتِ ضحاياهم. ولأنَّ اللحظة الدقيقة للموت بواسطة الصلب غير أكيدة، كان المنفِّذون يتحقَّقون من الموت بواسطة حربةٍ يطعنون بها جنبَ الضحيَّة، وهذا ما حدث ليسوع (يوحنَّا ١٩: ٣٤). وعلاوة على ذلك، ما تقترحه النظريَّة هو واقعيًّا مستحيلٌ على المستوى الجسديِّ؛ إذ يخبرنا المؤرِّخ اليهوديُّ يوسيفوس كيف أُنزل ثلاثة رجالٍ من معارفه من على صلبانهم، ثمَّ نالوا أفضل عناية طبِّيَّة، ومع ذلك فقد مات اثنان منهم (الحياة [Life] ٧٥: ٤٢٠ و٤٢١). لقد كان مدى تعذيب يسوع كبيرًا حتَّى إنَّه لم يكن ممكنًا بتاتًا أن يبقى على قيد الحياة بعد الصلب والقبر. واقتراح أنَّ رجلًا جريحًا لدرجة حرجة جدًّا يظهر للتلاميذ في مناسبات متنوِّعة في أورشليم والجليل هو محض خيال.

٤. **أقلُّ عرضة لتهمة التلفيق.** من الممكن أن تكونَ فرضيَّة الموت الظاهريِّ، لا سيَّما في نُسخِها التآمريَّة، إبداعيَّة بصورةٍ هائلة؛ إذ تدعونا هذه الفرضيَّة لتخيُّل مجتمعات سرِّيَّة، وأدوية تُعطى خلسةً، وتحالفات تآمريَّة ما بين تلاميذ يسوع وأعضاء من السنهدريم، وما إلى ذلك، وكلُّ هذا دون أدنى برهان يدعمها.

٥. **أقلُّ عرضةً للدحض من المعتقدات المقبولة مسبَّقًا.** تعمل الحقائق الطبِّيَّة على دحض فرضيَّةِ الموتِ الظاهريِّ بصورة هائلة، لا سيَّما الحقائقِ الخاصَّة بما يمكن أن يحدث لشخصٍ جُلد وصُلب، كما يدحضها أيضًا البرهان الذي يُجمِع عليه الغالبيَّة أنَّ يسوع ظلَّ بينَ تلاميذه بعد موته.

٦. **تتفوَّق على الفرضيَّات الأخرى في تحقيق الشروط ١-٥.** لا تكاد هذه النظريَّة تظهرُ بتاتًا! لذا، فليس لها تقريبًا مَن يدافعُ عنها بين مؤرِّخي العهد الجديد اليوم.

فرضيَّة الجسد المنقول

في واحدة من المحاولات اليهوديَّة الحديثة القليلة للتعامل مع الحقائق الخاصَّة بقيامة يسوع، اقترح جوزيف كلاوسنر (Joseph Klausner) في عام ١٩٢٢م أنَّ يوسُفَ الراميَّ وضع جسد يسوع في قبْره مؤقّتًا، لأنَّ الوقت كان متأخّرًا، ولقُرْب قبر عائلته من مكان صلْب يسوع. لكنَّه نقل الجثَّة لاحقًا إلى مقبرَة مشتركة للمجرمين، ولعدم معرفة التلاميذ بنقل الجسد، استنتجوا حين وجدوا القبر فارغًا أنَّ يسوع قام من الأموات. ورُغم أنَّه لا يوجد من العلماء مَن يدافع عن فرضيَّة كلاوسنر اليوم، فقد رأيتُ محاوَلاتِ كتَّابٍ مشاهيرَ لإعادة إحيائها، وفي ضوء ما قيل بالفعل عن النظريَّات الأخرى، فإنَّ أوجه قصور هذه الفرضيَّة واضحة:

١. **المدى التفسيريُّ.** لفرضيَّة الجسد المنقول مدًى تفسيريٌّ ضيِّق؛ إذ تحاول تفسير القبر الفارغ لكنَّها، لا تقول أيَّ شيء عن ظهورات ما بعد الموت وأصل إيمان التلاميذ بقيامة يسوع، لذا ينبغي تبنِّي فرضيَّات مستقلَّة لتفسير المدى الكامل للبرهان.

٢. **القدرة التفسيريَّة.** ليست لفرضيَّة كلاوسنر أيَّة قدرة تفسيريَّة في ما يختصُّ بالظهورات أو بأصل الإيمان المسيحيِّ، فمن جهة القبر الفارغ تواجه الفرضيَّةُ مشكلةً واضحة: فما دامَ يوسُفُ وأيُّ خدَّام معه كانوا يعرفون ما فعلوه بالجثَّة؛ فالنظريَّة هنا في مأزقٍ ولا يمكنها تفسيرُ لماذا لم يُصحِّح خطأ التلاميذ بمجرَّد أن بدأوا المناداة بقيامة يسوع- إلَّا إذا لجأنا إلى تخمينات إبداعيَّة لإيجاد حلٍّ لهذه المعضلة مثل أن يكون يوسف وخدَّامه ماتوا فجأةً!

قد يُقال إنَّه لم يكن ممكنًا تعرُّفُ جثَّةِ يسوع، لكنَّ هذا التوكيد غير حقيقيٍّ في الواقع؛ إذ كانت الممارسات اليهوديَّة للدفن تتضمَّن الحفر لاستخراج عظام الميت بعد مروم عامٍ ووضعها في مستودعٍ للحفاظ على العظام، ولذلك

كانت مواقع الدفن حتَّى للمجرمين مسجَّلة على نحوٍ شديد الحرص. لكنَّ الاعتراض أصلًا ليس على هذه الفكرة، فالفكرة هي أنَّ النزاعَ اليهوديَّ-المسيحيَّ الباكرَ بشأن القيامة لم يكن نزاعًا على موقع قبر يسوع، ولا عن هُويَّة الجثَّة، بل كان نزاعًا على سبب أنَّ القبر كان فارغًا. ولو كان يوسُف قد نقل الجسد، لأخذَ الجدلُ اليهوديُّ-المسيحيُّ مسارًا مختلفًا تمامًا.

٣. **المعقوليَّة.** هذه الفرضيَّة ليست معقولة لعددٍ من الأسباب، ففي اعتمادنا على مصادر يهوديَّة حتَّى الآن، نجد أنَّ مقبرة المجرمين كانت على بُعد ٤٥ إلى ٥٤٠ مترًا فقط من موقع صَلْب يسوع. وعلاوة على ذلك، كانت الممارسة اليهوديَّة هي دفْن المجرمين الذين أُعدموا في اليوم ذاته من إعدامهم، وذلك ما كان يوسُف يريد تحقيقه. إذًا كان يوسُف يستطيع أن يضع الجسد مباشرةً في مقبرة المجرمين، بل كان سيفعل ذلك بالفعل. وبذلك يُستبعد أيُّ احتياج لنقله لاحقًا أو لتنجيس قبر عائلته. وفي الواقع لم يكُن القانون اليهوديُّ **يسمح** للجسد بأن يُنقل لاحقًا، إلَّا إلى قبر العائلة. وكان لدى يوسف الوقت الكافي لدفْنٍ بسيط، والذي كان يتضمَّن على الأرجح غسْل الجثَّة ولفَّها في أكفان مع أطياب جافَّة.

٤. **أقلَّ عرضة لتهمة التلفيق.** تتضمَّن الفرضيَّة بعض الاختراع؛ حيث إنَّها تنسبُ إلى يوسف دوافعَ وأنشطةً لا يوجد ما يبرهنُها. ويصيرُ الأمر اختراعيًّا حقًّا لو احتجنا إلى اختراع أمورٍ، مثل الموت المفاجئ ليوسُف، لنُنقذَ الفرضيَّة.

٥. **أقلَّ عرضةً للدحض من المعتقدات المقبولة مسبَّقًا.** ما نعرفه عن إجراءات الدفن اليهوديِّ للمجرمين المذكورة آنفًا، تدحضُ هذه النظريَّة.

٦. **تتفوَّق على الفرضيَّات الأخرى في تحقيق الشروط ١-٥.** مرَّة أخرى لا يوجد على ما يبدو أيُّ مؤرِّخ يشترك في تقييم كهذا.

فرضيَّة الهلوسة

في كتاب "**حياة يسوع، دراسة دقيقة**" *(The Life of Jesus, Critically Examined)*، الذي صدر في عام ١٨٣٥م، اقترح ديفيد شتراوس أنَّ ظهورات القيامة ما هي إلَّا هلوسات من جانب التلاميذ. والمدافع الأبرز عن هذا الرأي اليوم هو ناقدُ العهد الجديد الألمانيُّ غيرد لوديمان، فكيف يكون أداءُ فرضيَّة الهلوسة حين نقيِّمها بحسب المعايير الموضوعة؟

١. **المدى التفسيريُّ**. لفرضيَّة الهلوسة مدى تفسيريٌّ ضيِّق؛ إذ لا تقول أيَّ شيء عن تفسير القبر الفارغ. لذا فعلينا إمَّا أنَّ ننكر حقيقة القبر الفارغ (من ثَمَّ الدفْن أيضًا) وإمَّا أن نضمَّ فرضيَّة **مستقلَّة** ما إلى فرضيَّة الهلوسة لشرح القبر الفارغ.

مرَّة أخرى، لا تقول فرضيَّة الهلوسة أيَّ شيء لشرح أصل إيمان التلاميذ بقيامة يسوع. لقد تحدَّث بعضُ العلماء كثيرًا مشيرين إلى التشابهات المزعومة ما بين ظهورات يسوع بعد موته والرؤى التي يظهر فيها الراحلون لأولئك النائحين عليهم. لكنَّ الدرس الجوهريَّ لهذه القصص المثيرة هو أنَّ النائح لا يستنتج أنَّ الراحل عاد مادِّيًّا إلى الحياة نتيجةً لخبرات مثل هذه- مهما بدت هذه الخبرات حقيقيَّة وملموسة- بل يُرى الراحل في الحياة الآخرة. وكما يلاحظ أن. تي. رايت أنَّه لشخصٍ في العالم القديم، ليست الرؤى التي يظهر فيها راحلٌ دليلًا أنَّ الشخص حيٌّ، بل دليلٌ على أنَّه ميت!

فضلًا عن ذلك، هناك تفسيرات أخرى في متناول اليدّ، في سياق يهوديٍّ، تفسِّر هذه الخبرات بصورة مناسِبةٍ أكثر من القيامة، فإذا وضعنا في الحسبان المعتقدات اليهوديَّة الحاليَّة بشأن الحياة بعد الموت، كان التلاميذ لو تصوَّروا هلوسات ليسوع، سيرون يسوع في السماء أو في حضن إبراهيم. حيث كان يُعتقد أنَّ نفوس الأبرار الراحلين تبقى إلى القيامة الأخيرة، ولم تكن رؤى كهذه لتقودهم إلى الإيمان بقيامة يسوع، فعلى الأكثر كانت فقط ستقود

التلاميذ إلى قَوْل إنَّ يسوع أُصعِدَ إلى السماء، لا إلى قول إنَّه قام من الأموات.

في العهد القديم، صُوِّرتْ شخصيَّاتٌ مثل أخنوخ وإيليَّا على أنَّها لم تمُت بل أُخذتْ مباشرةً إلى السماء. وفي كتابة يهوديَّة من خارج الكتاب المقدَّس تُدعى شهادة أيُّوب (٤٠)، تُتلى قصَّة عن طفلَين قُتلا في انهيار منزلٍ، وحين يزيل المنقذون الأنقاض لا يجدون جسدَي الطفلين في أيِّ مكان. وفي الوقت نفسه، ترى الأمُّ رؤيا لطفليها مُمَجَّدَين في السماء، حيث أخذهما الله. نحتاج هنا إلى تأكيد أنَّ الإصعاد إلى السماء عند اليهوديِّ هو ليس الأمر نفسه كالقيامة؛ فالإصعادُ هو أخذ شخصٍ ما جسمانيًّا من هذا العالم إلى السماء، أمَّا القيامة فهي إقامة رجلٍ ميت في هذا الكون الموصوف بالزمان والمكان. وهاتان فكرتان مختلفتان تمامًا.

ناقش

إنْ كان لك أن تتكلَّم إلى صديق غير مسيحيٍّ بشأن هذه الفرضيَّات، فماذا سيكون ردُّ صديقك برأيك؟ هل سيدافع عن واحدة من هذه الفرضيَّات؟ هل سيقبل بحقائق القبر الفارغ أو ظهورات ما بعد الموت أم سيرفضها حاسبًا إيَّاها مُلفَّقة؟

فإذا وضعنا في الحسبان المعتقدات اليهوديَّة الخاصَّة بالإصعاد والقيامة، ما كان للتلاميذ بعدَ أن رأوا رؤى سماويَّة ليسوع أن يعظوا بأنَّه قام من الأموات؛ فأقصى ما في الأمر، كان القبر الفارغ والهلوسات عن يسوع ستؤدِّي بهم إلى الإيمان بإصعاد يسوع إلى المجد؛ فقد كان ذلك متَّسقًا مع الإطار الفكريِّ لديهم، لكنَّهم ما كانوا ليؤمنوا بأنَّ يسوعَ قام من الأموات، إذ كان ذلك يتعارض مع المعتقدات اليهوديَّة بشأن القيامة من الأموات كما رأينا. من ثمَّ، حتَّى إنْ وضعنا الهلوسات في الحسبان، لا يزال الإيمان بقيامة يسوع باقيًا دون تفسير.

٢. **القدرة التفسيريَّة.** من الواضح أنَّ فرضيَّة الهلوسة لا تفعل أيَّ شيء لتفسير القبر الفارغ وأصل إيمان التلاميذ بقيامة يسوع، لكنَّ لها قدرةً تفسيريَّة ضعيفة حتَّى حين يتعلَّق الأمر بالظهورات؛ فبفرض أنَّ بطرس كان واحدًا من أولئك الأفراد الذين اختبروا رؤيا لأحد محبِّيه الراحلين أو اختبر رؤيا نابعة من الذَّنْب كما يتخيَّل لوديمان، فهل يكفي هذا لتفسير ظهورات القيامة؟ لا، إذ يتخطَّى تنوُّع الظهورات أيَّ حدود لأيِّ شيء

يمكن أن نجده في الكتب النفسيَّة. فيسوع لم يظهر فقط مرَّة واحدة، بل العديد من المرَّات، ولم يظهر فقط في مكان واحد ووضع واحد، بل في أماكن وأوضاع عدَّة. ولم يظهر فقط لفرد واحد، بل لأشخاص مختلفين. ولم يظهر فقط لأفراد، بل لمجموعات متنوِّعة. ولم يظهر فقط لمؤمنين، بل لغير مؤمنين بل حتَّى لأعداء. ووَضعُ تفاعلٍ متسلسلٍ ما بين التلاميذ لن يحلَّ المشكلة؛ لأنَّ أناسًا مثل يعقوب وبولس ليسا في السلسلة، فأولئك الذين يشرحون ظهورات القيامة نفسيًّا مُجبرون على بناء صورة مُركَّبة بترقيع حالات غير مرتبطة من خبرات الهلوسة، الأمر الذي يؤكِّد حقيقة أنَّه لا يوجد شيء مثل ظهورات القيامة في الكتب النفسيَّة.

٣. **المعقوليَّة.** يحاول لوديمان أن يُضفي معقوليَّة على فرضيَّة الهلوسة بالتحليل النفسيِّ لبطرس وبولس؛ إذ يعتقد أنَّ كلًّا منهما كان مرهَقًا تحت عُقدِ ذَنْب وجدتْ مخرجًا في هلوسات عن يسوع. لكنَّ التحليل النفسيَّ للوديمان ليس معقولًا لثلاثة أسباب: أوَّلًا، استخدام لوديمان لعلم النفس العميق مبنيٌّ على نظريَّات معيَّنة ليونغ (Jung) وفرويد (Freud)، وهي نظريَّات حولها جدلٌ كبير. ثانيًا، ليست هناك بيانات كافية لإجراء تحليلٍ نفسيٍّ لبطرس وبولس؛ فالتحليل النفسيُّ صعبٌ بما يكفي حتَّى مع وجود العميل على أريكة المحلِّل النفسيِّ إذا جاز التعبير. لكنَّ الأمر يبدو أقرب إلى المستحيل مع الشخصيَّات التاريخيَّة، لذلك فإنَّ محاولة كتابة سيرةٍ نفسيَّة هي محاولة مرفوضة من المؤرِّخين اليوم. وأخيرًا، وهو السبب الثالث، يقترح البرهان الذي لدينا أنَّ بولس لم يصارع مع عقدة ذنب كما يفترض لوديمان. فمنذ نحو خمسين عامًا أشار العالم السويديُّ كريستر ستوندال (Krister Stendahl) إلى أنَّ القرَّاء الغربيِّين مالوا إلى تفسير بولس في ضَوء صراعات مارتن لوثر مع الذَّنب والخطيَّة، لكنَّ بولس (أو شاول) الفَرِّيسيَّ لم يختبر صراعًا كهذا. وفي هذا الصدد يكتب ستوندال:

الإصعاد والقيامة

القيامة هي إقامة رجلٍ ميت في الكون الموصوف بالزمان والمكان إلى المجد والخلود، أمَّا الإصعاد فهو أخْذ شخصٍ ما جسمانيًّا من هذا العالم إلى السماء والإقامة هي عودة رجلٍ ميت إلى الحياة الفانية. ويصفُ ٢ملوك ٢: ١-١٢ إصعاد إيليًّا إلى السماء، ويصفُ يوحنَّا ١١: ١-٤٤ إقامة لعازر على يدِ يسوع. لاحظ الفروق ما بين الحدثَين وقيامة يسوع.

"انظُر إلى بولس، مَن كان يهوديًّا ناجحًا سعيدًا جدًّا، والذي كان في وُسعه أن يقول: «من جهة البرِّ الذي في الناموس [كنتُ] بلا لوم» (فيلبِّي ٣: ٦). ذلك حقًّا ما يقوله. فهو لا يختبر أيَّ اضطراب أو مشكلات أو تأنيبًا للضمير، بل هو تلميذ مُميَّز. إنَّه الطالبُ من ذلك النوع الذي يحصل على منحة الدراسة العليا في معهد تعليم اللاهوت لدى غمالائيل...ليست هناك أيَّة إشارة في أيِّ مكان في كتابات بولس...إلى أنَّه كانت لديه على المستوى النفسيّ مشكلةٌ ما تخصُّ ضميره".[٨]

ولتسويغ تصوُّر لوديمان لبولس على أنَّه يعاني عقدة الذَّنب، يُضطرُّ إلى تفسير رومية ٧ من ناحية خبرة بولس قبل أن يصيرَ مؤمنًا بالمسيح. لكنَّ هذا التفسير مرفوضٌ من كلِّ المعلِّقين تقريبًا منذ أواخر عشرينيَّات القرن العشرين، لذا فمن المؤكَّد أنَّ التحليل النفسيَّ للوديمان غير معقول.

ناحية أخرى تظهر فيها عدم معقوليَّة فرضيَّة الهلوسة هي أنَّها تحسبُ ظهورات القيامة مجرَّدَ خبرات بصريَّة، ويقِرُّ لوديمان أنَّ فرضيَّة الهلوسة تعتمد على افتراض أنَّ ما اختبره بولس في طريق دمشق هو الأمر نفسه الذي اختبره كلُّ التلاميذ **الآخرين**، لكنَّ هذا الافتراض دون أساس من الصحَّة. ففي وضع اسم بولس ضمن قائمة شهود العيان على ظهورات قيامة المسيح، لا يلمِّح بولس، بأيَّة حال من الأحوال، أنَّ كلَّ الظهورات كانت تمامًا مثل الظهور له. ولأنَّ الكثير من خصوم بولس في كورنثوس كانوا ينكرون أنَّه رسولٌ حقيقيٌّ، كان بولس مهتمًّا بضمِّ نفسه إلى الرسل الآخرين الذي رأوا المسيح. ويحاول بولس هنا أن يرفع خبرتَه إلى مستوى موضوعيَّة خبراتهم وحقيقيَّتها، لا أن يجذب خبرتهم إلى أسفل إلى مستوى الخبرات البصريَّة فقط.

تعاني إذًا فرضيَّة الهلوسة عدمَ المعقوليَّة في ما يتعلَّق بتحليلها النفسيِّ للشهود واختزالها الكامل للظهورات إلى فكرة الخبرات البصريَّة.

٤. **أقلّ عرضة لتهمة التلفيق.** تتّسم نسخة لوديمان من فرضيّة الهلوسة بالإبداع في عدد من الأمور. مثلًا، تفترض أنّ التلاميذ هربوا راجعين إلى الجليل بعد القبض على يسوع، وأنّ بطرس كان مهووسًا بالذنب لدرجة تصوُّره للهلوسات عن يسوع، وأنّ التلاميذ الآخرين كانوا عرضة للهلوسات، وأنّ بولس كان يصارع مع الناموس اليهوديّ ومع انجذابٍ سرّيٍّ للمسيحيّة.

٥. **أقلّ عرضةً للدحض من المعتقدات المقبولة مسبّقا.** تميل بعضٌ من المعتقدات المقبولة لعلماء العهد الجديد اليوم إلى دحض فرضيّة الهلوسة، على الأقلّ كما يقدّمها لوديمان. وإليكم مثلًا بعضًا من هذه المعتقدات: المعتقدات أنّ يسوع وُضع في قبر بواسطة يوسف الراميّ، وأنّ قبر يسوع اكتُشف فارغًا بواسطة نساءٍ، وأنّ التحليل النفسيّ لشخصيّات تاريخيّة أمر غير عمليٍّ، وأنّ بولس كان بصورةٍ أساسيّة سعيدًا بحياته تحت الناموس اليهوديّ، وأنّ العهد الجديد يميّز ما بين مجرّد رؤيا وظهور القيامة.

ناقش

برأيك، ما سبب أنّ فرضيّة الهلوسة اليوم هي الفرضيّة الأبرز بين أولئك المنكرين لقيامة يسوع؟

٦. **تتفوّق على الفرضيّات الأخرى في تحقيق الشروط ١-٥.** تظلّ فرضيّة الهلوسة اليوم اختيارًا حيًّا وفي هذا الصدد قد تفوّقت على منافسيها الطبيعيّين، لكن السؤال هو ما إذا كانت تتفوّق على فرضيّة القيامة.

فرضيّة القيامة

لقد رأينا مدى فَقْر التفسيرات النمطيّة للقبر الفارغ، ولظهورات ما بعد الموت، ولأصل إيمان التلاميذ، حين تُقيّم هذه التفسيرات بالمعايير القياسيّة لاختبار الفرضيّات التاريخيّة، وتتّسم هذه التفسيرات بالضعف بصورةٍ خاصّة حين يتعلّق الأمر بالمدى التفسيريّ والقدرة التفسيريّة، وهي في أحيان كثيرة تفسيرات غير معقولة.

لكن هل تؤدّي فرضيَّةُ القيامة أداءً أفضل في تفسير البرهان؟ هل هي تفسيرٌ أفضل من التفسيرات الطبيعيَّة غير المعقولة التي قُدِّمتْ في الماضي؟ للإجابة عن هذه الأسئلة، لنطبِّقْ المعايير ذاتها على فرضيَّة أنَّ "الله أقام يسوع من الأموات".

١. **المدى التفسيريُّ.** لفرضيَّة القيامة مدى تفسيريٌّ أعظم من بعض التفسيرات المنافسة مثل فرضيَّة الهلوسة أو الجسد المنقول، وذلك بتفسير الحقائق الثلاث الأساسيَّة قيد المناقشة، في حين أنَّ هذه الفرضيَّات المنافسة تفسِّر حقيقةً واحدة.

٢. **القدرة التفسيريَّة.** ربَّما تكون القدرة التفسيريَّة هي أعظم نقطة قوَّة لفرضيَّة القيامة، فمثلًا، لا تفسِّر فرضيَّة المؤامرة وفرضيَّة الموت الظاهريِّ بصورةٍ مُقنِعةٍ القبر الفارغ وظهورات القيامة وأصل الإيمان المسيحيِّ، فبحسب هاتين النظريَّتين يصبح البرهانُ (مثلًا، تحوُّل التلاميذ) بعيد الاحتمال جدًّا. وفي المقابل، بحسب فرضيَّة قيامة يسوع يبدو الأمرُ مُحتملًا جدًّا أنَّه يجب أن يكون القبر فارغًا، وأن يرى التلاميذ ظهورات ليسوع حيًّا، وأن يصلوا إلى الإيمان بقيامته.

٣. **المعقوليَّة.** تنمو معقوليَّة قيامة يسوع نموًّا متسارعًا بمجرَّد أن نفكِّر في الأمر في سياقه التاريخيِّ، تحديدًا حياة يسوع التي لا نظير لها، وتصريحاته الشخصيَّة الراديكاليَّة، وفي سياقه الفلسفيِّ، تحديدًا برهان وجود الله. مجرَّد أن نتبنَّى رأي أنَّ الله موجودٌ، نجد أنَّ فرضيَّة أنَّ الله سيُقيم يسوعَ من الأموات ليست أقلَّ معقوليَّة من منافسيها.

٤. **أقلُّ عرضة لتهمة التلفيق.** لفرضيَّة القيامة مدى تفسيريٌّ وقدرة تفسيريَّة عظيمان، لكنَّ بعض العلماء هاجموها حاسبين إيَّاها اختراعًا وتلفيقًا. وستذكُر أنَّ فكرة أن تكون الفرضيَّة أكثر اختراعًا هي أمرٌ متعلِّق بعدد الافتراضات الجديدة التي ينبغي للفرضيَّة أن تطرحها، ولا يمكن أن تُفهم هذه الافتراضات ضمنًا من المعرفة الموجودة بالفعل.

بهذا التعريف، يكون من الصعب رؤية السبب أنَّ فرضيَّة القيامة تُعدُّ من ابتداع أحد؛ فهي تتطلَّب فقط افتراضًا جديدًا واحدًا: أنَّ الله موجود، وبالتأكيد تتطلَّب الفرضيَّات المنافسة افتراضات جديدة أكثر. مثلًا، تتطلَّب منَّا فرضيَّة المؤامرة أن نفترض أنَّ الشخصيَّة الأخلاقيَّة للتلاميذ كانت مَعيبة، الأمر الذي بالتأكيد لا يُفهم ضمنًا بالمعرفة الموجودة بالفعل. وتتطلَّب فرضيَّة الموت الظاهريِّ افتراض أنَّ طعْن قائد المئة لجنب يسوع بالحربة كان مجرَّد وخزةً سطحيَّة أو أنَّها تفصيلة غير تاريخيَّة في الرواية، الأمر الذي يذهب بعيدًا عن المعرفة الموجودة بالفعل. وتتطلَّب منَّا فرضيَّة الهلوسة أن نفترض نوعًا ما من الإعداد العاطفيِّ للتلاميذ الذي أدَّى بهم إلى تصوُّر رؤى ليسوع حيًّا، الأمر الذي لا يُفهم ضمنًا في معرفتنا العامَّة، وهناك أضعاف هذه الأمثلة.

علاوةً على ذلك، للشخص الذي يؤمن بالله **بالفعل**، لا تقدِّم فرضيَّة القيامة حتَّى الافتراض الجديد لوجود الله، فهذا الأمر مفهومٌ ضمنًا في منظومته المعرفيَّة الحاليَّة. لذا لا يمكن القوْل إنَّ فرضيَّة القيامة مُبدَعة ببساطة وذلك استنادًا إلى عدد الافتراضات الجديدة التي تطرحُها.

إذا كانت فرضيَّتنا مُبدَعة، فبالتأكيد هي مُبدَعة لأسبابٍ أخرى، إذ تضمُّ الفرضيَّات العلميَّة بانتظام افتراضَ وجود كيانات جديدة، مثل الكوارك والأوتار والجرافيتونات والثقوب السوداء وما شابه، دون أن توصَف هذه النظريَّات بأنَّها مُبدَعة. وقد وجد فلاسفةُ العلم صعوبةً شديدةً في شرْح ما يجعل فرضيَّةً ما مُبدَعة، إذ يبدو أنَّ هناك إحساسًا عامًّا من الاصطناعيَّة بشأن فرضيَّة تُعدُّ مُبدَعة، الأمر الذي يستشعره أولئك الممارسين المحنَّكين في العلم مجال البحث.

والآن أعتقد أنَّ إحساس عدم الراحة الذي يشعر به الكثير من الناس، **حتَّى المؤمنين بالمسيح**، بشأن الاحتكام إلى الله ليكونَ جزءًا من فرضيَّة تفسيريَّة لظاهرة ما في العالم، هو أنَّ هذه الفكرة تبدو لهم مفبركةً وغير صادقة؛ إذ

يبدو الأمرُ سهلًا أكثر مًّا ينبغي أن نستسلمَ سريعًا حين نواجَه بظاهرة لا يمكن تفسيرها قائلين: "الله فعلها!" فهل فرضيَّة أنَّ "الله أقام يسوع من الأموات" مُبتدَعة بهذا المعنى؟

لا أعتقد ذلك، فتفسيرٌ فائق للطبيعة للقبر الفارغ ولظهورات القيامة ولأصل الإيمان المسيحيِّ لا يمكن أن يقال عنه مُبدَعًا إذا ما وضعنا في الحسبان سياقَ الحياة الفريدة التي عاشَها يسوع، علاوة على خدمته وتصريحاته الشخصيَّة؛ إذ تتَّفق فرضيَّةٌ فائقة للطبيعة مع هذا السياق. وبسبب هذا السياق التاريخيِّ نفسه، لا تبدو فرضيَّة القيامة مبدَعة لدى مقارنتها بتفسيرات معجزيَّة من أنواع أخرى، مثلًا أنَّ "معجزة نفسيَّة" حدثت جاعلةً رجالًا ونساءً طبيعيِّين يتآمرون ويكذبون ويكونون مستعدِّين للاستشهاد طواعيةً من أجل أكاذيبهم، أو أنَّ "معجزة بيولوجيَّة" حدثت ومنعت يسوع من الموت على الصليب (رغم طعْنة الحربة في صدره). إنَّ هذه الفرضيَّات المعجزيَّة هي التي تصدمنا في صورتها الصناعيَّة والمُبدَعة، وليست فرضيَّة القيامة والتي تبدو منطقيَّة تمامًا في سياق خدمة يسوع والتصريحات الشخصيَّة الراديكاليَّة، لذلك يبدو لي أنَّه من غير الممكن أن توصَف فرضيَّة القيامة بأنَّها مفرطةٌ في الإبداع.

٥. **أقلَّ عرضةً للدحض من المعتقدات المقبولة مسبَّقًا.** لا أستطيع التفكير في أيِّ معتقد مقبولٍ يدحض فرضيَّة القيامة- إلَّا إذًا فكَّرنا مثلًا في أنَّ "الأموات لا يقومون" لدحضِ الفرضيَّة. غير أنَّ هذا التعميم المبنيَّ على ما يحدث طبيعيًّا حين يموت الناسُ لا يفعل الكثير لدحض الفرضيَّة أنَّ الله أقام يسوع من الأموات؛ إذ يمكننا أن نؤمن بالاثنين معًا على نحو متَّسق: أنَّ مَن يموتون لا يقومون طبيعيًّا من الأموات وأنَّ الله أقام يسوع من الأموات. في المقابل، تُدحَض النظريَّات المنافسة بمعتقدات مقبولة بشأن عدم استقرار المؤامرات مثلًا، ومدى ترجيح الموت بعد الصلب، والمواصفات النفسيَّة لخبرات الهلوسات، وما إلى ذلك كما رأينا آنفًا.

٦. **تتفوّق على الفرضيّات الأخرى في تحقيق الشروط ١-٥.** هناك فرصة ضئيلة جدًّا لأيٍّ من الفرضيّات المنافسة أن تفوق فرضيّة القيامة في تحقيق الشروط المذكورة آنفًا. وذهول العلم المعاصر أمام حقائق القبر الفارغ وظهورات القيامة وأصل الإيمان المسيحيّ يشيرُ إلى أنّه ما من منافس أفضل في أيِّ مكان على الساحة. مجرّد أن تتخلّى عن تحامُلك ضدّ المعجزات، ستجد أنّه يصعبُ أن تُنكر أنّ قيامة يسوع هي أفضل تفسير للحقائق.

خاتمة

في الختام هناك ثلاث حقائق عظيمة مُثبَتة بصورة مستقلّة: القبر الفارغ، وظهورات القيامة، وأصل الإيمان المسيحيّ. وكلّها تشير إلى الخلاصة المدهشة: أنّ الله أقام يسوع من الأموات. وإذا وضعنا في الحسبان وجود الله، لا يمكن أن تُحجب هذه النتيجة عن أيِّ شخصٍ يسعى إلى معنى الوجود.

حُجَّة تاريخيَّة لقيامة يسوع

١. **تحديد البرهان الذي يجب تفسيره.**

أ. في أوَّل أيام الأسبوع بعد صلْب يسوع، وُجد قبرُه فارغًا من مجموعة من نساء كُن يتبَعنَه.

١. تدعمُ الموثوقيَّةُ التاريخيَّة لقصَّة دفْن يسوع القبرَ الفارغ.

٢. قصَّة قبر يسوع الفارغ مُسجَّلة بصورة مستقلَّة في مصادر باكرة.

٣. قصَّة مرقس بسيطة وتخلو من التطوُّر الأسطوريِّ.

٤. يوجِبُ أوَّل ردِّ فعلٍ يهوديٍّ على إعلانِ قيامة يسوع أنَّ القبرَ كان فارغًا.

ب اختبر أفرادٌ ومجموعات في مناسبات مختلفة وتحت أوضاع متنوِّعة ظهورات ليسوع حيًّا.

١. تَضمَنُ قائمةُ بولس لشهود العيان مَن شهدوا على ظهورات قيامة يسوع حدوثَ هذه الظهورات.

٢. تُقدِّم قصص الإنجيل تقارير متعدِّدة مستقلَّة عن ظهورات يسوع بعد موته.

٣. كانت ظهورات القيامة ظهورات مادِّيَّة جسمانيَّة.

ج. آمن التلاميذ الأوائل بإخلاصٍ بقيامة يسوع رغم كلِّ استعداد لما هو عكس ذلك.

١. لم يكن لليهود أيُّ توقُّع لمسيًّا يُعدمُ في هوان بواسطتهم بصفة مجرمٍ بدلَ أن ينتصر على أعداء الأمَّة العبرانيَّة.

٢. تستبعد المعتقدات اليهوديَّة عن الحياة الآخرة قيامة أيٍّ شخص من الأموات إلى المجد والخلود قبل القيامة في نهاية العالم.

٢. شرح البرهان

أ. لا تبلي التفسيرات المنافسة بلاءً حسنًا عند تقييمها بالمعايير القياسيَّة لأفضل تفسير، مثل المدى التفسيريّ، والقدرة التفسيريَّة، والمعقوليَّة، وكونها مُبدَعة، وإمكانيَّة دحضها من قبل المعتقدات المقبولة مسبَّقًا، وتفوُّقها على منافسيها في تحقيق هذه المعايير.

١. نظريَّة المؤامرة

٢. نظريَّة الموت الظاهريّ

٣. نظريَّة الجسد المنقول

٤. نظرية الهلوسة

ب. تظهرُ نظريَّة القيامة عند الحُكم عليها من قِبل المعايير نفسها بوصفها أفضل تفسير.

الفصل العاشر

هل يسوع هو الطريق الوحيد إلى الله؟

"وليس بأحدٍ غيره الخلاص. لأنْ ليس اسمٌ آخر تحت السماء، قد أُعطي بين الناس، به ينبغي أن نخلص" (أعمال ٤: ١٢).

كثيرًا ما أتحدَّث في جامعات كنديَّة بموضوع وجود الله. وعادةً ما أقدِّم حُجَّة تراكميَّة تصل إلى ذروتها في قيامة يسوع. وبعد إحدى ندواتي، كتبتْ طالبةٌ غاضبة بعض الشيء على بطاقة التعليق: "كنتُ متَّفقةً معك إلى أن وصلتَ إلى الأمور بشأن يسوع، فالله ليس هو الإله المسيحيّ!"

هذا التوجُّه منتشرٌ في الثقافة الغربيَّة اليوم؛ إذ يُسعِدُ كثيرين أنَّ يتَّفقوا على وجود الله، لكنْ في مجتمعنا التعدُّديِّ صار من عدم الكياسة التصريح أنَّ الله أعلنَ عن نفسه على نحوٍ حاسمٍ ونهائيٍّ في يسوع المسيح.

تعليم العهد الجديد

غير أنَّ هذا هو بالضبط ما يعلِّم به العهد الجديد بوضوح. ففي رسائل الرسول بولس، مثلًا، يدعو مَن آمنوا من الأمم أن يتذكَّروا أيَّامهم قبل الإيمان: "أنَّكم كنتم في ذلك الوقت بدون مسيح، أجنبيِّين عن رعويَّة إسرائيل، وغرباء عن عهود الموعد، **لا رجاء لكم، وبلا إله في العالم**" (أفسس ٢: ١٢).

إنَّ الفكرة الأساسيَّة في الأصحاحات الافتتاحيَّة من رسالة بولس إلى أهل رومية هي إظهار أنَّ هذه الحالة الكئيبة هي الوضع العامُّ للبشر. ويشرحُ بولس أنَّ قدرة الله ولاهوته يُدركَان بالخليقة من حولنا، لذا فالكلُّ بلا عذر (١: ٢٠)، كما يقول إنَّ الله كتب ناموسَه الأخلاقيَّ في قلوب كلِّ الناس، ومن ثمَّ فهُم مسؤولون أخلاقيًّا أمامه (٢: ١٥). ومع أنَّ الله يعطي الحياة الأبديَّة لكلِّ مَن يستجيب لإعلان الله العامِّ في الطبيعة والضمير (٢: ٧)، فالحقيقة المحزنة هي أنَّ الناسَ تجاهلوا الله واستهانوا بناموسه الأخلاقيِّ (١: ٢١-٣٢) بدلَ أن يعبُدوا خالقهم ويخدموه، والنتيجة أنَّ الكلَّ باتوا تحت سلطان الخطيَّة (٣: ٩-١٢).

والأسوأ من ذلك أنَّ بولس يستمرُّ في شرح أنَّه ما من أحد يستطيع فداء نفسه باتِّباع الحياة البارَّة (٣: ١٩-٢٠)، لذا فنحن مغلوبٌ على أمرنا تمامًا، ولكنْ لحُسن الحظِّ دبَّر الله وسيلةً للنجاة: فقد مات يسوعُ المسيح من أجل خطايا البشر، وبذلك وفَّى مطالب عدل الله، ويسَّر لنا التصالح معه (٣: ٢١-٢٦). وبموت المسيح الكفَّاريِّ صار الخلاصُ متاحًا بالنعمة التي تُقبَلُ بالإيمان.

إنَّ منطق العهد الجديد واضحٌ: أنَّ **عموميَّة الخطيَّة وتفرُّد الموت الكفَّاريِّ للمسيح** يوجِبانِ أنَّه ما من خلاص بعيدًا من المسيح. فكما أعلن الرسلُ: "وليس بأحدٍ غيره الخلاص. لأنْ ليس اسمٌ آخر تحت السماء، قد أُعطي بين الناس، به ينبغي أن نخلص" (أعمال ٤: ١٢).

كان هذا التعليمُ، أنَّ الخلاص يأتي بواسطة المسيح وحده، مُخزيًا في عالَم يؤمن بتعدُّد الآلهة في الإمبراطوريَّة الرومانيَّة كما هو اليوم أيضًا في الثقافة الغربيَّة المعاصرة. وقد تعرَّض المسيحيُّون الأوائل لاضطهاد شديد وتعذيب وموت بسبب رفضهم تبنِّي توجُّهٍ تعدُّديٍّ للأديان. لكن بمرور الوقت وبينما نمت المسيحيَّة وصارت الديانة الرسميَّة للإمبراطوريَّة الرومانيَّة، انحسر هذا الخزي، بل بات الأمرُ لدى مفكِّرين مسيحيِّين مثل أغسطينوس وتوما الأكوينيِّ، أنَّ إحدى علامات الكنيسة الحقيقيَّة هي أنَّها جامعة، إذ بدا أمرًا لا يُعقل أن يكون بناء الكنيسة المسيحيَّة الذي يملأ كلَّ الحضارة مؤسَّسًا على كذب.



كانت پيرپيتوا (Perpetua) أمًّا صغيرة وقُبض عليها في أوائل القرن الثالث الميلاديّ لرفضها الاعتراف بآلهة أخرى بجانب المسيح. كما حُكم عليها وعلى آخرين معها بأن تُمزَّق على يدِ الحيوانات المتوحِّشة. وبينما كانت في السجن، كتبتْ قصَّة عن اختبارها، وهذه القصَّة موجودة حتَّى اليوم.

زوال العقيدة التقليديَّة

جاء زوالُ هذه العقيدة مع ما يُسمَّى بتوسُّع أوروپّا، والمتمثِّل في الثلاثة القرون من الاستكشاف والاستطلاع ما بين عامَي ١٤٥٠ و١٧٥٠، وعبْر أسفارٍ ورحلاتٍ لرجالٍ مثل ماركو پولو (Marco Polo) وكريستوفر كولومبوس (Christopher Columbus) وفيرديناند ماجيلان (Ferdinand Magellan)، اكتُشفتْ حضاراتٌ

جديدة وعوالم جديدة كاملة لم تكُن تعرف أيَّ شيء عن الإيمان المسيحيِّ، وكان لإدراك أنَّ الكثير من تعداد العالم يقع خارج حدود المسيحيَّة تأثيرٌ ثنائيٌّ في التفكير الدينيِّ للناس.

أوَّلًا، مال هذا الإدراكُ إلى النظر إلى المعتقدات الدينيَّة على أنَّها نسبيَّة؛ فقد أدرك الناس أنَّ المسيحيَّة بعيدة من كونها الديانة العالميَّة للبشر، بل كانت محدودةً في أوروبَّا الغربيَّة، في ركنٍ من العالم، وبدا أنَّه ما من دين مُحدَّدٍ يمكنه زعم أن يكونَ صالحًا للعالم، إذ بدا لكلِّ مجتمعٍ دينٌ خاصٌّ به يناسب احتياجاته المُميَّزة.

التحديد الدينيّ (Religious Particularism) مقابل التعدُّديَّة الدينيَّة (Religious Pluralism)

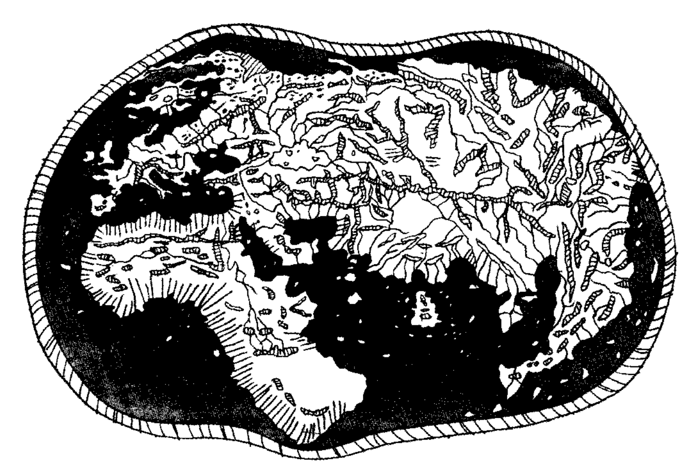
التحديد هو الرأي أنَّ هناك دينًا واحدًا فقط للخلاص، والتعدُّديَّة هي الرأي بأنَّ الكثير من الأديان هي طُرقٌ للخلاص.

ثانيًا، جعل هذا الإدراكُ زَعْم المسيحيَّةِ أنَّها الطريق الوحيد للخلاص يبدو ضيِّقًا وقاسيًا؛ فقد كان ڤولتير (Voltaire) أحد عقلانيِّي التنوير يسخر بمسيحيِّي عصره بفكرة أنَّ الملايين من الصينيِّين محكوم عليهم بالجحيم لأنَّهم لم يؤمنوا بالمسيح، بينما لم يسمعوا حتَّى به.

وفي عصرنا الحاضر، أدَّى تدفُّقُ المهاجرين إلى البلاد الغربيَّة، وتطوُّر تكنولوجيا الاتِّصالات التي ساعدت على جعل العالم قريةً صغيرة، إلى زيادة وعينا بالتنوُّع الدينيِّ للبشر. ونتيجة لذلك، صارت التعدُّديَّة الدينيَّة- وهي الرأي أنَّه هناك الكثير من الطُّرق إلى الله- مرَّة أخرى هي الحكمة المألوفة اليوم.

المشكلة التي يطرحُها التعدُّد الدينيُّ

ما المشكلة التي يطرحها التعدُّد الدينيُّ للبشر؟ ومَن يحسبُه مشكلةً؟ حين تقرأ الأدبيَّات عن هذا الأمر، يبدو كأنَّ التحدِّي المتكرِّر يُرمى على المسيحيِّ الذي يؤمن بالتحديد الدينيِّ، وهو الشخص الذي يقول إنَّ المسيح هو الطريق الوحيد إلى الله. ويُفهم ضمنًا من ظاهرة التنوُّع الدينيِّ حقيقةُ التعدُّديَّة، ويصير حينها النقاش الأساسيُّ هو السؤال عن أيِّ شكل من التعدُّديَّة هو الأكثر معقوليَّة. لكن لماذا الظنُّ أنَّه لا يمكن الدفاع عن التحديد المسيحيَّة في وجه التعدُّد الدينيِّ؟ ما المشكلة بالضبط؟



أظهرتْ خريطةُ العالم لهينريكوس مارتيلوس عام ١٤٨٩ معرفةً متزايدة عن آسيا والساحل الغربيّ لأفريقيا، وسريعًا ما أُضيف العالم الجديد لخرائط مثل هذه.

حُجج واهية للتعدُّديَّة

حين تختبر الحُجج المؤيِّدة للتعدُّديَّة ستجد الكثير منها وكأنَّها أمثلة نمطيَّة من مَراجع للمغالطات العامِّيَّة.

تذكَّر تعريفَي المغالطات الرسميَّة والمغالطات العامِّيَّة من الفصل الثالث.

مغالطة الشخصنة (Ad Hominem)

مثلًا، يرى كثيرون أنَّ من الغرور واللاأخلاقيَّة أن يتمسَّك الشخصُ بأيِّ نوع من التحديد الدينيِّ؛ لأنَّ عليك حينها أن تحسب كلَّ مَن يخالفك مخطئًا، لذا فالتحديد الدينيُّ خاطئ.

ويبدو هذا كما لو كان مثالًا نمطيًّا من مَرجعٍ عن المغالطة المنطقيَّة المعروفة باسم مغالطة الشخصنة (Ad Hominem)، والتي تحاول إضعاف رأْيٍ بالهجوم على شخصيَّة أولئك الذين يحملون هذا الرأي، وتُعدُّ هذه مغالطة؛ لأنَّ صحَّة الرأي غير مرتبطة بالشخصيَّة الأخلاقيَّة لأولئك المؤمنين به. وللتوضيح، تخيَّل عالمًا في الطبِّ وقد اكتشف أخيرًا لقاحًا للإيدز ذا نتائج حقيقيَّة، وافترض أنَّ

هذا الشابّ مغرورٌ جدًّا، فيذهب مختالًا باكتشافه، ويعلن أنَّه يستحقُّ جائزة نوبل، وينظر باحتقار إلى زملائه كأنَّهم حشرات لأنَّهم لم يكتشفوا اللقاح، وهكذا. من الواضح أنَّه مغرورٌ وغير أخلاقيٍّ في سلوكه، لكن هل يؤثِّر هذا في تصريحه بأنَّه اكتشف اللقاح الوحيد للإيدز؟ بوضوح أكثر، لو كنتَ مصابًا بالإيدز، هل سترفض تناول لقاحه لأنَّه مغرور وغير أخلاقيٍّ؟ لا أتمنَّى ذلك! إنَّ حقيقة الرأي منفصلة عن شخصيَّة مَن يؤمنون به. وعلى المنوال نفسه، حتَّى وإنْ كان الوضع أنَّ كلَّ الذين يؤمنون بمذهب التحديد الدينيِّ مغرورون وغير أخلاقيِّين، فلن يؤدِّي ذلك إلى إثبات أنَّ آراءهم الإقصائيَّة خاطئة.

ليس هذا فقط، بل لماذا تظنُّ أنَّ كلَّ مَن يؤمن بمذهب التحديد الدينيِّ يكون مغرورًا ولاأخلاقيًّا بالضرورة؟ افترض أنِّي فعلتُ كلَّ ما في وسعي لأكتشف الحقيقة بشأن الله؛ وافترض أنِّي درستُ أديانًا متنوِّعة وسعيتُ بإخلاصٍ إلى الوصول إلى الله بالصلاة، وافترض أنَّه نتيجةً لبحثي اقتنعتُ أنَّ المسيحيَّة صحيحة، ولذلك أتبنَّى الإيمان المسيحيَّ باتِّضاعٍ بوصفه هبةً من الله لا أستحقُّها، فهل أنا مغرور وغير أخلاقيٍّ لإيماني بما أعتقد بإخلاصٍ أنَّه صحيح؟ ماذا عليَّ أن أفعل سوى أن أومن به؟ فأنا أعتقد أنَّه صحيح!

أخيرًا، بل في الأساس، هذا الاعتراض هو سيفٌ ذو حدَّين، إذ يؤمن التعدُّديُّ أيضًا أنَّ رأيه صحيح وأنَّ كلَّ أنصار التقاليد الدينيَّة التحديديَّة **مخطئون**. إذًا إن كان التمسُّك برأيٍ يختلف معه أشخاصٌ آخرون كثيرون يعني أنَّك مغرور وغير أخلاقيٍّ، يكون حينها التعدُّديُّ نفسه مدانًا بالغرور واللاأخلاقيَّة.

ناقش

هل تظنُّ أنَّ من الغرور أن يؤمنُ التعدُّديُّ الدينيُّ أنَّ رأيه صحيح وأنَّ كلَّ التحديديِّين الدينيِّين مخطئون؟ اشرح رأيك.

مغالطة المنشأ

وإليكم مثلًا آخرَ، حيث يُزعَم كثيرًا أنَّه لا يمكن أن يكونَ التحديد المسيحيُّ صحيحًا؛ لأنَّ المعتقدات الدينيَّة نسبيَّة ثقافيًّا. مثلًا، لو كنتَ قد وُلدتَ في باكستان لكنتَ على الأرجح مسلمًا، إذًا إيمانك بالمسيحيَّة هو خاطئ أو غير معلَّل.

لكن مرَّة أخرى يبدو هذا كأنَّه مثلٌ نمطيٌّ يمكن أن تجده في مرجعٍ عن المغالطة المُسمَّاة "مغالطة المنشأ"، وهي تحاول إضعاف رأي بانتقاد الطريقة التي وصل بها الشخصُ إلى تبنِّي هذا الرأي. ولا توجد صلة ما بين حقيقة اعتماد معتقداتك على مكان ولادتك وزمانه، وصحَّة تلك المعتقدات. فلو كنتَ قد ولدتَ في اليونان القديمة، لكنتَ على الأرجح تؤمن بأنَّ الشمس تدور حول الأرض، لكن هل يعني هذا أنَّ إيمانك بأنَّ الأرض تدور حول الشمس هو خاطئٌ أو دون تعليل؟ بالتأكيد لا!

ومرَّة أخرى، ينزلقُ التعدُّديُّ في الفخِّ الذي نصبه؛ لأنَّه لو كان التعدُّديُّ قد وُلد في باكستان، لكان على الأرجح سيؤمن بمذهب التحديد الدينيّ! لذا فبتحليله الخاصّ تكون تعدُّديَّتُه هي مجرَّد نتاج لولادته في مجتمعٍ غربيٍّ في أواخر القرن العشرين، وهكذا تكون خاطئة أو دون تعليل.

المشكلة مع التحديديَّة المسيحيَّة

لذا فبعض الحُجج التي نسمعها كثيرًا ضدَّ التحديد المسيحيِّ هي حجج متواضعة، فعلينا ألَّا نظُن أنَّ التعدُّديَّة الدينيَّة ليست تحدِّيًا جادًّا للإيمان المسيحيِّ بسبب المغالطات العديدةِ الموجودةِ في حُججها. وأعتقد شخصيًّا أنَّها تحدٍّ كبير، غير أنَّ إزالةَ هذه الحجج الحافلةِ بالمغالطات يمكن أن يساعدنا على الوصول إلى المشكلة الحقيقيَّة المتوارية في الخلفيَّة.

تختصُّ المشكلة الحقيقيَّة بمصير غير المؤمنين من خارج التقليد الدينيّ المُحدَّد. وبينما تسلِّم المسيحيَّةُ أشخاصًا مثل هؤلاء إلى الجحيم، يرى التعدُّديُّون أنَّ هذا أمرٌ غير معقول.

ولتوضيح هذه المشكلة، لا يوجد أفضل من حياة مُرشدي وقت دراسة الدكتوراه جون هِك. بدأ البروفيسور هِك مساره الوظيفيَّ بصفة لاهوتيٍّ مسيحيٍّ محافظ نسبيًّا، وكان عنوان كتابه الأوَّل "**المسيحيَّة في المركَز**"

(Christianity at the Centre). لكنْ ما إنْ بدأ يدرسُ أديان العالم والتعرُّف إلى الكثيرين من ذوي الأخلاق الرفيعة من أتباع هذه الأديان، حتَّى وجد أنَّ من غير الممكنِ أنْ يكونَ أناسٌ صالحون كهؤلاء في طريقهم إلى الجحيم. وبطريقة أو بأخرى كان عليه أن يُخرِج يسوع المسيح بعيدًا من المركز. لكنْ ما دامَ يحتفظُ بتجسُّد المسيح وبالموت الكفَّاريِّ، فلا يمكن تهميش المسيح، لذلك أتى هِك إلى الإشراف على تحرير كتاب "**خرافة الله المتجسِّد**" (The Myth of God Incarnate) والذي يناقش فيه أنَّ هذه العقائد المسيحيَّة المركزيَّة ليست حقيقيَّة بل مجرَّد أساطير، فكتب:

> "المشكلة التي طفت إلى السطح في لقاء المسيحيَّة مع أديان العالم الأخرى هي الآتي: لو كان يسوع هو حرفيًّا الله المتجسِّد؛ ولو كان الناسُ ينالونَ الخلاصَ بموته وباستجابتهم له وحدَه، لكانَ حينها المدخلُ الوحيدُ للحياة الأبديَّة هو الإيمانَ المسيحيَّ، ويتضمَّنُ هذا أنَّ الغالبيَّة العظمى من الجنس البشريِّ لم تخلُص بعد. لكن هل يُعقَلُ أنَّ إلهًا مُحبًّا وأبًا لكلِّ الناس قرَّر أنَّ أولئك المولودين في إطار طيفٍ ضيِّق من التاريخ البشريِّ هم مَن سيخلصون فحسب؟"[1]

هذه هي المشكلة الحقيقيَّة التي يثيرها التنوُّع الدينيُّ للبشر: مصير أولئك الذين يقفون خارج التقليد المسيحيِّ.

هل الجحيم هو المشكلة؟

لكنْ ما المشكلة بالضبط هنا؟ ما المشكلة في الاقتناع أنَّ الخلاصَ متاحٌ فقط بيسوعَ المسيح؟ هل يفترضُ أن يكون الأمرُ ببساطة أنَّ إلهًا مُحبًّا لن يرسلَ الناسَ إلى الجحيم؟

لا أعتقد ذلك، فالكتاب المقدَّس يقول إنَّ الله يريد الخلاص لكلِّ إنسان: "الربُّ...لا يشاء أن يهلك أناسٌ، بل أن يُقبل الجميعُ إلى التوبة"

(٢بطرس ٣: ٩)، أو ثانيةً أنَّه "يريد أنَّ جميع الناس يخلُصون، وإلى معرفة الحقِّ يُقبلون" (١تيموثاوس ٢: ٤). ويقول الله في نبوَّةِ النبيِّ حزقيال:

> "هل مسرَّة أُسرُّ بموت الشرِّير؟ يقول السيِّد الربُّ. ألا برجوعه عن طرقه فيحيا؟...لأنِّي لا أُسرُّ بموت مَن يموت، يقول السيِّد الربُّ، فارجعوا واحيوا!...قُل لهم: حيٌّ أنا، يقول السيِّد الربُّ، إنِّي لا أُسرُّ بموت الشرِّير، بل بأن يرجع الشرِّير عن طريقه ويحيا. ارجعوا، ارجعوا عن طرقكم الرديئة! فلماذا تموتون؟ (حزقيال ١٨: ٢٣، ٣٢ و٣٣: ١١).

يتضرَّع الله هنا حرفيًّا للناس ليرجعوا عن مسارهم المدمِّر للذات ليخلصوا.

لذلك، يمكن القولُ إنَّ الله لا يرسلُ أحدًا إلى الجحيم، بل رغبتُه هي أن يخلصَ الجميع، ويسعى ليجتذب الكلَّ إليه، فإذا اخترنا اختيارًا حرًّا واعيًا برفض ذبيحة المسيح عن خطيَّتنا، فليس لله وقتها أيُّ اختيار سوى أن يعطينا ما نستحقُّه، فلن يرسلنا الله إلى الجحيم، بل نحن مَن نرسلُ أنفسنا إليه.

لذلك يقعُ مصيرُنا الأبديُّ في أيدينا نحن؛ إذ يتعلَّق الأمرُ باختيارنا الحرِّ للمكان الذي سنُمضي فيه الأبديَّة، وأولئك الضالُّون إذًا مُدانون بأنفسهم، إذ يفصلون أنفسهم عن الله رغم إرادة الله وكلِّ محاولةٍ لفدائهم، في وقتٍ ينوحُ الله فيه على ضلالهم.

ناقش

ما مدى سهولة أن تردَّ بصورةٍ عقلانيَّة وهادئة على فكرة أنَّ الناس الذين لم يسمعوا عن المسيح قطُّ سيواجهون معاناة أبديَّة؟ ما الذي يساعدك على الردِّ؟ ما الذي يُصعِّب من الأمر؟

هل يتناسب العقابُ مع الجريمة؟

قد يعترف التعدُّديُّ الآن أنَّه إذا وضعْنا الحريَّة البشريَّة في البشريَّة، فلا يمكنُ أن يضمنَ الله خلاصَ الجميع، فقد يختار بعضُ الناس أن يَدينوا أنفسهم برفض عَرْضِ الله للخلاص، لكنَّه قد يجادلُ أنَّ من الظلم من ناحية الله أن يَدينَ هؤلاء الناس إلى الأبد؛ فحتَّى الخطايا البشعة مثل تلك الخطايا التي

ارتكبها معذِّبو النازيَّة في معسكراتهم لا تزال مستحقَّةً لعقاب محدود فقط، إذًا على الأكثر قد يكون الجحيمُ نوعًا من المَطهر مستغرقًا زمنًا مناسبًا لكلِّ شخصٍ قبل أن يُطلق سراح ذلك الشخص ويُسمح بدخوله السماء، وفي النهاية سيُفرغ الجحيم وتُملأ السماء، بذلك يكون الجحيمُ، مع غرابة الأمر، غير متوافق لا مع محبَّة الله، بل مع عدله. والتهمةُ التي يُلقي بها هذا الاعتراضُ هنا هي أنَّ الله ظالمٌ لأنَّ العقاب لا يتناسب مع الجريمة.

لكنْ من جديدٍ لا يبدو لي هذا كأنَّه المشكلة الحقيقيَّة؛ إذ يبدو هذا الاعتراضُ مَعيبًا على الأقلِّ في نقطتَين:

أوَّلًا، يراوغُ الاعتراض ما بين كلِّ خطيَّة نرتكبها وجميع الخطايا التي نرتكبها، فقد نتَّفق أنَّ كلَّ خطيَّة فرديَّة يرتكبها الشخصُ تستحقُّ فقط عقابًا محدودًا، لكنْ لا يتضمَّنُ هذا أنَّ كلَّ خطايا شخصٍ ما حين يُنظر إليها في الإجمال تستحقُّ فقط عقابًا محدودًا. فلو ارتكب شخصٌ ما عددًا غير محدود من الخطايا يكون المجموع الكُلِّيُّ لكلِّ هذه الخطايا مستحقًّا عقابًا غير محدود.

دون شكٍّ، ليس هناك أحدٌ يرتكب عددًا غير محدود من الخطايا في الحياة الأرضيَّة، لكن ماذا عن الحياة الآخرة؟ فبقدر ما يستمرُّ سكَّان الجحيم في كراهية الله ورفضه، يستمرُّون في الخطيَّة وبذلك يجلبون على أنفسهم ذنبًا أكثر وعقابًا أكثر، بمعنى أنَّ الجحيم ذاتيُّ الاستدامة، وفي حالة كهذه يكون لكلِّ خطيَّة عقابٌ محدود، لكن بسبب استمرار ارتكاب الخطيَّة إلى الأبد، يظلُّ العقاب مستمرًّا إلى الأبد.

ثانيًا، ما سبب أن يكون لكلِّ خطيَّة عقابٌ محدود فقط؟ قد نتَّفق أنَّ لخطايا مثل السرقة والكذب والزنى وما إلى ذلك فقط نتائج محدودة، لذا فهي تستحقُّ عقابًا محدودًا. لكن يمكن القولُ إنَّ هذه الخطايا ليست هي ما يفصل شخصًا ما عن الله، فقد مات المسيحُ عن تلك الخطايا، ومن ثَمَّ دُفع جزاءُ تلك الخطايا، فكلُّ ما على الشخص فعله هو قبول المسيح مخلِّصًا ليكونَ حُرًّا بالكامل ومتطهِّرًا من تلك الخطايا.

لكن يبدو رفْضُ قبول المسيح وذبيحته أنَّه خطيَّة من نوع مختلف بالكامل، إذ تتعاملُ هذه الخطيَّة بجحودٍ ونكرانٍ مع تدبير الله في التعامُلِ مع الخطيَّة، وبذلك تفصل على نحو حاسمِ الشخصَ عن الله وعن خلاصه؛ لأنَّ رَفْض المسيح هو رفضٌ لله نفسه. وفي ضَوء شخصيَّةِ الله تكون هذه الخطيَّة ذات مقدار غير محدود، لذا يكون من المعقول أن تستحقَّ عقابًا غير محدود، لذلك لا ينبغي أن نفكِّر في الجحيم بالدرجة الأولى بوصفه عقابًا على مجموعة الخطايا ذات النتيجة المحدودة التي ارتكبناها، بل بوصفه جزاءً عادلًا على خطيَّةٍ ذات نتيجة غير محدودة، وهي رفْض الله نفسه.

هل المشكلة هي نقْص المعلومات؟

قد يُفترض أن تكونَ المشكلة هي أنَّ إلهًا محبًّا لن يرسل الناس إلى الجحيم؛ لأنَّهم لا يعرفون عن المسيح، أو لديهم معلومات خاطئة عنه؛ إذ لا يمكن توقُّع أنْ يضعَ الناس إيمانهم في المسيح ما داموا لم يسمعوا عنه، أو في حال قُدِّمتْ إليهم صورة مشوَّهة عنه.

لكن مرَّة أخرى، لا يبدو لي هذا الأمر كأنَّه قلب المشكلة؛ لأنَّه بحسب الكتاب المقدَّس لا يحكم الله على الناس الذين لم يسمعوا عن المسيح قَطُّ على أساس إيمانهم بالمسيح من عدمِه، بل يحكمُ الله عليهم على أساس نور إعلان الله العامِّ في الطبيعة وفي ضمائرهم هم. والعرضُ المقدَّم في رومية ٢: ٧- "أمَّا الذين بصبرٍ في العمل الصالح يطلبون المجد والكرامة والبقاء، فبالحياة الأبديَّة [أي سيجازيهم الله بالحياة الأبديَّة]- هو عرضٌ أصيلٌ وحقيقيٌّ للخلاص، فإذا شعرَ شخصٌ ما بواسطة ضميره الشاعر بالذَّنْب بأنَّه يحتاجُ إلى الغفران؛ واندفع بنفسه نحو رحمة الله المُعلنة في الطبيعة، فقد يجدُ هذا الشخص خلاصًا. ولا يعني هذا القوْلُ إنَّ الناس يستطيعون الخلاص بعيدًا عن المسيح، بل إنَّ فوائد موت المسيح الكفَّاريِّ يمكن تطبيقها على أناسٍ دون معرفتهم الواعية بالمسيح.

جحيم دانتي

كتب شاعرُ العصور الوسطى الإيطاليُّ دانتي أليغييري (Dante Alighieri) قصيدةً سمَّاها الجحيم، وهي تصوِّر الجحيمَ بشَناعةٍ سوداويَّة. غير أنَّ دانتي اختار بعناية كلَّ نوع من المعاناة لتوضيح إيمانه بأنَّ عقابَ الخطيَّة هو الخطيَّة ذاتها، بمعنى أنَّ خطيَّة كلِّ شخصٍ شكَّلتْ نفْسَه بحيث يخلقُ هو عذابَه. فمثلًا، يقف الشيطانُ في قاع الجحيم مغلَّفًا حتَّى مستوى صدره في ثلج، والضربُ المستمرُّ لجناحيه الذين يشبهان الخفافيش هو ما يُجمِّدُ الثلج. ويعبِّر ضربُ الجناحين عن إرادته: "أنْوي الطيران إلى أعالي السماء وأكون معادلًا لله بشروطي أنا". فلو استطاع فقط الاتِّضاع وتوقَّف عن ضرب جناحَيه، لانصهَرَ الثلجُ وتحرَّر هو، لكنَّه لا يفعل ذلك بتاتًا.

أناسٌ كهؤلاء هم مثل أناسٍ مذكورين في العهد القديم مثل أيُّوب وملكيصادق، واللذين نالا الخلاص بالمسيح لكن لم تكُن لهما معرفة واعية بالمسيح، بل لم يكونا حتَّى من الأمَّة العبرانيَّة. ورغم ذلك، فقد كان جليًّا أنَّهما تمتَّعا بعلاقة شخصيَّة بالله، وبالمثل يمكن أن يكون هناك أكثر من أيُّوبَ في العصر الحديث يعيشون وسط تلك النسبة من تعداد العالم الذين لم يسمعوا إنجيل المسيح بعد.

للأسف يشهدُ العهد الجديد كما رأينا أنَّ الناس عامَّةً لا ترقى إلى هذه المعايير الأقلِّ كثيرًا من الإعلان العامِّ، لذا فليس هناك أساسٌ من التفاؤل بشأن وجود الكثير من الناس، إنْ وجدوا أصلًا، الذين سيخلُصون فعلًا باستجابتهم للإعلان العامِّ وحده. ورغم ذلك، فإنَّ النقطةَ الباقِيةَ هي أنَّ الخلاصَ متاحٌ عالميًّا بالإعلان العامِّ لله في الطبيعة والضمير، ومن ثمَّ لا يمكن أن تكون المشكلة التي يطرحها التنوُّع الدينيُّ هي ببساطة أنَّ الله لن يَدين أشخاصًا لا يعرفون عن المسيح أو لديهم معلومات مغلوطة عنه.

المشكلة الحقيقيَّة

تبدو لي المشكلة كالتالي: إذا كان الله كلِّيَّ المعرفة*، إذًا كان يعرف مَن سيختار بحرِّيَّة أن يقبل الإنجيل ومن لن يختار ذلك، وهنا تظهر بعضُ الأسئلة الشائكة والمعقَّدة:

(١) لماذا لم يجلب الله الإنجيلَ إلى أناسٍ يعرف هو أنَّهم سيقبلون الإنجيل لو أنَّهم سمعوه، حتَّى رغم رفضهم لنور الإعلان العامِّ الذي لديهم؟

للتوضيح: تخيَّل أحد الهنود الحُمرِ القاطنين في أميركا الشماليَّة قبل وُصول المُرسَلين المسيحيِّين. ولنطلق عليه اسم "حائر". ولنفترض أنَّه بينما

* نقول إنَّ الله كلِّيُّ المعرفة، بمعنى أنَّه يعرف كلَّ ما يمكن معرفته، وأنَّ كلَّ هذه المعرفة هي حاضرة عنده في كل لحظةٍ دون أيَّة حاجة عنده لأن يتذكَّر أو يحلِّل أي شيء أو يفكِّر في أيِّ شيء (الناشر).

كان ينظر عاليًا إلى السماء في الليل وبينما يرى التعقيد والجمال في الطبيعة من حوله، يشعر أنَّ كلَّ هذا من صُنْع الروحِ العظيم. علاوة على ذلك، ينظر حائر إلى قلبه ويشعر بالناموس الأخلاقيِّ الذي يخبره بأنَّ كلَّ البشر إخوة صنعهم الروحُ العظيم، لذا علينا أن نعيشَ بمحبَّة معًا.

لكن افترض أنَّه بدلَ أن يعبدَ حائر الروحَ العظيمَ ويعيش في محبَّة لإخوته البشر، يتجاهل الروحَ العظيم ويصنع أصنامًا من أرواح أخرى، وبدلَ أن يُحبَّ إخوته البشر، يعيش في أنانية وقسوة تُجاه الآخرين. في هذه الحالة سيُحكَمُ على حائر بعدلٍ أمام الله على أساس إخفاقه في الاستجابة لإعلان الله العامِّ الموجود في الطبيعة والضمير. لكن افترض الآن أنَّه لو وصلَ المُرسَلون، لآمنَ حائر بالإنجيل ونالَ الخلاص. في هذه الحالة يبدو أنَّ خلاصه أو دينونته هما نتيجة للحظِّ السيِّئ؛ إذ لم يكُن الخطأ من ناحيته بل تصادف أن وُلد في زمنٍ ومكان في التاريخ حيث لم يكُن الإنجيل متاحًا بعد. في هذه الحالة دينونته عادلة، لكن هل يسمح إلهٌ كلِّيُّ المحبَّة أن يتعلَّق مصير الناس الأبديُّ بمصادفة جغرافيَّة وتاريخيَّة؟

(٢) الأمر الأكثر جوهريَّة، لماذا خلق الله العالمَ إنْ كان يعرف أنَّ الكثير من الناس لن يؤمنوا بالإنجيل وسيضلُّون؟ ما دامَ الخلْق عملًا حرًّا لله، فلماذا لم يمتنع ببساطة عن خَلْق مخلوقات حرَّة أصلًا؟

(٣) الأمر الأكثر راديكاليَّة، لماذا لم يخلق الله عالمًا يختار فيه كلُّ شخصٍ بحرِّيَّة أن يؤمن بالإنجيل ويخلص؟ فلا بدَّ أنَّ عالمًا مثل هذا ممكن منطقيًّا، فالناس فيه أحرار ليؤمنوا أو لا يؤمنوا، لذا لماذا لم يخلق الله عالمًا يختار فيه كلُّ شخصٍ بحرِّيَّة أن يضع إيمانه في المسيح ويخلص؟

كيف يُفترض بالمسيحيِّ أن يجيب عن هذه الأسئلة؟ هل تُصوِّر المسيحيَّةُ الله على أنَّه قاسٍ وغير محبٍّ؟

الإعلان العامُّ مقابل الإعلان الخاصّ

يميِّز اللاهوتيُّون بين إعلان الله العامِّ وإعلانه الخاصِّ، ويختلف هذان في أنَّ الأوَّل أعمُّ من الأخير في توافُره وفي المعلومات التي يقدِّمها؛ فوجودُ الله وقدرتُه معلنان عمومًا في الطبيعة، وناموسه الأخلاقيُّ الأساسيُّ مُدرَكٌ غريزيًّا من البشر في كلِّ مكان وزمان، ويعلنُ الله عن نفسه بصورةٍ خاصَّة لأناس محدَّدين في أوقات معيَّنة بكلمته، كما أعلنَ عن نفسه في أعلى درجة بيسوع المسيح. ويظهر السؤالُ هنا: كيف سيحكمُ الله على أولئك الذين اختبروا إعلانه العامَّ في الطبيعة والضمير، لكنَّهم لم يعرفوا إعلانه الخاصَّ؟

تحليل المشكلة

للإجابة عن هذه الأسئلة سيكون من المفيد اختبار الصيغة المنطقيَّة للمشكلة التي أمامنا من كثب، إذ تبدو المشكلةُ مشابهة جدًّا للنسخة المنطقيَّة من مشكلة الألم التي اختبرناها في الفصل السابع، حيث يبدو كأنَّ التعدُّديَّ ينادي بأنَّ من المستحيل على الله أن يكون كلِّيَّ القدرة وكلِّيَّ المحبَّة، ويكونَ في الوقت ذاته هناك أناسٌ لا يسمعون بالإنجيل بتاتًا، وهكذا يضلُّون. بمعنى أنَّ التعدُّديَّ ينادي بأنَّ العبارتين التاليتين غير متَّسقتين منطقيًّا:

ناقش

هل تظُنُّ أنَّ الكثير من الناس يخلصون دون معرفة واعية بالمسيح، بسبب استجابتهم للإعلان العامِّ؟ ما الذي يجعلك تظُنُّ ذلك؟

١. الله كلِّيُّ القدرة وكلِّيُّ المحبَّة.

٢. بعضُ الناس لا يسمعون بالإنجيل مطلقًا ويضلُّون.

لذلك، التحديدُ المسيحيُّ غير متَّسق منطقيًّا.

هل هناك عدم اتِّساقٍ؟

إنَّنا نحتاج الآن لأن نسأل عن سبب الاعتقاد أنَّ ١ و٢ غير متَّسقتين منطقيًّا. في الواقع، لا يوجد تعارض صريح بينهما، لكنْ إذا كان التعدُّديُّ ينادي بأنَّ ١ و٢ متعارضتان ضمنيًّا، فلا بدَّ أنَّه يفترض بعض المقدِّمات الخفيَّة التي ستساعد على إظهار هذا التناقض وتجعله صريحًا. والسؤال المطروح: ما تلك المقدِّمات الخفيَّة؟

ينبغي أن أقول أنِّي لم أرَ قطُّ أيَّة محاولة من جانب مَن يؤمنون بالتعدُّديَّة الدينيَّة لتحديد تلك الافتراضات الخفيَّة، لكنْ لنحاولْ مساعدتهم قليلًا. يبدو لي أنَّه يفترض غالبًا أمرًا كالتالي:

٣. إذا كان الله كلِّيَّ القدرة، لكان في وُسعِه خلْقُ عالم يسمع فيه الجميعُ بالإنجيل ويخلُصون بحُرِّيَّة.

٤. إذا كان الله كلِّيَّ المحبَّة، لفَضَّلَ عالمًا يسمعُ فيه الجميعُ بالإنجيل ويخلُصون بحُرِّيَّة.

ما دامَ الله، بحسب ١، كلِّيَّ القدرة وكلِّيَّ المحبَّة، فيتضمَّنُ ذلك أنَّ في وُسعه خلْقَ عالم من الخلاص الشامل، وأنَّه يفضِّل عالمًا كهذا، إذًا هذا العالم موجودٌ، لكنَّ هذا يتعارض مع ٢.

ينبغي لكلتا المقدِّمتين أن تكونا بالضرورة صحيحتَين إن كان للتعدُّديِّ أن يثبت عدم التوافق المنطقيَّ في ١ و٢، لذا فالسؤال هو: هل هذان الافتراضان صحيحان بالضرورة؟

فكِّر في ٣: يبدو أنَّه ليس هناك جدلٌ في أنَّه كان في وُسعِ الله خلْق عالم يسمعُ فيه الجميعُ بالإنجيل، فليس ذلك أمرًا صعبًا. لكن ما دامَت للإنسانِ حرِّيَّة الاختيار، فليس هناك ضمانٌ أنَّ الجميعَ في عالَم مثل هذا سيختارون الخلاصَ. وفي الواقع، حين تفكِّر في الأمر تجد أنَّه ما من سببٍ لاعتقاد أنَّ التوازن ما بين المُخلَّصين والضالِّين في عالم كهذا سيكون أفضل بأيَّة صورةٍ من التوازن في العالم الحاليّ!

من المستحيل منطقيًّا **جعْل شخصٍ يختار بحرِّيَّة** أن يفعل شيئًا. وأن يكون كائنًا يمتلك صفةَ كلِّيَّةِ القدرة لا يعني أنَّه يمتلك القدرةَ على فعل ما هو مستحيلٌ منطقيًّا، لذا ليس هناك ضمانٌ أنَّ عالمًا ممكنًا يسمعُ فيه الجميعُ بالإنجيلِ ويختارون الخلاص هو عالمٌ يمكن أن يخلقَه الله؛ حيث نعلمُ أنَّه في أيِّ عالم فيه أناس أحرار يمكن أن يخلقه الله، سيختار بعضُ الناس بحرِّيَّة رفْض نعمته المخلِّصة وسيضلُّون، وبذلك لا تكون ٣ صحيحة بالضرورة، وتكون هناك مغالَطاتٌ في حُجَّةِ التعدُّديِّ.

لكن ماذا عن ٤؟ هل هي صحيحة بالضرورة؟ لنفترض جدلًا أنَّ هناك عوالم ممكنة يمكن أن يصنعَها الله بحيث يسمعُ فيها الجميعُ بالإنجيل ويقبلون باختيارهم، فهل كوْن الله كلِّيَّ المحبَّة يفرض عليه تفضيل واحدٍ من هذه العوالم أكثر من عالمٍ يضلُّ فيه بعضُ الناس؟

ليس بالضرورة؛ فقد تكون هناك أوجه قُصورٍ أخرى في العوالم التي تتضمَّن خلاصًا شاملًا **أكثر تأثيرًا**، ممَّا يجعلُ تلك العوالم أقلَّ تفضيلًا. فمثلًا، افترض أنَّ العوالم الوحيدة حيث يؤمن الجميعُ بالإنجيل بحرِّيَّة ويخلصون هي عوالم فيها فقط حفنة من الناس، مثلًا ثلاثة أو أربعة أشخاص. ولو كان الله ليخلق المزيد من الناس سيكون فيهم على الأقلِّ واحدٌ سيختار أن يرفُض نعمته ويضلُّ، فهل عليه تفضيل واحدٍ من هذه العوالم ضئيلة التعداد أكثر من عالمٍ تؤمنُ فيه جماهير بالإنجيل وتخلص، حتَّى وإن كان معنى هذا أنَّ أشخاصًا آخرين سيختارون رفْض نعمته وسيضلُّون؟

هذا الأمر أبعد ما يكون عن الوضوح، فما دام الله يقدِّم نعمةً كافيةً لخلاص كلِّ الذين خلقهم، فلا يبدو الله أقلَّ حبًّا لتفضيله عالمًا أكثر تعدادًا، حتَّى لو كان معنى ذلك أنَّ بعض الناس سيختارون بحرِّيَّة مقاومة كلِّ محاولة منه لتخليصهم، ومن ثمَّ دينونتِهم. لذا فالافتراض الثاني لدى التعدُّديِّ ليس صحيحًا بالضرورة، وبذلك ينكشف أنَّ حُجَّته تتضمَّنُ مغالطات على نحو مضاعَفٍ.

لذا لا تبدو أيٌّ من افتراضات التعدُّديِّ صحيحةً بالضرورة، فما لم يمكن أن يقترح التعدُّديِّ مقدِّمات أخرى، فليس لدينا أسبابٌ لاعتقاد أنَّ ١ و٢ ليسا متوافقين منطقيًّا.

ناقش

هل يحصل مَن ينشأ في بيت مسيحيٍّ على نعمة للخلاص أكثر ممَّن ينشأ في مكانٍ لا يُعرف فيه الإنجيل؟ إذا كانت إجابتك لا، فَلِم لا؟ وإذا كنتُ موافِقًا، فهل هذا إخفاق في المحبَّة من جانب الله؟

ليس هناك عدم اتِّساقٍ

يمكننا تصعيد الحُجَّة إلى مستوًى آخر، حيث يمكنُنا إثبات أنَّه يمكنُ تمامًا أن يكون الله كلِّيَّ القدرة وكلِّيَّ المحبَّة وألَّا يسمع الكثيرون بالإنجيل ويضلُّون.

يريد الله، بوصفه إلهًا صالحًا ومحبًّا، أن يخلصَ أكبر عدد ممكن من الناس، بينما يضلُّ أقلُّ عددٍ ممكن. وهدفه، إذًا هو تحقيق التوازن الأمثل ما بين الاثنين: ألَّا يخلق المزيد من الضالِّين أكثر ممَّا هو ضروريٌّ للوصول إلى عدد معيَّن من المُخلَّصين، ولكن يمكن أن يكونَ هذا التوازن في العالم الفعليِّ

(والذي يتضمَّن المستقبل والحاضر والماضي). وربَّما أنَّه حتَّى يخلقَ الله هذا العددَ من الناس الذين سيخلُصون، كان عليه أيضًا خَلْقُ هذا العدد من الناس الذين سيضلُّون. وقد يكونُ الأمرُ أنَّه لو خلقَ الله عالمًا فيه عدد أقلُّ من الناس سيذهبون إلى الجحيم، لكان عددٌ أقلُّ من الناس سيذهبون إلى السماء، فمن الممكن أنَّه لتحقيق حَشْدٍ من القدِّيسين، كان على الله قبول حشدٍ من الخطاة.

قد يُعترض على فكرة أنَّ إلهًا كلِّيَّ المحبَّة لن يخلق أناسًا يعلم هو أنَّهم **سيضلُّون**، بينما كانوا **سيخلصون** لو سمعوا فقط بالإنجيل. لكن كيف لنا أن نعرفَ إن كان أناسٌ مثل هؤلاء **موجودين**؟ من المعقول افتراض أنَّ الكثيرَ من الناس الذين لم يسمعوا بالإنجيل قَطُّ ما كانوا ليؤمنوا بالإنجيل حتَّى لو سمعوا به. افترض إذًا أنَّ الله برحمته رتَّب في تدبيره عالمًا يكون فيه كلُّ الأشخاص الذين لا يسمعون بالإنجيل هم بالضبط الناس الذين ما كانوا ليؤمنوا وإنْ سمعوا به. الله صالحٌ وصلاحه أعلى من أَنْ يجعله يسمح لشخص بأن يضلَّ بسبب مصادفة تاريخيَّة أو جغرافيَّة.

في تلك الحالة، يكون أيُّ شخص ضلَّ ولم يسمع بالإنجيل قطُّ، هو شخصٌ سيضلُّ ويرفض الإنجيل حتَّى لو سمعه. وما من أحدٍ يمكنه الوقوف أمام الله في يوم الدينونة مشتكيًا: "حسنًا، يا الله، لم أستجب لإعلانك العامِّ في الطبيعة والضمير! لكنْ لو أنِّي سمعتُ فقط بالإنجيل، لآمنتُ بالتأكيد!".

إذ سيقول الله: "لا، فقد كنتُ أعرفُ أنَّه حتَّى لو سمعتَ بالإنجيل، ما كنتَ لتؤمن به. لذلك، فحُكمي عليك على أساس الطبيعة والضمير- وقد أدرتَ ظهرَكَ لهما بإرادتك- ليس بالحكم الظالم أو غير المحبِّ".

ومن ثمَّ يكون ممكنًا أنَّ:

٥. الله خلق عالمًا فيه توازن أمثل ما بين المُخلَّصين والضالِّين، وأولئك مَن لا يسمعون بالإنجيل ويضلُّون وما كانوا ليؤمنوا به لو أنَّهم سمعوه.

التدبير

التدبير هو العقيدة القائلة إنَّ الله يرتِّب أحداثًا في التاريخ ليُحقِّقَ أهدافه هو، والتحدِّي هو في فعل ذلك مع احترام الحرِّيَّة البشريَّة. بعض اللاهوتيِّين يقلِّلون من تدبير الله، والبعض يختصر من الحرِّيَّة البشريَّة، أمَّا الطريقة الأفضل فهي في القوْل إنَّ الله في تخطيطه، يضع في حسبانِه الاختيارات البشريَّة الحُرَّة، ويفعل ذلك بمعرفته الكيفيَّة التي سيختار بها كلُّ شخصٍ في أيِّ وضعٍ غير حتميٍّ يمكن أن يضعَهُ الله فيه. بخلْقه أشخاصًا معيَّنين في أوضاع معيَّنة، يعلم الله تمامًا الكيفيَّة التي سيختارون بها، ويمكنه أن يخطِّط بحسب ذلك. بحسب هذا الرأي يكون كلُّ ما يحدث إمَّا بمشيئة الله المباشرة وإمَّا بسماحٍ منه، بما في ذلك مكان النَّاس وزمن ولاداتِهم.

وما دامتْ ٥ **صحيحة** أو حتَّى **ربَّما تكون صحيحة**، فهذا يُظهِرُ لنا أنَّه ما من عدم اتِّساقٍ ما بين إلهٍ كلِّيِّ القدرة وكلِّيِّ المحبَّة وأنَّ بعض الناس لا يسمعون بالإنجيل ويضلُّون.

واستنادًا إلى ذلك، نحن مستعدُّون الآن لتقديم إجابات **ممكنة** عن الأسئلة الثلاثة الصعبة التي وَجَّهتْ هذا الاستعلام. فلنأخذها بترتيبٍ عكسيٍّ:

(٣) لماذا لم يخلق الله عالمًا حيث يؤمن الجميعُ بالإنجيل ويخلُصون؟

إجابة: قد لا يكون من اليسير لله أن يخلق عالمًا مثل هذا؛ فلو كان عالمٌ مثل هذا متاحًا، لخلَقَه الله (واضعين في الحسبان أنَّ كلَّ الأمور الأخرى ثابتة)، لكن إذا وضعنا في الحسبان إرادته لخلْق كائناتٍ حُرَّة، كان على اللهِ قبول أنَّ البعض سيختار رفْضه ورفض كلِّ محاولته لتخليصهم وسيضلُّون.

(٢) لماذا خلق الله العالم أصلًا، حين كان يعلمُ أنَّ الكثير جدًّا من الناس لن يؤمنوا بالإنجيل وسيضلُون؟

إجابة: أراد الله أن يشارك محبَّته وشركته مع البشر المخلوقين، وكان يعلم أنَّ معنى ذلك أنَّ الكثيرين سيختارون رفْضه وسيضلُّون، لكنَّه كان يعلم أيضًا أنَّ أناسًا آخرين كثيرين سيختارون بحرِّيَّة قبول نعمته وسيخلُصون، ويجب ألَّا يمنعَ مَن سيختارون رفضَ اللهِ السعادةَ والنعيمَ عن أولئك الذين سيتبنَّون محبَّته. فلا ينبغي السماحُ للأشخاص الذين سيختارون رفضَ الله ومحبَّته أن يحملوا ما يشبه حقَّ النقض (الڤيتو) بشأن العوالم التي يتمتَّع الله بالحرِّيَّة الكاملة لخلقها. غير أنَّ الله رتَّبَ في رحمته العالمَ بتدبيره ليحقِّقَ التوازنَ الأمثل ما بين المُخلَّصين والضالِّين بتعظيم عدد الذين يقبلونه بحرِّيَّة، مع تقليل عدد الذين لن يقبلوه.

(١) لماذا لم يُحضر الله الإنجيل للناس الذين كان يعرف أنَّهم سيقبلونه لو سمعوا به، حتَّى ولو رفضوا نور الإعلان العامِّ الذي لديهم؟

إجابة: لا يوجد مثل هؤلاء الناس؛ فالله في تدبيره نظَّم العالمَ بحيث

يسمعُ أولئك الذين سيستجيبون للإنجيل لو أنَّهم سمعوه. لقد رتَّب الله السرمديُّ التاريخَ البشريَّ بحيث ينتشرُ الإنجيل خارجًا من فلسطين القرن الأوَّل، وهو يضع في مسار الإنجيل أناسًا سيؤمنون به لو أنَّهم سمعوه، وبمجرَّد أن يصل الإنجيل إلى شعبٍ، يضع الله هناك في تدبيره، أناسًا يعرف أنَّهم سيستجيبون له أنَّهم سمعوه. ويضمنُ الله في محبَّته ورحمته أنَّه ما من أحدٍ من الذين سيؤمنون بالإنجيل لو أنَّهم سمعوه، سيولدُ في زمان ومكان في التاريخ حيث يُخفقون في سماع الإنجيل. وأولئك الذين لا يستجيبون لإعلان الله العامِّ في الطبيعة والضمير ولا يسمعون بالإنجيل قَطّ، لن يستجيبوا له لو أنَّهم سمعوه. لذلك لن يضلَّ شخصٌ بسبب مصادفة تاريخيَّة أو جغرافيَّة، فأيُّ شخصٍ يريد أن يخلص، أو **حتَّى كان سيُريد** أن يخلص، سينالُ الخلاص.

أريد التأكيد أنَّ هذه الإجابات هي فقط إجاباتٌ محتملة ومنطقيَّة عن الأسئلة المطروحة. لكنْ ما دامت هذه الإجابات منطقيَّة، فهي تُظهر أنَّه ليس هناك عدم توافق ما بين كَوْن الله كلِّيَّ القدرة وكلِّيَّ المحبَّة، وأنَّ بعض الناس لا يسمعون بالإنجيل ويضلُّون.

علاوة على ذلك، تكتسب هذه الإجابات جاذبيَّة خاصَّة إذ تبدو بحسب الكتاب المقدَّس أيضًا؛ إذ أعلن بولس الرسول في خطابه أمام الفلاسفة الأثينيِّين المجتمعين في أريوس باغوس قائلًا:

> "الإله الذي خلق العالم وكلَّ ما فيه، هذا، إذ هو ربُّ السماء والأرض...يعطي الجميع حياة ونفسًا وكلَّ شيء. وصنع من دم واحد كلَّ أمَّة من الناس يسكنون على كلِّ وجه الأرض، وحتم **بالأوقات المعيَّنة وبحدود مسكنهم**، لكي يطلبوا الله لعلَّهم يتلمَّسونه فيجدوه، مع أنَّه عن كلِّ واحد منَّا ليس بعيدًا. «لأنَّنا به نحيا ونتحرَّك ونوجد»" (أعمال ١٧ : ٢٤-٢٨).

يبدو هذا بالضبط مثل النتيجة التي أتيتُ إليها بالتأمُّل الفلسفيِّ البحث في السؤال المطروح!

معقوليَّة الحلِّ

قد يعترف التعدُّديُّ **بالإمكانيَّة** المنطقيَّة لكوْن الله كلِّيَّ القدرة وكلِّيَّ المحبَّة ومع ذلك يكون هناك بعض الناس الذين لا يسمعون بالإنجيل ويضلُّون. غير أنَّه يصرُّ أنَّ هاتَين الحقيقتين **بعيدتا الاحتمال** الواحدة من الأخرى. إذ يبدو أنَّ الناسَ عمومًا يؤمنون بدِين الثقافة التي ينشأون فيها، لكنْ في تلك الحالة قد يقول التعدُّديُّ إنَّ من المحتمل كثيرًا أنَّه لو كان كثيرون ممَّن لا يسمعون بالإنجيل قد نشأوا في ثقافة مسيحيَّة، لآمنوا بالإنجيل ونالوا الخلاص، ومن ثمَّ تكون الفرضيَّة التي قد قدَّمتُها غير معقولة.

بالفعل سيكون الأمرُ بعيد الاحتمال بصورةٍ خياليَّة أنَّه بالمصادفة وحدها يتَّضحُ أنَّ كلَّ أولئك الذين لا يسمعون بالإنجيل ويضلُّون هم أشخاصٌ ما كانوا ليؤمنوا بالإنجيل لو أنَّهم سمعوه. لكن ليست هذه هي الفرضيَّة! الفرضيَّة هي أنَّ إلهًا مُدبِّرًا نظَّم العالمَ بهذا الشكل؛ واضعين في الحسبان أنَّه إلهٌ يعرف الكيفيَّة التي سيستجيب بها كلُّ شخصٍ بصورةٍ حرَّة لنعمته في أيِّ حالٍ قد يضعُه الله فيها، فمن المعقول هنا أنْ يكون الله قد رتَّب العالمَ بالطريقة الموصوفة.

ناقش

لقد رأينا أنَّ الحُجَّة المنطقيَّة للتعدُّديَّة لا تصمد، لكن ماذا بشأن المشكلة الوجدانيَّة من تصوُّر الملايين من الناس وهُم يُسلَّمون إلى الجحيم، والبعض منهم عاشوا حياة رائعة؟ كيف يمكننا التعامل مع تلك المشكلة الوجدانيَّة؟

عالمٌ مثل هذا لن يبدو مختلفًا ظاهريًّا عن عالمٍ تكون فيه أحوال ولادة شخصٍ مسألة مصادفة. ويمكننا الاتِّفاق أنَّ الناس عمومًا يتبنَّون دين ثقافتهم، وأنَّه لو وُلدَ أشخاصٌ غير مسيحيِّين في مجتمع مسيحيٍّ، لصاروا مسيحيِّين اسميًّا أو مسيحيِّين ثقافيًّا، لكن لا يعني ذلك أنَّهم كانوا سيخلُصون؛ فهناك حقيقة عمليَّة بسيطة أنَّه ما من سماتٍ نفسيَّة أو اجتماعيَّة مميِّزة ما بين أشخاصٍ يقبلون المسيح وأشخاصٍ لا يقبلونه، وما من طريقة لتوقُّع اختبار الشخص بصورة دقيقة

حتَّى نعرفَ ما إذا كان سيؤمن بالمسيح لينالَ الخلاص أم لا. وما دام عالمٌ مرتَّبٌ من الله بتدبيرٍ منه بالشكل المقترَح سيبدو ظاهريًّا مطابقًا لعالمٍ تكون فيه ولادة الشخص مسألة مصادفة تاريخيَّة أو جغرافيَّة، فمن الصعب أن نرى كيف يمكن قَوْلُ إنَّ الفرضيَّة التي دافعتُ عنها بعيدة الاحتمال- بعيدًا عن إثبات أنَّ وجود إلهٍ كلِّيِّ المعرفة هو أمرٌ غير معقول. ولا أعرف أيَّ إثباتٍ مثل هذا.

فتقدَّم يسوع وكلَّمهم قائلًا: "دُفع إليَّ كلُّ سلطان في السماء وعلى الأرض، فاذهبوا وتلمذوا جميعَ الأمم وعمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وعلِّموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتُكم به. وها أنا معكم كلَّ الأيَّام إلى انقضاء الدهر" (متَّى ٢٨: ١٨-٢٠).

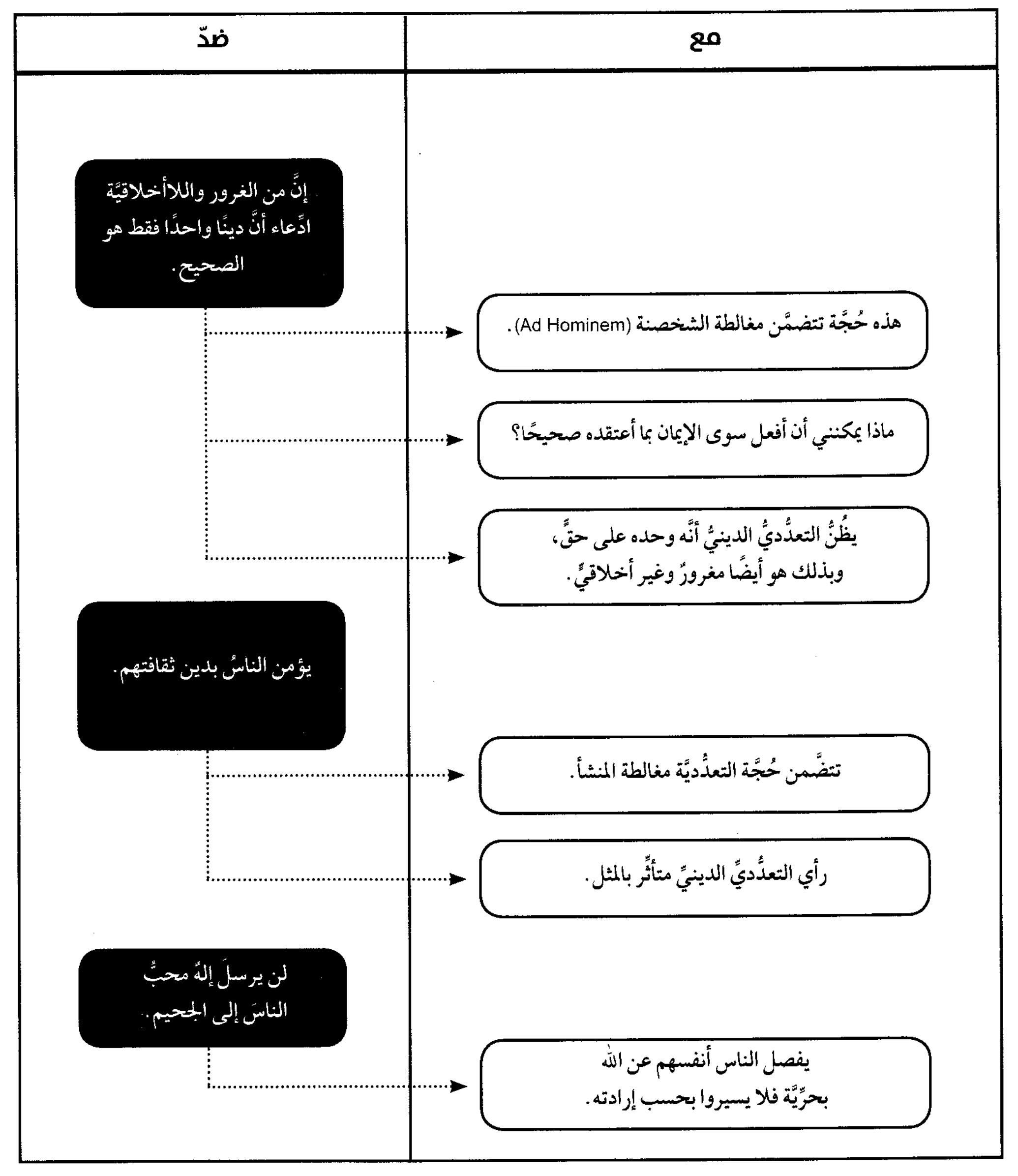
خلاصة

نستنتج إذًا أنَّ التعدُّديِّين لم يستطيعوا إظهار أيِّ عدم اتِّساقٍ منطقيٍّ في التحديد المسيحيِّ، بل على العكس، فقد استطعنا إثبات أنَّ مثل هذا الرأي متماسكٌ منطقيًّا. وعلاوة على ذلك، أعتقد أنَّ هذا الرأي ليس فقط ممكنًا، بل هو معقولٌ أيضًا، ويعني هذا أنَّ التنوُّعَ الدينيَّ البشريَّ لا يقوِّضُ الإنجيل المسيحيَّ للخلاص بالمسيح وحده.

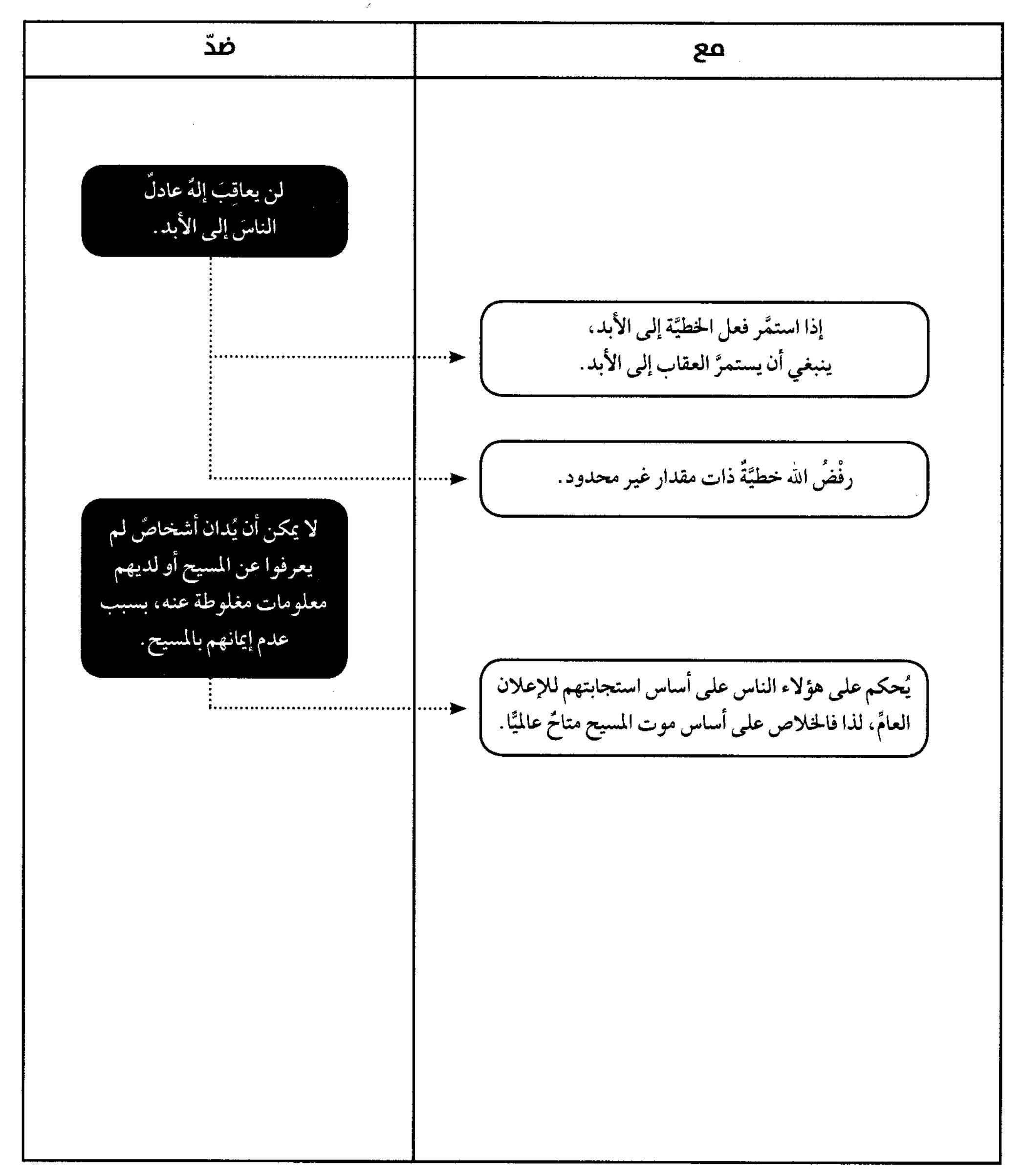
في الحقيقة، لأولئك المسيحيِّين بيننا، أعتقد أنَّ ما قلتُه يساعدُ في وضع المنظور الصحيح عن الإرساليَّات المسيحيَّة: فمن واجبنا، نحن المسيحيِّين، المناداة بالإنجيل إلى العالم أجمع، واثقين بأنَّ الله رتَّب الأمور بتدبيره أنَّ الخبرَ السارَّ سيصل بواسطتنا إلى أشخاصٍ كان الله يعلم أنَّهم سيقبلونها متى سمعوها. ويُعبَّر عن تعاطفنا من نحو أولئك الذين في ديانات العالم الأخرى، لا بالتظاهر بأنَّهم ليسوا ضالِّين دون المسيح، بل بالدعم وبذل كلِّ جهدٍ بأنفسنا للتواصل معهم وتوصيل رسالة المسيح المُحيِيَة إليهم.

ورجائي هو أن تساعدك المادَّة الموجودة في هذا الكتاب أن تصيرَ أكثر فاعليَّة في التواصل بالإنجيل إلى عالمٍ ضالٍّ يُحتَضَر. راجع المادَّة الموجودة في هذا الكتاب، واحفظ مقدِّمات الحُجج، وناقش الأمور مع أصدقاء مسيحيِّين. وحين تحين الفرصة، شارك الأمر مع آخرين حين تجد نفسك مدعُوًّا لتعطي إجابةً عن سبب الرجاء الذي فيك.

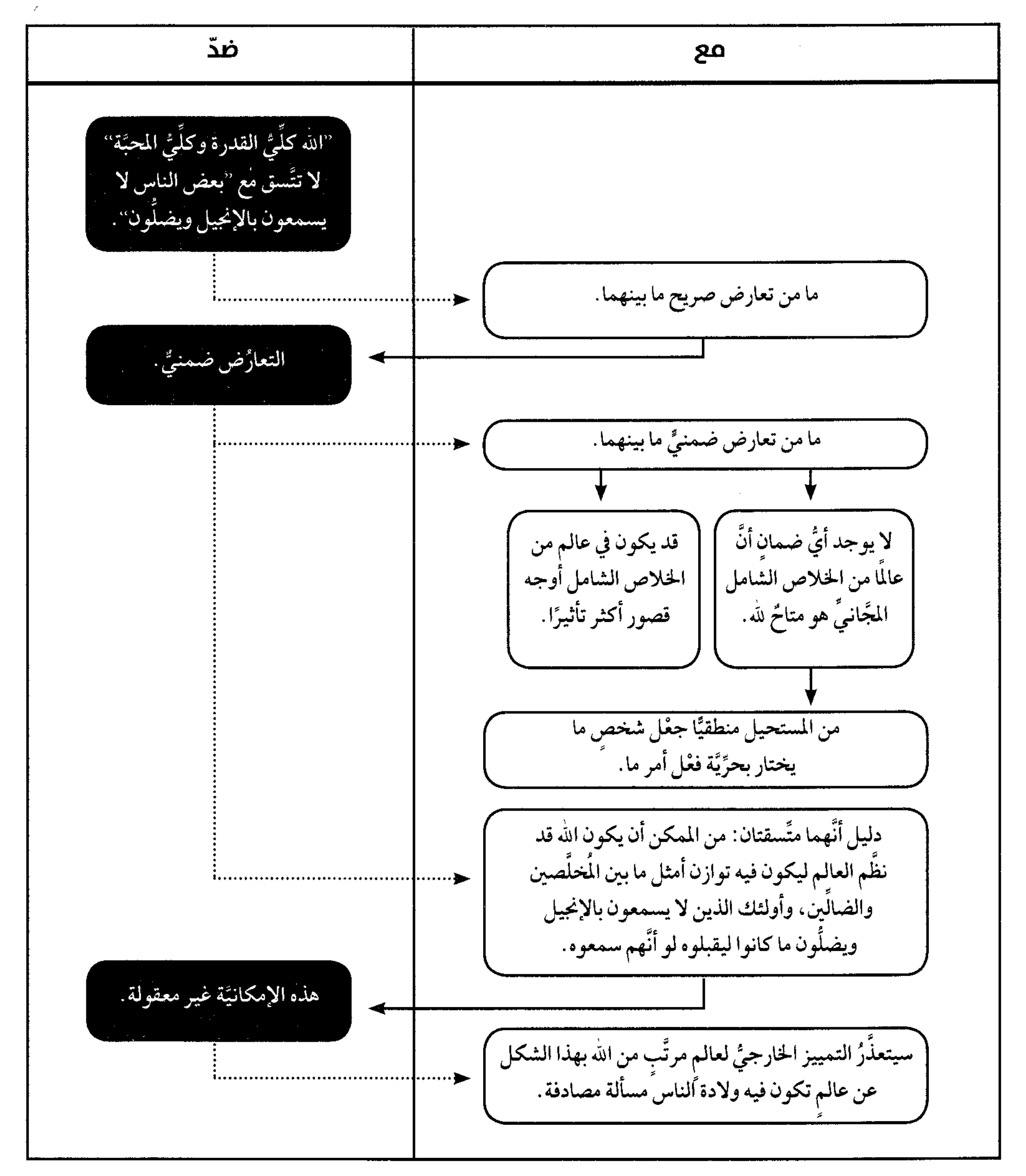
الاعتراض على التعدُّديَّة الدينيَّة



الاعتراض على التعدُّديَّة الدينيَّة



الاعتراض على التعدُّديَّة الدينيَّة



الملاحظات

الفصل الثاني: ما أهمّيّة أن يكونَ اللهُ موجودًا؟

1. Richard Wurmbrand, Tortured for Christ (London: Hodder & Stoughton, 1967), 34.
2. Stewart C. Easton, The Western Heritage, 2nd ed. (New York: Holt, Rinehart, & Winston, 1960)

٣. العبارة مقتبسةٌ من:

Lewis Wolpert, Six Impossible Things before Breakfast (New York: W.W. Norton &Co, 2008), 215.

للأسف لم يأخذ وولپيرت العبارة من المصادر الصحيحة، والاقتباس عبارة عن اجتزاء من مصدرَين لدوكينز، أحدهما كتاب يحمل عنوان: River out of Eden: a Darwinian View of Life, New York: Basic Books, 1996, 133, والآخر محاضرة تحت عنوان: Ultraviolet Garden, Lecture 4 of 7 Royal Institution Christmas Lectures, London 1991. الشكر واجب لمساعدتي جو جورا على جهدها في الوصول إلى هذه المصادر.

4. H. G. Wells, The Time Machine (New York: Berkeley, 1975).
5. Friedrich Nietzsche, "The Gay Science," in The Portable Nietzsche, ed. And trans. W. Kaufmann (New York: Viking, 1954), 95.
6. Bertrand Russel, letter to the editor, The Observer, October 6, 1957.
7. Richard Dawkins, The God Delusion (New York: Houghton-Mifflin, 2006), 23, 264, 313-17, 326, 328, 330.
8. Steven Weinberg, The First Three Minutes (London: Andre Deutsch, 1977), 154-155.

الفصل الثالث: ما السبب وراء الوجود؟

1. G. W. F. von Leibniz, "The Principles of Nature and of Grace, Based on Reason," in Leibniz Selections, ed. P. Wiener (New York: Scribners, 1951), 527.

الفصل الرابع: لماذا بدأ الكون؟

١. كتاب الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي، مقتبس في:

S. de Beaurecueil, "Gazzali et S. Thomas d'Aquin: Essai sur la prevue de l'existence de Dieu propose dans l'Iqtisad et sa comparison avec les 'voies' Thomiste," Bulletin de l'institut Fancais d'Archaeologie Orientale 46 (1947): 203.

2. Quentin Smith, Theism, Atheism, and Big Bang Cosmology (Oxford: Clarendon Press, 1993), 135.
3. Alexander Vilenkin, Many Worlds in One (New York: Hill and Wang, 2006), 176.
4. S. W. Hawking, "Information Loss in Black Holes," http://arXiv:hep.th/0507171v2 (September 15, 2005).
5. Daniel Dennett, Breaking the Spell: Religion as a Natural Phenomenon (New York: Viking, 2006), 244.

الفصل الخامس: لماذا يتَّسمُ الكونُ بالضَّبط الدقيق الذي يجعلُه صالحًا للحياة؟

1. Roger Penrose, The Road to Reality (New York: Alfred A. Knopf, 2005) 762-5.
2. Richard Dawkins, The God Delusion (New York: Houghton Mifflin, 2006), 157-8.
3. Quentin Smith, "The Wave Function of a Godless Universe," in Theism, Atheism, and Big Bang Cosmology, by William Lane Craig and Quentin Smith (Oxford: Clarendon Press, 1993), 322.

الفصل السادس: هل يمكننا أن نكونَ صالحين دون الله؟

1. Charles Darwin, The Descent of Man and Selection in Relation to Sex, 2nd edition (New York: D. Appleton & Company, 1909), 100.
2. William Lane Craig and Paul Kurtz, "The Kurtz/Craig Debate," in Goodness without God is Good Enough, ed. Robert Garcia and Nathan King (Lanham, MD: Rowman & Littlefield, 2008), 34.
3. William Lane Craig and Walter Sinnott-Armstrong, God?: A Debate between a Christian and an Atheist (New York: Oxford University Press, 2003), 34.

الفصل السابع: ماذا عن الألم؟

1. Patrick Johnstone, Operation World (Grand Rapids, MI: Zondervan, 1993), 164, 207-8, 214.

٢. المرجع السابق نفسه، ٢٥.

3. Thomas E. Schmidt, Trying to Be Good: A Book on Doing for Thinking People (Grand Rapids, MI: Zondervan, 1990).

فاصلٌ شخصيّ: رحلة إيمانِ فيلسوف

١. للاطّلاع على باقي القصّة، اقرأ الفصل الذي يخصّني في كتاب "أسئلة صعبة، إجاباتٌ حقيقيّة" (Hard Questions, Real Answers, Wheaton, IL: Crossway, 2003).

الفصل الثامن: مَن كان يسوع؟

١. لمسح يمكن قراءته، انظر Richard France, The Evidence for Jesus (London: Hodder & Stoughton, 1986)، وانظر أيضًا Robert E. Van Voorst, Jesus Outside the New Testament (Grand Rapids, MI: Wm. B. Eerdmans, 2000).

2. Luke Timothy Johnson, The Real Jesus (San Francisco: HarperSanFrancisco, 1996).

٣. للمزيد من المناقشة انظر Craig Blomberg, The Historical Reliability of the Gospels (Downers Grove, IL: IVP, 2009) وقد يرغب القرّاء المتقدّمون في الاستفادة من Paul Eddy and Gregory Boyd, The Jesus Legend (Grand Rapids, MI: Baker, 2007)

4. Colin J. Hemer, The Book of Acts in the Setting of Hellenistic History. Edited by Conrad H. Gempf (Tübingen: J.C.B. Mohr, 1989).

5. A. N. Sherwin-White, Roman Society Law in the New Testament (Oxford: Clarendon Press, 1963), 189.

6. William M. Ramsay, The Bearing of Recent Discovery on the Trustworthiness of the New Testament (London: Hodder & Stoughton, 1915), 222.

7. Ahad Ha'am, "Judaism and the Gospels," in Nationalism and the Jewish Ethic, ed. H. Kohn (New York: Schocken Books, 1962), 298.

8. Royce Gordon Gruenler, New Approaches to Jesus and the Gospels (Grand Rapids, MI: Baker, 1982), 46.

9. John P. Meier, A Marginal Jew, vol. 2, Mentor, Message, and Miracles (New York: Doubleday, 1994), 969-70.

الفصل التاسع: هل قام يسوع من الأموات؟

1. John A. T. Robinson, The Human Face of God (Philadelphia: Westminster, 1973), 131.

2. Jacob Kremer, Die Osterevangelien - Geschichten um Geschichte (Stuttgart: Katholisches Bibelwerk, 1977), 49-50.

3. Gary Habermas, "Experience of the Risen Jesus: The Foundational Historical Issue in the Early Proclamation of the Resurrection," Dialog 45 (2006): 292.

4. C. H. Dodd, More New Testament Studies (Manchester: University of Manchester, 1968), 128.
5. Hans Grass, Ostergeschehen und Osterberichte, 4th ed. (Göttingen: Vandenhoeck & Ruprecht, 1974), 80.
6. Gerd Lüdemann, What Really Happened to Jesus?, trans. John Bowden (Louisville, KY: Westminster John Knox Press, 1995), 80.
7. N. T. Wright, Sewanee Theological Review, 41.2, 1998.
8. Krister Stendahl, Paul Among Jews and Gentiles (Philadelphia: Fortress, 1976), 12 - 13.

الفصل العاشر: هل يسوع هو الطريق الوحيد إلى الله؟

1. John Hick, "Jesus and the World Religions,: in The Myth of God Incarnate, ed. John Hick (London: SCM, 1977), 180.

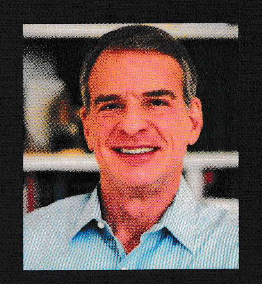
هل تقلق حينَما يطرحُ شخصٌ عليك سؤالًا بشأن إيمانك ولا تستطيعُ الإجابة عنه؟

هل حاولتَ تعلُّمَ كيفيَّة الدِّفاع عن إيمانِك، لكنَّك تهتَ في أمورٍ لاهوتيَّة ولُغةٍ معقَّدة؟

هل تصارعُ مع أوقاتٍ من الشكِّ الروحيِّ؟

مُستعدُّون للمُجاوَبة كتاب تدريبيٌّ موجز للباحث والفيلسوف المشهور وليَم لين كريغ حافلٌ بالرُّسوم الإيضاحيَّة والهوامش والخطواتِ سهلة الحفظ، لتساعدَك على المحافَظة على ثَباتك، والدفاع عن إيمانك بمَنطقٍ ودقَّةٍ، وذلك بأسلوبٍ ممتعٍ يُقدِّمُ فيه د. كريغ مجموعةً من الحُجج تؤيِّد وجود الله، وتدافع عن تاريخيَّة تصريحات يسوع وقيامته، وتتناولُ إشكاليَّة الألم، وتُظهر سببَ فشل النسبيَّة الدينيَّة. كما يشاركُ في استراحاتٍ قصيرةٍ ما بين الفصول قصَّتَه الشخصيَّة، والكيفيَّة التي اتَّخذَ فيها قرارَ اتِّباع دعوة الله.

سيمكِّنُك هذا الكتاب من المُضيِّ قُدُمًا في محادثاتٍ إيمانيَّةٍ متأنِّية، واضعًا في حواراتِك حُججًا قويَّةً وصريحة. وستكتشفُ ليس فقط ما تؤمن به، بل أيضًا السبب من وراء إيمانِكَ به، علاوةً على بَيانِ أنَّ لاستِعدادِكَ للدِّفاع عن الحقِّ قوَّةً في تغيير حياة كثيرين.



وليم لين كريغ

هو أستاذ الفلسفة في كلِّيَّة لاهوت تالبوت (Talbot School of Theology)، وهو مُفكِّرٌ جليل، وأحدُ أكثر المدافعين عن المسيحيَّة تأثيرًا في الحاضر، وله حضورٌ بارزٌ على الإنترنت، لا سيَّما على موقعه الإلكترونيِّ www.ReasonableFaith.org، وعلى موقع يوتيوب (Youtube) حيثُ الكثيرُ من الفيديوهات والمحاضَرات والمناظَرات. له عدَّة مؤلَّفاتٍ من أشهرها كتاب "إيمانٌ منطقيّ" (Reasonable Faith).


ISBN 978-9059-502-31-4
9 789059 502314



www.ophir.com.jo
@ophirpub
ophirpub